الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثاني

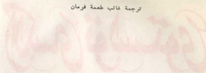
عام ١٩١٨



دار التقدم

موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان



А. Толстой
Хождение по мукам
Трилогия
Книга вторая
ВОСЕМНАДЦАТЫЙ ГОД
На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

$T \frac{70302-1052}{014(01)-75} 593-75$

غرقنا فى الماء ثلاثا ، وسبحنا
بالدم ثلاثا ، وسلقنا بالمحلول
القلوى ثلاثا . فلا انظف منا .

١

انتهى كل شيء . كانت الريح القارسة تسوق قمامة الاوراق فى شوارع بطرسبورغ الخالية الراكنة الى الهدوء – مزقا من الاوامر العسكرية ، واعلانات المسارح ، ونداءات تحث الشعب الروسى الى التمسك «بالضمير والوطنية» . كانت مزق الاوراق الملونة بلطخات عجينة اللصق الجافة عليها تزحف بخشخشة منحوسة دارجة على الأرض مع حلزونيات الثلج المتولدة عن الريح الارضية .

كان ذلك كل ما تبقى من الضجيج الذى كان يعربد مصطخبا فى العاصمة قبل فترة قصيرة من الزمن . فرغت الساحات والشوارع من الحشود الفضولية ، وخلا قصر الشتاء الذى خرقت سطحه قنبلة اطلقها طراد «افرورا» . واختفى فى المجهول اعضاء الحكومة المؤقتة ، واصحاب البنوك الكبار ، والجنرالات المشهورون ... وخلت الشوارع الموحلة الرثة من العربات الرائعة ، والنساء المتانقات ، والضباط والموظفين ورجال المجتمع ذوى الافكار المثيرة . وفى الليالى كانت تتكاثر اصوات المطارق تدق الالواح على ابواب المخازن . ولم تبق الا واجهات قليلة يعرض بعضها قطعة جبنة ، وبعضها كعكة يابسة . الا ان ذلك كان يزيد الشوق للحياة المختفية . كان عابر السبيل يحاذى الجدران وجلاً ينظر بطرف عينه الى الدوريات – الى جماعات من الرجال المصممين السائرين وعلى طاقياتهم نجمة حمراء ، وعلى اكتافهم بنادق متجهة بمواسيرها نحو الارض .

كانت الريح الشمالية ترسل نفحات القرس فى نوافذ البيوت المعتمة ، وترتفع فى مداخل البيوت الخالية مبددة اشباح الترف الزائل . لقد كانت بطرسبورغ رهيبة فى اواخر العام ١٩١٧ .

رهيبة ، غامضة ، متعذرة على الفهم . انتهى كل شىء . وا'لغى ما كان فى الماضى . كان رجل يرتدى قبعة بالية ويحمل دلوا وفرشاة يعبر الشارع الذى كانت تكنسه ريح أرضية ويلصق هنا وهناك المزيد والمزيد من الاعلانات عن المراسيم ، فكانت الملصقات تلوح كالرقع البيض على جدران البيوت العتيقة . ان المراتب والفوارق ورواتب التقاعد وكتافيات الضباط ، الملكية الخاصة ، والحق فى أن تعيش على هواك – كل ذلك قد ا'لغى . انتهى ! ارسل ملصق الاعلانات نظرة غاضبة من تحت قبعته الى زجاج النوافذ ، الى قاطنى البيوت الذين ما يزالون يذرعون الغرف الباردة فى معاطفهم الفرائية واحذيتهم اللبادية قائلين وهم يفركون اصابعهم :

– وماذا بعد ؟ ماذا سيحدث ؟ هلاك روسيا ، نهاية كل شىء . . . الموت !

ولئن اقتربوا من النوافذ كان فى وسعهم أن يروا على خط مائل عربة نقل طويلة تقف قرب مدخل الدارة التى كان يقطنها صاحب الفخامة ، فى الموضع الذى كان يقف فيه شرطى حارس فى هيئة استعداد ينظر الى الواجهة الرمادية بطرف عينه ، ويروا رجالا مسلحين يخرجون اثاثا وابسطة ولوحات من الباب المفتوح على مصراعيه . وفوق المدخل يرفرف علم أحمر ، وهنا ايضا يحوم صاحب الفخامة نفسه بسبلتيه الشبيهتين بسبلتى الجنرال سكوبليف ، مرتديا معطفا خفيفا ، وراسه الأشيب يهتز . انهم ينقلونه ! والى أين فى شدة القر هذه ؟ الى حيث القت . . . بينما كان صاحب الفخامة هذا درعا حصينا فى جهاز الدولة !

ويهبط الليل . ظلام دامس لا مصباح فى شارع ، ولا ضوء فى النوافذ . لا يوجد فحم . ويقولون ان سمولنى • غارق فى الضوء ، وفى مناطق المعامل يوجد ضوء ايضا . والزوبعة الثلجية تعربد فوق

• مقر هيئة اركان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى ١٩١٧ ثم مقر الحكومة السوفييتية الاولى . ــ **المترجم** .

المدينة المعذبة المثقبة بالرصاص وتصفر فى ثقوب السطوح منذرة بالويل . وتئز طلقات فى الظلام . فمن يطلق النار ، وعلى من ، ولأى شىء ؟ هل الطلقات هناك حيث يومض الوهج ، ويلون غمائم الثلج ؟ حيث مستودعات النبيذ تحترق . . . والناس يجرعون النبيذ من البراميل المحطمة فى الاقبية . . . عليهم اللعنة ، عسى أن يحترقوا احيـاء !

ايها الروس ، الروس !

كان الروس يعودون بالملايين محشورين فى قطارات لا نهاية لها ، قادمين من الجبهة الى بيوتهم فى القرى ، والسهوب ، والمستنقعات ، والغابات . . . الى اراضيهم ، الى نسائهم . كانوا يقفون مضغوطين لا يستطيعون حراكا فى العربات المحطمة النوافذ المكتظة الى اقصى حد ، حتى ليستحيل أن يُخرج ميت من الزحام ، ويُقذف من النافذة . كانوا يسافرون راكبين على العوارض الحديدية المخففة للصدمات ، وعلى سطوح العربات . كانوا يتجمدون بردا ، ويموتون تحت العجلات ، ويشدخون رؤوسهم فى المسافات الضيقة بين العربات وهياكل الجسور . وكانوا يحملون فى صناديق صغيرة وفى صرر كل ما وقع تحت ايديهم من اشياء لان كل شىء ينفع : رشاشة ، ترباس مدفع ، سقط متاع ا'خذ من ميت ، قنابل يدوية ، بنادق ، حاك ، جلد قطع من مقعد فى عربة قطار . والشىء الوحيد الذى لم يجلبوه ، هو النقود . فان هذه الاوراق غير النافعة لا تستطيع حتى ان تلف بها سيكارة .

كانت القطارات تدب بطيئة فى سهول روسيا ، وتتوقف لتلتقط انفاسها فى محطات محطمة النوافذ مخلوعة الابواب . وكانت القطارات تستقبل كل محطة بوابل من السباب . كان الجنود بمعاطفهم الرمادية يقفزون من سطوح العربات ، ويقلقلون بترابيس بنادقهم ، وينطلقون ليبحثوا عن ناظر المحطة ليقضوا فى الحال على ذيل البرجوازية العالمية هذا قائلين «اعطنا قاطرة ! . . هل سئمت من الحياة ، يا ابن كذا وكيت ، يا ابن الكلب ؟ دع القطار يخرج ! . .» ويهرولون نحو قاطرة فى الرمق الأخير هرب منها سائقها ووقادها الى السهب . «اعطونا فحما ! خشبا ! اكسروا الاسيجة ، حطموا الابواب ، والنوافذ !» .

قبل ثلاثة اعوام كانوا لا يسالون كثيرا : من نحارب ، ولأى شيء . كأن السماء انشقت ، والأرض زُلزلت : تعبئة وحرب ! وادرك الناس أن زمن الاحداث المريعة قد اقترب . انتهى نمط الحياة القديم . والسلاح فى اليد . ولن يعودوا الى ما كانوا عليه . مهما يكن من شيء . فقد تراكمت مظالم كثيرة على مر القرون .

وفى ثلاث سنوات من الحرب عرفوا ما هى الحرب . رشاشة من أمام ، ورشاشة من خلف . وأنت منبطح فى الروث ، بين القمل الى أن تحين منيتك . ثم سرت الرعدة فى الاجساد ، والزغللة فى العيون . انها الثورة ! . . افاق الناس على أنفسهم . ونحن ما مصيرنا ؟ هل سيخدعوننا من جديد ؟ واستمعوا الى الدعاة : اذن ، كنا اغرارا من قبل ، والآن يجب أن نكون عقلاء . . . حاربنا ما فيه الكفاية ، فلنعد الآن الى بيوتنا لتصفية الحساب . الآن نعرف اى كرش سنبقر بحربتنا . لا قيصر الآن ولا اله . لا أحد غيرنا . فلنعد الى بيوتنا ، ولنقسم الأرض !

ومرت القطارات العسكرية كالمحراث فى السهول الروسية مخلفة وراءها المحطات وقطارات السكك الحديدية المحطمة ، والمدن الرثة . ومن القرى والضياع كان ينبعث صريف واحتكاك معدن بمعدن ، حيث كانت ماسورات البنادق تقطع بالمبارد . ان الروس قد استقروا فى الأرض جديا . وعادت الشعل تضىء الاكواخ كما فى الازمنة السحيقة ، والنساء يلففن الغزول على مناول جدات الجدات . وبدا وكأن الزمن قد ارتد الى القرون الخوالى . كان ذلك شتاء ، حين بدأت الثورة الثانية ، ثورة اكتوبر . . .

ان بطرسبورغ الجائعة المنهوبة بالقرى ، المباحة للريح القطبية ، المطوقة بجبهة معادية ، المهزوزة بالمؤامرات ، الفقيرة الى الفحم والخبز ، مدينة المصانع المنطفئة المداخن ، الشبيهة بدماغ انسان مكشوف كانت فى ذلك الحين تذيع على موجات محطتها الاذاعية المسماة «تسارسكويه سيلو» افكارا جنونية متفجرة .

صاح شاب نحيل من على القاعدة الغرانيتية للتمثال ، وكان يلبس قبعة فنلندية أدار مقدمتها نحو مؤخر راسه :

— ايها الرفاق ، ايها الرفاق الهاربون من الجيش ، لقد ادرتم

ظهوركم الى الامبرياليين الحقراء . . . ونحن عمال بطرسبورغ نقول لكم : اصبتم فيما فعلتم ، يا رفاق . . . نحن لا نريد ان نكون مرتزقة البرجوازية الدموية . فلتسقط الحرب الامبريالية !

— تسقط ، تسقط ، تسقط . . .

سرى ذلك بتوان بين جمع الجنود الملتحين . كانوا يقفون امام تمثال الامبراطور الكسندر الثالث تعابا مثقلين يحملون البنادق وصرر المتاع على اكتافهم . كانت طبقة من الثلج تغطى تمثال القيصر الاسود الضخم الذى كان بوز حصانه القصير يتدلى فوق الخطيب ذى المعطف الخفيف المفتوح .

— ايها الرفاق . . . ولكن يجب الا نلقى البنادق ! ان الثورة فى خطر . والعدو ينهض ضدنا من اطراف الدنيا الاربعة . . . وفى يديه المفترستين اكوام من الذهب وسلاح فتاك رهيب . . . وهو يهتز الآن فرحا ، اذ يرانا نشرق بالدم . . . ولكننا لن نفزع . . . ان سلاحنا هو ايمان ملتهب فى الثورة الاجتماعية العالمية . . . انها ستحدث ، وعن قريب . . .

وحملت الريح نهاية العبارة . توقف عند التمثال رجل واسع المنكبين مرفوع الياقة ليقضى حاجة صغيرة . والظاهر انه لم يلحظ التمثال ولا الخطيب ولا الجنود حملة الصرر . الا ان عبارة معينة قد اثارت انتباهه فجأة ، أو ربما ليست العبارة بحد ذاتها ، بل تلك الثقة الهائجة التى قيلت بها من تحت بوز الحصان البرونزى :

— . . . ولتكونوا على علم . . . اننا بعد نصف عام من الزمن سنقضى على أفظع شر ، على النقود . . . ولن تكون هناك مجاعة ، ولا فقر ، ولا ذلة . . . خذ قدر حاجتك من المستودع العام . . . يا رفاق ، وسنبنى بالذهب مرافق عامة . . .

ولكن ريحا ثلجية هبت فى تلك اللحظة ، ونفذت عميقا فى حلق الخطيب ، فبدأ يسعل منحنيا بضيق خانق ، غير قادر على أن يتخلص من سعاله . وبدا وكأن رئتيه ستنفجران . تريث الجنود برهة ، واهتزت قبعاتهم العالية ، وانصرفوا . بعضهم الى المحطة ، والبعض الآخر عبر المدينة الى ما وراء النهر . نزل الخطيب من القاعدة ، ساحبا اظافره على غرانيتها المتجمد . ناداه الرجل ذو الياقة المرفوعة بصوت خافت :

– روبليف ، مرحبا .

زرر فاسيلى روبليف معطفه الخفيف وهو ما يزال يسعل . ونظر الى ايفان ايليتش تليغين نظرة جفاء دون ان يمد له يده .

– ماذا ؟ ما حاجتك ؟

– أنا مسرور بلقياك . . .

– هؤلاء الملاعين ، غلاظ العقول . . .

قال روبليف وهو ينظر الى معالم محطة القطار غير الواضحة بسبب تساقط الثلج ، حيث ما زال اولئك الجنود الملتحون الموبوءون بالقمل يتجمهرون جماعات وعند اقدامهم صررهم . واردف قائلا :

– هل من المعقول أن تحرك ادمغتهم ؟ انهم يولون من الجبهة كالصراصير . خفاف العقول . . . الارهاب ضرورى معهم . . .

وقبضت يده المتجمدة على الريح الثلجية . . . وضربت بقبضتها شيئا غير منظور فى تلك الريح . ثم تدلت وسرت رعدة برد فى اوصاله . . .

– روبليف ، يا عزيزى ، انت تعرفنى جيدا (وانزل تليغين ياقته ، وانحنى نحو وجه روبليف الترابى اللون) . . .اشرح لى الأمر ، بحق الرب . . . نحن نضع رقابنا فى الانشوطة . . . يستطيع الالمان ، اذا شاءوا ، أن يكونوا فى بتروغراد* فى غضون اسبوع . . . افهمنى . أنا لم اهتم بالسياسة فى يوم من الايام . . .

– ماذا تعنى بانك لم تهتم بالسياسة ؟ – سال روبليف وتحول الى ايفان ايليتش بحركة هوجاء وقد تجهم وجهه – بم اهتممت اذن ؟ والآن اتعرف من الذى لا يهتم ؟ – وتفرس فى عينى ايفان ايليتش بجنون – الحيادى . . . عدو الشعب .

– لهذا السبب بالذات اردت ان اتحدث معك . . . فتحدث كما يتحدث الناس .

وغضب ايفان ايليتش ايضا . زفر روبليف الهواء بعمق من خلال انفه .

---

* الاسم الذى اطلق على بطرسبورغ من ١٩١٤ حتى ١٩٢٤ . – المترجم .

– انت غريب الاطوار ، يا رفيق تليغين . ليس لى الوقت لاتحدث معك . هل تستطيع ان تفهم ذلك ؟

– اسمع ، يا روبليف ، أنا الآن فى حالتى النفسية هذه . . . هل سمعت بان كورنيلوف يثير منطقة الدون ؟

– سمعنا .

– اما أن اخرج الى الدون . . . واما أن ابقى معكم . . .

– ولماذا : «اما» هذه ؟

– هكذا ، يجب ان أومن بشىء . . . أنت الى جانب الثورة ، وانا الى جانب روسيا . . . وربما أنا ايضا الى جانب الثورة . أنا ، اذا كنت تعلم ، ضابط مقاتل . . .

انطفأ الحنق فى عينى روبليف السوداوين ، ولم يبق فيهما غير الارهاق المسهد . قال :

– حسنا . تعال غدا الى سمولنى ، وسل عنى . . . روسيا – وهز رأسه مبتسما بتهكم – ان روسياك هذه تجعل المرء يتميز غضبا . . . تملأ العين دما . . . ومع ذلك فاننا جميعا نموت فى سبيلها . . . اذهب الآن الى محطة البلطيق وستجد ما يقرب من ثلاثة آلاف هارب من الجيش يقضون اسبوعهم الثالث منطرحين على الأرض . . . اجتمع بهم وحرضهم على الوقوف الى جانب السوفييتات . . . قل لهم : ان بتروغراد بحاجة الى الخبز ، ونحن بحاجة الى مقاتلين . . . (وجفت عيناه من جديد) قل لهم : اذا كنتم ستنبطحون على سطوح مواقدكم البيتية كسالى فانكم ستهلكون ، مثل الجراء ، وستجربون بجلدكم ما هى الثورة . . . دق هذه الكلمات فى رؤوسهم ! . . لا احد يستطيع الآن ان ينقذ روسيا ، وان ينقذ الثورة غير السلطة السوفييتية . . . فهمت ؟ لا شىء فى العالم الآن أهم من ثورتنا . . .

ارتقى تليغين السلم المتجمد فى الظلام الى شقته فى الطابق الخامس . تلمس الباب فى الظلمة ، وطرق ثلاث طرقات ، وطرقة منفردة . سمع وقع اقدام فى الداخل تقترب من الباب . وبعد برهة من الصمت سال صوت زوجته الخافت :

– من ؟
انا ، انا . . . داشا .
وسمع تليغين زفرات خلف الباب . صلصلت سلسلة وظل القفل مستعصيا عن الدوران وقتا طويلا . وكان يسمع همس داشا : «آه ، يا ربى ، يا ربى» . واخيرا افلحت فى فتح الباب . وحالما فعلت ذلك غابت فى ظلمة الممر لتجلس فى مكان ما .
احكم تليغين اغلاق الباب بكل الاقفال والزلاليج . وخلع الكالوش . وتلمس جيوبه بحثا عن الكبريت . اللعنة . لا يوجد كبريت . مد ذراعيه الى الامام دون ان يخلو معطفه وقبعته ، واتجه الى حيث غابت داشا . قال :
– استهتار . بلا ضوء مرة اخرى . داشا ، اين انت ؟
اجابت من غرفة المكتب بصوت خافت بعد برهة من الصمت :
– اشتعل قليلا ، ثم انطفأ .
دخل تليغين غرفة المكتب ، وكانت ادفأ غرفة فى الشقة كلها ، الا انها هى الأخرى كانت باردة اليوم . امعن النظر ولكنه لم يتبين شيئا ، بل ولم يسمع انفاس داشا . وكان جائعا جدا ، ويود بشكل خاص ان يحتسى شايا . الا انه احس بأن داشا لم تعد شيئا .
انزل ياقة معطفه ، وجلس على الكرسى قرب الاريكة ووجهه الى النافذة . كان ضوء اغبش يرود الظلام الثلجى . وكان ضوء كشاف يحوم فى السماء طالعا من كرونشتادت او من مكان قريب منها .
وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : «لطيف لو اشعل الموقد الآن . ولكن كيف أسال داشا عن مكان علبة الثقاب دون ان ازعجها ؟»
غير انه لم يحزم امره . ود لو يعرف ماذا تفعل الآن : تبكى ام تهوم نعسى ؟ كان الهدوء شاملا . خيم سكون الصحراء على البيت ذى الطوابق الخمسة كله . لا شىء غير صدى خفيف لطلقات نادرة تطلق فى مكان ما . وفجأة احمرت مصابيح الثريا الستة قليلا ، وتنورت الغرفة بضوء احمر خافت . كانت داشا جالسة الى المكتب واضعة معطفها الفرائى على ما عليها من ثياب ،

وقد مدت الى امام ساقا واحدة فى حذاء لبادى . كان رأسها مستقرا على المكتب ، وخدها على نشافة ورق . الوجه نحيل معذب ، والعين مفتوحة . ابقتها مفتوحة وهى جالسة تلك الجلسة غير المريحة وغير الطبيعية ، حسب ما اتفق . . .
– عزيزتى داشا ، لا يجوز ذلك ، على اى حال .
قال تليغين بصوت كامد . فقد اشفق عليها اشفاقا لا يطاق ابدا . جاء الى المكتب . الا ان الخيوط الحمراء فى المصابيح ارتعشت وانطفأت . لم يستمر الضوء غير بضع ثوان .
توقف وراء داشا ، وانحنى عليها ممسكا انفاسه . لا اسهل من ان يمسد شعرها صامتا ، على الأقل . الا انها كالجثة لم تبد استجابة لاقترابه منها .
– داشا ، لا تعذبى نفسك بهذا الشكل . . .
قبل شهر ولدت داشا طفلا توفى فى اليوم الثالث من ميلاده . كانت الولادة مبتسرة ، تمت بعد صدمة عصبية فظيعة اصابت داشا حين بوغتت فى الشفق بشخصين ملفوفين بكفنين متطايرين فى الريح فارهين بشكل لاانسانى هجما عليها وهى فى ميدان «مارسوفو بوليه» . وانهما ، بالتاكيد ، من اولئك «القفازين» الذين كانوا يربطون اقدامهم بزنبركات خاصة ، وينشرون الرعب فى بتروغراد كلها فى تلك الاوقات الفريدة . واخذا يكشران اسنانهما لداشا ، ويصفران لها . وعندما سقطت مغشيا عليها انتزعا معطفها من عليها ، ووليا هاربين عبر جسر لبياجى . بقيت داشا فترة من الوقت منطرحة على الأرض . وهطل المطر مدرارا ، وضجت اشجار الزيزفون الجرداء فى حديقة ليتنى ضجيجا موحشا ، وصرخ شخص وراء نهر «فانتانكا» صرخة ممطوطة : «النجدة !» واحست داشا بأن الطفل يرفس فى بطنها ، يريد الخروج الى هذا العالم .
كان يطالب ، فنهضت داشا ، وعبرت جسر ترويتسكى . كانت الريح تضغطها على درابزين الجسر الحديدى ، وثوبها المبلل يلتصق بين ساقيها . وما من ضوء ، ولا عابر سبيل . والنيفا تحتها اسود الماء مضطرب . واحست داشا بعد ان عبرت الجسر بأول نوبة من الألم . وادركت انها لن تستطيع بلوغ البيت ، فأرادت فقط ان تصل الى شجرة ، وتحتمى من الريح . وفى شارع كراسنيه زورى اوقفها

جندى من جنود الدورية . امسك بندقيته ، وانحنى على وجهها الشاحب شحوب الموت .

– خلعوا ثيابك ، الاوغاد ! أوه ، وانت حبلى .

واوصل داشا الى دارها ، وسحبها الى الطابق الخامس . طرق الباب باخمص بندقيته ، وحين أطل تليغين براسه صاح به :

– أليس جميلا أن تترك زوجتك ليلا فى الشارع لوحدها وهى على وشك ان تضع ؟ ايها البرجوازى اللعين ، العديم التدبير . . .

وبدأ المخاض فى نفس الليلة . جاءت الى الشقة قابلة ثرثارة . واستمرت آلام المخاض اربعا وعشرين ساعة . وخرج الوليد حبيس الانفاس بسبب ما ابتلع من ماء . طبطبت القابلة عليه ، ودلكته ، ونفخت فى فمه . فتلوى وجهه وانشأ يولول . ولم تيأس القابلة رغم أن الوليد اخذ يسعل . وظل يولول متشكيا كالقطيطة ، ولم يرضع ثدى امه . ثم كف عن الولولة ، وبقى ينط فقط . وفى صباح اليوم الثالث مدت داشا ذراعها الى المهد ، ثم سحبتها حين مست جسده البارد . رفعته بسرعة ، وفكت لفائفه . كان شعره الخفيف الفاتح اللون يقف منتصبا على جمجمته العالية .

ارسلت داشا صرخة وحشية . وقفزت من الفراش الى النافذة لتكسرها ، وتقذف نفسها منها ، وتنهى حياتها . . . وراحت تكرر : «غدرت به ، غدرت به . . . لا اطيق ، لا اطيق !» . ووجد تليغين صعوبة كبيرة فى تهدئتها وارقادها . واخرج الميت الصغير . قالت داشا لزوجها :

– جاءه الموت حين كنت نائمة . تصور أن شعره قد وقف على راسه . . . تعذب لوحده . . وأنا كنت نائمة . . .

ولم يستطع شىء أن يبعد عن خيالها رؤيا مصارعة الطفل وحده للموت .

– حسنا ، يا ايفان . ساكف عن ذلك .

اجابت بذلك تخلصا من سماع صوت زوجها الرصين ، ورؤية وجهه المعافى المورد و «المستبشر» رغم كل حرمان .

كانت عافية تليغين الطافحة تمكنه من أن يضرب فى المدينة بكالوش رث من الفجر الى ساعة متأخرة من الليل بحثا عن عمل

مساعد ، وعن طعام ، وحطب ، وغير ذلك . وكان يهرع عدة مرات الى البيت ، مظهرا قدرا غير اعتيادى من العناية والاهتمام .

الا ان هذه العناية الناعمة بالذات هى ابعد ما تحتاجها داشا فى اللحظة الراهنة . كلما أسرف ايفان ايليتش فى اظهار فعالية عملية ازداد ابتعاد داشا عنه بشدة . كانت تقضى النهار بكامله جالسة فى الغرفة الباردة . واذا المت بها سنة من نوم ، فذلك شىء رائع . عند ذاك ستغفو ، وتمرر يدها على عينيها ، وتحس بشىء من الارتياح . فتذهب الى المطبخ متذكرة أن ايفان ايليتش طلب اليها ان تصنع شيئا ما . الا انها لم تستطع ان تقوم حتى باهون الاعمال . وكان مطر اواخر الخريف يدق زجاج النوافذ ، وتصخب الريح فوق بطرسبورغ . وفى هذا البرد يرقد جسد طفلها الميت الذى لم يكن قادرا حتى على الشكوى ، يرقد فى مقبرة عند ساحل البحر . . .

ادرك ايفان ايليتش أنها مريضة نفسيا . كان انطفاء الكهرباء كافيا لأن يجعلها تنزوى على كرسى فى احد الاركان ، وتغطى راسها بلفاح ، وتغيب فى كآبة يائسة . بينما كان على الانسان ان يعيش ، ان يعيش . . . كتب عنها الى اختها يكاترينا دميترييفنا فى موسكو ، الا أن الرسائل لم تصل . ولم تجب كاتيا ،أم لعلها هى الأخرى قد اصيبت بمكروه . لقد كانت الاوقات صعبة .

وقعت قدم ايفان ايليتش على علبة الكبريت بينما كان يراوح وراء ظهر داشا . وعرف على الفور : حين كانت الكهرباء تنطفىء كانت داشا تصارع الظلام والوحشة مكتفية باشعال عود ثقاب من حين الى آخر . قال ايفان ايليتش لنفسه : «يا ويحى ، وهى وحيدة طوال النهار» .

رفع العلبة بحذر ، ووجد فيها بضعة اعواد . جلب من المطبخ عيدان الحطب التى نشرها صباحا بعناية من بقايا صوان قديم . وقرفص فى غرفة المكتب ، واخذ يوقد النار فى الموقد الحديدى الصغير المرصوف بالآجر ذى المدخنة الحديدية الممتدة بعاكس عبر الغرفة كلها . ونشر دخان الخشب المشتعل رائحة مريحة ، وهبت نفحة ريح فى شقوق باب الموقد . وانعكست على سقف الغرفة دائرة من الضوء الرجراج .

ان هذه المواقد المصنوعة بيتيا اشتهرت فيما بعد باسم «النحلة» . وأدت خدمات كثيرة للبشرية طوال فترة الشيوعية العسكرية . وهى حديدية ذات اربع ارجل ، ومنها البسيطة ذات عين طبخ واحدة او المعقدة ذات فرن داخلى يمكن أن تشوى فيه المعجنات من رواسب القهوة ، بل وحتى الفطائر المحشوة بالسمك المجفف ، او المترفة منها المرصوفة بالصفائح المنزوعة من المصطليات . فقد كانت تستخدم للتدفئة والطبخ والخبز وترنيم اغانى النار العريقة مصحوبة بعويل العاصفة الثلجية .

وكان الناس يجتمعون حول جمراتها مثلما كان القدامى يجتمعون حول كانون النار فى الازمنة الغابرة ، يدفئون ايديهم المتثلجة منتظرين تراقص الغطاء على السخان متجاذبين اطراف احاديث لم يسجلها احد مع الاسف . وكان الاساتذة بلحاهم الكثيفة والاحذية اللبادية فى أرجلهم ، واللفاحات على اكتافهم يقربون كراسيهم الكسيحة منها ، ويكتبون كتبا مدهشة . وكان الشعراء الضاوون من الجوع ينظمون القصائد عن الحب والثورة . وكان المتآمرون المتحلقون المتقاربو الرؤوس يتهامسون باخبار يفوق احدها سابقه بالاغراب فى الخيال . وكان الكثير من الاثاث الممتاز الأثرى يحرق متحولا الى دخان يتطاير من خلال المداخن الحديدية فى تلك السنوات .

كان ايفان ايليتش يحب موقده كثيرا . وقد ملط شقوقه بالطين ، وعلق علب التنك تحت مدخنته لكيلا يتساقط السخام على الأرض . حين غلى السخان أخرج كيس ورق ، ونثر سكرا ناعما فى قدح وزاد منه ليحلو اكثر . واخرج من الجيب الآخر ليمونة وقعت فى يديه اليوم باعجوبة (بادلها بقفازين عند احد مشوهى الحرب فى جادة نيفسكى) واعد شايا حلوا بالليمون ، ووضعه امام داشا .

— داشينكا* ، هذا بالليمون . . . والآن ساوقد المسرجة .

كانت هذه المسرجة عبارة عن علبة حديدية ، معبأة بزيت عباد الشمس تطوف فيها فتيلة . جلب ايفان ايليتش المسرجة . وتنورت الغرفة بضوء باهت .

* صيغة تدليل من اسم داشا (الاسم الكامل داريا) . — **المترجم** .

كانت داشا تجلس الآن فى كرسيها فى وضع طبيعى تحتسى الشاى . جلس تليغين على مقربة منها شديد الرضى .

— اتدرين بمن التقيت ؟ بفاسيلى روبليف . هل تذكرين روبليف الاب وروبليف الابن ؟ كانا يشتغلان فى ورشتى . كانت بيننا صحبة كبيرة . الاب ذو العين النافذة . قدم فى الريف ، وقدم فى المصنع . رجل مدهش ! اما فاسيلى الذى كان بلشفيا حتى فى ذلك الحين فهو فتى ذكى ، محنق كالشيطان نفسه . كان أول من اخرج عمال مصنعنا الى الشارع فى شباط . وكان يتسلق الى عليات البيوت باحثا عن رجال الشرطة . ويقولون انه قتل لوحده خمسة او ستة رجال منهم . . . وبعد انقلاب اكتوبر صار من ذوى النفوذ . جرى حديث بينى وبينه . . . هل تسمعيننى يا داشا ؟

قالت : انا سامعة . ووضعت القدح الفارغ ، واسندت خدها على يدها المضمومة النحيلة ، وحدقت فى اللهب المتطاير من المسرجة . . . كانت عيناها الرماديتان تنمان عن عدم اكتراث لكل ما فى العالم ، وكان وجهها ناصلا ، وبشرتها الرقيقة شفافة ، وانفها الصغير الذى كان من قبل انوفا بل ونزقا يبدو مدببا الآن .

قالت لتبدى شكرها على الشاى بالليمون على الارجح :

— ايفان . كنت ابحث عن علبة ثقاب فوجدت علبة سيكائر وراء الكتب . اذا كنت تريد . . .

— سيكائر ! انها من سيكائرى القديمة المفضلة ، يا داشينكا .

واظهر ايفان ايليتش فرحا مبالغا به ، رغم أن هذه العلبة قد خباها بنفسه لوقت الشدة . اشعل سيكارة ، ونظر من طرف عينه الى بروفيل داشا الخالى من الحياة . وحدثته نفسه : «ابعدها عن هنا ، الى منطقة دافئة ، الى الشمس» .

— لنعد الى كلامنا . تحدثت مع فاسيلى روبليف فساعدنى كثيرا ، يا داشا . . . لا اعتقد أن هؤلاء البلاشفة سيختفون فجأة . وجوهر الأمر كله فى امثال روبليف . هل تفهمين ؟ حقا ان احدا لم ينتخب البلاشفة . وسلطتهم معلقة بشعرة ، وهى منحصرة فى بتروغراد وموسكو وبعض مراكز المحافظات . . . ولكن السر كله يكمن فى نوعية السلطة . . . ان لهذه السلطة صلة الرحم بامثال

فاسيلي روبليف . . .وهم ليسوا كثارا فى بلادنا . الا أن لهم ايمانا . قد تمزقه السباع والنمور ، وقد يحرق حيا ، ولكنه سيظل ينشد النشيد الأممى متهللا . . .

ظلت داشا على صمتها . حرك ايفان ايليتش الحطب فى الموقد . وقال وهو مقرفص أمام بابه :

— اتفهمين ما أرمى اليه فى كلامى ؟ . . . يجب أن اميل الى هذا الجانب او ذاك . ليس من اللائق ان اقعد وانتظر حتى تستقر الأمور على حال من الاحوال . . . ومن العار ان اجلس على قارعة الطريق أستجدى . انا رجل معافى ، ولست مخربا . . . ويداى مشوقتان الى عمل شىء ما ، اذا أردت الحقيقة . . .

تنهدت داشا . وانطبق جفناها ، وتحدرت قطرات من الدمع من تحت اهدابها . واستنشق ايفان ايليتش الهواء من منخريه .

— من الطبيعى أن علينا أن نبت بأمرك قبل كل شىء ، يا داشا . . . ينبغى ان تلملمى شتات قوتك وتنتعشى . فان الطريقة التى تعيشين بها هى الانطفاء بعينه .

ولم يضبط نفسه ، فشدد على كلمة «انطفاء» بغيظ . وعندئذ تكلمت داشا بصوت طفولى شاك :

— وهل أنا ملومة لأنى لم أمت آنذاك ؟ والآن اعيقك عن الحياة . . . أنت الذى جلبت لى الليمونة . . .أنا لا اطلب منك . . .

راح ايفان ايليتش يذرع الغرفة محدثا نفسه : «تلك هى نتيجة الحديث معها !» ونقر باظافره على زجاج النافذة الذى اكتسى بطبقة من البخار . كان الثلج يدوم فى الخارج ، والزوبعة الثلجية تعول ، والريح الضارية تنطلق بسرعة شديدة ، وكأنها تستبق الزمن نفسه ، وتنفذ الى الازمان المقبلة لتعلن عن احداث غير اعتيادية . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : «هل ارسلها الى خارج البلاد ؟ ام الى ابيها فى سامارا ؟ ما أعقد تنفيذ ذلك . . . ومع ذلك من المستحيل الاستمرار على هذا النمط من الحياة . . .»

اخذت يكاترينا دميتريفنا ، اخت داشا ، زوجها فاديم بتروفيتش روتشين الى ابيها فى سامارا ، حيث كان من الممكن ان يعيشا بهدوء ، حتى الربيع ، دون يتلفا اعصابهما على كل كسرة

خبز . ان سلطة البلاشفة ستنتهى ، لا محالة ، مع اقبال الربيع . بل ان الدكتور دميترى ستيبانوفيتش بولافين حدد مواعيد دقيقة وهى : ما بين ذوبان الثلج وبدء اوحال الربيع سيشن الالمان هجوما على طول الجبهة ، حيث كانت فلول الجيوش الروسية منشغلة بالاجتماعات والخطابات ، ولجان الجنود تجاهد ، وسط الفوضى والخيانة والهروب من الوحدات ، لايجاد اشكال جديدة للانضباط الثورى .

ان دميترى ستيبانوفيتش قد شاخ خلال الاعوام الأخيرة ، وعاش حياة محدودة ، وازدادت احاديثه عن السياسة . وقد أنشرح للغاية بمجىء ابنته ، وانخرط فورا فى تحويل تفكير روتشين السياسى . فكانا يجلسان ساعات طوالا فى غرفة الطعام حول السماور (الآلة الضخمة المجعدة السطح الذى سكب من بطنه بحيرة كاملة من الماء الفائر وحنكته الشيخوخة ، فما ان تلقى فيه فحما حتى ينشأ يغنى اغانى السماور الريفية مدة طويلة) . كان دميترى ستيبانوفيتش المهمل الهندام ، المترهل البدين بخصائل شعره الشائبة الجعداء غير المصفوفة يدخن سيكائر كريهة الرائحة ، وسعل محمرا ، ويظل يتكلم بلا انقطاع ...

— بلادنا المسكينة وقعت فى داهية ... لقد خسرنا الحرب ... فلا يغضبك قولى هذا ، يا حضرة المقدم . كان يجب ان يعقد الصلح فى عام ١٩١٥ ... وأن نخضع للالمان ونتعلم على ايديهم . فى هذه الاحوال تعلمنا منهم شيئا ويمكن ان نكون بشرا . أما الآن فقد قُضى الأمر ... والطب عاجز فى مثل هذه الحال ، كما يقولون ... لا حاجة الى هذا الكلام ، أرجوك !.. باى شىء سندافع ؟ بالمذراة الثلاثية الاسنان ؟ فى هذا الصيف سيحتل الالمان كل المنطقة الجنوبية والوسطى من روسيا ، ويحتل اليابانيون سيبيريا ، ويطردون فلاحينا المتوحشين مع مذراتهم الثلاثية الاسنان الى التوندرا ، الى الدائرة القطبية ، ويبدأ النظام والثقافة ، وموقف الاحترام من الفرد ... وستكون عندنا روسلاند ... وذلك يرضينى كل الرضا ...

كان ديمترى ستيبانوفيتش ليبراليا قديما وهو الآن يسخر بتهكم مرير على ما كان «مقدسا» فى الماضى . وحتى بيته انطبع بهذا الطابع من الازدراء النفسى . فالغرف بنوافذها المتربة لم تكن تنظف ، وصورة منديلييف فى غرفة المكتب مبرقعة بنسيج العنكبوت ، والنباتات تذبل فى احواضها ، والكتب والابسطة واللوحات ما زالت فى الصناديق تحت الارائك منذ أن كانت داشا هنا ، لآخر مرة ، فى عام ١٩١٤ .

وحين انتقلت السلطة فى سامارا الى سوفييت النواب ، وامتنعت غالبية الاطباء عن العمل مع «نواب الكلاب وسراطين البحر» عُرض على دميترى ستيبانوفيتش منصب المدير العام لمستشفيات المدينة . وقد قبل المنصب لتقديره بأن الالمان سيدخلون سامارا فى الربيع على أية حال . كانت هناك أزمة فى الادوية ، فكان دميترى ستيبانوفيتش لا يستخدم غير الحقن الشرجية ، ويقول لمساعديه ، وهو ينظر اليهم باستعلاء ساخر من خلال نظارته الانفية المصدوعة : «المعدة بيت الداء . والناس خلال الحرب لم ينظفوا معدهم . نقبوا فى العلل الاصلية لفوضانا الكريمة تجدوها فى المعدة الممتلئة بالاوساخ . اجل ، يا سادة . . . استخدموا الحقن الشرجية مع كل واحد بالتاكيد . . .»

الا أن الاحاديث حول مائدة الشاى كانت ترهق روتشين وتضايقه . لم يبل بعد من الرجة التى سببتها له قنبلة انفجرت بالقرب منه اثناء معركة فى احد شوارع موسكو فى اول تشرين الثانى ، حين كان يقود سرية من طلاب المدارس العسكرية مدافعا عن مشارف بوابة نيكيتسكيه . وكان سابلين فى صف البلاشفة يهاجم من ناحية ساحة ستراستنايا . وكان روتشين يعرف سابلين منذ سنوات التلمذة فى موسكو صبيا ملاكى الوجه ذا عينين زرقاوين تصطبغ وجنتاه بحمرة الخجل . وكان غريبا جدا أن يقارن المرء ذلك الشاب المنحدر من عائلة مثقفين من سكان موسكو القديمة بهذا البلشفى المتحمس ، أو الاشتراكى-الثورى اليسارى – أو سمه ما شئت من الاسماء – بمعطفه الطويل والبندقية يركض مراوغا وراء اشجار الزيزفون فى بولفار تفيرسكوى الذى تغنى به بوشكين ، وحيث كان سابلين الى زمن غير بعيد ، حين

كان طالبا نجيبا ، يتمشى فيه متابطا كتاب نحو . «يا سيد سابلين انت تحارب لتخون روسيا والجيش ، وتفتح الطريق للالمان ، وتطلق الوحش الكاسر ! . . ربما من الممكن أن تعذر المراتب الدنيا ، هذه البهائم الناخرة ، ولكن انت . . .» واصبح روتشين نفسه مبطوحا وراء رشاشة (فى خندق صغير فى زاوية شارع مالايا نيكيتسكايا ، عند حانوت تشيتشكين للالبان) وعندما وثبت قامة سابلين الرشيقة بمعطفه الطويل مرة أخرى من وراء شجرة شقها بالرصاص . انفلتت البندقية من يدى سابلين وقعد على الارض ممسكا فخذه قرب اربيته . وفى تلك اللحظة تقريبا قذفت شظية القبعة من على رأس روتشين . وفقد القدرة على الحركة .

فى الليلة السابعة من القتال فى موسكو خيم ضباب اصفر كثيف . وهدأت لعلعة الرصاص . وظلت تقاتل شراذم منفردة معزولة من طلاب المدارس العسكرية ، والطلاب الآخرين والموظفين . الا ان لجنة الامن العام برئاسة الطبيب فى مستشفى البلدية يدعى رودنيف قد اختفت عن الوجود . وسيطرت على موسكو قوات اللجنة الثورية . وفى اليوم الثانى كان فى وسع المشاهد أن يرى فى شوارع المدينة شبانا فى ملابس مدنية يحملون الصرر وعيونهم تنم عن سوء طوية . كانوا ينسلون الى محطتى كورسك وبريانسك . . . ورغم انهم كانوا يرتدون لفافات الساق العسكرية أو احذية الفرسان الطويلة فان احدا لم يكن يعترضهم .

ولو لم يصب روتشين بتلك الصدمة لرحل هو الآخر . ولكن شللا خفيفا قد ألم به ، ثم عمى (مؤقتا) ، وبعده اعتلالا فى القلب . وكان ينتظر ظهور قوات القيادة العليا بين لحظة واخرى وبدء المدافع من عيار ستة بوصات بقصف الكريملين من تلال فوربيوفو . الا أن الثورة كانت قد بدأت من توها بالتغلغل فى اعماق الجماهير . واقنعت كاتيا زوجها بالسفر ، ونسيان البلاشفة والالمان لفترة من الوقت .

وخضع قاديم بترفيتش . ونزل فى سامارا لا يفارق شقة الطبيب . كان ياكل وينام . ولكن كيف له أن ينسى ! كان يصك فكيه وهو يتصفح كل يوم «انباء سوفييت سامارا» المطبوعة على ورق تغليف . فقد كان كل سطر فيها يلذعه كالسوط .

الانتصارات ، والاستيلاء على عواصم المحافظات بقطاراتها من الذهب .

وكان يجلس قبالته رجل عسكرى ممتلىء الجسم متوسط العمر يضع على كتفيه شريطا ابيض . كانت جمجمته البيضوية جرداء ضخمة مثل حصن للسلطة . وكانت شفتاه الغليظتان تبدوان بارزتين فى وجهه الشحيم الحليق . كان يمضغ بلا توقف محركا عضلتى حاجبيه ، متفرسا فى المشهيات المتنوعة . وكانت الكأس ضائعة فى يده الكبيرة ، والظاهر انه كان متعودا على الاقداح الكبيرة . شرب كأسه دافعا رأسه الى الوراء دفعة قصيرة . وبقيت عيناه الزرقاوان الذكيتان الصغيرتان كعينى دب لا تستقران على احد ، وكأنه كان على احتراس . وكان العسكريون ينحنون نحوه باهتمام خاص . كان هذا الرجل هو دوتوف اتمان اورنبورغ ، بطل قوزاق الاورال ، وقد حل ضيفا منذ وقت قصير .

وعلى مسافة غير بعيدة عنه جلس مسيو جانو السفير الفرنسى بين امرأتين جميلتين احداهما شقراء والاخرى ذات شعر كستنائى ، وكان يرتدى بدلة سهرة رمادية فاتحة وقميصا ناصع البياض . وكان وجهه الصغير ذو الشاربين المهيبين والانف المدبب تنطبع عليه آثار الحياة الفاسقة . كان يلثغ بالراء ويميل تارة الى المفاتن نصف العارية للمرأة ذات الشعر الكستنائى (التى ضربته بزهرة على يده جزاء على ذلك) وتارة الى كتف الشقراء الوردية اللؤلؤية ، فكانت تضحك وكان الفرنسى يدغدغها . وكانت كلتا المرأتين تفهمان الفرنسية شرط التحدث بها ببطء . وكان ظاهرا ان مفاتن النساء قد سلبت عقل جانو المسكين . وكل ذلك لم يعقه اثناء الوقفات القصيرة عن مخاطبة بريكين صاحب الطاحونة الرصين الذى وصل لتوه من اومسك ، او رفع كأسه نخب انجازات دوتوف الباهرة . كان اهتمام مسيو جانو بطحين سيبيريا ولحوم وزبدة اورنبورغ قد اظهر ولاءه الحار نحو حركة البيض . وكان السفير الفرنسى فى اوقات المصاعب التموينية قادرا دائما على ان يعرض للحكومة خمسين قطارا محملة بالطحين وغيره . . . وكانت هناك عقول متشككة تؤكد ان لا ضير من دعوة مسيو جانو الى تقديم

اوراق اعتماده كاملة ، مثلما تفعل اية حكومة معتبرة . . . الا ان الحكومة فضلت طريقة اكثر لباقة : الثقة بالحلفاء .

وكان يجلس الى المائدة اجنبى معتبر آخر هو السنيور بيكولومينى الأسمر السريع النظرات (وكان يؤكد ان ذلك هو لقبه الحقيقى) . وكان يمثل فى شخصه الأمة الايطالية فى شىء من عدم التحديد ، والشعب الايطالى . وكانت بزته الزرقاء القصيرة مزينة بشريط فضى ، وعلى كتفيه كتافيتا جنرال ضخمتان . وقد شكل فى سامارا كتيبة ايطالية خاصة . وقد تساءلت الحكومة بدهشة «اين يجد الايطاليين هنا ؟ الشيطان يعلم !» الا انها قدمت المال . فهو من الحلفاء على اية حال . ولم تكن تعار له اهمية فى الاوساط البرجوازية .

كانت الحكومة متغيبة عن المأدبة ما عدا غير الحزبيين : الدكتور بولافين ومساعد رئيس الاستخبارات سيميون سيميونوفيتش غفيادين الذى ارتفع عاليا فى سلم الوظيفة . وقد انقضى زمن المباهج المتبادلة ، حيث كان البلاشفة يدحرون . كانت حكومة لجنة الجمعية التأسيسية – من الاشتراكيين-الثوريين الجامدين عن بكرة ابيهم – تثرثر عن مكاسب الثورة ثرثرة لم يكن احد يستطيع التصديق بها غير التشيكيين الذين ليس لهم اى فهم فى الشؤون الروسية . لقد كانت حكومة الاشتراكيين-الثوريين شيئا جيدا بالطبع ، فى بداية الأمر حين اقاموا انقلابا ، وكان يجب تهدئة العمال والفلاحين . وكان تجار سامارا انفسهم يرددون شعارات الاشتراكيين-الثوريين . وها هى الفولغا قد تحررت من خفالينسك الى قازان ، واحتل دنيكين شمال القفقاس كله تقريبا ، وكراسنوف يقترب من تسارتسين ، ودوتوف طهر الاورال ، وفى سيبيريا يظهر كل يوم اتمانات بيض مرعبون ، وهؤلاء الشحاذون الطوال الشعر فولسكى وبروشفيت وكليموشكين واضرابه المجتمعون فى القصر الفخم لزعيم نبلاء سامارا ما زالوا غير قادرين على ان يخلدوا الى الهدوء تواقين الى الجمعية التأسيسية . . . تفو ! وكبار التجار اخذوا ينتقلون بحزم الى شعارات اخرى ابسط وامتن واكثر فهما . . .

تحدث دميترى ستيبانوفيتش مخاطبا الاجانب بالدرجة الاولى :

– . . . لقد انتزعت من الحية حمتها . انها حقيقة ضخمة لها

جماهير غفيرة من الناس تسير خلف النقاب الكثيف التى اثارته العاصفة الثلجية ، تسير متلازمة الايدى ، فى جماعات ، صارخة ضاحكة . معاطف عسكرية ، فروات ، نساء ، صبيان . ان روسيا الاصلية ، الرمادية كانت تتدفق . . . من اين جاء هذا العدد الضخم ؟

غار قفا روتشين الاشيب المتوتر المرتاب بين كتفيه . مست كاتيا كتفه بخدها . ان الحياة التى تمر وراء النافذة العالية لم تكن مفهومة لها . قالت :

– فاديم ، انظر اية وجوه مستبشرة . . . أمن المعقول أن هذه نهاية الحرب ؟ شىء لا يصدق . انها سعادة عظيمة . . .

ابتعد روتشين عنها ، وعصر يديه وراء ظهره ، وكانت اضمامة شفتيه حادة .

– فرح مبتسر . . .

كان خمسة اشخاص يجلسون فى غرفة صغيرة معقودة السقف ، وهم فى ستر مجعدة ، وقمصان من القماش الخشن من تلك التى يلبسها الجنود . كانت وجوههم مسودة من اثر السهاد . وعلى منضدة غطيت بقماش من الصوف محروق كانت اقداح الشاى واجهزة التلفون تقف بين الاوراق ، واعقاب السيكائر ، وكسر الخبز . وكان الباب يُفتح احيانا على ممشى مملوء بضجيج الناس ، ويدخل عسكرى عريض المنكبين يشد عليه احزمة كثيرة ، جالبا معه اوراقا للتوقيع .

وكان الرئيس ، خامس الجالسين الى المائدة ، وهو رجل ربع القامة فى سترة رمادية قصيرة يجلس فى كرسى وثير لا يتناسب ارتفاعه مع قامته ، فيبدو كالغافى . كانت يده اليسرى موضوعة على جبينه حاجبة عينيه وانفه فلا يرى الناظر اليه غير فمه المستقيم بشاربه الخشن ، وخده غير الحليق بعضلته المختلجة . والذين كانوا يعرفونه عن كثب كانوا من الممكن ان يحسوا بأن عينه الثاقبة الذكية تنظر من خلال فرجات الاصابع التى تغطى وجهه باعياء الى المتكلم ، وتلحظ التغيرات على وجوه المجتمعين .

كانت التلفونات تدق بشكل متواصل . فكان الرجل ذو

المنكبين العريضين والاحزمة الكثيرة يرفع السماعات ، ويقول بصوت منخفض حاد النبرة : «مجلس مفوضى الشعب . اجتماع . لا يجوز . . .» وبين الحين والآخر يصطدم شخص بالباب من جهة الممشى ، وتدور مقبض الباب النحاسى . ووراء النوافذ كانت الريح تعصف من جهة البحر ، وتضرب الزجاج بحبات الثلج والمطر .

انتهى المتكلم . واطرق بعض الجالسين برؤوسهم ، وطوقها البعض الآخر بيديه . وحرك الرئيس كفه الى الأعلى ووضعها على جمجمته الصلعاء ، ودون ملاحظة على قصاصة ورق ، وخط تحت كلمة ثلاثة خطوط حتى نفذ سن القلم فى الورق ونقل القصاصة الى الشخص الثالث على يساره ، وهو رجل نحيل ذو شاربين اسودين ، وشعر منصب .

قرا الرجل الثالث قصاصة الورق ، وابتسم تحت شاربين ، وكتب جوابا على نفس القصاصة . . .

القى الرئيس نظرة متمهلة على النافذة ، حيث كانت الزوبعة الثلجية تزمجر وراءها ، وقطع القصاصة الى مزق صغيرة . وتحدث بصوت اصم :

– الخطيب على حق . لا يوجد جيش ، ولا اطعمة . نحن ندور فى خواء . والالمان يهاجمون ، وسيهاجمون . ان الخطيب على حق . . .

فقاطعته اصوات :

– أهذه النهاية ؟ ما المخرج ؟ نستسلم ؟ نلجأ الى العمل السرى ؟

– ما المخرج ؟ (وقلص عينيه) . المخرج فى القتال . القتال الشديد . فى تحطيم الالمان . اذا لم نحطمهم الآن فسنتراجع الى موسكو . واذا استولى الالمان على موسكو فسنلجأ الى الاورال . ونؤسس جمهورية اورال – كوزنيتسك . فهناك الفحم والحديد والبروليتاريا المكافحة . وسنجلى عمال بتروغراد الى هناك . انه عمل جليل . واذا اقتضت الضرورة فسنتراجع حتى الى كامتشاتكا . شىء واحد يجب الا يغيب عن الاذهان : الحفاظ على طليعة الطبقة العاملة ، وعدم السماح بتدميرها . سنحتل موسكو وبتروغراد من جديد . . . سيتغير الوضع فى الغرب عشرين مرة . ليس من شيم البلاشفة ان يدلوا انوفهم ، وينكسوا رؤوسهم . . .

وقفز من كرسيه العالى بحيوية غير اعتيادية ، وجرى – ويداه
فى جيبيه – الى الباب البلوطى ، وفتح نصفه . فاتجهت نحوه وجوه
عمال بتروغراد النحيلة المتغضنة المشروبة وعيونهم الملتهبة
متطلعة اليه من الممشى ، من الابخرة الكثيفة والضوء الشاحب . . .
رفع يده الكبيرة ، الملطخة بالحبر :
– ايها الرفاق . ان الوطن الاشتراكى فى خطر ! . .

٢

فى اوائل الشتاء كان سيلان من الجموع البشرية يلتقيان فى محطات ملتقى الخطوط الحديدية فى جنوب روسيا . كان رجال المجتمع والعسكريون فى ملابس مدنية ، واصحاب الأعمال ، ورجال الشرطة والملاكون من اصحاب الضياع المحروقة ، والمحتالون ، والممثلون والكتاب وموظفو الحكومة ، والمراهقون الذين احسوا بعودة زمن فنيمور كوبر ، وبعبارة مختصرة سكان العاصمتين بالوانهم المختلفة الذين كانوا غارقين فى الصخب والضوضاء الى حين غير بعيد ، كل هؤلاء الناس كانوا ينزلون من الشمال هاربين من القطاعة المريعة الى المناطق الغنية فى القمح فى احواض الدون وكوبان وتيريك .

ومن الجنوب ، من الاتجاه المقابل ، كان جيش ما وراء القفقاس ذو المليون رجل يزحف كالكتلة المتماسكة باسلحته ومدافعه وقذائفه ، وعربات الملح والسكر والانسجة . وعند الملتقى كان يحدث زحام ينشط فيه جواسيس الحرس الابيض . وكان القوزاق ياتون من قراهم ليشتروا السلاح ، وكان الفلاحون الاغنياء يبادلون الحبوب وشحم الخنزير بالقماش . وانتشر اللصوص والنشالون الذين كانوا يجندلون ضحاياهم فى المكان الذى يمسكونهم فيه ، على الخطوط الحديدية .

وكانت حواجز الحماية التى تقيمها الفصائل الحمراء قليلة المفعول ، فقد كانت تخرق كنسيج العنكبوت . هنا كانت سهوب وحرية ، ومواطن للقوزاق الاحرار منذ اقدم العصور .

كان كل شىء هنا متزعزعا زائلا لا وضوح فيه . اليوم تجد الاغراب وفقراء الفلاحين يتقلبون ، وينتخبون سوفييتا للنواب ، وغدا ترى القوزاق يفرقون الشيوعيين بالسيوف ، ويرسلون مبعوثا – ورسالة المبايعة داخل قبعته – الى الاتمان كاليدين فى نوفوتشيركاسك . اما السلطة السوفييتية فلا يعبأ لها احد هنا .

ولكن السلطة السوفييتية اخذت فى نهاية تشرين الثانى تظهر الجدية فى بسطها . أنشئت الفصائل الثورية الاولى – من البحارة والعمال وجنود الجبهة الذين بلا ماوى يتنقلون فى قطارات شبه محطمة . وكانوا لا يخضعون كثيرا للقيادة ، ويعربدون ، ويقاتلون بشراسة ، الا أنهم كانوا يتراجعون عند اقل احباط ، ويهددون فى اجتماعات حاشدة يعقدونها بعد المعركة بتقطيع اوصال رؤساء الوحدات .

كانت مناطق الدون وكوبان حسب الخطة الموضوعة انذاك مطوقة من الجهات الاساسية الثلاث : كان سابلين يتحرك من الشمال الغربى فاصلا الدون عن اوكرانيا ، وسيفرس يزحف الى روستوف ونوفوتشيركاسك بنصف دائرة ، وفصائل بحارة البحر الاسود تضغط من نوفوروسيسك . وفى الداخل يجرى الاعداد لانتفاضة فى مناطق المصانع ومناجم الفحم .

فى كانون الثانى اقتربت الفصائل الحمراء من تاغانروغ وروستوف ونوفوتشيركاسك وكان النزاع بين القوزاق والاغراب (النازحين من المدن الأخرى) لم يصل بعد فى قرى منطقة الدون الى الحدة التى تقتضى شهر السلاح . فقد كانت منطقة الدون ما تزال ساكنة . وقد تخلت قوات الاتمان كاليدين المتفرقة عن الجبهة بدون قتال تحت ضغط قوات الحمر .

واصبح الحمر خطرا مميتا . وثار العمال فى تاغانروغ وطردوا من المدينة فوج المتطوعين بامرة كوتيبوف وحطمت فصيلة الرقيب بودتيلكوف الحمراء آخر حامية للاتمان قرب نوفوتشيركاسك .

وعندئذ ارسل الاتمان كاليدين الى رؤساء منطقة الدون بنداء اخير يائس يطلب فيه ارسال متطوعين من القوزاق الى التشكيلية العسكرية المتماسكة الوحيدة – الى جيش المتطوعين الذى كان

يشكله الجنرال كورنيلوف والجنرال الكسييف والجنرال دينكين في روستوف ... الا أن احدا لم يستجب لنداء الاتمان .

في ٢٩ كانون الثاني شكل كاليدين حكومة اتمانيـــة في قصر نوفوتشيركاسك . وفي الصالة البيضاء جلس حول منضدة نصف دائرية الرؤساء الاربعة عشر لدوائر قوات قوزاق منطقة الدون ، وجنرالات مشهورون ، وممثلو «مركز موسكو لمكافحة الفوضوية والبلشفيـــة» . وقال الاتمان الجهم الفارع ذو الشاربين المتدليين متحدثا بسكينة كئيبة :

– ايها السادة . ينبغي أن ابلغكم بأن وضعنا ميئوس منه . فان قوات البلاشفة تتعاظم من يوم لآخر . وكورنيلوف يسحب كل قواته من جبهتنا . وقراره لا يقبل النقض . ولم يستجب غير مائــة وسبعة واربعين شخصا على ندائي الى الدفاع عن منطقة الدون . واهالي منـــاطق الدون وكوبان ليسوا فقط لا يؤيدوننا ، بـــل ويعادوننا . فما سبب ذلك ؟ كيف تسمى هذه الفظاعة المشينة ؟ ان الطمـع قـد ادى بنـا الى التهلكـــة . ولم يعد هناك شعور بالواجب ، ولا بالشرف . اقترح عليكم ، ايها السادة ، ان تتخلوا عن صلاحياتكم ، وتسلموا السلطة الى آخرين – وجلس ، ثـــم اضاف دون ان ينظر الى أحد : – أيها السادة ، تكلموا باختصار . فالوقت لا يسمح ...

فزعق عليه ميتروفان بوغايفسكي مساعد الاتمـــان «شقي الدون» مغتاظا :

– بعبارة أخرى انت تقترح تسليم السلطة الى البلاشفة ؟ . .

فرد الاتمان على ذلك بأن الحكومة العسكرية في حل مـن ان تفعل ما تراه مناسبا ، وغادر الاجتماع في الحال ، وخرج الى مقره عبر باب جانبي وهو يخطو خطوات ثقيلة . نظر من خلال النافذة الى اشجار المنتزه الجرداء المتمايلة ، والى السحب الثلجية المثيرة اليأس ونادى زوجته . لم ترد الزوجة على ندائه . فتابع توغلـــه الى غرفة النوم حيث كان الموقد يتوهج . خلع سترته ، وصليب الرقبة . وللمرة الاخيرة حدق في الخارطة العسكرية المعلقة فوق السرير ، وكأنه ما يزال غير مصدق . كانت الاعلام الحمراء الصغيرة تحدق كثيفة بمنطقة الدون وسهوب كوبان . والابرة الوحيدة التي

تحمل علما ثلاثي الالوان كانت مغروزة في نقطة سوداء تشير الى روستوف . اخرج الاتمان مسدس براونينغ الدافئ المفلطح من الجيب الخلفي في سرواله الأزرق ذي الشرائط ، وسدد رصاصة الى قلبه .

وفي التاسع من شباط خرج الجنرال كورنيلوف بجيشـــه الصغير المؤلف من المتطوعين ، وجميعهـــم من الضباط وطلاب المدارس العسكرية وعربات الجنرالات والمدنيين من ذوي المقامات الرفيعة ، وغادر روستوف الى السهوب وراء الدون .

سار هذا الجنرال القصير القامة الغضوب ذو الوجه الشبيه بوجوه المغول ماشيا في مقدمة قواته وعلى كتفيه جراب الجنود . بينما كان الجنرال دنيكين التعيس المصاب بالتهاب القصبات يرقد متدثرا في دثار من جلد النمر في احد عربات الطابور .

مرت وراء عربة القطار السهوب البنية العارية من الثلج . وكانت ريح ندية فواحة بتربة عند الذوبان تهب من فتحة النافذة المحطمة الزجاج . وكانت كاتيا تحدق في النافذة ، وقد غطت رأسها وصدرها بشال وبري ، معقود وراء ظهرها . وكان روتشين يهوم غافيا وقد ارتدى معطفا من معاطف الجنود ، وقبعة ممزقة مدببة ، ومد ساقيه . كان القطار بطيئا في سيره . فكانت الاشجار الجرداء العالية تمر مضغوطة الاغصان مثقلة بالاعشاش . وكانت غربان القيظ تحوم فوقها كالسحب ، وتهتز على الاغصان . دنت كاتيا من النافذة . كانت غربان القيظ تنعب نعيبا مرتاعا موحشا كمـــا يحدث لها في الربيع : نعيبا كذلك الذي كانت كاتيا تسمعه في طفولتها البعيدة على حلول الربيـــــع ، والضباب ، والعواصف الرعدية الاولى .

كانت كاتيا وروتشين مسافرين الى الجنوب . ولكن الى اين ؟ الى روستوف ، الى نوفوتشيركاسك ، الى القرى القوزاقيـــة على الدون ؟ الى حيث تعقد عقدة الحرب الأهلية . كان روتشين ينام متدلي الراس ، ووجهـــه غير الحليق ناحل ، والغضون العميقـــة تكتنف فمه المضموم بازدراء . وشعرت كاتيا برهبة مباغتة ، فقد خيل اليها ان هذا الوجه الذي تراه لم يكن وجهه ، بل آخر غريبا

مدبب الأنف ... حملت الريح عبر النافذة نعيب غربـــان القيظ ودمدمت عجلات العربة على محولات السكك ، وقد ابطأ القطار في سيره . كان طابور من العربات يمتد في طريق موحلة يشق السهب في خط منحرف . احصنة هزيلة شعثاء ، عربات ريفية ملطخـــة بالوحل ، واناس ملتحون غرباء مخيفون . ندت من روتشين في نومه شهقة مبحوحة معذبة ما بين النخير والانين . فمست كاتيا وجهه بيديها المرتجفتين :

– فاديم ، فاديم . . .

قطع شهيقه المخيف فجأة . وفتح عينيه الخاويتين من كـل تعبير .

– فو ، اللعنة ، حلمت حلما مزعجا . . .

توقف القطار . وانضمت الى نعيب غربان القيظ أصوات ناس . تراكضت نسوة يرتدين احذية رجالية طويلة ، ويحملن اكياسا وتدافعن كاشفات عن ارداف بيضاء ، وهن يحاولن الانسلال الى عربة بضائع . اندس في نافذة المقصورة قرب كاتيا تماما راس اشعث ذو طاقية ملطخة ولحية ملتفة نامية حتى عينيه الصغيرتين .

– لعل لديكم رشاشة للبيع ؟

انبعثت آهة تعجب من الرف الأعلى ، وانقلب شخص بقوة واجاب بصوت مرح :

– عندنا مدافع فقط . الرشاشات بعناها كلها .

قال فلاح فاغرا فمه الكبير بشكل دفع لحيته الى الجانبين كالمكنسة :

– لا حاجة بنا الى المدافع .

ودس نصف جسمه في النافذة ، واجال بصره داخل المقصورة بمكر عسى ان يقـــع عـلى شيء يمكـن شراؤه . قفـز مـن الرف الاعلى جندي ضخم . وجـه عريض ، وعينـان زرقاوان متشبثتان ، وراس حليق متناسق . شد حزامه على معطفه بحركـة قويـة .

– ما انت والقتال يا والد ! آن لك ان تستلقي على رف الموقد .

قال الفلاح :

– هذا صحيح . ولكن لا يمكن ان تستلقي على رف الموقد

في مثل هذه الايام ، ايها الجندي . لا احد يسمح لك بذلك – لانه عليك أن تطعم نفسك والعائلة .

– بالنهب ؟

– كلام فارغ . . .

– ولكن ما حاجتك الى رشاشة ؟

– كيف اقول لك ؟

وفرك الفلاح انفه ، وحك شعر لحيته بيد معقدة ، وكل ذلك ليخفي لمعان عينيه ، فقد كانتا تبتسمان بخبث .

– عاد ولدي من الجبهة . وقال لي : اذهب الى محطة القطار ، واعرف سعر الرشاشة . يمكن ان اشتريها باربعة بودات* من القمح . ها ؟

– انكم كولاك – قال الجندي وضحك – شياطين خبثاء ! كم حصانا عندك ، يا اب ؟

– وهبني الله ثمانية . اليس عندكم ما يباع ؟ اسلحة او اشياء اخرى ؟ – ومرر عينيه مرة أخرى على الجالسين في المقصورة . وفجاة اختفت الابتسامة وانطفا لمعان عينيه ، واشاح وجهه وكانما لم يكن في المقصورة اناس بل روث ، وسار في وحل الرصيف ، هازا سوطه .

قال الجندي متطلعا الى كاتيا بنظرة صريحة :

– هل رايته ؟ ثمانية احصنة ! واثنا عشر ولدا ربما . يركبهم الخيول ويطلقهم في السهب للنهب والسلب . أما هو فيستلقي على رف الموقد ، ومؤخرته الى القمح ، يجمع الاسلاب .

وادار الجندي بصره الى روتشين ، واذا بحاجبيه يرتفعان ، ووجهه يتالق :

– فاديم بتروفيتش ، هذا انت ؟

القى روتشين على كاتيا نظرة خاطفة ، ولكن لم يجد مناصا من ان يقول «مرحبا» ويمد يده . شد الجندي على يده بقوة ، وجلس الى جانبه . رات كاتيا أن روتشين يبدو محرجا . سمعته يقول بلا حرارة :

* بود يساوي ١٦,٣٨ كيلوغراما . – المترجم .

— ها قد التقينا اذن . أنا مسرور بأن أراك فى صحة طيبة ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . أما أنا فمتنكر ، كما تراني .

حدست كاتيا أن هذا الجندى هو الكسى كراسيلنيكوف المرافق السابق لروتشين . فقد حدثها فاديم بتروفيتش عنه غير مرة ، وكان يعتبره طرازا رائعا للفلاح الروسى الذكى الموهوب . كان غريبا أن يقابله روتشين الآن بهذا البرود . ولكن كراسيلنيكوف قد ادرك السبب ، على ما يبدو . فقد أشعل سيكارة ، وهو يبتسم . وسأل بصوت خفيض ، ولهجة جدية :

— عقيلتك ؟

— نعم . فقد تزوجت . تعارفا . كاتيا ، هذا ملاكى الحارس الذى حدثتك عنه . . . قاتلنا ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . وما علىّ إلا ان اهنئك بالصلح المشين . . . صقور روسيا . . . ها — ها . . . وها أنا أنسل مع زوجتى الى الجنوب . . . اقرب الى الشمس . (ورنت الكلمة «الشمس» رنينا جارحا فى اذنيه ، فغضن وجهه . ولم يبد كراسيلنيكوف امارة على عجب) . لم يبق شىء آخر . . . كافأنا الوطن الشكور بحربة فى البطن . . . (وارتعد وكان قملة سرت فى جسمه كله) . خارجون عن القانون ، اعداء الشعب . . . هكذا . . .

— وضع سيادتك صعب !

وهز كراسيلنيكوف رأسه ، ونظر فى النافذة مقلصا عينيه . كان الناس يحتشدون فى حديقة امامية قرب المحطة للسكة الحديدية ذات سياج محطم .

— وضعك كوضع رجل أجنبى . أنا افهمك ، يا فاديم بتروفيتش . بينما الآخرون لا يفهمون . أنت لا تعرف شعبنا .

— ماذا تعنى بأننى لا اعرف ؟

هكذا . . . ولم تعرفه قط . وقد خُدعت على الدوام .

— من خدعنى ؟

— خدعناك نحن ، الجنود ، الفلاحون . . . حين كنت تدير ظهرك نضحك ، يا فاديم بتروفيتش ! اخترع الاسياد هذه الكلمات : شجاعة ، نكران الذات ، وحب القيصر والوطن ، فجعلنا نحشو بها ادمغتنا فى الجيش . . . أنا فلاح . مسافر الآن الى أخى الجريح قعيد الفراش فى روستوف ، فقد اصابه احد الضباط برصاصة فى صدره . سآخذه واعود به الى القرية . . . ربما سنحرث أو ربما سنحارب . . . سنذهب هناك ونرى . . . ولكن اذا حاربنا سنحارب برغبتنا ، وبدون طبول المعركة ، سنحارب بضراوة . . . لا ، يا فاديم بتروفيتش ، لا تسافر الى الجنوب ، فلن تجد هناك خيرا . . .

بلل روتشين شفتيه الجافتين ، وهو يحدق فيه بعينين لامعتين . كان كراسيلنيكوف يمعن النظر أكثر فاكثر فيما كان يجرى فى الحديقة الامامية ، حيث كان يتعالى هدير اصوات حانق . تسلق بعض الناس الأشجار ليشاهدوا من هناك .

— على العموم لن تستطيعوا مغالبة الشعب . هذا ما أقوله لك . انتم برجوازيون شأنكم شأن الاجانب وهذه الكلمة «البرجوازيون» خطيرة الآن ، ويمكن تغييره بكلمة لصوص خيول . ان محاربا له أبهة مثل الجنرال كورنيلوف ، الذى علق بنفسه صليب غيورغى على صدرى ، فكر فى أن يجعل القوزاق يحاربون فى سبيل الجمعية التأسيسية ، فلم يحصل على نتيجة . الشعب لا يحتاج الى كلمات كهذه . اما كورنيلوف فيعرف الشعب كما يبدو . . يشاع أنه ينطلق الآن معربدا فى سهوب كوبان كالكلب فى قطيع من الذئاب . . . ويقول الفلاحون : «البرجوازيون مستشرون لأن العنان لم يطلق لهم فى موسكو . . .» وقد نظفوا بنادقهم ودهنوها تحسبا لكل طارىء . لا ، يا فاديم بتروفيتش عد مع عقيلتك الى العاصمة . . . فهناك آمن لك من وجودك بين الفلاحين . . . انظر ماذا يفعلون . . . (وفجأة رفع صوته متجهما) سيقتلونه الآن . . .

يبدو أن الأمر قد اقترب من نهايته فى الحديقة الامامية . كان جنديان قصيران ركينان لهما وجهان متوحشان يقبضان بقوة على رجل خائر يرتدى سترة ممزقة عند الصدر خيطت من بطانية فانيلة . كان وجه الرجل غير الحليق بأنفه المتورم شاحبا شحوب الموت ، وقد سال خط من الدم من طرف شفتيه المرتجفتين . وكانت عيناه اللامعتان المبيضتان تراقبان امرأة شابة مهتاجة كانت تارة تخلع منديلها السميك من رأسها ، وتارة تجلس هازة

تنورتها حولها ، وتارة تثب على الرجل الشاحب ، وتقبض على شعره المنفوش ، وتصرخ بشعور شبيه بالتلذذ :

– سرقها . نشلها من تحت التنورة ، الوغد ! أعد الفلوس .

وامسكته من خديه ، وجمدت . افلت الرجل الشاحب من اصابعها فجأة . الا ان الجنديين امسكا به . زعقت المرأة . وفى تلك اللحظة ظهر فى مكان الحادث رجل له رأس كبير شاقا طريقه بين الناس ، ونحى المرأة بكتفه ، ولطم الرجل الشاحب على اسنانه لطمة قصيرة محكمة توجع منها الرجل ، وبرك فى الحال . انحنى الرجل الجالس على اقرب شجرة ، وكان له كمان طويلان ، وصرخ : «قتل !» فاندفع الجمع فى الحال . ثم صار الناس ينحنون على الجسد ، ويرفعون قاماتهم هازين قبضاتهم .

مرت نافذة المقصورة بجمهور الناس . تحرك القطار اخيرا ! واحست كاتيا بغصة صيحة مكتومة تضغط على حلقومها . تجهم روتشين بازدراء . وهز كراسيلنيكوف راسه قائلا :

– اى ، اى ، اى . يبدو أنهم قتلوه بلا سبب وجيه . ان هؤلاء النسوة يشعلن النار فى صدر مَنْ تشاء . انهن اشد ضراوة من الرجال . لا أحد يصدق بما حصل لهن خلال هذه السنوات الاربع . عدنا من الحرب فرايناهن قد تغيرن تماما . الآن لا تكاد تمسهن بسوط حتى تود ان تنجو بنفسك . الفراخ انقلبن ديكة . . .

من الوهلة الأولى يبدو غير مفهوم السبب الذى جعل القائد الأعلى الكسييف والقائد الأعلى لافر كورنيلوف «منظمى خلاص روسيا» يقودان حفنة من الضباط وطلاب المدارس العسكرية – خمسة آلاف شخص – مع مدفعية بائسة ، وبلا قذائف ولا ذخيرة ، ويسيران بهم جنوبا الى يكاترينودار ، فى قلب القوات البلشفية التى طوقت عاصمة قوازق كوبان بنصف دائرة .

كان من المتعذر أن يجد المرء فى ذلك خطة استراتيجية محكمة . فقد خرج جيش المتطوعين من روستوف اضطرارا ، اذ لم يستطع الدفاع عنها . واجتاحته عاصفة الثورة فى سهوب

كوبان . ولكن كان ثمة خطة سياسية برهن عليها الشهران اللذان اعقباها . فقد كان لا بد من أن يثور القوزاق الاغنياء على الاغراب الذين جاءوا من المناطق الأخرى ، أى على جميع السكان الجدد الذين يعيشون عن طريق استئجار اراضى القوزاق ولا يتمتعون باية حقوق أو امتيازات . وكان فى كوبان مليون وستمائة الف غريب مقابل مليون واربعمائة الف من القوزاق .

كان لا بد أن يسعىْ الغرباء الى الاستحواذ على الارض والسلطة ، وأن يشهر القوزاق السلاح للمحافظة على امتيازاتهم . كان الاغراب تحت قيادة البلاشفة وكان القوزاق فى بادىء الأمر غير راغبين فى أن يخضعوا لاية سلطة . فما من شيء أفضل من أن يكون اصحاب اطيان فى قراهم ! ولكن حدث فى شباط أن أقتحم المغامر القوزاقى غولوبوف ومعه سبعة وعشرون قوزاقيا اجتماعا لهيئة اركان الميدان التابعة للاتمان نازاروف فى نوفوتشيركاسك ، وصاح بالمجتمعين هازا مسدسه ، بينما سدد قوزاقه بنادقهم اليهم : «انهضوا ، ايها الاوغاد ، فقد جاء الاتمان السوفييتى غولوبوف ليتولى السلطة !» . وبالفعل قام اليوم التالى بقتل نازاروف وهيئة اركانه رميا بالرصاص فى حرش خارج المدينة ، (ولكى ياخذ بيده صولجان الاتمان) قام أيضا بقتل قرابة الفى ضباط قوزاقى ، واندفع فى السهب ، وقبض على ميتروفان بوغايفسكى ، واخذ يتردد به على الاجتماعات داعيا الى ان تكون منطقة الدون حرة ، والى مبايعته على الاتمانية ، وأنتهى ذلك الى ان يُقتل هو نفسه فى اجتماع فى قرية زابلافسكايا القوزاقية ، وباختصار وجد القوزاق أنفسهم فى شباط بلا رئيس . وفضلا عن ذلك كانت روسيا الجزعة ، الجائعة ، الهائجة تضغط عليهم من الشمال .

كانت الخطة الأولية لقيادة جيش المتطوعين الذى جرد لما سمى فيما بعد بـ«الحملة الجليدية» تستهدف رئاسة القوزاق بعد الاستقرار فى يكاترينودار ، وتجنيد قوات قوزاقية نظامية ، وقطع القفقاس وحقول النفط فى غروزنى وباكو عن روسيا البلشفية ، وتاكيد الولاء للحلفاء .

كان البحار سيميون كراسيلنيكوف (أخو الكسى

كراسيلنيكوف) يرقد مع آخرين في حقل محروث عند حافة منخفض غير بعيد عن سدة السكة الحديدية . وعلى مقربة منه كان احد الجنود يحفر الارض بالرفش عجولا كالخلد . وحين تخندق في الحفرة القى بندقيته امامه ، والتفت الى سيميون قائلا :

— تعمق في الأرض اكثر ، يا اخ .

حفر سيميون كتل الأرض اللزجة من تحته بصعوبة . وكان الرصاص يئز فوقه . رن الرفش عند ارتطامه بآجرة . شتم سيميون ، ونهض على ركبتيه ، واذا به يفاجأ بصدمة حارة تصيب صدره . وبشهق بالم وانكفأ على وجهه في الحفرة التي حفرها .

كانت تلك احدى المعارك القصيرة العديدة التي كانت تسد الطريق امام جيش المتطوعين . كانت القوات الحمراء كبيرة العدد ، كما هي دائما . ولكنها كانت قادرة على القتال مثلما كانت قادرة على التراجع دون فاجعة كبيرة ، لأن النصر في الفترة الاولى من الحرب لم يكن الزاما لها . وكانوا رجال الفصائل الحمراء يفسرون تراجعهم اما بعدم صلاحية الموقع ، او بالمقاومة العنيدة لجيش المتطوعين . ولكن هذا لا يهمهم كثيرا فانهم سيوفقون في المرة القادمة .وهكذا جعلوا كورنيلوف يمر .

اما بالنسبة لجيش المتطوعين فقد كانت كل معركة مراهنة على الموت أو الحياة . فقد كان عليه ان ينتصر ، ويتحرك مع طوابير عرباته وجرحاه في مسيرته ليوم واحد . ولم يكن ثمة مجال للتراجع . ولهذا كان رجال كورنيلوف يضعون في كل معركة كل ما لهم من قوة مستميتة ، وينتصرون . وهذا ما حصل في هذه المرة ايضا .

كان كورنيلوف يقف منفرج الساقين على كومة قش متبقية من العام الماضي على بعد نصف فرسخ من صفوف القابعين تحت نيران الرشاشات . رفع مرفقيه ، ونظر في منظار الميدان . كان كيس الجنفاص يهتز وراء ظهره . وقد فك ازرار معطفه الفرائي الأسود المؤطر بالرمادي من الداخل . كان يشعر بالحر . وكان حنكه المغطى بشعر اشيب يبرز عنودا من تحت المنظار .

كان الملازم الاول دولينسكي مرافق القائد يقف في الاسفل مضغوطا على كومة القش . كان شابا واسع العينين اسود الحاجبين في معطف من معاطف الضباط ، وطاقية مدعوكة . كان يرنو من الاسفل الى حنك القائد الأشيب على طريقة الفتوة مبتلعا الغصة التي تعترض حنجرته من القلق ، وكأنما تجمع كل الأمل في النجاة في هذا الشعر الأشيب العزيز والانساني كليا .

وكان دولينسكي يردد :

— انزل ، يا صاحب السيادة ، اتضرع اليك ان تنزل . فقد يقتلونك .

وراى شفتي كورنيلوف الليلقيتين تتباعدان وفمه ينفرج عن تكشيرة عصبية . معنى ذلك ان الأمور سيئة . كف دولينسكي عن النظر الى الجهة التي كان فيها البلاشفة بصفوفهم الكثيفة ينهضون فوق السهب الاخضر البني ويتنقلون كالدمى السوداء . كانت قنابل الشرابنيل تفور هناك محدثة ازيزا ممطوطا . ولكن كان يعرف جيدا ان القنابل قليلة ، قليلة للغاية . . . وكان مدفع الحمر من عيار ست بوصات يدوي وراء الجسر المحطم بدمدمة حادة . . . وتلعلع رشاشة عجلى . وكان الرصاص يئز كالنحل من مكان قريب فوق رأس القائد .

— يا صاحب السيادة ، اخشى ان تصاب .

انزل كورنيلوف المنظار . وانكمش وجهه المغولي الاسمر ذو العينين السوداوين الشبيهتين بعيني قنبرة ، وظهرت عليه الغضون ، ودار في مكانه على القش ، واستدار الى الخلف ، وانحنى يخاطب حرسه الخاص ، وهم رهط من التركمانيين المترجلين النحاف المعكوفي الارجل كانوا يقفون وراء كومة القش بقبعاتهم الضخمة المستديرة المصنوعة من فراء الغنم ، وسترهم القفقاسية المخططة بلون السلمون ، جامدين كالاصنام وهم يمسكون بمقاود خيول ضاوية .

اشار كورنيلوف بذراعه نحو المنخفض ، واصدر امره بصوت حاد نابح . وثب التركمانيون الى خيولهم كالقطط . زعق احدهم بلغته مخرجا صوته من اقصى الحلق ، فاستل الجميع سيوفهم المعكوفة وانطلقوا في خبب ثم في عدو سريع عبر السهب

متجهين الى المنخفض ، حيث كان يلوح حقل محروث يتراءى وراءه شريط سدة الخط الحديدى .

والآن كان سيميون كراسيلنيكوف يرقد على جنبه ، اذ كان ذلك اخف عليه . قبل ساعة من الزمن كان قويا محتدما ، اما الآن فهو يئن انينا واهنا متواصلا يبصق الدم بعسر . كان رفاقه يطلقون النار عن يمينه وشماله كيفما اتفق . وكانت ابصارهم متجهة مثله الى المنحدر البنى على ذلك الجانب من المنخفض ، حيث كان نحو خمسين فارسا ينطلقون كالسيل العرم . وكان ذلك هجوم احتياط الخيالة .

عدا شخص من وراء كراسيلنيكوف ، وسقط على ركبتيه بالقرب منه ، وراح يصرخ باعلى صوته ملوحا بمسدسه . كان الرجل يرتدى سترة جلدية سوداء . انتشر الخيالة فى المنخفض . ومضى هو يصرخ بلهجة غير عسكرية ، ولكنها على قدر هائل من الاصرار :

— اياكم ان تتراجعوا ، اياكم ان تتراجعوا !

وها هى قد ظهرت على هذا الجانب من المنخفض قبعات هائلة ، وانبعث عويل ممدود مثل عويل الريح ، انهم التركمانيون ينقضون . كانوا ينحنون على اعراف خيولهم بسترهم المخططة ، وينطلقون عبر الحقل المحروث اللزق ، حيث الثلج المتسخ ما يزال متبقيا فى الاخاديد . تطايرت كتل الطين من تحت سنابك الخيول . وصدرت صيحات ممطوطة رهيبة من وجوه التركمانيين الصغيرة الملوحة المكشرة المشوربة تحت قبعات فرائية عالية . وبان لمعان سيوفهم المعكوفة لمعان الماء . آه ، لن يصمد فتياننا امام هجوم الخيالة ! ذوو المعاطف الرمادية ينهضون من الحقل المحروث . ويطلقون النار ، ويتراجعون . ثارت ثائرة المفوض ذو السترة الجلدية ، فاقتحم وضرب شخصا على ظهره :

— الى الامام ، بالحراب !

ويشاهد كراسيلنيكوف رجلا من ذوى السترة المخططة ينقلب من فوق جواده ، كالمتظاهر ، وينظر الجواد مذعورا ، وينطلق هاربا . ويصدر من الصفوف صوت ارتطام حديد بحديد ، وكرات من دخان ، نار صفراء متولدة من انفجار قنبلة شرابنيل . تخبط

الجندى فاسكا الفكه ذو المعطف الفضفاض ، والقى بندقيته ، وغاض الدم منه ، وفغر فمه ، وهو ينظر الى الموت المتقحم . ظلوا يقتربون ، ويكبرون مع خيولهم . فى مقدمتهم رجل يكاد حصانه يمس الأرض ، وقد دلى بوزه كالكلب . رفع التركمانى هامته ، ووقف على ركابه ، وقد تطايرت اذيال ردائه .

— وغد !

قال كراسيلنيكوف ، ومد يده ليتناول بندقيته وتمتم :

— آه ، مفوضنا هالك .

اذ رأى التركمانى ينطلق بحصانه نحو ذى السترة الجلدية :

— اطلق النار ، اللعنة !

ولم ير كراسيلنيكوف الا السيف المعكوف ينفذ فى السترة الجلدية . . . وما هى الا لحظة حتى اقتحم سيل الخيالة على الصف . وانتشرت رائحة عرق الخيول الحار .

قطع التركمانيون الصف ، والتفوا على جناحيه ، ومن المنخفض طلع الى الحقل المحروث الضباط بمعاطفهم السوداء والرمادية الفاتحة اللون وهم يتعثرون والكتافيات تلتمع على اكتافهم .

— هوررررا !

واقترب القتال من سدة الخط الحديدى . وظل كراسيلنيكوف وقتا طويلا لا يسمع غير أنين المفوض المطعون بالسيف . وكانت طلقات النار تتضاءل . وصمتت المدافع . اغمض كراسيلنيكوف عينيه ، وكان يحس طنينا فى راسه ، ووجعا فى صدره . عزت عليه نفسه ، ولم يرد ان يموت . استرخى جسمه المثقل على الأرض . تذكر باشفاق زوجته ماتريونا . انها ستضيع فى الدنيا وحيدة . كانت تنتظره بشوق ، وتكتب اليه فى تاغانروغ بان يعود . ود لو تراه ماتريونا الآن ، وتضمد له جرحه ، وتجلب له ما يشربه . ولطيف ان يكون ذلك ماء . . . ولبنا خاثرا . . .

سمع كراسيلنيكوف سبابا مقذعا ، واصواتا ليست باصوات جماعته ، بل أصوات السادة فتح عينيه . فرأى اربعة قادمين . واحد فى سترة جركسية رمادية ، واثنان فى معطفين من معاطف الضباط ، والرابع فى معطف طالب عليه كتافيتان من كتافيات

ضباط الصف . كانوا يتأبطون بنادقهم كما يفعل الصيادون . قال احدهم :

– انظر . هذا بحار . اقض عليه ، الوغد .

– انه قد فطس . . . أما ذاك فهو حى .

وتوقفوا ناظرين الى فاسكا الفكه وهو راقــــد على الأرض . وفجأة زعق ذو السترة الجركسية بصوت ضار :

– أنهض !

ورفس فاسكا .

ورأى كراسيلنيكوف فاسكا ينهض ، وقد غطى الدم نصف وجهه . صـــاح ذو السترة الجركسية موجها ضربـــة قصيرة الى اسنانه :

– انهض ، باستعداد !

وفى الحال أعد الاربعة بنادقهم . فصاح فاسكا بصوت باك :

– ابق على حياتى ، يا عم .

قفز ذو السترة الجركسية مرتدا عنه ، وطعنه بالحربــــة فى بطنه مستنشقا الهواء بحدة . ثم استدار ومضى فى سبيلــه . وانحنى الآخرون على فاسكا ونزعوا عنه حذاءه الطويل .

بعد ان قتل المتطوعون أسراهم ، واضرموا النار فى ادارة القرية عظة للآخرين ، تابعوا سيرهم نحو الجنوب ، التقط القوزاق سيميون كراسيلنيكوف من الحقل المحـــروث . وحين غيب خط الافق المسطح فوق السهب البادى الاخضرار عربـــات المتطوعين عادوا مع زوجاتهم واطفالهم وماشيتهم الى قريتهم .

كان سيميون يخاف ان يموت بين الغرباء . كانت لديـــه بعض النقود ، فطلب من أحد الاشخاص ان يوصله فى عربته الى روستوف . ومن هذه المدينة كتب الى اخيه ينبؤه بأنه مجروح فى صدره جرحا بليغا ، وأنه يخاف ان تؤاتيه المنيـــة بين الغرباء ، كما ابلغه عن رغبته فى ان يرى ماتريونا . وبعث رسالته هذه مع احد ابناء قريته .

كان سيميون حتى عام ١٩١٨ يخدم فى اسطول البحر الأسود بحارا على ظهر المدمرة «كيرتش» .

وكان هذا الاسطول تحت قيادة الاميرال كولتشاك . ان هذا

الرجل ، رغم ذكائه وثقافته ، وما ظنه حبا نزيها لروسيا لم يفهم شيئا مما كان يحدث ، وما كان ينبغى ان يحدث . كان يعـــرف تكوينات واسلحة جميع اساطيل العالم ، ويستطيع دون خطأ ان يحدس هوية اية سفينة حربية من خلال ضباب البحر ، وكـــان احسن خبير فى الالغام ، واحد المبادرين فى رفع قـــدرة الاسطول الروسى بعد كارثة تسوسيما . ولكن لو ان أحدا من الناس فتح معه حديثا (حتى عام ١٩١٧) فى السياسة اجاب بان السياســة لا تهمه ، وانه لا يفهم شيئا فيها ، وانه يعتقد بان السياسة مـــن شان الطلبة ، وطالبات الصفوف النسائية العليا من ذوات الهندام المهمل واليهود .

كانت روسيا ، كما يتصورها ، بوارج تسحب وراءها شريطا من الدخان (منها ما هو موجود ومنها ما يفترض ان يكون) ، وعلم القديس اندرى يرفرف بعزة على بارجة الاميرال حاملة العلم باثا الذعر فى المانيا . وكان يحب مدخل وزارة الحربية الصارم الرصين (على طراز الامبراطورية العظمى) بحاجبه المألوف له (الذى كان يقول كلما ساعده لخلـــع معطفه : «الطقس سيى٫ ، يـــا الكسندر فاسيليفيتش») ، مثلما كان يحب زملاءه الانيقين المهذبين ، والجو الودى المغلق لنادى الضباط . وكان الامبراطور راس هذا النظام ، وهذه التقاليد .

وكان كولتشاك دون شك يحب روسيا اخرى ، روسيا التى كـــانت تصطف على سطوح البواخر – البحارة بطاقياتهـــم ذات الاشرطة ، روسيا العريضة الوجه ، الملوحة البشرة ، المفتولـــة العضل ، روسيا التى كانت ترتل صلاة المساء باصوات رائعة ، عند انزال العلم فى الغسق ، روسيا التى كـــانت تموت «بنكران ذات» حين تؤمر بذلك . والمر٫ يمكن ان يفخر بها .

فى عام ١٩١٧ أقسم كولتشاك يمين الولاء للحكومة المؤقتة دون تردد ، وصار يقود اسطول البحر الاسود . وقد تحمل سقوط رأس الامبراطورية بمرارة لاذعة ، كشىء لا محيص عنه ، وقبل ، على مضض ، بلجان البحارة ، والنظام الثورى ، كـــل ذلك لأن الاسطول وروسيا كانا فى حالة حرب مع الالمان . انه سيمضى فى الحرب حتى لـــو بقى له زورق الغام واحد . وكـــان يحضر فى

سيباستوبول اجتماعات البحارة ، ويقول فى الـــــرد على الخطب المتحدية التى كان يلقيها الخطباء العمال من الوافدين والمحليون انه شخصيا ليس بحاجة الى مضيق الدردنيل أو البوسفور لأنه لا يملك ارضا ولا معامل ، ولا شيء له يصدره من روسيا ، ولكنـــه يطالب بالحرب ثم الحرب ثم الحرب ليس كأجير للبرجوازيـــة (وهنا كانت تكشيرة الازدراء تشوه وجهه الحليق بحنكه القوى ، وفمه المرتخى ، وعينيه الغائرتين) – «ولكننى اقـــول ذلك كوطنى روسى» .

وكان البحارة يضحكون . انه لشيء مريع . ان هؤلاء المخلصين الذين كانوا بالأمس فقط مستعدين لأن يتقحموا النار والماء فى سبيل الوطن وعلم القديس اندرى كانوا يصرخون باميرالهـــم : «ليسقط ماجورو الامبريالية !» وكان كولتشاك ينطـــــــق بكلمتى «وطنى روسى» بعنفوان وبايماءة صريحة مستعدا بنفسه فى تلك اللحظـة لأن يموت بنكـــران ذات ، بينما كان البحارة – وقد اغراهـــم الشيطان – يستمعون الى الاميرال وكأنهم يستمعون الى عدو يحاول ان يخدعهم بخبث .

وسمـــــع سيميون كراسيلنيكوف فى الاجتماعات بـــــأن «الوطنيين» ليسوا هم الذين يريدون استمرار الحرب ، بل اصحاب المصانع والملاكون الكبار الذين يبتزون من ورائها اموالا طائلة ، وان الشعب ليس بحاجة الى هذه الحرب . وكان يقال ان الالمان هم مثلنا عمال وفلاحون ، وأنهم يقاتلون لأنهم مخدوعون مـــن قبل برجوازيتهم المتعطشة للدماء ومن قبل المناشفة . وكـــان البحارة فى الاجتماعات ممتلئين بالكراهية الشديـــدة . وارتفعت الاصوات : كانوا يخدعون الشعب الروسى منذ الف عام ! الف عام وهم يمتصون دماءنا ! هؤلاء الملاكون والبرجوازيون ، الاوغاد !» وقد انفتحت العيـــــون . بسبب ذلك عشنا اسوأ من عيشـــة السائمة ... هذا هو العدو ! ... وبالرغم من أن سيميون كان يحن الى استثمارته المهملة ، وزوجته الشابة ماتريونا فقد كان يشد على قبضته ، وهو يصغى الى الخطباء ، ويسكر ، كالجميع ، بخمر الثورة ، وينسى فى هذا السكر حنينه الى بيته ، والى زوجته الحسناء ماتريونا ...

وذات مرة قدم من بتروغراد داع بارز هو فاسيلى روبليف . وطرح هذا السؤال : «هل ستظلون ايهـا الاخوان ، حمقى الى ابد الآبدين ، تثـــرثرون فى الاجتماعات ؟ لقـــد باعكم كيرينسكى الى الراسماليين منذ زمن طويل . سيمهلونكم فترة أخرى تنبحون فيها ، ومن بعدها يقطع اعداء الثورة رؤوسكم كلها . فالقوا عنكم كولتشاك قبل ان يفوت الوقت ، وخذوا الاسطول بايديكم ، ايدى العمال والفلاحين ...»

وفى اليوم التـــالى ارسلت برقية لاسلكية من على ظهـــــر بارجة : انزعوا اسلحة جميع الضباط . اطلق بعض الضباط النار على انفسهم وسلم الآخرون اسلحتهم . وامـــر كولتشاك من على بارجة الاميرال «القديس غيورغى القاهر» بأن يخرج الطاقم كلـه الى ظهر البارجة . ذهب البحارة الى فسحة الاصطفاف متضاحكين ، وقف اميرالبحر كولتشاك على جسر القيادة بكامل بزته الاستعراضية ، وصاح بصوت حاد عالى النبرة :

– ايها البحارة . وقع بلاء لا يمكن دفعه : ان اعداء الشعب ، عملاء الالمان السريين نزعوا اسلحة الضباط . واى احمق يمكـن ان يتحدث جادا عن مؤامرة للضباط معادية للثورة ! وعلى العموم يجب القول انه لا توجد معاداة للثورة ، وليس لها وجود اصلا .

وهنا اخذ الاميرال يذرع الجسر مقعقعا بسيفه وأخذ ينفس عما فى صدره :

– ان كل ما حدث اعتبره اهانة لشخصى بالدرجة الأولى ، باعتبارى كبير الضباط . وبالطبع لا يمكننى بعد هذا ولا أرغب فى قيادة الاسطول ، وسأبرق فى هذه اللحظة الى الحكومة ابلغها بترك الاسطول ، والرحيل . يكفى هذا ! ..

ورأى سيميون الاميرال يمسك سيفه الـــذهبى ، ويضغط عليه بكلتا يديه ، واخذ يفكه من حزامه ، تعصى السيف عليـــه فراح يجذبه ، بل ان شفتيه ازرقتا .

– ان كل ضابط شريف يجب ان يتصرف تصرفى هذا لوكان فى مكانى ! ..

ورفع السيف ، والقاه فى البحر . ولكن حتى هـــذه الاشارة التاريخية لم تترك اى اثر فى البحارة .

ومنذ ذلك الحين حدثت فى الاسطول احداث عنيفة . اشار البارومتر الى قرب هبوب عاصفة . وكان البحارة الذين تربطهم حياة البحر برباط قوى ، الرجال الاشداء الجسورون الخفاف الحركة ، الذين رأوا المحيطات واراضى غريبة ، والذين هم اكثر تطورا من الجنود الاعتياديين ، واكثر احساسا بالحاجز الذى لا يمكن اجتيازه القائم بين مقصورة الضباط ، وعنابر البحارة ، لقد كان هؤلاء البحارة مادة سريعة الاشتعال . وقد اسرعت الثورة فى الاستفادة منهم منذ البداية . ودخل البحارة معمعان النضال بكل ما لهم من حماس لا ينضب واضرموا بانفسهم قوى العدو الذى كان مترددا لم يستقر بعد على قرار ، مترقبا ، محتشدا ، ليستجمع قواه .

ولم يعد لسيميون الوقت ليفكر فى البيت ، وفى الزوجة . فى اكتوبر انتهت الكلمات الجميلة ، وبدات البندقية تقول كلمتها . وكان العدو فى كل خطوة ، والموت يكمن مترصدا فى كل نظرة خائفة وحاقدة ومتكتمة . وكانت روسيا من بحر البلطيق حتى المحيط الهادى ، ومن البحر الابيض حتى البحر الأسود فى غليان كدر حانق . القى سيميون بندقيته على كتفه ، وخرج ليحارب «افعوان الثورة المضادة» .

شق روتشين وكاتيا طريقهما فى محطة القطار من خلال الزحام يحملان صرة وابريق شاى ، واجتازا مع السيل البشرى نقاط الحراسة الشاهرة الحراب ، وصعدا فى الشارع الرئيسى فى روستوف .

قبل شهر ونصف فقط كانت صفوة المجتمع البطرسبورغى تتجول هنا متنقلة من مخزن الى مخزن . وكانت الارصفة تزدهى بالوان طاقيات الحرس ، والمهمازات تصلصل ، واللغة الفرنسية تسمع هنا وهناك ، والسيدات الانيقات يخفين انوفهن من القر فى الفراء الثمين . كان من طيشهن المفرط يتوقعن تمضية الشتاء هنا فقط ليعدن فى مستهل الصيف الى شققهن وداراتهن فى بطرسبورغ ، حيث الحجاب الرصينون والصالات ذوات العمد ، والابسطة والمواقد الملتهبة . آه ، بطرسبورغ ! لا بد أن يمر كل شىء

بسلام فى آخر المطاف . والسيدات الانيقات لسن ملومات فى شىء على الاطلاق .

واذا بكل شىء قد اختفى ، وكان مخرج مسرح الكبير صفق بيديه ليدير المنظر فى مسرح دائرى . وتغير الديكور . اقفرت شوارع روستوف ، وسمرت ابواب الحوانيت بالالواح ، هشم الرصاص زجاج واجهاتها . واخفت السيدات فراءهن ، وشددن رؤوسهن بالمناديل . هرب جزء صغير من الضباط مع كورنيلوف ، وتحول الآخرون بسرعة مسرحية الى برجوازيين صغار وادعين ، والى ممثلين ، ومغنين فى المقاصف ، ومعلمى رقص ، الى غير ذلك . كانت ريح شباط تدفع دوامات من القاذورات على الارصفة ...

قال روتشين :

– نعم ، تاخرنا .

كان يسير مطرق الراس . كان يخيل اليه أن جسد روسيا يتحطم الى آلاف القطع . فان العقد الوحيد الذى كان يغطى الامبراطورية قد انهار مزقا . ويصبح الشعب كالقطيع . ويختفى التاريخ ، والماضى المجيد ، مثل الاغشية الضبابية الموضوعة على ديكور . ويتكشف خواء اجرد محروق .. قبور ، وقبور ... تلك نهاية روسيا . كان يحس بان شيئا فى داخله كان يعتبره راسخا ومحورا لحياته ، قد تهشم الى كسر واخزة ... كان يسير متاخرا خطوة واحدة وراء كاتيا ، متعثرا اثناء سيره . «روستوف سقطت ، وسيُقضى على جيش كورنيلوف آخر قطعة متجولة من روسيا ، ان لم يكن اليوم فغدا .. وعندئذ لم تبق الا أن اوجه رصاصة الى صدغى» .

سار الزوجان على غير هدى . تذكر روتشين عناوين بعض رفاقه فى الفرقة . ولكن لعلهم هربوا او قتلوا رميا بالرصاص ؟ عندئذ لا مفر من الموت على قارعة الطريق . نظر الى كاتيا . كانت تسير هادئة متواضعة فى سترتها القصيرة من الصوف السميك ، ولفاحها الوبر . كان وجهها الحلو ذو العينين الرماديتين الواسعتين يتلفت بنقاء سريرة متحولا من اللافتات المخلوعة الى الواجهات المسدودة . وعلى طرفى ثغرها شبح ابتسامة . «الا تفهم كل هذه الفظاعة ؟ ما هذه السماحة والغفران ؟»

كان رهط من الجنود العزل يقفون فى ركن الشارع . كان احدهم ، وهو رجل مجدر الوجه ذو عين منتفخة من تجمع الدم حولها ، يتابط رغيف خبز رمادى اللون كان بين الحين والآخر يقتطع منه قطعة بحركة وانية ، ويمضغها ببطء . قال له أحد الجنود :

– لا يستطيع أحد ان يفهم الوضع هنا . لمن السلطة ؟ للسوفييتات ام لغيرها ؟

وكان مع الجندى المتكلم صندوق خشبى ربط اليه حذاء لبادى مستهلك . فأجابه ماضغ الخبز :

– السلطة بيد الرفيق بروينيتسكى . فاذهب للبحث عنه . سيعطينا قطارا نرحل عليه . والا فسنقضى العمر كله متعفنين فى روستوف .

– من هو هذا ؟ ما هى رتبته ؟

– مفوض عسكرى ، على ما يبدو ...

اقترب روتشين من الجنود ، وسأل عن احد العناوين . اجابه احدهم فى غير ما ود :

– لسنا من اهالى المدينة .

وقال آخر :

– لم تصل الى الدون فى الوقت المناسب ، ايها الضابط .

اسرعت كاتيا فى جذب زوجها من كمه ، فعبرا الشارع الى الرصيف المقابل . كان شيخ فى معطف مهلهل وقبعة قشية يجلس هناك على مسطبة تحت شجرة جرداء . وكان الشيخ يرتعش وهو يضع ذقنه غير الحليق على عجرة عصاه ، وكانت قطرات من الدمع تسيل من عينيه المغمضتين على خديه الغائرين .

سرت رجفة فى وجه كاتيا . عندئذ جذب روتشين كمها قائلا :

– لنذهب ، لنذهب . لن تستطيعى ان ترثى لكل الناس ...

وظلا يضربان طويلا فى المدينة القذرة الرثة حتى عثرا على رقم البيت الذى ينشدانه . دخلا فرأيا رجلا قصير القامة متين الرجلين له رأس اجرد كالبيضة . كان يرتدى صدارا مبطنا بلا كمين من صدارات الجنود قد غطاه القذر كليا . وكان يحمل قدرا ادار عنه

وجهه لنتانته . كان ذلك هو تيتكين المقدم فى الفوج الذى كان يخدم فيه روتشين . وضع القدر على الأرض ، وتعانق مع فاديم بتروفيتش ، وصفق كعبيه ، وصافح كاتيا .

– ارى ، ارى ، ولا حاجة للكلام . ساجد لكما مكانا . فقط ان تسكنا فى غرفة واحدة صغيرة . ولكن مقابل ذلك هناك مرآة ذات ثلاثة أوجه ، ودريقة . وزوجتى من هذه المنطقة ... فى البداية عشنا هناك (واشار الى بيت أجرى من طابقين) ثم انتقلنا الى هنا (واشار الى ملحق خشبى متداع) لنعيش حياة بروليتارية . وأنا ، كما ترى ، اغلى صبغ الأحذية . وقد سجلت أسمى فى بورصة العمل كعاطل ... واذا لم يش الجيران بنا فسنتحمل على نحو ما ... نحن روس ، ونستطيع التعود .

وضحك كاشفا عن اسنان رائعة فى فمه الكبير ، ثم قال بتفكير : «اجل ، تلك حالة الأمور» ومسح صلعته براحة كفه ملطخا اياها بصبغ الاحذية .

ورحبت زوجته بالضيفين بصوت رخيم ، وكانت قصيرة مثله ركينة البنيان ، الا أن عينيها العسليتين نمتا عن شىء من عدم الارتياح . انزل روتشين وكاتيا فى حجرة صغيرة واطئة تسلخ ورق حيطانها . وكان فيها ، بالفعل ، مرآة ذات ثلاثة أوجه فى حالة سيئة ادير وجهها الى الحائط عند احد الاركان ، ودريقة ، وسرير حديدى . قال تيتكين :

– ادرنا وجه المرآة الى الحائط محافظة عليها . فانها شىء ثمين . فقد يأتون للتفتيش فتتحول الى حطام . فانهم لا يتحملون النظر الى وجوههم – وضحك ثانية ، ومسح على صلعته – وعلى اية حال انا افهمهم بعض الشىء : التحطيم يجرى على نطاق البلاد كلها ، فاذا وجدوا امامهم مرآة ، حطموها ...

واعدت زوجته المائدة بنظافة ، الا أن الشوكات كانت صدئة ، والصحون غير سليمة . والظاهر أنهما قد اخفيا ما لهما من متاع عزيز . اكل روتشين وكاتيا بلذة شديدة السمك المدخن والخبز الأبيض والبيض المقلى مع شرائح دهن الخنزير . وأنشغل تيتكين واضعا الطعام فى صحنيهما . بينما طوت زوجته ذراعيها السميكتين تحت نهديها ، وراحت تشكو من الحياة :

– البشاعة فى كل مكان ، والقمع . انه باختصار تعذيب . انا منذ اكثر من شهر لا اخرج من الفناء . . . ليتهم يطردون هؤلاء البلاشفة فى اقرب وقت . . . ماذا يقولون عن الوضع عندكم فى العاصمة ؟ هل سيبيدونهم قريبا ؟

قال تيتكين مرتبكا :

– امسكى لسانك . انك على مثل هذه الكلمات تفقدين رأسك فى مثل هذه الايام ، يا صوفيا ايفانوفنا .

– لن اسكت . فليقتلونى !

وتدورت عينا صوفيا ايفانوفنا ، وشدت ذراعيها على تحت نهديها بقوة . وقالت :

– سيعود القيصر الينا (وهزت نهديها لزوجها) انت وحدك لا تبصر شيئا . . .

تعبس تيتكين باعتذار . وحين خرجت زوجته من الحجـــرة متضايقة تحدث همسا :

– لا تلقيا بالا اليها . انها انسانة طيبة القلب ، وربة بيت فاخرة ، الا أن الاحداث افقدتها توازنها . . . (ونظر فى وجه كاتيا الذى احمر من الشاى ، والى روتشين الذى كان يلف سيكارة) آه ، يا فاديم بتروفيتش ، ليس ذلك بالأمر الهين . . . لا يجوز النظر فى الاحداث دون تمحيص ولا دراية . . . يصادف ان التقى بأناس ، وارى الكثير . . . اذهب غالبا الى بتايسك ، على الضفة الاخرى من الدون . وغالبية السكان هناك من فقراء الفلاحين والعمـــال . . . فاى قطاع طرق هم ، يا فاديم بتروفيتش ؟ لا ، بل هم اناس مذلون ومهانون . . . وما اشد انتظارهم للسلطة السوفييتية ! فقط الا تعتبرنى بلشفيا ، بحق الرب (ووضع على صدره يدين قصيرتين مشعرتين متضرعا ، وكأنه يعتذر اعتذارا شديـــــدا) ان الحكام المتكبرين القصار العقول هم الذين اعطوا روستوف للسلطـــة السوفييتية . . . ليتك تعرف ماذا حدث عندنـــا ايام الاتمان كاليدين . . . كان ضباط الحرس الفاجرون المتغطرسون يذرعون شارع سادوفايا بصفوف زاهية قائلين : «سنعيد اولئك الاوغاد الى السراديب» . واولئك الاوغاد هم كل الشعب الروسى . . . انه يقاوم ولا يريد ان يعيش فى السرداب . فى كانون الأول كنت فى

٥*

نوفوتشيركاسك ، انت تذكر ان المحبس يقع فى الشارع الرئيسى ، وقد بناه الاتمان بلاتوف ، على ما يقال ، فى عهد الكسندر المبارك ، وهـــو مبنى صغير على النمط الامبراطورى . والآن حين اغمض عينى ، يا فاديم بتروفيتش اتخيل درجات ذلك الرواق المخضبة بالدم . . . عندما مررت به سمعت صراخا رهيبا ، كالصراخ الذى يطلقه انسان يعذب . . . وذلك فى وضح النهـــار ، وفى وسط عاصمة منطقة الدون . . . واقترب فارى بالقرب مـــن المحبس جمهورا وقوزاقا مترجلين . والجميع صامتون ينظرون الى جلد يجرى عند الأعمدة لتخويف الناس . كانوا يخرجون العمال المتعاطفين مع البلاشفة من المخفر اثنين اثنين ويجلدونهم . تصور ، لمجـــرد التعاطف . يثبتون أذرعهم على الأعمدة فى الحال ، ويبدأ اربعة من القوزاق الأقوياء بإلهاب ظهورهم واعجازهم بالسياط . فكان لا يسمع غير صفير السياط ، والقمصان والبناطيل تتطايـــر مزقا ، واللحم قطعا ، والدم يسح على الدرجات ، وكأنه دماء حيوانات ذبيحة . . . أنا من الصعب أن أُصدم ، ولكننى صدمت آنذاك : ترامت صيحة رهيبة جدا . . . لا يصرخ الناس مثلها لمجرد ألم جسمانى . . .

كان روتشين يصغى منكس البصر ، واصابعـه الممسكـــة بالسيكارة ترتجف . حك تيتكين باصبعه نقطة خردل لصقت على الخوان .

– وبالنتيجة فارق الاتمان الحياة ، وصفوة القوزاق الاعيان مدفونون فى المنخفض خارج المدينة : الدم المسفوح على الدرجات طلب الثأر . سلطة الفقراء . . . انا شخصيـــا لا يهمنى أن اغلى صبغ احذية أو افعل شيئا آخر . . . لقد خرجت حيا من الحرب العالمية ، ولا أثمن غير شىء واحد هو نفس الحياة ، واعذرنى على هذا التشبيه . لقد قرأت الكثير من الكتب وانـــا فى الخنادق ، وتشابيهى ادبية . اذن . . . (وهنا نظر فى الباب ، وخفض صوته) سأقتنع بكل نظام للحياة اذا رأيت اناسا سعداء . . . ارجو أن تفهمنى ، يا فاديم بتروفيتش ، انا لست بلشفيا . . . (ووضع يديه على صدره مرة أخرى) . انا لا احتاج لنفسى الشىء الكثير : قطعة خبز ، قبضة تبغ ، وصحبة صميمية حقا . . . (وضحـــك

بارتباك) . لكن المسالة ان العمال متذمرون ، ودع عنك عامة الناس . . . هل سمعت بالمفوض العسكرى الرفيق بروينيتسكى ؟ نصيحتى أن تختفى حين ترى سيارته منطلقة . صعد بعد الاستيلاء على روستوف مباشرة . ما ان يسمع كلمة اعتراض واحدة حتى يصيح : «الرفيق لينين يقدرنى تقديرا عاليا ، وانا ابرق للرفيق لينين شخصيا . . .» وقد احاط نفسه بعناصر اجرامية . فى كل مكان تجرى المصادرة والرمى بالرصاص . وفى الليالى يسلبون فى الشوارع أيا كان . انه يتصرف كقاطع طريق . . . فما هذا ؟ واين تذهب الاموال المصادرة ؟ . . ان اللجنة الثورية لا تستطيع ان تفعل شيئا معه . تخاف . . . لا اعتقد أنه رجل مبدئى . . . انه يلحق الضرر بالقضية البروليتارية اكثر . . . (الا ان تيتكين ادار ظهره شاعرا بأنه قد تمادى فى الامر ونخر ، واخذ يضع يديه على صدره بلا كلمات هذه المرة) .

قال روتشين ببرود :

– انا لا افهمك ، ايها السيد المقدم . ان بروينيتسكى وامثاله هم السلطة السوفييتية الصرف . . . ولا يمكن تبرير اعمالهم ، بل مكافحتهم غير باخلين بالحياة . . .

اسرع تيتكين يسال :

– لاجل من ؟

– لاجل روسيا العظيمة ، ايها السيد المقدم .

– وما هى هذه ؟ اعذرنى على طرح السؤال بهذه الصورة الحمقاء . روسيا العظيمة بأى مفهوم ؟ اريد تعبير ادق . بمفهوم الطبقة العليا فى بتروغراد ؟ هذا واحد . . . أم بمفهوم فوج المشاة الذى خدمنا ، انت وانا فيه ، والذى هلك ببطولة على الاسلاك الشائكة ؟ ام بمفهوم مؤتمر التجار فى موسكو ؟هل تذكر كيف بكى ريابوشينسكى * على روسيا العظيمة فى مسرح البلشوى ؟ وهذا ثالث مفهوم . ام بمفهوم العامل الذى يتفهم عظمة روسيا فى الاعياد حين يكون فى خمارة قذرة ؟ أم بمفهوم مائة مليون فلاح . . .

---

* من كبار اصحاب البنوك والمعامل الروس ومن زعماء الثورة المضادة البرجوازيين . – **المترجم** .

– اللعنة . . . (اسرعت كاتيا بالضغط على يد روتشين تحت المائدة) . اعذرنى ، يا مقدم ، حتى الآن كنت اعرف أن روسيا هى ما تسمى بسدس الكرة الارضية ، ويسكنها شعب عاش تاريخا عظيما . . . ام لعل الأمر ليس كذلك حسب راى البلاشفة . . . ارجو المعذرة . . . (وابتسم ابتسامة مريرة من خلال الضيق المكبوت فى صدره بصعوبة) .

– انه كذلك بالضبط . . . وأنا فخور . . . انا شخصيا احس بالرضا حين اقرأ تاريخ الدولة الروسية . الا ان المائة مليون فلاح لم يقرأوا هذه الكتب ، ولا يحسون بالفخر . وهم يريدون ان يكون لهم تاريخهم الخاص المتجه الى الازمان المقبلة لا الازمان الغابرة . . . تاريخ الرخاء . . . ولا مفر من ذلك . ثم أن لهم قادة هم البروليتاريا ، وهؤلاء يتقدمون اكثر من ذلك ، انهم يتجراون على خلق ما يسمى بالتاريخ العالمى . . . ولا مفر من ذلك ايضا . . . انت تتهمنى بالبلشفية ، يا فاديم بتروفيتش . . . وانا اتهم نفسى بالتفرج ، وتلك خطيئة باهظة ، ولكن عذرى هو فى التعب الشديد من حياة الخنادق ، وآمل ان اكون بمرور الوقت أكثر نشاطا ، عندئذ لا اظننى ساعترض على تهمتك هذه . . .

وباختصار انتفش تيتكين ، وقد تغطت صلعته المحمرة بقطرات العرق . كان روتشين يلبس معطفه بسرعة ولكنه لم يفلح فى وضع ازراره فى مواضعها الصحيحة . وتقلص وجه كاتيا من الحزن الشديد ، وهى لا تفتأ تنقل بصرها بين زوجها وتيتكين . وقال روتشين بعد صمت متوتر :

– متاسف لفقدى رفيقا . شكرا جزيلا على حسن الضيافة . . .

وخرج من الغرفة دون أن يمد يده للمصافحة . وفجأة قالت كاتيا التى كانت تلزم الصمت دائما ، قالت بصوت عال كالصراخ وهى شدت يديها :

– فاديم ، ارجو ان تنتظر . . . (التفت رافعا حاجبيه) فاديم ، لست الآن على حق . . . (وتوهجت وجنتاها) . لا يمكن ان يعيش الانسان بمثل هذا المزاج ، بمثل هذه الافكار . . .

قال روتشين مهددا :

– هكذا ، اذن ! . تهانى' . . .

– فاديم ، أنت لم تسألني عن رأيي قط ، وانا لم اطالبك ، ولم اتدخل في شؤونك . . . لقد وثقت بك . . . ولكن يجب ان تفهم ،يا عزيزي فاديم ، أن تفكيرك خاطئ . اردت ان اقول ذلك منذ زمان بعيد . . . يجب القيام بشيء آخر مختلف كليا . . . ليس الأمر الذي جئت من اجله الى هنا . . . يجب ان تفهم أولا . . . وعندئذ فقط ، اذا كنت واثقا (وهنا انزلت ذراعيها وظلت تشدهما تحت المائدة من الانفعال الشديد) . . . واذا كنت واثقا من أن ضميرك يسمح لك ، في هذه الحال اقتل . . .

– كاتيا ، – صرخ بها صرخة حانقة وكأنها من ضربة وجهت اليه – ارجو ان تصمتي !

– لا ! . . أنا اقول ذلك لانني احبك حبا جنونيا . . . يجب الا تتحول الى قاتل . . يجب ، يجب . . .

ظل تيتكين يهمس وهو لا يجرؤ على أن يندفع اليها او اليه :

– اصدقائي ، اصدقائي . . دعونا نتكلم ، نتفق .

ولكن الاتفاق كان مستحيلا . فان كل ما تجمع في نفس روتشين خلال الاشهر الأخيرة قد انفجر بكره عارم . كان واقفا عند الباب مادا عنقه ونظر الى كاتيا ، مكشرا عن اسنانه . وفح :

– امقتك . الى الشيطان ! . . مع حبك . . . ستجدين لنفسك سافلا . . . بلشفيا . . . الى الشيطان ! . .

وارسل من حنجرته نفس الصوت المؤلم الذي ارسله وهو في عربة القطار ، وبدا وكأنه موشك على اتيان اشياء فظيعة ، وأن الجو مشحون بمصيبة . . . (حتى تحرك تيتكين ليحمي كاتيا) . الا أن روتشين قلص عينيه ببطء ، وخرج .

كان سيميون كراسيلنيكوف جالسا على سرير المستشفى يستمع بتجهم الى اخيه الكسي . وكانت المؤونة التي ارسلتها له ماتريونا – دهن خنزير ، ولحم دجاج ، وفطائر – مستقرة عند مؤخرة السرير . ولم يكن سيميون ينظر اليها . كان نحيفا ، ووجهه سقيما غير حليق ، وشعره ملتفا من طول الرقاد ، وساقاه نحيلتين

وهما في السروال الداخلي من القماش الاصفر الرخيص . كان ينقل بيضة حمراء من يد الى يد . وكان اخوه الكسي الملوح البشرة الاشقر اللحية يجلس على مقعد بلا مسند ، فارجا ساقيه اللابستين حذائين جيدين ، وكان يقول بعذوبة ورقة ، ولكن قلب سيميون يستوحش لكل كلمة يقولها :

– الفلاحون لهم خطهم الخاص ، وللعمال خطهم الآخر . . . دخل العمال في المنجم «غلوبوكويه» عندنا فامتلأ بالماء ، وتعطلت الآلات ، وتشتت المهندسون . بينما لا بد أن يأكل الانسان ، صحيح ام لا ؟ دخل العمال جميعا الى الحرس الأحمر . يعني أن مصالحهم تقتضي تعميق الثورة . صحيح ام لا ؟ بينما الثورة بالنسبة لنا نحن الفلاحين هي حرث مقدار عشر بوصات عميقا في التربة ، وتعميقنا لها يعني الحرث والبذر والحصد . هل قولي صحيح ام لا ؟ اذا كنا نذهب جميعا لنحارب فمن سيعمل اذن ؟ النسوان ؟ نحمد الله اذا استطعن رعاية المواشي . بينما الارض تتطلب العناية والرعاية . ذلك هو الأمر ، يا اخي . فلنسافر الى ديارنا ، فانك ستتشاق اسهل على غذائنا . اصبحت لنا ارض الآن . بينما لا يوجد من يعمل فيها . لا احد يحرث ، ويبذر ، ويحصد . وكيف نستطيع ، ماتريونا وانا ، وحدنا ان نفعل ذلك كله ؟ عندنا الآن ثمانية عشر خنوصا ، وقد وضعت عيني على بقرة ثانية . وكل ذلك يحتاج الى ايد عاملة .

اخرج الكسي كيس التبغ من جيب معطفه العسكري . فهز سيميون راسه ممتنعا عن التدخين : «ما يزال الصدر موجعا». اخذ الكسي يقلب المؤونة ، وهو ماض في اقناع اخيه بالذهاب للعيش في القرية ، وتناول فطيرة رقاقية منتفخة ، وتلمسها .

– كل هذه . صرفت ماتريونا رطلا كاملا من السمنة .

قال سيميون :

– اسمع ، يا الكسي ايفانوفيتش . انا لا اعرف بما اجيبك . ساذهب معك الى القرية بسرور ريثما يندمل الجرح . ولكن لن اعمل في الأرض ، فلا تأمل في ذلك .

– طيب ، ايمكن ان اسأل لماذا ؟

– لا اقدر ، يا اليوشا * (وتشنج فمه ، الا انه تغلب على ذلك بجهد) . افهمنى ، لا اقدر . لن استطيع ان انسى جرحى . . . لن استطيع ان انسى جلدهم لرفقائى . . . (واشاح بوجهه نحو النافذة بمثل ذلك التشنج ونظر بعينين ضاريتين) . يجب ان تضع نفسك فى موضعى . . . لا استطيع ان افكر الا بهؤلاء الاوغاد . . . (وهمس بشىء ما ، ثم رفع صوته ضاغطا البيضة الحمراء فى قبضته) . لن اهدأ . . . ما دام هؤلاء الاوغاد يمتصون دماءنا . . . لن اهدأ ! . .

هز الكسى ايفانوفيتش راسه ، وبصق على عقب السيكارة بين اصبعيه ليطفئها ، وتلفت ليضعها فى مكان ما ، ثم القاها تحت السرير .

– حسنا ، يا سيميون ، قضيتك قضية نبيلة . . . لنسافر الى ديارنا لتتشافى . ولن الزمك البيت بالقوة .

ما كاد الكسى كراسيلنيكوف يخرج من المستشفى حتى التقى بابن قريته ايغنات ، من جنود الجبهة . توقف الاثنان ، وتبادلا التحية ، واستفسر كل واحد عن احوال صاحبه . فقال ايغنات انه يعمل سائقا لدى اللجنة التنفيذية . ثم مضى يقول :

– لنذهب الى سينما «سوليل» ، ومنها الى بيتى لتبيت عندى . القتال دائر هناك اليوم . هل سمعت عن المفوض برونيتسكى ؟ لا اعرف كيف يجد منفذا من الورطة اليوم . رجاله مستشرسون ، والمدينة كلها تعول من جراء تصرفاتهم . يوم امس نهارا قتلوا صبيين من تلامذة المدرسة فى ذلك الركن لغير ما سبب . هجموا عليهما بالسيوف . وكنت واقفا هنا ، عند العمود ، فتقيأت . . .

ووصلا الى سينما «سوليل» وهما يتحدثان . كان الناس كثيرين . فشقا طريقهما ، ووقفا قرب موقع الاوركسترا . كان رجل نحيل شاحب جدا محدودب الظهر له شعر طويل كثيف اسود يسير بخطى قصيرة أمام منضدة هيئة الرئاسة على المسرح الصغير ،

* صيغة تدليل من الكسى . – **المترجم** .

وكانه يسير فى قفص ، وكانت هيئة الرئاسة تتالف من امرأة مدورة الوجه فى معطف للجنود ، وجندى كئيب السحنة ذى رأس مضمد بشاش قذر ، وعامل عجوز نحيل العود يرتدى نظارة وشابين فى قميصين من القمصان العسكرية . وكان الرجل الشاحب يتحدث ملوحا بقبضة واهنة وبحركة رتيبة ، بينما كانت يده الأخرى تقبض على قصاصات من الصحف .

همس ايغنات لكراسيلنيكوف :

– انه معلم وهو من اعضاء السوفييت عندنا . . .

– لا نستطيع ان نصمت . ولا يجب ان نصمت . . . أمن المعقول أن ما لدينا فى المدينة هى السلطة السوفييتية التى حاربتم فى سبيلها ؟ . . عندنا تعسف . . . استبداد اسوأ من الاستبداد القيصرى . . . انهم يقتحمون البيوت على السكان الآمنين . . . وعند هبوط الظلام يتعذر الخروج الى الشارع بسبب السلب والنهب . . . والاطفال يقتلون فى الشوارع . . . وقد تحدثت بذلك فى اللجنة التنفيذية ، وتحدثت فى اللجنة الثورية . . . ان اعضاءها عاجزون . . . فان المفوض العسكرى يتستر على كل هذه الجرائم بسلطته المطلقة . . . ايها الرفاق . . . (وضرب على صدره ضربة عصبية بحزمة القصاصات) . لماذا يقتلون الاطفال ؟ لتقتلونا . . . ولكن لماذا تقتلون الاطفال ؟ . .

وغطى على كلماته الاخيرة هدير منفعل شمل القاعة كلها . كان الجميع يتبادلون النظرات فى رعب واضطراب . وجلس الخطيب الى منضدة الرئاسة ، وغطى وجهه المتغضن باوراق الجرائد . تلفت رئيس الجلسة ، وهو الجندى المضمد ، نحو الكواليس ، وقال :

– الكلام الآن للرفيق تريفونوف آمر الحرس الأحمر . . .

صفقت القاعة كلها . صفقوا واذرعهم مرفوعة . وصاحت عدة اصوات نسائية من اعماق القاعة : «نرجوك ايها الرفيق تريفونوف» . وصعق صوت عميق النبرة : «مرحى للرفيق تريفونوف !» . عند ذاك ابصر الكسى كراسيلنيكوف رجلا ممشوق القامة فارعا فى سترة جلدية انيقة وحزامين متصالبين مما يلبسه الضباط يقف عند موقع اوركسترا بالذات مديرا ظهره للجمهور ، ثم استدار فجأة كالنابض ليواجه الصياحين والمصفقين . مرر عينيه الجاحظتين

الرماديتين الفاتحتين بلون الفولاذ على الوجوه بسخرية وبرود ، واخذت اذرعهم تنزل فى الحال ، وتنكمش رؤوسهم بين الاكتاف ، وصار الناس يكفون عن التصفيق . وسار بعضهم مسرعين نحو المخرج وهم منحنون .

ابتسم ذو العينين الفولاذيتين ابتسامة مزدرية . وعدل قراب مسدسه بحركة قصيرة . كان له وجه ممثل طويل حليق حلاقة جيدة . استدار نحو المسرح ثانية ووضع مرفقيه على حاجز موقع الاوركسترا . لكز ايغنات جنب كراسيلنيكوف .

– انه بروينيتسكى . نظرته وحدها تكفى لكى تفزع .

خرج تريفونوف آمر الحرس الأحمر من وراء الكواليس يضرب الارض بحذائيه الثقيلين . كان كم سترته من قماش الفنيلة مربوطا بربطة حمراء . كان يمسك بين يديه عمرة مربوطة ايضا بربطة حمراء فى طرفها الاعلى . كان ركين البنيان ، بادى الرصانة . اقترب من حافة المسرح ببطء . وتحركت جلدة راسه الرمادية على جمجمته الحليقة . كان الظل المرتمى من جبينه يغطى عينيه . رفع ذراعه فساد الصمت . اشار بكف نصف مضمومة الى بروينيتسكى الواقف الى الاسفل .

– أيها الرفاق ، ها هو بروينيتسكى ، المفوض الحربى موجود هنا . وذلك شيء جيد جدا . فليجب هو على السؤال . واذا لم يرد أن يجيب سنجبره على ذلك .

قال بروينيتسكى من الاسفل بتهديد .

– هكذا !

– نعم ، سنجبره . نحن سلطة العمال والفلاحين ، وهو ملزم على الخضوع لها . ان الوقت حرج الآن ولذا يصعب فهم كل الأمور دفعة واحدة . . . انه لزمن مضطرب . والوسخ ، كما هو معروف ، يطوف دائما على السطح . . . ومن هنا نستدل ان محتالين يلتصقون بالثورة . . .

صاح بروينيتسكى بلكنة بولونية واضحة :

– ماذا يعنى ؟ . . سم . . . سم اسما .

– لا تستعجل ، سنصل الى الاسم ايضا . . . لقد نظفنا مدينة روستوف من عصابات الحرس الابيض بدماء العمال

والفلاحين ، أيها الرفاق . . . وتقف السلطة السوفييتية فى منطقة الدون بقدمين راسختين . لماذا ترامت الاحتجاجات من كل جانب ؟ العمال قلقون ، ورجال الحرس الاحمر مستاؤون . . . والجنود فى القطارات هائجون قائلين لماذا يتركوننا فى سكك الحديد خلال وقت طويل دون حركة ؟ . . وقبل دقائق سمعنا هنا صوت ممثل المثقفين (واشار بكفه الى الخطيب السابق) . فما هى المسالة ؟ يبدو كل انسان غير راض عن السلطة السوفييتية ؟ يقولون : لماذا تنهبون ، لماذا تسكرون ، لماذا تقتلون الاطفال ؟ بل ان الخطيب السابق طلب بنفسه ان يُقتل . . . (ضحك وتصفيق هنا وهناك) . ايها الرفاق ، ان السلطة السوفييتية لا تنهب ولا تقتل الاطفال بل الاوغاد الذين لصقوا بالسلطة السوفييتية هم الذين ينهبون ويقتلون . . . وبذلك يقوضون ايمان الناس بالسلطة السوفييتية ، وبذلك يضعون فى ايدى اعدائنا سلاحا لا يرحم . . . (توقف . صمت لا تسمع فيه انفاس مئات من الناس .) ولهذا السبب أريد ان اسأل على الرفيق بروينيتسكى . . . هل يعلم هو بمقتل صبيين يوم امس ؟

صوت بارد من الاسفل :

– نعم ، اعلم .

– جيد جدا . وهل يعلم بالسطوات الليلية ، والسكر والعربدة فى فندق «بالاس» ؟ هل يعلم أين تذهب الاموال المصادرة ؟ اتسكت ، يا رفيق بروينيتسكى ؟ ليس عندك ما ترد به . الاموال المصادرة تنفقها عصابة اللصوص على الخمرة . . . (هدير فى القاعة . تريفونوف يرفع ذراعه .) وهناك شيء آخر قد اتضح لنا . . . لم يعطك احد السلطة فى روستوف . ان اوراق تفويضك مزيفة ، واستشهاداتك بموسكو ، ولا سيما بالرفيق لينين كذب وقح . . .

كان بروينيتسكى يقف الآن منتصب القامة . وقد سرت رجفات فى وجهه الوسيم الشاحب . وفجأة قفز جانبا الى حيث يقف جندى شاب اشقر الشعر فاغر الفم ، وامسكه من معطفه ، وصاح بصوت رهيب مشيرا الى تريفونوف :

– ارم هذا الوغد !

تلوى وجه الشاب بشكل وحشى ، وجذب البندقية من ظهره . كان تريفونوف يقف بلا حراك مباعدا ساقيه ، الا ان رأسه انحنى بحركة كحركة الثور . خرج عامل من وراء الكواليس ، ووقف بالقرب منه ، وحرك ترباس البندقية على عجل . وفى الحال تبعه آخر ، وثالث حتى امتلأ المسرح كله بسواد الستر والمعاطف ، وصلصلت الحراب المتصادمة . عندئذ صعد رئيس اللجنة فوق المنضدة ، وعدل الضمادة التى تهدلت على عينيه ، وصرخ بصوت مزكوم :

— أيها الرفاق ، ارجو الا تثيروا الذعر ، لم يحدث شىء غير متوقع . اغلقوا الباب ، يا مَنْ فى الخلف . الرفيق تريفونوف فى امان تام . الكلام للرفيق بروبنيتسكى للرد .

الا أن بروبنيتسكى اختفى . وكان الجندى الاشقر وحده ما يزال فى وقفته بالقرب من مكان الاوركسترا فاغرا فمه بدهشة .

٣

لقى جيش المتطوعين مقاومة جدية جدا بالقرب من قرية كورنيفسكايا . ومع ذلك فقد استولى على القرية بخسائر كبيرة ، وهنا صار مؤكدا ما كان يخفى عن الجيش ، ويخشى منه اكثر من اى شىء آخر على الاطلاق : قبل عدة ايام استسلمت يكاترينودار عاصمة منطقة كوبان للبلاشفة بلا قتال ، وهى التى كانت هدف الحملة ، والامل فى الراحة ، وقاعدة للاستمرار فى النضال ، وهرب المتطوعون من كوبان تحت امرة بوكروفسكى واتمان كوبان والحكومة المحلية نفسها الى جهة مجهولة . وهكذا وجد الجيش نفسه فجأة فى حيص بيص ، وهو على بعد مسيرة ثلاثة ايام من الهدف .

كما ان الامل فى ان تلقاه كوبان باستبشار كان خادعا ايضا . والظاهر ان القوزاق قرروا معرفة ما يحدث دون معونة جيش المتطوعين . كانت الضياع على طريق الجيش مهجورة ، فى كل قرية كمين بالانتظار ، وفوق كل قمة تل رشاشة فى الحراسة . فعلام يمكن ان يعول جيش المتطوعين ؟ على قوزاق الكوبان المنحدرين من اوكرانيا ، ام على الجركس الذين شبوا على العداوة القديمة نحو الروس ، ام على فصائل جيش القفقاس التى لزقت باراضى كوبان الغنية وقد راح كلهم يغنون فجأة فى جوقة واحدة مع الضباط ذوى الكتافيات الذهبية وطلاب المدارس العسكرية اليافعين : «مرحى لكورنيلوف ، مرحى للوطن ، مرحى للايمان !» ولكن هذه الصيغة المستهلكة العديمة النفع والمطموسة كالعملة القيصرية هى كل ما كان جيش المتطوعين يستطيع تقديمه للقرى القوزاقية الغنية وقد تيقظت لتتساءل «الم يحن الوقت لنعلن جمهوريتنا القوزاقية المستقلة ؟» وللاغراب الذين لجاوا من المناطق الأخرى الملتفين حول الرايات الحمراء ليناضلوا من اجل المساواة فى الحقوق فى اراضى كوبان والدون ، وصيد الاسماك ، وفى سبيل السلطة السوفييتية . . .

حقا ان جيش المتطوعين كان ياخذ معه فى طابوره الداعية الشهير البحار فيودور باتكين الاعوج القدم ، الداكن البشرة بروبه من القماش المشمع ، وطاقيته المزينة باشرطة القديس غيورغى . وقد حاول الضباط اكثر من مرة ان يقتلوه اثناء المسيرة كيهودى حقير وابن كلب احمر . الا ان كورنيلوف نفسه كان يحميه وهو يظن ان البحار المشهور باتكين يسد كليا نواقص الجيش فى حقل الايديولوجية . وفى الحالات التى كان قائد الجيش يضطر فيها للكلام امام الناس (فى القرى القوزاقية) كان يترك باتكين يتحدث قبله ، فكان هذا يثبت للاهالى بمكر وذكاء ان كورنيلوف يدافع عن الثورة ، وان البلاشفة ، على العكس من ذلك ، اعداء للثورة مباعون للالمان .

وما كان من الممكن ان يستسلم الجيش لان الاسرى لم يكونوا ياخذون فى ذلك الوقت . وكان التفرق يعنى الموت واحدا واحدا . وكانت هناك خطة لاجتياز سهوب استراخان الى نهر الفولغا ، والخروج الى سيبيريا . الا ان كورنيلوف اصر على المضى فى الزحف على يكاترينودار للاستيلاء على هذه المدينة عنوة . تحول الجيش من قرية كورنيفسكايا جنوبا ، وبعد معارك باهظة عبر نهر كوبان عند قرية اوست – لابينسكايا ، وكان النهر فى ذلك الفصل من العام فياضا ومائجا . وسار الجيش دون توقف مجرجرا معه

طابورا من العربات عليها عدد كبير من الجرحى . الا انه كان مثير الرهب وشديد الضراوة حتى أن طوق القوات الحمراء كان ينفك فى كل مرة تاركا اياه يمر .

سار الجيش باتجاه مايكوب مخادعا العدو ، الا أنه حين وصل الى قرية فيليبوفسكايا عبر نهر بيلايا ، وتحول فى زاوية حادة نحو الغرب فى مؤخرة يكاترينودار . وهنا ، وراء نهر بيلايا ، وفى فج ضيق احاطت به قوات كبيرة من قوات الحمر . وكان الوضع يبدو ميئوسا . وزعت البنادق على الجرحى جراحا خفيفة ، المحمولين على العربات . . . استمر القتال النهار بطوله . كان الحمر يطلقون من المدافع من المرتفعات ، ويرشقون بالرشاشات المعابر والعربات ولا يدعون الصفوف تنهض . ولكن حين هبط الظلام ، وتحول جيش المتطوعين الممزق الى الهجوم المضاد بجهد أخير مستميت تراجع الحمر من المرتفعات ، وجعلوا قوات كورنيلوف تمر نحو الغرب . ووقع ما وقع من قبل ايضا ، انتصرت الخبرة العسكرية ، والادراك بأن الحياة تتوقف على نتيجة هذه المعركة .

كانت القرى تشتعل فى كل مكان فى الليل . وقد ساء الطقس ، وهبت ريح الشمال ، وتلبدت السماء بسحب ثقيلة داكنة . وبدأ المطر يسقط ، وظل يهطل طوال الليل غزيرا مدرارا . وفى الخامس عشر من آذار وجد الجيش امامه ، وهو يزحف باتجاه قرية نوفو - دميتروفسكايا مسافات واسعة من المياه والوحل السائل . وكانت التلال القليلة المخططة بالدروب تغيب فى الضباب الذى يفترش الأرض . خاض الرجال فى الماء الى الركب ، وغطست العربات وعجلات المدافع حتى محاورها . وسقط ثلج رطب ، وهبت عاصفة جامحة لا مثيل لها .

خرج روتشين من عربة البضائع ، وعدل البندقية وكيس متاعه . وتلفت فيما حوله . كانت جماعات من جنود فوج فارنافسكى تضج على السكك الحديدية . . . بعضهم فى معاطف عسكرية والبعض الآخر فى فروات ، وآخرون فى معاطف مدنية

محزمة بحبال . والكثيرون منهم يحملون احزمة من عتاد الرشاشات وقنابل يدوية ومسدسات . بعضهم يضع على رأسه عمرات لها رؤوس مستدقة ، والبعض الآخر طراطير مخروطية ، وفريق ثالث قبعات عالية مصادرة من المضاربين . وكانت الاحذية الطويلة الممزقة ، والاحذية اللبادية ، والارجل الملفوفة بالخرق تعجن الطين اللزج . كان الجنود يصرخون ، وحرابهم تتصادم : «الى الاجتماع الحاشد ، يا اولاد ! سنحلل الأمر بانفسنا ! كفاهم سوقنا الى المجزرة !»

كان الاضطراب بسبب الشائعات المبالغ فيها ، كما هو الأمر دائما فى مثل هذه الاحوال ، عن اندحار الوحدات الحمراء قرب قرية فيليبوفسكايا : «عند كورنيلوف خمسون الفا من الضباط ، ويجردون ضده فوجنا وحده لكى يبيده ... خيانة ، يا اولاد ! امسكوا بالأمر !»

وتراكض الجنود الى فناء المحطة المنتهى وراءها تماما بالسهب المغطى بنقاب داكن من المطر . كانت ابواب عربات البضائع تقرقع قرقعة شديدة ، حين كان رجال متوحشون يقفزون منها وبنادقهم على ظهورهم ، ويتراكضون الى حيث كانت الريح تصفر فوق جموع الناس فى اشجار الحور المخروطية التى ما تزال جرداء ، وكانت غربان القيظ تحوم فوق قممها ناعبة . صعد الخطباء على السطح العشبى لأحد مخازن الثلج ، ورفعوا قبضاتهم امامهم ، وصاحوا : «يا رفاق ، لماذا يتغلب علينا قطاع الطرق الكورنيلوفيون ؟ لماذا سمحوا لجيش المتطوعين بالوصول الى يكاترينودار ؟.. ما هو خطة جيشنا ؟.. دعوا الآمر يجيب» .

وهدر حشد من الف رجل «ليجب !» بقوة جعلت غربان القيظ تحلق عاليا تحت السحب . ورأى روتشين ، وهو واقف عند مدخل المحطة ، الآمر يتحرك بقبعته المدعوكة وسط الرؤوس المضطربة متجها نحو خزان الثلج . كان وجهه العظمى الحليق ببصره الجامد شاحبا حازما . فعرف روتشين أن الآمر هو صاحبه القديم سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف .

فى فترة ما قبل الحرب كان سابوجكوف يتكلم باسم جماعة «اناس المستقبل» محطما الاخلاقية القديمة . وظهر فى المجتمع البرجوازى راسما على خديه رسوما غاوية ، وسترته من الفانيلا الخضراء الزاهية . واثناء الحرب تطوع فى سلاح الفرسان ، واشتهر كمستطلع ومبارز جرئ ، وحصل على رتبة ملازم . وبعد ذلك ، وفى بداية عام ١٩١٧ اعتقل فجأة ، وارسل الى بتروغراد ، وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص لانضمامه الى منظمة سرية . ثم اطلقت ثورة شباط سراحه فكان لفترة معينة يتكلم عن كتلة الفوضويين فى سوفييت نواب الجنود . ثم اختفى ليظهر ثانية فى تشرين الثانى مشاركا فى الاستيلاء على قصر الشتاء . وكان من اوائل الضباط النظاميين الذين انخرطوا فى الحرس الأحمر .

ها هو الآن قد صعد الى السطح العشبى منزلقا ، ولما استقر هناك حشر ابهامى يديه تحت حزامه ، وجعّد جلدة رقبته ونظر الى الرؤوس العديدة المتطلعة اليه . وابتدر قائلا بسخرية وبصوت لم يرفعه كثيرا بل جعله مسموعا فى كل مكان :

– اتريدون ان تعرفوا ، يا شياطين الصراخ ، لماذا يتغلب علينا الاوغاد ذوو الكتافيات المذهبة ؟ بسبب هذا الصراخ والفوضى . بالاضافة الى انكم لا تطيعون اوامر القيادة العليا ، وترفعون عقيراتكم بالصياح بكل ذريعة ... بل وهناك من بينكم من يثير الرعب !.. من قال لكم اننا اندحرنا عند قرية فيليبوفسكايا ؟ من قال لكم انهم مرروا كورنيلوف الى يكاترينودار بخيانة ؟ انت الذى قلت ؟ (ودفع ذراعه الحاملة بالمسدس مشيرا بها الى شخص من الواقفين فى الاسفل) . تعال الىّ ، لنتحدث ... اذن ، لم تقل أنت ... (ودس مسدسه فى جيبه بلا رغبة .) تحسبوننى أحمق وطفلا غريرا ، ولا افهم لماذا تزعقون ... اتريدون أن اقول لكم لماذا ؟ ان فيدكا ايفولغين اولا ، وبافلينكوف ثانيا ، وتيرنتى دوليا ثالثا قد تلقوا بالاتصال المباشر نبأ يقول ان فى محطة آفيبسكايا صهاريج الكحول ... (ضحك . وفم روتشين قد تلوى بابتسامة هازئة : «تخلص المحتال» .) من الواضح أن هؤلاء الفتيان متلهفون للقتال . وواضح ان القائد العام خائن لأن صهاريج الكحول قد يستولى

عليها ضباط كورنيلوف فجأة ... وتلك مصيبة ستحل بالجمهورية ... (عاصفة من الضحك جعلت غربان القيظ تصعد عاليا فى السماء .) أنا اعتبر الحادث قد انتهى ، ايها الرفاق ... وها أنا اقرأ آخر بلاغ حربى .

اخرج سابوجكوف اوراقا ، وشرع يقرؤها بصوت عال . استدار روتشين ، وخرج خلال المحطة الى الرصيف ، وجلس على مسطبة مكسورة ، واخذ يلف له سيكارة من التبغ البيتى . قبل اسبوع سجل (بهوية مزيفة) فى وحدة من الحرس الاحمر ذاهبة الى الجبهة . وقد ساءت علاقته مع كاتيا . بعد الحديث العصيب الذى جرى حول مائدة الشاى عند تيتكين قضى روتشين بقية النهار يجوب المدينة ، وفى الليل عاد الى كاتيا ، ولم ينظر فى وجهها مخافا ان يظهر علامة تأثر ، وقال بصرامة :

– امكثى هنا شهرا او شهرين ، لا ادرى ... آمل أن تكونى معه على اتفاق تام فى الآراء ... وفى اول فرصة سادفع له على اقامتك . ولكن الح عليك بان تخبريه فورا ان اقامتك عنده لن تكون بلا مقابل ، لن تكون احسانا منه ... ساغيب لفترة من الوقت .

سالت كاتيا محركة شفتيها حركة ضعيفة :

– الى الجبهة ؟

– هذا ما يخصنى وحدى تماما ...

اصبحت علاقته مع كاتيا رديئة للغاية . فى يوم من ايام تموز من السنة الماضية ، وعلى رصيف نهر النيفا الذى كانت تعكس صفحته الصقيلة معالم الجسور واعمدة جزيرة فاسيليفسكى – فى ذلك اليوم المشمس البعيد – قال روتشين لكاتيا التى كانت جالسة على مصطبة غرانيتية قرب الماء : «ستنتهى الحروب ، وتمر الثورات ، وتزول ممالك ، ويبقى قلبك وحده خالدا ...» وها هما بقيا عدوين فى فناء قذر ... ولم تكن كاتيا تستحق هذه النهاية ... «ولكن ، اللعنة ، حين تكون روسيا كلها منتهية ...»

كانت خطة روتشين بسيطة : الوصول فى وحدة للحرس الأحمر الى منطقة المعارك ضد جيش المتطوعين ، والتسلل اليه فى اول فرصة سانحة . فقد كان الجنرال ماركوف والعقيد

نيجينتسيف من ضباط ذلك الجيش يعرفانه شخصيا . وكان فى امكانه ان يخبرهما بمعلومات قيمة عن مواقع واوضاع الوحدات الحمراء . ولكن الاهم من ذلك ان يشعر بانه بين جماعته ، وان يلقى عن وجهه قناعه اللعين ، ويتنفس اخيرا بملء رئتيه ، ويبصق مع جمع الرصاص نفثة كرهه الدامية فى وجه اولئك «الحمقى المخدوعين ، والمتوحشين المستهترين» . . .

– احسن الأمر التعبير بشأن الكحول . اننا نصخب كثيرا . وقد قمنا بضجة هائلة ، وحين نفكر فى الأمر نجد أنفسنا فى ورطة من التفكير .

قال شخص زرى الهيئة فى فروة خروف برز صوفها من تحت ابطه وعلى ظهره ، وجلس على المصطبة قرب روتشين . وطلب منه تبغا قائلا :

– أنا أدخن الغليون كالعجائز ، يا صاحبى . (وأدار وجهه الماكر المخشوشن بلحيته الناصلة وعينيه المتقلصتين .) كنت اشتغل فى مخازن الحبوب عند تجار فى نيجنى نوفغورود ، فتعودت عند ذاك على تدخين الغليون . أنا احارب منذ عام ١٩١٤ ، ولا استطيع ان اتوقف . تلك هى مشكلتى ، يا اخ ، محارب مزمن ، والله العظيم .

قال روتشين فى غير ما رغبة :

– آن لك ان تستريح .

– استريح ؟ واين هذه الراحة ؟ أنت ، يا فتى ، من الاغنياء كما ارى . لا ، لن اترك القتال . لقد شبعت مصائب من البرجوازيين ! انا اشتغل عند الاغنياء منذ أن كان عمرى ستة عشر عاما ، وطوال ذلك الوقت وانا حارس . ترقيت الى سائق عربة عند تجار آل فاسينكوف – ربما سمعت بهم – ولكن أضررت بزوج رمادى من خيولهم ، من الخيول الاصلية ، بأن تركتهما خطأ يعبان ماء كثيرا . نعم ، ارتكبت خطأ ، فطردونى بالطبع . ولدى قتل ، وزوجتى توفيت منذ زمان . والآن حدثنى فى سبيل من احارب : فى سبيل السوفييتات ام فى سبيل البرجوازيين ؟ أنا رجل ذو معدة مملوءة ، وحذائى هذا قد أخذته من احد الموتى فى الاسبوع الماضى . حذاء لا تنفذ اليه الرطوبة . شىء ممتاز . وكل

٥*

شغلى ان اطلق النار ، وبعد المعركة اجلس قرب المرجل . اننا نعمل منذ الآن من اجل قضيتنا نحن ، يا فتى . والفقراء ، المساكين ، والذين من حظهم البؤس والشقاء هم الذين يؤلفون جيشنا . اما الجمعية التاسيسية فقد رايت من انتخبوا اليها فى نيجنى نوفغورود – المثقفين والشيوخ القساة .

– تعلمت تدوير لسانك بمهارة .

قال روتشين ، وقد اختلس نظرة الى محدثه . وكان يدعى كفاشين . وكان قد قضى معه اسبوعا كاملا فى عربة قطار واحدة ينام الى جانبه على الرف العلوى . وكان ركاب العربة يدعون ، كفاشين بـ«الجد» . وكان يجلس ومعه جريدة اينما امكنه ذلك . يضع على أنفه الناحل نظارة انفية ذهبية ، ويقرأ بصوت خفيض . قال يروى حكايتها : «حصلت على هذه النظارة الانفية فى سامارا بموجب قرار تمليك . وكان المليونير باشكيروف قد اوصى بها لنفسه . ولكن انا الذى استخدمتها» .

ورد على روتشين :

– صحيح ما قلته . اننى تعلمت تدوير لسانى . لم افوت اجتماعا واحدا . وكلما دخلت محطة قطار قرأت كل المراسيم والقرارات وكل شىء . فالكلام هو قوتنا البروليتارية . فماذا كنا نساوى لو كنا صامتين وبلا وعى ؟ مجرد سمكة صغيرة !

واخرج الجريدة ، ونشرها بعناية ، ووضع نظارته الانفية برزانة ، واخذ يقرأ المقال الافتتاحى ناطقا بالكلمات وكأنها كتبت بلغة غير روسية .

«. . . تذكروا انكم تقاتلون فى سبيل سعادة جميع الشغيلة والمستثمَرين . انتم تقاتلون فى سبيل الحق فى بناء حياة عادلة ، حياة افضل . . .»

استدار روتشين ولم يلحظ أن كفاشين كان ينطق بهذه الكلمات ، وهو يتفرس فيه من فوق نظارته الانفية . قال كفاشين بصوت مختلف تماما :

– والظاهر أنك ، ايها الفتى ، من الاغنياء . لم تعجبك قراءتى . العلك جاسوس ؟

من محطة آفيبسكايا سار طابور فوج فارنافسكى ماشيا الى قرية نوفو – دميتروفسكايا . وفى ظلام منتصف الليل كانت الريح تصفر بين الحراب ، وتعبث فى الثياب ، وتقذف الوجوه بخرز الجليد . كانت الاقدام تغطس خلال طبقة صلبة من الثلج ، وتصل الى الوحل اللزج . ومن خلال ضجيج الريح ترددت صيحات : «قف ! قف ! اخف ! لا تضغط ، شياطين !»

كان القرس ينفذ من خلال المعاطف الخفيفة ، ويصل حتى العظام . فكر روتشين مع نفسه : «فقط الا اقع . والا فستكون نهايتى . ستدوسنى الاقدام . . .» وكانت أكثر الاشياء تعذيبا له هى هذه الوقفات والصرخات فى المقدمة . والظاهر انهم ضلوا طريقهم ، وراحوا يتجولون على حافة شيء يشبه منخفضا او نهيرا . تردد صوت متقطع وكأنه يودع : «يا اخوان لا استطيع ان اقاوم اكثر» . وفكر روتشين : «أهذا صوت كفاشين ؟ كان طوال الوقت يسير الى جانبى . حزرنى . لم يصدق بكلمة واحدة من كلماتى» . (وقد تنصل روتشين منه بجهد يوم أمس) . توقف الذين فى المقدمة مرة أخرى . ارتطم أنف روتشين بظهر شخص بمعطفه المتجمد . وفكر ، مع نفسه واقفا ويداه المتثلجتان محشورتان داخل كميه ورأسه مطرق «اربع سنوات وأنا اغالب التعب ، وقد قطعت آلاف الفراسخ من اجل ان اقتل . ان ذلك مهم جدا وذو شأن كبير . أما ان اسىء الى كاتيا واتركها فذلك اقل شأنا . غدا او بعد غد سأنتقل الى الجانب الآخر ، وفى مثل هذه العاصفة الثلجية سأتحول الى قتل الروس . غريب . كاتيا تقول اننى رجل شريف وطيب . ذلك غريب ، غريب جدا» .

وانتبه بفضول الى دوران هذه الافكار فى راسه . ثم انقطعت . فكر : «شيء سيىء يعنى اننى اتجمد . تمر فى ذهنى الافكار الرئيسية الاخيرة . اذن ، سأستلقى الآن على الثلج» .

الا أن الظهر المتجمد امامه قد ترنح ، وسار . فترنح روتشين مثله وسار وراءه . الآن صارت رجلاه تغوصان الى الركب ، وكان الحذاء الثقيل يخرج من الطين بجهد . حملت الريح جزءا من صيحة : «نهر ، اولاد . . .» وتردد سباب . . . والريح ما زالت تصفر بين الحراب مثيرة الافكار الغريبة . مرت به شخوص غامضة

محدودبة . استجمع روتشين قواه ، وسحب قدمه بأنين ، ومضى فى سيره بصعوبة .

كان سيل بنى يبرز خطا اسود على الثلج ، والى ابعد من ذلك كان كل شيء محجوبا بالثلج المتطاير . كانت الاقدام تنزلق على المنحدر . والماء الداكن ينطلق مزمجرا . وصيحات :

– انغمر الجسر بالماء . . .

– يعنى نرجع ؟

– من قال نرجع ؟ أنت ؟ انت الذى قلت ؟

– اتركنى ، يا رفيق ، اتركنى .

– اضربه بالاخمص . . .

– أوى . . . اوى . . . اوى . . .

وفى الاسفل وراء حافة الشاطىء شب مخروط ضوئى من فانوس كهربائى . وبان قوس الجسر مغمورا بماء رمادى منطلق بشدة ، وقطعة مكسورة من الدرابزين . وارتفع الفانوس الى الاعلى ، ورسم منحنيات ضوئية ، وانطفأ . وقال صوت مبحوح رهيب :

– فصيلة . . . عبورا ! . . البنادق والعتاد على الرؤوس . لا تتدافعوا . . . اثنين اثنين . . . هيا !

رفع روتشين البندقية ودخل الماء حتى خصره ، ولم يكن الماء باردا برودة الريح . كان يضرب جنبه الايمن بقوة ، ويدفعه ، محاولا أن يجرفه فى هذا الظلام الرمادى المبيض ، فى الدوامة . كانت قدماه تنزلقان وهما لا تكادان تتحسسان الواح الجسر المحطم .

كان فوج فارنافسكى قد ارسل الى قرية نوفو – دميتروفسكايا لتعزيز القوات المحلية . وقد خرج اهل القرية جميعهم لحفر الخنادق ، وحُصن مقر ادارة القرية وبعض البيوت ، ونصبت الرشاشات . وكانت المدفعية الثقيلة قد وضعت جنوبا فى قرية غريغوريفسكايا . وفى تلك المنطقة نفسها كان يرابط الفوج الثانى لشمال القفقاس تحت امرة دميترى شيليست الذى ظل يلاحق جيش المتطوعين ابتداء من روستوف . وفى محطة آفيبسكايا غربا توجد حامية ومدفعية وقطارات مدرعة . وكانت قوات الحمر موزعة

على رقعة واسعة وهو أمر لا يجوز فى مثل هذه الارض الموحلة وانعدام الطرق .

عند المساء عبر الساحة الى مقر ادارة القرية فارس قوزاقى ملطخ بالثلج الرطب والوحل . وتوقف عند مقدمة البيت . كان البخار ينبعث من جنبى حصانه المنتفخين .

– اين الرفيق الآمر ؟

خرج عدة اشخاص الى مقدمة البيت يزررون معاطفهم على عجل . وظهر سابوجكوف فى فروة الفرسان شاقا طريقه بينهم :

– أنا الآمر .

التقط القوزاقى انفاسه ، وانحنى على القربوس ، وقال :

– رجال نقطة الحراسة قتلوا جميعا . تخلصت أنا وحدى .

– وماذا بعد ؟

– بعد ؟ توقع مجىء كورنيلوف ليلا بكل قوته . . .

وتبودلت النظرات فى مقدمة البيت . كان بين الواقفين فيها شيوعيون وهم منظمو الدفاع عن القرية . نشق سابوجكوف من منخريه ، غضن لغده وقال : «أنا مستعد ، فكيف انتم ، يا رفاق؟ . .» اخذ القوزاقى الذى ترجل عن فرسه يقص كيف قتل الجركس من لواء الجنرال ارديلى جميع افراد نقطة الحراسة . تجمع عند مقدمة البيت حشد من الجنود والقوزاقيات والصبيان يصغون الى الراوى صامتين .

وتقدم روتشين ايضا ، وقد غطى راسه وعنقه بقلنسوة صوفية . لقد استطاع فى الليل ان ينال قسطا من النوم ويجفف ملابسه فى بيت حار منتن حيث كان زهاء خمسين من الجنود الحمر يرقدون على الأرض بين الطماقات والثياب المبتلة . وفى الفجر خبزت ربة البيت خبزا ، وقطعته بنفسها ، ووزعته قطعا على الجنود :

«ابذلوا يا جنود جهودكم لتمنعوا الضباط من دخول قريتنا» .

فرد الجنود على ربة البيت الشابة :

«لا تخافى شيئا . . . خافى من شىء واحد . . .»

ونطقوا بكلمة جعلتها تلوح عليهم برغيف من الخبز . «يا لكم من ثيران . . . حتى وانتم امام الموت لا يغرب ذلك عن بالكم . . .»

كانت مسيرة الليلة البارحة قد خلفت فى روتشين انحلالا والما ممضا يعتور جسمه كله . الا ان قراره كان قاطعا . منذ الصباح كان يحفر الارض المتجمدة فى حدائق الخضروات . ثم كان يحمل صناديق الذخيرة من العربات الى مقر ادارة القرية . وفى الغداء وزع على كل فرد قدح من الكحول فازال هذا السائل اللاهب شعور الانحلال من جسمه ، وادفأ عظامه ، فقرر أن يقضى امره اليوم دون تاجيل .

وها قد وقف الآن قرب مقدمة ادارة القرية باحثا عن فرصة يسال فيها الخروج الى نقطة الحراسة الأمامية . وكان قد حسب لكل شىء حسابه الى حد كتافيتى النقيب التى خاطها داخل قميصه على صدره . وحصل ما توقع . نزل البحار الركين الذى كان واقفا مع سابوجكوف من مقدمة البيت ، واخذ يدعو الراغبين الى تادية أمر خطر ، قائلا بصوت حديدى :

– يا اخوان ، من لا يبخل بحياته . . .

وبعد ساعة كان روتشين قد غادر القرية مع فريق مؤلف من خمسين مقاتلا متجها الى واد ملفع بضباب كثيف . هبط ظلام رطب . وكف الثلج عن النزول ، كانت الريح الدافعة تصفع الوجوه بقطرات كبيرة من المطر . سار الجنود بلا طريق مخوضين فى ماء شامل ، وكأنهم يعبرون بحيرة ، متجهين نحو التلال ، حيث كان يجب ان يحفروا خنادق .

لمعت ومضة ضوء فى الغبش الصباحى الرطب . ثم دمدمة ، وعويل ، وتلاشى . . . واعقب ذلك فى الحال ازيز رصاص غير نظامى على التلال وشاطىء النهر . ثم ومضة ضوء أخرى ، واطلاقة مدفع ، ولعلع رشاش فى الامام ، فى غمامة الضباب .

ان كورنيلوف يتقدم . كانت وحداته الامامية قد وصلت الى ذلك الشاطىء من النهر . وخيل لروتشين انه لمح شخصين او ثلاثة يركضون منحنى الظهور عند الماء تماما متجهين الى اجمة . وخفق قلبه . اخرج جسمه من الخندق الصغير الذى حُفر على منحدر الشاطىء .

كان النهر الكدر ذو اللون الاصفر المخضوضر ينطلق فى

دوامات عالية بين الشاطئين . والى اليسار ، في وسطه كان الجسر يرى مغمورا في الماء الى النصف . وقد طلع عليه من النهر زهاء عشرين شخصا من تلك الشخوص الغامضة المنحنية الظهور ، وعبروا عليه . كانت النار تطلق على النهر والجسر من التلال بلا نظام ، وبتتابع متزايد . وعلى مقربة دانية على الضفة المقابلة من النهر اندلع لسان طويل من اللهب منبعث من مدفع . انفجرت قنبلة شرابنيل فوق الخندق الذي يقبع فيه روتشين . ونهضت شخوص رمادية وسوداء من وراء قوس الجسر ونزلت الى معبر النهر وتناثرت متراكضة زاحفة على عجيزاتها ، متدحرجة ، هاوية . كانت جميعها تحمل كتابات بارزة كالخطوط .

ضربة مدفع مرة اخرى ، وهدير متقطع فوق الخندق . وانّ صوت : «اوى ، اوى ، يا اخوان . . .» لهج شخص من خلال ازيز الرصاص :

– انهم يطوقوننا ! . . يا اولاد ، تراجعوا !

وشعر روتشين بدنو الدقيقة المرتقبة . انطرح بسرعة ، وظل بلا حراك . وتردد في راسه : «لا يوجد منديل ابيض ، يجب ربط قطعة قميص على حربة ، وتصيح ، بالفرنسية حتما . . .» سقط شخص ثقيلا على ظهره ، وانطرح عليه ، وطوقه من رقبته ، وانشب اصابعه في حنجرته ناخرا . قفز روتشين محاولا النهوض ، ورأى من وراء كتفه وجها مدمى وعينا جاحظة صهباء ، وفما فاغرا لا اسنان فيه . كان كفاشين هذه المرة ايضا . كان يردد وكأنه في نوبة من الغيبوبة :

– انك تصلي لله ،لانك رأيت جماعتك . . .

دفعه روتشين عن ظهره ، ونهض بكل قامته ، وترنح . تشبث كفاشين بكتفيه كالعلقة . كافح روتشين ليحرر نفسه ، وانقذف على متراس الخندق ، وانشب اسنانه في الفروة النتنة بجنون . واحس بان كوعيه وركبتيه اخذت تنزلق على الطين السائل . كانت حافة المنحدر على بعد خطوة ونصف .

– اتركني !

زمجر روتشين اخيرا . انهارت الارض تحت قدميه فتدحرج مع كفاشين على المنحدر نحو النهر .

كان دوي المدافع يملأ الارجاء كلها ، وتهتز الارض من الانفجارات . كانت قوات الجيش الرئيسية تعبر النهر . وكانت المدافع من قرية غريغوريفسكايا تضرب المعابر . وكانت القنابل تسقط في ارجاء الحقل الثلجي . وحين كانت تقع في النهر كانت تثير نوافير من الماء .

كان مشاة البيض يعبرون النهر وكل اثنين مع حصان واحد . وكانت الخيول تتراجع وهي تنزل الى النهر السريع الجريان ، فكانوا ينخسونها بالحراب . انحدرت عربة مدفع من على الشاطئ* الزلق الشديد الانحدار مندفعة بقوة . وغطس المدفع تحت الماء مترنحا من جانب الى جانب . وكان الحوذية يضربون الخيول الهزيلة بالسياط حتى استطاعت ان تجره على نحو ما على قوس الجسر الغريق جزئيا في طرفيه . وكانت القذائف تتساقط وتنفجر ، ويفور الماء . شبت الخيول على قوائمها الخلفية ، وتشربكت بسيورها .

كركبت عجلات المدافع الرشاشة منحدرة مارة بالجسر الى النهر ، وطافت ، ودارت . وانقلبت احداها ، وحملها التيار مع خيولها ورجالها ، فتعلق الرجال بالعجلات . وهبطت قنبلة من السماء على هذا الخليط مرسلة في عمود عال من الماء شظايا من الخشب ، وقطعا من الابدان الممزقة .

وعلى الشاطئ* كان شخص صغير الجرم قصير اللحية في سترة من قماش الفانيلة البني ، وقبعة فرائية بيضاء غاطسة في رأسه يدور على حصانه الهزيل القذر . كان يصرخ بصوت عال عصفوري ملوحا بسوطه مهددا . انه الجنرال ماركوف المشرف على عبور النهر . وقد حيكت حول شجاعته حكايات خيالية .

كان ماركوف من اولئك الذين قاتلوا في الحرب العالمية الاولى ، وقد سممتهم الى الابد انفاسها المنحوسة . وكان يبدو انه يجد متعة لا تعادلها متعة اخرى حين يمتطي صهوة جواده ومناظره على عينيه ، او يكون شاهرا سيفه في الصف المهاجم وهو يقود لعبة القتال الرهيبة . وفي آخر الامر صار في مستطاعه ان يحارب ايا

كان ، ولأى غاية كانت . تعبأ ذهنه ببعض الصيغ الجاهزة عن الرب والقيصر والوطن . وكانت له حقائق مطلقة لا حاجة معها الى مزيد . وكان كلاعب الشطرنج اذا لعب لا يرى من رحاب العالم ، غير حركات البيادق على الرقعة .

كان طموحا متعاظما شديدا وغليظا على مرؤوسيه . كان يثير الرعب من بين رجال جيشه . والكثيرون يشعرون بالحزازة ازاء هذا الرجل الذى لا يرى فى الناس غير بيادق شطرنج . الا أنه كان شجاعا ، وحسن المعرفة بتلك اللحظات الحرجة من المعركة حيث كان من الضرورى للقائد ان يداعب الموت لانتصار المعركة طالعا بصفوف عساكره الى الأمام تحت وابل الرصاص والسوط فى يده .

استمر عبور النهر عدة ساعات . ولفت العاصفة الثلجية النهر والشواطئ من جديد . واشتد عصف الريح متجهة نحو الشمال . وبرد الجو بسرعة . كان روتشين يرقد مخلوع الكتف تحت منحدر الشاطئ قرب الماء ، وقد فقد الأمل منذ وقت طويل فى ان يلحظه أحد . ورغم الألم الذى يلذع كتفه اخرج كتافيتيه من وراء قميصه ، واستطاع أن يثبتهما على نحو ما على قميصه بدبابيس ، وخلع النجمة الخماسية من طاقيته . وكان النهر قد جرف جثة كفاشين منذ وقت بعيد ، والجرحى يتناثرون فى كل مكان ، ولا يلتفت اليهم .

لم يتوقف الجيش بعد عبوره النهر ، وزحف فى معركة باتجاه قرية نوفو-دميتروفسكايا . جمدت ثياب العساكر عليهم ، وتغطت بطبقة من الجمد . وتصلبت الارض تجمدا ، ورنت عليها سنابك الخيول والعجلات ، وتمزقت الاحذية على الركام والحفر ، وتجرحت الاقدام . رفع بعض الجرحى اجسامهم ، وزحفوا على الشاطئ الحاد الانحدار معرجين بجهد ، ومنزلقين . شعر روتشين بأن رجليه تتجمدتان ملتصقتين بالارض . كز على اسنانه (كان الألم يسرى فى كتفه وركبته المحطمة) ورفع جسمه ايضا ، وسار فى اثر الجرحى . لم يلتفت احد اليه . اقتضاه الصعود الى أعلى منحدر النهر جهدا كبيرا . وهناك ، فى الأعلى كانت العاصفة الثلجية تعول ، والرصاص يئز . كان رجل محدودب فى معطف ضباط متجمد وقلنسوة يجرجر

نفسه امامه ، فاذا به يندفع فجأة الى جانب ويسقط . فلم يكن من روتشين الا ان زاد من انحناءة قامته متغلبا على عصف الريح ، ومضى فى سبيله .

جثة حصان ميت مدفون فى الثلج ، وقد تصلبت الى الأعلى رجله الخلفية . وعند مدفع مهجور وقف حصانان بائسان هزيلان وقد انزلا بوزيهما الى الأرض ، وقد جمدت جنباهما ، وتكونت كومتان من الثلج على ظهريهما . بينما كانت الرشاشات تلعلع الى الأمام بمزيد من الاصرار والوعيد . لقد قاتل جيش المتطوعين ليقضى ليلته هذه فى بيوت دافئة لا ان يموت فى حقل تعصف به الزوبعة الثلجية .

كانت المدفعية فى قرية غريغوريفسكايا تضرب المهاجمين . الا ان الوحدات الحمراء الاخرى والاحتياطات من محطة آفيبسكايا لم يلقوا فى المعركة . ولم يتلق الفوج القفقاسى الثانى امرا بالهجوم الا بعد طوق فوج فارنافسكى فى قرية نوفو-دميتروفسكايا ، وكان يُقتل فى اشتباكات بالسلاح الابيض فى الشوارع . سار الفوج القفقاسى الثانى عشرة فراسخ عبر مستنقعات واراض مغمورة بمياه الفيضان ، وخسر فصيلة كاملة غرقا وتجمدا ، وضرب مؤخرة البيض ممكنا بقايا فوج فارنافسكى من خرق الحصار .

وحدث عند البيض ايضا مثل هذا الاضطراب والبلبلة . تصلبت فصيلة بوكروفسكى الكوبانية ، ولم تسر خلال المستنقع . وكان قد اوكل اليها مهاجمة القرية من الجنوب . كما أن بوكروفسكى الذى تسلم رتبة الجنرالية من حكومة كوبان لا من القيصر قد تلقى اهانة قاسية من الجنرال الكسييف اثناء الاجتماع الحربى ، حين قال له بازدراء ارستقراطى : «كفى ، يا عقيد ، اعذرنى ، لا اعرف الآن كيف ادعوك ...» وبسبب «العقيد» هذا لم يرد بوكروفسكى أن يسير خلال المستنقع . كما ان فصيلة الخيالة بقيادة الجنرال ارديلى التى ارسلت لتطويق القرية من الشمال لم تستطع عبور منخفض مغمور بالماء . فعادت ليلا لتعبر من المعبر العام .

كان فوج الضباط اول من وصل الى قرية نوفو-دميتروفسكايا . وشمّ الضباط المتجمدون المهتاجون ، المقاتلون القدامى ، الرائحة

البيتية للروث المجفف المحروق والخبز الطازج ، ورأوا الضوء الدافئ في النوافذ ، فزحفوا عبر خليط الثلج والوحل ، دون انتظار التعزيزات ، عبر الماء الغامر المغلف بطبقة رقيقة من الجمد . ولوحظوا وهم على مشارف القرية ، فاطلقت عليهم النيران من رشاشات . هجم الضباط بالحراب . وكان كل واحد منهم يعرف كيف وماذا يجب ان يفعل في كل ثانية . وكانت قبعة ماركوف البيضاء تلمع في كل مكان . لقد كانت معركة ضباط نظاميين مع جمهرة من الجنود المقادين قيادة ضعيفة ، والمنظمين بانضباط سيئ .

واندفع الضباط الى القرية واشتبكوا في مناوشات بالسلاح الابيض في الشوارع مع جنود فوج فارنافسكي والانصار . وفي الظلام والخلط طُعِنَ جنود الرشاشات او نسفوا بالقنابل اليدوية ، وهم وراء رشاشاتهم . وتلقى البيض تعزيزات مستمرة ، فاستطاعوا تطويق الحمر ، فتراجع هؤلاء الى ساحة القرية ، حيث كانت اللجنة الثورية تقيم في مقر ادارة القرية .

كان الرصاص ينطلق من كل مخبأ ، والقتال يدور في كل مفرق . وجاءت عربة المدفع منطلقة في نافورة من الوحل ، واستدارت عند حافة الساحة ، ووجهت ماسورتها نحو واجهة مقر الادارة . وتفجرت القذيفة بقرقعة مرنة . واخذ الناس يقفزون من نوافذ البيت ، وانتشر دخان أصفر . واصابت نيران المدفع صناديق الذخيرة فاخذت تتفجر .

وفي تلك اللحظات بالذات كان الفوج القفقاسي الثاني يطلق النار من الشرق على المهاجمين . وسمع جنود فوج فارنافسكي بالقتال في مؤخرة العدو فشد ذلك من عزيمتهم . اختطف سابوجكوف راية الفوج من حامل الراية وقد بح صوته من الصراخ والسباب ، وكانت ملفوفة بقطعة من المشمع ، ولوّح بها ليفكها ، وعبر الساحة الى اشجار الحور العالية المتمايلة ، حيث كان البيض أكثر تجمعا . اخذ رجال فوج فارنافسكي يخرجون من وراء البوابة والاسيجة ، وينهضون من الأرض ، ويتقاطرون من كل جهة ، مهيئين حرابهم الى الامام ، وخرقوا الحصار ، وخرجوا من القرية صوب الغرب .

قضى روتشين تلك الليلة في عربة مهملة بعد أن انزل منها جثتين متجمدتين ، وغطى جسمه بالتبن . كانت المدافع تقصف طوال الليل ، وقنابل الشرابنيل تتفجر فوق قرية نوفو-ديميتروفسكايا . ومنذ الصباح اخذت عربات جيش المتطوعين تتجه الى هناك ، بعد قضاء ليلة في قرية كالوجسكايا . خرج روتشين من العربة ، وسار وراء العربات . وكان من شدة الانفعال لا يشعر بالألم .

كانت الريح ما تزال تهب شديدة ، ولكن من الشرق هذه المرة مبددة السحب الثلجية والممطرة . وفي نحو الساعة الثامنة صباحا ظهرت السماء المجلوة الزرقاء من خلال قطع الغيوم المتحركة الى الاعلى بسرعة . وسقط ضوء الشمس باشعة حارة مستقيمة كالسيوف . واخذ الثلج يذوب . والسهب يعتم سريعا ، مخططا باشرطة زمردية للنباتات البارضة واشرطة صفراء لجذامات الحصاد . والتمعت المياه ، وترقرقت الجداول مسرعة في الاخاديد التي خلفتها العربات على الطرق . وجفت الجثث على الاكمات ، ناظرة بعيونها الميتة الى السماء اللازوردية .

— انظر ، انه روتشين . وحق الرب ! روتشين كيف جئت الى هنا ؟

هتفوا بذلك من عربة مارة . التفت روتشين . كان ثلاثة اشخاص رؤوسهم ملفوفة ، واذرعهم مرفوعة على شيالات يجلسون في عربة ملطخة محطمة يسوقها قوزاقي مدلهم السحنة يلقي على كتفيه فروة خروف رثة . حيّا أحد هؤلاء روتشين بهزات عديدة من راسه ، وانفرجت شفتاه المتشققتان عن ابتسامة . كان رجلا طويلا هزيلا تبدو رقبته مشرئبة من تحت ياقته . لم يكد روتشين يتعرف عليه زميلا له في الفوج يُدعى فاسكا • تيبلوف كان آنذاك مورد الوجنتين مرحا يهوى النساء والخمرة . سار صامتا الى العربة وتعانق معه وقبّله قائلا :

— قل لي ، تيبلوف ، الى مَنْ يجب ان اتوجه ؟ من هو رئيس

• صيغة لاسم فاسيلي . — المترجم .

هيئة الاركان عندكم ؟ انظر الى كتافيتى" ، قد شددتهما بدبابيس . هربت الى جانبكم يوم أمس فقط .

— اصعد . قف يا سافل !

صاح تيبلوف على السائق . دمدم القوزاقى ، الا انه اوقف العربة . صعد روتشين فى ركن العربة ، ودلى ساقيه فوق عجلتها . كانت رحمة إلهية أن يركب فى عربة تحت شمس حارة . وروى مغامراته منذ خروجه من موسكو بلهجة جافة كلهجة تقرير . سعل تيبلوف قليلا وقال :

— ساذهب بنفسى معك الى الجنرال رومانوفسكى ... نصل الى القرية ، ونتناول طعاما ، واقضى شغلك فى لمح البصر ... يا عجيب ! تريد أن تظهر أمام الرئاسة راسا فتقول : قد هربت' من عصابة الحمر ، ولى الشرف فى الحضور ... انت لا تعرف جماعتنا . لن يدعوك تصل الى هيئة الاركان .. يطعنونك ... انظر ، انظر — واشار الى جثة طويلة فى معطف ضابط — انه ميشكا * ، البارون كورف ... واتته المنية ... لعلك تذكره ... كان فتى رائعا ... اسمع ، هل معك سكائر ؟ أوه ، ما اجمل الصباح ! بعد غد ، يا عزيزى ، سنصل الى يكاترينودار . وننام على اسرة ، ثم نخرج الى البولفار ! موسيقى ، وأوانس ، وجعة !

وضحك ضحكة عالية بهيجة . وتجعد وجهه السقيم المسحوب حتى العظم ، وتوهجت على وجنتيه بقع الحمى .

— وهكذا ستكون فى روسيا كلها موسيقى ونساء وجعة . سنستريح شهرا فى يكاترينودار ، وننظف انفسنا ، ثم الى التنكيل ... ها — ها ! لسنا حمقى الآن ، يا عزيزى . كسبنا بالدم أمر التصرف بالامبراطورية الروسية . سنريهم ما هو النظام ... السَفَلة ! انظر اليه ميتا — واشار الى منحدر ساقية حيث كان يرقد رجل فى سترة من فراء الغنم ممددا بشكل غير طبيعى — لا بد أنه واحد من امثال دانتون ** عندهم . . .

---

* صيغة لاسم ميخائيل . — المترجم .

** دانتون جورج جاك ، شخصية بارزة فى الثورة الفرنسية البرجوازية فى اواخر القرن الثامن عشر . — المترجم .

لحقت العربة عجلة مخلخلة من الاغصان المضفورة . كان فيها رجلان ملطخان بالوحل ، وقد القيا ياقتَىْ معطفيهما الى الوراء ، وقبعتاهما الفرائيتان مبللتان . كان احد الرجلين ضخما ذا وجه داكن مرتخ ، والثانى ذا لحية رمادية مرسلة ، وانتفاخين تحت عينيه ، وقد وضع ممسك سيكارة طويل فى زاوية فمه الرخو .

قال تيبلوف ، وهو يومىء برأسه عليهما :

— حماة الوطن . ولكن سنتحمل من قلة الخيل . . ينفعون .

— السمين هو غوتشكوف على ما يبدو . صحيح ؟

— نعم ، هو ، وسيعدم رميا فى وقته ، يمكن ان تطمئن . . . اما الذى يضع ممسك السيكارة فى فمه فهو بوريس سوفورين ، وهو ايضا من قلة الخيل . . يبدو أنه من انصار القيصر . ولكن ليس بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؛ انه مراوغ ، ولكنه صحفى قدير . . . لن نعدمه . . .

دخلت العربة القرية . بدات البيوت وراء الحدائق الصغيرة مقفرة . وما تزال بقايا الحرائق ترسل دخانا . وقد تناثرت بعض الجثث التى غطست فى الوحل الى النصف . كانت طلقات منفردة تتردد هنا وهناك . انهم يقضون على الاغراب الذين لجأوا الى كوبان من المناطق الاخرى والذين اخرجوا من السراديب والشونات . كانت العربات تقف فى الساحة بلا نظام . وكان الجرحى يصيحون من عربات نقلهم . وكانت الممرضات يتنقلن بين العربات معذبات مذهولات بسبب التعب فى معاطف جنود قذرة . ومن الفناء ارتفع صياح يشبه صياح حيوان وضربات سياط . وكان الخيالة يعدون على خيولهم . وعند احد الأسيجة جماعة من طلاب المدارس العسكرية يشربون الحليب من جردل صفيح .

كانت الشمس تشع بمزيد من السطوع والحرارة فى اعماق السماء الزرقاء المكشوفة للريح . ومن خشبة بين شجرة وعمود تلغراف تدلت مترنحة مع الريح جثث مَلْوِية الرقاب اقدامها العارية مدلاة بمقدماتها نحو الأرض . انها جثث سبعة من الشيوعيين اعضاء فى اللجنة الثورية والمحكمة العسكرية .

وجاء آخر يوم من حملة كورنيلوف . ظلل المستطلعون الفرسان عيونهم باكفهم اتقاء الشمس ، ورأوا فى الضباب الصباحى قباب يكاترينودار المذهبة وراء نهر كوبان الكدر .

كانت مهمة وحدة الخيالة الصدامية أن تنتزع من الحمر المعدية الوحيدة الموجودة فى تلك الاماكن لعبور نهر كوبان بالقرب من قرية يلزافيتينسكايا . وكان ذلك خديعة جديدة لكورنيلوف . فقد كان من الممكن ان يتوقعوه من الجنوب ، من ناحية قرية نوفو - دميتروفسكايا ، ومن الجنوب الغربى على خط نوفوروسييسك - يكاترينودار الحديدى . اما أن يختار اخطر إلتفافة غرب المدينة ، فى مكان لا جسور فيه ، بل معدية واحدة يعبر عليها جيش كامل عبر مياه كوبان السريعة الجريان ، قاطعا بذلك كل امكانية للتراجع ، فانه تكتيك لاجتياح المدينة لم يكن من الممكن ان يتنبأ به افتونوموف رئيس هيئة اركان القوات الحمراء . ولكن كورنيلوف الماكر مثل ثعلب عجوز اختار هذا الطريق بالذات ، لأنه اقل حماية ، ويتيح راحة من القتال ليومين او ثلاثة ايام ، و يخرج بالجيش الى بساتين وحدائق يكاترينودار مباشرة .

سُدَّ النقص فى الذخيرة عند احتلال محطة آفيبسكايا على الخط الحديدى ، حيث نسف جيش المتطوعين سكة الحديد ليأمنوا انفسهم من نيران القطارات المصفحة . ومع ذلك فان رشاشات احد قطارات الحمر اصابت جناح المهاجمين الذين كانوا يخوضون فى ماء موحل كثيف بعد ذوبان الثلج . وعندما كان شريط الرصاص ، وهو يرفع نوافير الماء ، يصطدم بهم كانوا يسقطون على الماء كالبط غاطسين برؤوسهم ، ثم يخرجون رؤوسهم ويتراكضون . دافعت حامية محطة آفيبسكايا دفاع المستميت . الا أن الحمر كانوا فى حالة ميئوسة ، لأنهم كانوا فى موضع دفاع فقط ، وكان العدو يهاجم .

وكانت وحدات جيش المتطوعين تطوق المحطة وتحيطها ببطء وبصفوف ملتوية . كانت الشمس تغمر الوادى الازرق ، وقد طلعت من سطح الماء الاشجار واكوام القش وسطوح الضياع ، بينما كانت ظلال غيوم الربيع يطارد بعضها بعضا عبر مياه الفيضان . كان كورنيلوف بسترته الفرائية ، وكتافيتى الجنرال الناعمتين ، وبالمنظار والخارطة يتقدم بجواده هيئة اركانه فى ذلك المنبسط

الصقيل . كان يعطى الاوامر لمرافقيه الذين كانوا يعدون ممتطين افراسهم الهزيلة فى طرطشة من الماء . وذات مرة وقع تحت النار ، وجرح الجنرال رومانوفسكى الذى كان يسير الى جانبه جرحا خفيفا .

حين تم إلتفاف حول المحطة من الغرب ، وبدأ الهجوم العام ، وساط كورنيلوف حصانه بمقرعته ، وتوجه خببا باتجاه المحطة مباشرة ، اذ لم يكن يشك فى النصر . وهناك بين الخطوط الحديدية ، والقطارات المهجورة وبنايات السكك والعنابر والمخازن كانت القوات المقتحمة تفتك بالحمر . وكان ذلك آخر نصر لجيش المتطوعين وأدماه .

هرع العقيد نيجنتسيف المورد الخدين الفَتَوى الى كورنيلوف منفعلا قافزا بين الجثث ، وابلغه ونظارته الانفية تلمع فوق عينيه :

– يا صاحب السيادة ، احتلت محطة آفيبسكايا .

فاسرع كورنيلوف يقاطعه بنفاد صبر :

– وهل استوليتم على القذائف ؟

– نعم ، يا صاحب السيادة ، سبعمائة قذيفة ، واربع عربات من الخراطيش .

– حمدا لله ! حمدا لله . . .

ورسم كورنيلوف علامة صليب عريضة ، فخدش ظفر خنصره معطفه المتصلب .

عندئذ اشار نيجنتسيف له بعينيه الى حشد من الصداميين واقف عند المحطة . انهم فوج خاص من السفاكين المغامرين يشدون على اكمامهم مثلثا من ثلاثة الوان . كانوا يقفون معتمدين على بنادقهم ، وكأنهم بعد صعودهم فى جبال حادة الانحدار . تجمدت وجوههم فى تكشيرة الجنون المتعبة ، وكانت ايدى ووجوه الكثيرين منهم مدماة ، وعيونهم هائمة .

– انقذوا الوضع مرتين ، وكانوا أول المهاجمين ، يا صاحب السيادة .

– طيب !

ضرب كورنيلوف حصانه ، وعدا عليه بكامل سرعته ، رغم ان المسافة لم تكن كبيرة ، ووصل الى الصداميين (اضطرب هؤلاء على

الفور ، واسرعوا يصطفون باستقامة) جذب كورنيلوف عنان فرسه بتلك الحركة القوية التى تصور عادة فى التماثيل التذكارية ، ودفع راسه الى الوراء ، وصاح بصوت حاد :

– شكرا ، يا نسورى ! اشكركم على العمل الرائع ، ومرة اخرى على انكم استوليتم على القذائف . . . انحنى لكم إجلالا . . .

بعد أن حصل الجيش على احتياطى من الذخيرة بدأ يعبر نهر كوبان على المعدية الخشبية التى استولت عليها فصيلة الخيالة الصدامية . وكان عدد الجيش فى ذلك الوقت تسعة آلاف رجل ، واربعة آلاف فرس . واستمر العبور ثلاثة ايام . وامتدت وحداته العسكرية والعربات والناقلات والمعدات الحربية على جانبى النهر مثل معسكر هائل . خفقت ريح الربيع بالبياضات المغسولة المدعوكة المنشورة على اعمدة العربات . وتصاعد الدخان من نيران المعسكر . وكانت الخيول المربوطة ترعى فى المروج . وصعد الضباط المبتهجون الى العربات وسعوا ، والمناظير على عيونهم ، ان ينفذوا عبر الغبش المزرورق ليروا حدائق وقباب المدينة الموعودة .

– بالشرف ، نحن كالصليبيين وقد اقتربوا من القدس .

– هناك كانت يهوديات ، اما فى هذه المدينة فبروليتاريات . . .

– ستعلن النساء ملكية مشتركة . . . ها – ها . . .

– الى الحمام ، ثم البولفار ، وبعدها الجعة !

لم تجر من جانب يكاترينودار محاولة لعرقلة العبور . ولكن رجال الاستطلاع كانوا يطلقون بعض الطلقات بين الحين والآخر . عزم الحمر على الدفاع . اسرع أهل المدينة جميعا بمن فيهم النساء والاطفال فى حفر الخنادق ، ومد الاسلاك الشائكة ، ونصب المدافع . وقدمت من نوفوروسييسك فصائل من بحارة البحر الاسود ، وجلبوا معهم مدافع وقذائف . وخطب المفوضون فى الوحدات العسكرية عن الجوهر الطبقى لجيش المتطوعين بقيادة كورنيلوف ،

5*

وان وراءه «البرجوازية العالمية التى لا تعرف الرحمة ، والتى ستخوض ضدها معركة حاسمة ، ايها الرفاق» وأقسموا على ان يموتوا ولا يسلموا يكاترينودار .

وفى اليوم الرابع خرج جيش المتطوعين للاستيلاء على عاصمة كوبان .

واستقبلت صفوف المتطوعين المهاجمة نار' حامية من البطاريات المنصوبة فى محطة البحر الاسود ، ومن الارصفة على نهر كوبان . الا ان وعورة المكان والبساتين والسواقى والاسيجة ومجارى الجداول مكنتهم من الاقتراب من المدينة دون خسائر كبيرة .

وهنا نشبت المعركة بالقرب مما يسمى «المزرعة» عند بيت ابيض يقع على مشارف اجمة من اشجار الحور ما زالت عارية الاوراق على ضفة كوبان العالية ، حيث ابدى الحمر مقاومة صلدة وا'كتسحوا ، الا انهم عادوا فهجموا بحشود كثيفة على نيران الرشاشات ، واستولوا على المزرعة ، وبعد ساعة اجبرهم على التراجع قوزاق كوبان وهم مشاة الصدام والاستطلاعيون بقيادة العقيد اولاغاى .

وفى الحال اتخذ كورنيلوف مقرا لهيئة اركانه بيتا من طابق واحد فى المزرعة . ومن هناك كانت تشاهد بوضوح شوارع يكاترينودار المستقيمة ، وبيوتها البيضاء العالية ، والحدائق الامامية والمقبرة ، ومحطة البحر الاسود ، وأمام كل هذا المنظر صفوف الخنادق الطويلة . كان نهارا ربيعيا ساطعا خفاق الريح . وكانت أدخنة الطلقات تتطاير فى كل مكان ، وهدير المدافع المستمر يهز المنبسط المزرق اهتزازا ثقيلا يجفل له القلب . ولم يضن الحمر ولا البيض بالانفس فى ذلك اليوم .

خصصت للقائد كورنيلوف حجرة فى ركن من البيت الابيض ، ونصبت تلفونات الميدان ووضعت منضدة ومقعد وثير . وقد دخل اليها حالا ، وجلس الى المنضدة ، وبسط الخارطة ، وغرق فى تامل حركات اللعبة التى قد بدأها . وكان مرافقاه – الملازم دولينسكى والخان خاجييف – يقفان احدهما عند الباب ، والثانى عند التلفونات .

كان وجه القائد المغولى القسمات المتغضن النحيل متجهما كما لم يتجهم من قبل . كان الشيب قد غزا نصف شعره المنتصب ويده الصغيرة الجافة بخاتمها الذهبى تستلقى على الخارطة بلا حياة . انه وحده ، خلافا لنصائح الكسييف ودنيكين والجنرالات الآخرين ، قرر ان يقوم بهذا الهجوم ، والآن فى نهاية اليوم الأول تزعزعت ثقته بنفسه . ولكن ما كان ليعترف بذلك حتى مع نفسه .

لقد وقـع خطآن : الأول أن ثلث القوات مع الجنرال ماركوف قد اُبقى على المعبر لحفظ العربات ، ولهذا لم تكن الضربة الأولى ضد يكاترينودار مركزة بشكل كاف ، ولم تجلب ما كان متوقعا منها . فقد صمد الحمر ، وتشبثوا بالخنادق ، وثبتوا فيها على ما يبدو برسوخ . والخطأ الثانى هو فى تطبيق نفس تكتيك الحملة التنكيلية على يكاترينودار ، مثلما طبق على القرى التى احتلت فى الطريق ، فقد طوقت المدينـة من كل الجوانب (على الجناح الايمن بفرقـة مشـاة واستطلاعيين على طول النهر حتى مصانع الجلود ، وعلى الجناح الايسر بتغلغل الخيالـة بقيادة ارديلى) لغرض سد جميع المنافذ والمخارج والتنكيل بالمدافعين عن المدينة وبأهاليها رميا بالرصاص وشنقا وضربـا باعتبـارهم «قطاع طرق» و «رعاعـا متمردين» . فان هذا التكتيك قد ادى الى أن يقرر المقاومون ان الموت فى ساحات المعارك افضل من الموت على اعواد المشانق . فقد كان الناس يصيحون فى طول المدينة وعرضها ان «كورنيلوف قد عزم على الفتك بالجميع !» فاذا بالنسـاء والفتيـات والاطفـال والشيوخ يندفعون تحت وابل الرصـاص الى الخنـادق ومعهـم جرار الحليب والفطـائر يطعمون المدافعين قائلين : «كلوا ، يا بحارة ! كلوا ، يا جنود ! يا رفاقنـا الاعـزاء ، أصمـدوا من اجلنـا . . .» ومضـوا يزودون المدافعين بالطعـام ، ويحملون لهم صناديق العتـاد ، رغم أن الخيالـة كانوا يعدون على افراسهم فى كل مكان ، ولا سيما عند المساء صائحين : «ابتعدوا عن الشوارع ! الى البيوت ! اطفئوا الانوار !. .»

وهكذا كان التفوق للحمر فى اليوم الأول . فَقَدَ البيض فى ذلك اليوم ثلاثة من أفضل القادة عندهم ، وحوالى الف ضابط وجندى ، وانفقوا ، دون هدف ملموس ، أكثر من ثلث ذخيرتهم .

ووصلت من نوفوروسييسك قطارات نصف محطمة متتاليـة

مخترقة اغطية النيران محملة بالبحارة والقذائف والمدافع . وتراكض المقاتلون من العربـات الى الخنـادق مباشرة . وكانت الخسـائر فادحة بسبب كثافتهم وانعدام القيادة .

ظل كورنيلوف جالسا الى الخارطة لا يبارح غرفته فى المزرعة . وقد أدرك أن هناك امرين لا ثالث لهما : اما الاستيلاء على المدينـة او الهلاك للجميع . وبلغ تفكيره الى حد الانتحار . . . ان الجيش الذى كان قـائده الأوحد يذوب مثل جنود من القصديـر القوا فى موقد . ولكن ذلك الرجل غير الهيّـاب وقليل الذكاء كان عنيدا كالثـور .

كان حوالى عشرين من الضبـاط الجرحى جالسين فى الشمس المتوقدة على مدرج الكنيسة فى قرية يلزافيتينسكايا . ومن الشرق كان هدير المدافع يترامى قويـا تارة خافتـا أخرى . بينما هنا ، فى السماء الصافيـة فوق برج الجرس الذى اصيب بقذيفـة فقد كانت الحمامات تصعد باستمرار . كانت الساحة امام الكنيسـة مقفرة ، والبيوت بشبابيكها المحطمة مهجورة . والى جانب سياج من الاغصان المضفورة حيث كانت البراعم تتنفخ فى أجمة لليلق كانت ثمة جثة نصف مدفونة منكفئة على وجهها يكثر عليها الذباب .

كان الضباط على مدرّج الكنيسة يتحدثون باصوات خفيضة :

— كانت لى خطيبة جميلة ، فتاة رائعة ما ازال اتذكرها فى فستان وردى مكشكش . اين هى الآن ؟ لا ادرى .

— نعم ، الحب . . . شىء لا يصدق . . . ان الحياة الماضيـة تجذب كثيرا . . . نساء نظيفات ، وأنت حسن الهندام تجلس هادئا فى مطعم . . . آه ، ما اجمل ذلك ، يا سادة . . .

— ان هذا البلشفى مقزز الرائحة . . . لطيف لو يدفن . . .

— سيأكله الذباب .

— سكوتـا . . . على مهلكم يـا سادة . . .مرة أخرى اشتد القصف . . .

— صدقونى انها خاتمة المطاف . جيشنا الآن فى المدينة .

صمت . والتفت الجميع ينظرون صوب الشرق حيث كان الدخان والغبار يخيم على يكاترينودار مثل سحابة رماديـة صفراء . ويتقدم ضابط نحيل كالهيكل العظمى اصهب الشعـر وهو يعرج ، ويقول :

– فالكا* مات الآن . . . كان يصرخ : «ماما ، ماما . . هل تسمعينني ؟ . .»

بينما كان صوت حاد يقول من اعلى المدرّج :

– الحب ! وآنسة فى فستان مكشكش . . . هراء . احاديث لا قيمة لها . زوجتى أحلى من خطيبتك ذات الفستان المكشكش . . . ومع ذلك ارسلتها الى . . . (ونخر من انفه غاضبا .) ثم انك تكذب على اية حال . لم تكن لك خطيبة . . . مجرد مسدس فى جيبك ، وسيف الى جنبك – تلك هى كل عائلتك وما اليها . . .

توقف روتشين الذى كان يقوم بدورية عند الكنيسة ومعه بندقية ، ونظر الى المتحدث بامعان . كان وجهه صبويا اشقر الشعر ذا انف افطس ، وفم محاط بغضنين عميقين ، والعينين شائختين ثقيلتين بلون ازرق كدر ، مسهدتين شبيهتين بعينى قاتل . اعتمد روتشين على بندقيته (كانت قدمه ما تزال توجعه) وطافت فى ذهنه أفكار ملحاحة . عادت اليه ذكرياته عن كاتيا المهجورة اشفاقا حادا . وضع جبينه على حديد الحربة البارد ، وردد مع نفسه : «كفى ، كفى ، ان هذا ضعف ، لا حاجة لكل ذلك . . .» ونفض الافكار عن رأسه ، وسار على العشب الطرى . «لا وقت للاشفاق ، لا وقت للحب . . .»

وقف رجل ركين متجهم الى جانب حائط آجرى اصيب بقذيفة ، وراح يحدق من خلال منظاره . كانت لطخات من الطين الجاف تلطخ سترته الجلدية الجميلة ، وبنطاله الجلدى وكذلك الحذاء القوزاقى . وبين حين وآخر كانت رصاصة تصيب الحائط الآجرى بالقرب منه .

وعلى بعد مائة خطوة الى الاسفل منه وضعت بطارية وصناديق القذائف الخضراء . وكانت الخيول قد جلبت الى السياج من توها ، فكانت واقفة متدلية الرؤوس تخرج روثا يتصاعد البخار منه . كان طاقم البطارية يقرفص ضاحكا مدخنا على مسندات المدافع يتطلع نحو

* صيغة لأسم فالنتين . – المترجم .

الآمر ذى المنظار . كان الجميع بحارة ما عدا ثلاثة من رجال المدفعية مهلهلى الثياب ملتحين .

كان الدخان والغبار يحجب الافق ، وخطوط الخنادق وتعرجات الأرض والبساتين . وكان ما لمحه الآمر قد ظهر بغير وضوح ، واختفى من مجال الرؤية . ظهر بحار نحاسى البشرة فى قميص بحار داخلى فقط من وراء البيت الذى يقف الآمر عنده ، وتسلل كالقط على طول الجدار ، وجلس عند قدمى الرجل الركين ، وطوق ركبتيه بذراعيه القويتين الموشومتين ، وقلّص قليلا عينيه الصهباوين كعينى الباشق . وقال بصوت خفيض :

– عند الشاطئ تماما شجرتان ، هل تراهما ؟

– اذن ؟

– وراءهما بيت صغير ، أترى جدرانه البيضاء ؟

– اذن ؟

– انه المزرعة .

– اعرف .

– انظر الى اليمين تجد حرشا . وهناك الطريق .

– ارى .

– فى الساعة الرابعة جرى بعض الخيالة هناك يعدون على افراسهم ، واخذ بعض الناس يدبون . وفى المساء جاءت عربتان . هناك يقبع الشيطان لا فى اى مكان آخر .

– انزل الى الاسفل .

قال الرجل الركين بلهجة آمرة ، ودعا آمر البطارية . صعد الى المرتفع رجل ملتح يرتدى سترة من فراء الغنم . قدم له الرجل الركين منظاره ، فراح هذا ينظر وقتا طويلا . وقال بصوت مزكوم :

– ضيعة سلوساريف ، المزرعة . المسافة اربعة فراسخ وربع . يمكن توجيه النار على ضيعة سلوساريف .

واعاد المنظار ، ونزل الى الاسفل بحركة غير موزونة . وصاح بملء حنجرته :

– بطارية ،استعداد ! المسافة . . . القذيفة الأولى . . . نار . . .

ودّوت المدافع بهدير الرعد ، وتراجعت المواسير على المكابس

مرسلة لهبا ، وانطلقت القنابل الثقيلة حاملة الموت الى شاطىء كوبان المرتفع ، الى شجرتي الحور ، حيث كان كورنيلوف الجهم يجلس الى الخارطة فى البيت الأبيض .

فى اليوم الثانى من الهجوم استدعى الجنرال ماركوف مع فوج الضباط الذى كان يحمى معبر عربات الجيش . وكان روتشين جنديا فى هذا الطابور . وبساعة واحدة قُطعت الفراسخ السبعة الى يكاترينودار فى جو اكثر تلففا بالغبار من جو يوم امس بسبب قصف المدفعية . كان ماركوف يسير فى المقدمة فى قبعته القوزاقية المدفوعة الى قفاه ، وسترته المبطنة بالقطن المفكوكة الازرار . كان يخاطب عقيد هيئة الاركان الذى كان يسير وراءه ولا يكاد يلحق به لاعنا شاتما القيادة العليا :

– لعنة ! قطعوا اللواء الى اجزاء ، وتركونى مع طابور العربات وجعلونى اقبع هناك . . . فلو اطلقونى مع اللواء لكنت فى يكاترينودار منذ زمان . . .

وقفز عبر ساقية ، ورفع سوطه ، واستدار نحو الطابور الممتد عبر حقل أخضر ، ورفع صوته بالايعاز حتى انتفخت عروق رقبته . . .

اخذ الضباط اللاهثون بوجوههم المهمومة العرقة يتراكضون ، واستدار الطابور ، وكأنه على محور ، وامتد فى الحقل بأربعة خطوط متذبذبة مواجها المدينة . وكان روتشين غير بعيد عن ماركوف . وقفوا عدة دقائق ، وجربوا ترابيس البنادق ، وعدّلوا وعاينوا اكياس الخراطيش . واصدر ماركوف امره الثانى ماطا حروف العلة . فانفصلت جماعة الحرس وهرولت متقدمة الى الأمام . وسارت الصفوف وراءها .

التقوا الى اليسار بعربات بائسة تحمل الجرحى فى الدرب المطروق . وكان بعضهم يمشون على الاقدام منكسى الرؤوس . وكان جرحى كثيرون جالسين على حوافى السواقى وعلى العربات المنكفئة . وبدت العربات والجرحى بعدد لا يحصى ، الجيش كله .

لحق بالفوج على فرس فاحم رجل ضخم ممتلىء ذو شاربين . كان يشد شريطا أحمر على قبعته ، ويرتدى سترة مفصلة على قده عليها شرائط كتفية لادارة مؤنة الجيش . هتف للجنرال ماركوف بشىء ما مرحا ، الا ان هذا استدار ، ولم يجب . انه رودزيانكو الذى غادر طابور عربات الجيش ليشاهد عملية الاستيلاء على يكاترينودار .

توقف الفوج مرة اخرى . جاء الايعاز من بعيد . فراح الكثيرون يدخنون . صمتوا جميعا ينظرون الى حيث راحت جماعة الحرس تختفى بين السواقى والاكمات . لوّح الجنرال ماركوف بسوطه . وسار باتجاه حرش اشجار الحور العالى . كان عمود اشعث من الدخان يتصاعد على فترات قصيرة من اعماق الاشجار البادئة الاخضرار ، وتتطاير نوافير من كتل التراب والاغصان .

وقفوا طويلا . وتجاوزت الساعة الرابعة . ظهر فارس من وراء الحرش ، وجاء يعدو منكبا على عنق حصانه . ورأى روتشين حصانه المزبد الشدقين يدور عند ساقية ، خائفا ان يقفزها ، ثم هز الحصان ذيله وقفز . وطارت الطاقية من راس الفارس . وحين وصل الى الفوج هتف :

– الهجوم . . . ثكنات رجال المدفعية . . . الجنرال فى المقدمة . . . هناك . . .

واشار بيده الى حيث لاح عدة اشخاص على اكمة لمعت بينها قبعة فرائية بيضاء . وصدر الأمر :

– الصف ، الى الأمام !

تقلصت حنجرة روتشين ، وجفت عيناه . شعر لحظة من الرعب والنشوة اختفى فيها الاحساس بالجسد ، وبزغت الرغبة فى الجرى ، فى الصياح ، فى اطلاق النار ، فى الطعن ، فى ان يمتلىء القلب بالدم فى لحظة النشوة هذه ، كتضحية . . .

تحرك الصف الأول ، وسار روتشين على جناحه الايسر . ها هى الأكمة حيث وقف الجنرال ماركوف فارجا ساقيه ، ووجهه الى الفوج المهاجم .

كان يكرر : «ايها الاصدقاء ، ايها الاصدقاء ، الى الأمام !» وبدت عيناه المتقلصتان دائما متسعتين رهيبتين فى تلك اللحظة .

ثم راى روتشين انصال العشب الجافة الناتئة . وفى كل مكان فيها كان يرقد اناس مرتمين كالزكائب – على وجوههم او على جنوبهم – بلا حراك ، فى قمصان الجنود ، فى ستر البحارة ، فى معاطف الضباط . وراى امامه سياجا واطئا من الاغصان المضفورة ، واحراشا شائكة بلا اوراق . كان رجل طويل الوجه فى صدار جندى مبطن يجلس وظهره الى السياج يفتح فمه ويسده .

قفز روتشين السياج وراى طريقا عريضا . كانت نوافير الغبار تتقدم عليه بسرعة . انهم البلاشفة يطلقون نيران رشاشاتهم على المهاجمين . توقف وتراجع ، وضاق تنفسه ، ونظر وراءه . كان الذين قفزوا السياج من المهاجمين راقدين . ورقد روتشين ايضا ، وضغط خده على الارض الشائكة . وجاهد مجبرا نفسه فرفع رأسه . كان الصف مستلقيا على الأرض . وفى الحقل ، على بعد حوالى خمسين خطوة الى الامام كانت تمتد حدبة ساقية . نهض روتشين قافزا . وركض هذه الخطوات الخمسين وثبا حانيا جذعه . وخفق قلبه بجنون . وقع فى طين لزج فى الساقية . وجرى الصف كله وراءه واحدا وراء الآخر . وسقط واحد او اثنان ولم يصلا الى الساقية . رقد الجميع فى الساقية لاهثى الانفاس . كان الرصاص ينهمر مارقا فوق رؤوسهم ، فى اعلى الساقية .

الا ان شيئا قد تغيّر الى الأمام فجاة . بدات القذائف تنصب نحو الثكنات من ناحية غير محددة . وضُعفت نار الرشاشات .

نهض الصف بجهد ، واندفع الى الأمام . وراى روتشين ظله الطويل الداكن الحمرة المنزلق على الحقل الوعر . كان يلتوى ، ويقصر تارة ويطول اخرى الى ما لا نهاية . وفكر مع نفسه : «يا للغرابة ، ما زلت حيا ، بل والقى ظلا على الأرض» .

اشتد اطلاق النار مرة أخرى من ناحية الثكنات ، الا ان الصف الناحل الآن استلقى على بعد مائة خطوة منها فى الوهدة العميقة . وهناك فى قاع الوهدة الصلصالى الرمادى كان ماركوف يروح ويجىء بعينين رهيبتين . وكان لا يفتأ يردد :

– يا سادة ، يا سادة . . . مهلة قصيرة . . . دخنوا ، اللعنة . . . وتكون الضربة الاخيرة . . . الأمر هين . . مجرد مائة خطوة . . .

وكان الى جانب روتشين ضابط قصير القامة اصلع كان يكرر بصوت خفيض نفس الشتائم البذيئة وهو ينظر الى حافة الوهدة المرسلة غبارا من ارتطام الرصاص عليها . وكان بعض الرجال قد استلقوا وغطوا وجوههم بأذرعهم . وقرفص رجل وامسك بجبينه وهو يتقيأ دما . والكثيرون كانوا يروحون ويجيئون فى قاع الوهدة كالضباع فى قفص . وصدر أمر : «الى الأمام ، الى الأمام !» وبدا وكان احدا لم يسمعه . شد روتشين حزامه بحركة مرعوصة ، وامسك باغصان أجمة ، وزحف الى الاعلى . انزلق ، فكزّ على اسنانه ، واعاد الكرة . وفى اعلى الوهدة رأى ماركوف جالسا القرفصاء . وهو يصيح :

– هجوم ! الى الامام !

ورأى روتشين على بعد بضع خطوات الى الأمام نعلى ماركوف المثقوبين . وسبقه بعض الأشخاص . كانت الشمس الغاربة تغمر بضوئها جدار الثكنات الآجرى ، وتسطع بتوهجها على شظايا زجاج النوافذ المهشم . خرج بضعة اشخاص من الثكنات ، وركضوا فى الحقل الى البيوت البعيدة ذات الحدائق الامامية . . .

كان رهط من المدنيين والجنود يقفون على مقربة من آلة جمباز محطمة ملقاة فى الفناء الرملى لثكنات رجال المدفعية . كانت الوجوه شاحبة ممدودة منهمكة ، والعيون مسبلة ، والايدى مدلاة بلا حياة .

وامامهم وقف عدد اقل من الضباط معتمدين على البنادق . كانوا ينظرون الى الاسرى ببغض شديد . وكان هؤلاء واولئك صامتين ينتظرون . واذا بالنقيب فون ميكه قد دخل الفناء مسرعا متوثبا – وقد عرفه روتشين – نفس الرجل صاحب العينين الثقيلتين المسهدتين الشبيهتين بعينى قاتل . صاح مرحا :

– الجميع . . . الأمر لجميعهم . . . يا سادة ، ليتقدم عشرة منكم . . .

وقبل ان يتقدم عشرة من الضباط مقرقعين بترابيس بنادقهم حدثت حركة بين الاسرى . خلع احدهم – وهو رجل عريض الصدر ضخم – قميصه من فوق راسه . وصرخ آخر بصوت متهدج ، وكان مدنيا عليلا بلا اسنان اذ شاربين سوداوين مستقيمين :

– اشربوا ،ايها الطفيليون ، دم العمال !

وتعانق اثنان بقوة . وانشد صوت مبحوح نشيد «الامية»

بنغمة مختلة : «هب يا عالم العمال . . .» اسند الضباط العشرة بنادقهم على اكتافهم . وفى تلك اللحظة احس روتشين بنظرة ثاقبة . فرفع بصره . (كان جالسا على صندوق يخلع حذاءه .) كانت عينان (اذ لم ير الوجه) تحدقان فيه بتعنيف لحظة الموت ، وبرفعة شامخة . . . «عينان رماديتان اليفتان حبيبتان ، يا آلهى !»

— نار!

وانطلقت الطلقات متفرقة عجلى . وارتفع انين وصياح . احنى روتشين رأسه الى الاسفل ، وراح يشد قدمه التى خدشتها رصاصة بخرقة قذرة .

وكاليوم الاول لم يجلب اليوم الثانى نصرا لجيش المتطوعين . صحيح ان ثكنات رجال المدفعية قد احتلت على الجناح الايمن ، الا انه لم يتقدم فى الوسط خطوة واحدة ،وفقد الفوج الذى كان يقاتل هناك آمره المقدم نيجنتسيف محبوب كورنيلوف . وعلى الجناح الايسر تراجع فوج الخيالة بقيادة ارديلى . وابدى الحمر مقاومة لم يبدوا مثلها من قبل ، رغم ان الجرحى كانوا فى كل بيت تقريبا فى يكاترينودار . وقتل الكثيرون من النساء والاطفال قرب الخنادق وفى الشوارع . ولو كان هناك قائد مقتدر مكافح يوجه الهجوم العام للحمر بدلا من افتونوموف لدحر جيش المتطوعين حتما وابيد ، وقد تهلهل وشاعت الفوضى فى وحداته .

وفى اليوم الثالث ، وبعد أن سدت الشواغر فى افواج المتطوعين على نحو ما ارسلت للهجوم مرة أخرى ، وصدت مرة أخرى الى نقاط انطلاقها . والكثيرون القوا بنادقهم ، ولاذوا فى المؤخرة ، فى طوابير العربات . ويئس الجنرالات . وزار الجنرال الكسييف المواقع ، وهز رأسه الاشيب ، وانصرف . ولكن احدا لم يجرؤ على ان يذهب الى القائد العام ويقول له ان اللعبة قد خُسرت ، وانه حتى وان شقوا طريقهم الى يكاترينودار بمعجزة فان من المستحيل الاحتفاظ بالمدينة منذ الآن .

بعد ان قبل كورنيلوف جبين المقدم المحبوب الميت نيجنتسيف الذى جلب على عربة الى المزرعة تحت نافذة غرفته اطبق فمه ولم يتحدث الى انسان بكلمة واحدة ، الا مرة واحدة حين انفجرت قنبلة شرابنيل قرب بيته ، وخرقت رصاصة واحدة منها النافذة

واصابت السقف ، عندئذ اشار الى تلك الرصاصة باصبع جافة ، وقال للمرافق خاجييف لسبب ما :

— احتفظ بها ، يا خان .

فى ليلة اليوم الرابع ارسل أمر القائد العام على كل تلفونات الميدان : «واصلوا الهجوم» .

ولكن فى اليوم الرابع اصبح واضحا لكل انسان أن زخم الهجوم قد ضعف كثيرا . ولم يستطع الجنرال كوتيبوف الذى خلف نيجنتسيف القتيل أن يُنهض للقتال فوج كورنيلوف (وهو احسن فوج فى الجيش) وكان منطرحا فى حدائق الخضروات . وكانت الوحدات تقاتل بونى . واستمر فوج ارديلى للخيالة فى تراجعه . وظل ماركوف يغالب النعاس اثناء السير ، وقد بَح صوته من الصياح والسباب ، ولم يستطع ضباطه ان يخرجوا انوفهم ابعد من الثكنات.

فى منتصف النهار اجتمع مجلس حربى فى غرفة كورنيلوف مؤلف من الجنرالات الكسييف ورومانوفسكى وماركوف وبوغايفسكى وفيليمونوف ودنيكين . استمع كورنيلوف الى تقرير رومانوفسكى ضاما راسه الاشيب الصغير فى كتفيه :

«لا توجد قذائف ، ولا توجد خراطيش . والمتطوعون من القوزاق يغادرون الى قراهم . والافواج كلها مهلهلة . والحالة النفسية مكتئبة . والكثيرون من غير الجرحى يتركون خطوط القتال الى طوابير العربات . . .» وما الى ذلك . . .

كان الجنرالات يصغون مطرقى الابصار . اتكأ ماركوف على كتف احد الجنرالات وغفا . وفى الضوء الشاحب (حيث كانت الستارة مسدلة على النافذة) كان وجه كورنيلوف البارز الوجنتين مثل وجه مومياء جافة . تكلم بصوت كامد :

— وهكذا فان الوضع ، يا سادة ، حرج بالفعل . وأنا لا اجد مخرجا غير الاستيلاء على يكاترينودار . قررت الهجوم فى فجر الغد على المدينة على طول الجبهة . وقد بقى فوج كازانوفيتش فى الاحتياط . ساقوده بنفسى فى الهجوم .

ونخرمن انفه فجاة . ظل الجنرالات فى جلستهم المطرقة . وبعفوية هتف الجنرال دنيكين الركين ذو اللحية التى وخطها الشيب ، الشبيه بموظف دؤوب ، والمصاب بالتهاب القصبات : «أوه ، يا إلهى ، يا

إلهى !» وسعل ، وسار نحو الباب . القى كورنيلوف على ظهره نظرة خاطفة من عينيه السوداوين اللامعتين . واستمع الى الاعتراضات ، ونهض ، وفضّ المجلس الحربى . وحدد الاول من نيسان موعدا للهجوم الحاسم .

بعد نصف الساعة عاد دنيكين الى الغرفة ، وما يزال صدره يصفر . وجلس ، وقال برفق :

– يا صاحب الفخامة ، اسمح لى أن اطرح عليك سؤالا من رجل لرجل :

– أنا سامع لك ، يا انتون ايفانوفيتش .

– يا لافر غيورغييفيتش ، لماذا أنت متصلب الى هذه الدرجة ؟

رد كورنيلوف على الفور ، وكانما حضر هذا الرد منذ زمان :

– لا يوجد مخرج آخر . اذا لا نحتل يكاترينودار سأطلق رصاصة على جبينى . (واشار الى صدغه باصبعه المقضوم ظفره حتى الجلد .)

– لا يحق لك ان تفعل ذلك ! – ورفع دنيكين يديه الممتلئتين البيضاوين جدا الى صدره . – امام الله ، امام الوطن . . . من سيقود الجيش ، يا لافر غيورغييفيتش ؟

– انت ، يا صاحب المعالى . . .

وباشارة من نفاد الصبر جعل مفهوما ان الحديث قد انتهى .

كان صباح الحادى والثلاثين من آذار حارا صاحيا . راحت موجات التبخر تتصاعد من الارض التى اخذت تخضوضر . كانت مياه كوبان الصفراء الكدرة تجرى بكسل بين الضفاف العالية لا يعكر هدوءها غير قفزات السمك . كان الهدوء يخيم . وبين آونة واخرى فقط كانت تنطلق رصاصة ، ويهدر مدفع من بعيد ، وتصفر قنبلة كان الناس يستريحون ليبداوا معركة دموية جديدة فى الغد .

كان الملازم دولينسكى يدخن على مقدمة البيت ويفكر مع نفسه : «اود لو اغسل ثوبى وملابسى الداخلية ، وجوربى . . . ولطيف لو اغسل» . بل كان ثمة طائر طائش يغرد مرحا فى الحرش . رفع دولينسكى راسه واذا به يسمع صوت قنبلة تنفذ فجاة فى الحرش الأخضر ، و تنفجر بقرقعة حديدية . كف الطائر عن التغريد .

القى دولينسكى عقب السيكارة على دجاجة حمقاء لا يُعرف كيف لم يصنع منها حساء . وزفر ، وعاد الى البيت ، وجلس قرب الباب ، الا انه وقف على قدميه فجأة ، ودخل الى الحجرة الخافتة الضوء . كان كورنيلوف يقف عند الطاولة يعدل بنطاله . سأل بخفوت :

– الم يهيأ الشاى بعد ؟

– سيكون جاهزا بعد دقيقة ، يا صاحب الفخامة . لقد دبرت الأمر .

جلس كورنيلوف الى الطاولة ، وحط عليها كوعيه ، ووضع كفه الجافة على جبينه ، وفرك غضونه .

– اردت أن اقول شيئا ، يا ملازم . . . أوه ، نسيت . مصيبة . . .

انحنى دولينسكى على الطاولة منتظرا سماع شىء . ان كل ذلك غريبا على القائد العام – الصوت الخافت ، والارتباك – حتى ان ذلك افزعه .

كرر كورنيلوف :

– مصيبة . . . سأتذكر ، بالطبع ، لا تخرج . . . قبل لحظة كنت انظر من النافذة . . . صباح رائع . . . نعم ، الأمر كالآتى . . .

صمت ورفع رأسه متسمعا . والآن حتى دولينسكى سمع هدير قنبلة مقترب مثير ، بدا وكانه فى النافذة المسدلة الستار . تراجع دولينسكى . حدث انفجار رهيب فى الأعلى . وتفجر الهواء . واندلع اللهب . وانقذف جسم القائد العام الى الأعلى منفرج الاعضاء . . .

ووجد دولينسكى نفسه مقذوفا من النافذة . وقعد على العشب ، وقد تغطى بالكلس الابيض ، وشفتاه ترتجفان . وتراكض الناس اليه . . .

كان احد الاطباء يقرفص مشغولا عند جسد كورنيلوف المطروح على نقالة ومغطى الى النصف بسترة قوزاقية . وعلى مسافة وقف رهط من ضباط الاركان ، وكان دنيكين اقربهم الى النقالة ، يضع على راسه طاقية عريضة بطريقة خرقاء .

قبل دقيقة كان كورنيلوف يتنفس ، ولم تكن على جسده اصابات ظاهرة ، مجرد خدش صغير عند الصدغ . كان الطبيب لا

يثير انتباه احد ، ولكنه ادرك فى تلك اللحظة ان كل الانظار متجهة اليه ، وبالرغم من انه كان واضحا له ان النهاية قد حلت ، الا انه ظل يعاين الجسد بهيئة اهتمام . نهض بتؤدة ، وعدّل نظارته ، وهز راسه ، وكانه يقول : «مع الاسف ، الطب فى هذه الحال عاجز» .

تقدم منه دنيكين وتكلم معه بصوت مكبوت :

– قل لنا شيئا يسرى عنا .

بسط الطبيب ذراعه ، وقال :

– بلا أمل ! انتهى .

اخرج دنيكين المنديل بحركة راعصة ، وضمه الى عينيه ، وفركهما ، واهتز جسمه الركين واسترخى . اقتربت منه جماعة من ضباط الاركان ، ولم تعد تنظر الى الجثة ، بل الى دنيكين . ركع على ركبتيه ، ورسم علامة الصليب على وجه كورنيلوف الشمعى الاصفر ، وقبّله من جبينه . رفعه ضابطان ، وتحدث ثالث بانفعال :

– يا سادة ، مَنْ يتسلم القيادة ؟

– انا بالطبع ، انا اتسلمها – هتف دنيكين بصوت عال منتحب – هناك أمر بذلك من لافر غيورغييفيتش من قبل ، وقد تحدث الىّ بذلك يوم أمس . . .

فى تلك الليلة غادرت جميع وحدات جيش المتطوعين مواقعها بسكون . واتجه المشاة والخيالة وطوابير العربات ومستشفيات الميدان والعربات المحملة بالشخصيات السياسية شمالا صوب ضياع غناتشباو حاملة معها جثمان كورنيلوف وجثمان نيجنتسيف .

وفشلت حملة كورنيلوف . وقتل القادة الكبار ونصف المشتركين فيها . وبدا وكان مؤرخى المستقبل لا يحتاجون الا لبضع كلمات لذكرها .

ولكن فى الواقع كانت «الحملة الجليدية» لكورنيلوف ذات اهمية كبيرة . فان البيض وجدوا فيها لاول مرة لسانهم ، واسطورتهم ، ومصطلحاتهم القتالية صعودا حتى وسام البيض الجديد والذى يصور على شريط غيورغى القديس سيفا وتاجا من شوك .

وبعد ذلك ، وخلال حملات التجنيد والتعبئة ، وفى الجدالات المزعجة مع الاجانب ، وخلال ظهور سوء التفاهم مع السكان طلعوا

بتاج الاستشهاد العظيم كاول وارفع محاججة لهم . ولم تكن هناك معارضة . فلا باس لو أن احد الجنرالات ، مثلا ، ضرب سكان قضاء كامل باخامص البنادق . فان الذين فعلوا ذلك هم شهداء عظام وخلفاء الشهداء العظام ، ولا يمكن ان يطبق العقاب عليهم .

لقد كانت حملة كورنيلوف استهلالا يرفع بعده الستار عن تراجيديا ، تتابع فيها المشاهد امام الانظار بكثرة موجعة ، وكل مشهد افظع واشد فتكا من سابقه .

٤

قفز الكسى كراسيلنيكوف من مرقاة العربة ، وحمل اخاه على يديه كالطفل ، ووضعه على الرصيف . كانت ماتريونا تقف عند الجرس قرب باب المحطة . لم يعرفها سيميون راسا ، فقد كانت ترتدى ثوبا من صنع المدينة ، وشعرها الاسود اللامع مشدودا بمنديل ابيض نظيف على موضة سوفييتية جديدة . وكان الخوف مرتسما على محياها الفتى المستدير الجميل ، وشفتاها مطبقتين .

وحين اقترب سيميون مستندا على اخيه لا يكاد يحرك رجليه رمشت عينا ماتريونا البنيتان ، وارتعش وجهها . وقالت بخفوت :

– يا عزيزى . . بهذه الحال صرت !

زفر سيميون فى الم ، ووضع يده على كتف زوجته ولثم بشفتيه خدها النظيف البارد . اخذ الكسى السوط من يدها . ووقف الثلاثة صامتين برهة . قال بعدها الكسى :

– ذلك هو زوجك . كانوا يحاولون قتله . ولكن لم ينجحوا فى ذلك . لا باس . سنحصد سوية . فلنذهب يا عزيزتى .

طوقت ماتريونا ظهر سيميون بحنان وقوة ، واوصلته الى عربة وضعت فيها مخدات مطرزة على بساط من حياكة بيتية . واجلسته هناك . وجلست هى الى جانبه مادة الى الامام ساقيها اللابستين حذاء جديدا من طراز مدنى . قال الكسى مرحا وهو يعدل طوق المؤخرة :

– في شباط تخلف أحد الخيالة عن القطار العسكري . وخلال يومين ملأته بالخمرة البيتية ، وفضلا عن ذلك اعطيته خمسمائة روبل من عملة كيرينسكي . فانظر اى حصان اخذت منه . – وضرب الحصان الاصهب القوي على كفله برقة . ووثب الى مقدمة العربة ، وعدل وضع قبعته من فراء الغنم ، وسحب الأعنة . ثم ساروا في الطريق الريفي خلال حقول في بداية خضرتها غردت فوقها بحماس قبرة صغيرة تصفق جناحيها في ضوء الشمس . اطلت ابتسامة على وجه سيميون المعتل غير الحليق . شدته ماتريونا اليها وسألته ببصرها فاجاب :

– نعم ، أنتم هنا تتمتعون . . .

احس سيميون ببهجة وهو يدخل البيت الريفي الرحب المبيض جيدا . صفاقات خضر على النوافذ الصغيرة ، ومقدمة البيت جديدة من الخشب . وها هو الباب الوطيء الاليف قد عبر عتبته فاذا به يرى الموقد المدفأ المبيض بالطباشير تبييضا جيدا ، والمنضدة الركينة المغطاة بمفرش مطرز ، وعلى الرف اوان ليست ريفية ابدا بل من النيكل والصيني ، والى اليسار مخدع ماتريونا بسريره المعدني العريض المغطى بدثار مدنتل ، وكثرة من الوسائد العالية ، والى اليمين غرفة الكسي (حيث كان الاب المتوفى يعيش من قبل) ، وعلى الحائط لجام وسرج وعدة عربة وسيف وبندقية وصورة فوتوغرافية ، وفي الغرف الثلاث كلها وضعت زهور في مزهريات بعناية ، الدُريقة والصبّار . . . وكل هذا اليسار والنظافة ادهشا سيميون الذي ظل غائبا عن البيت عاما ونصف العام ، واذا به يجد الدُريقة والصبار امامه وسريرا كسرير الأميرة ، وثوبا من خياطة المدينة على ماتريونا . قال وهو يجلس على المصطبة :

– انتم تعيشون كاصحاب الاطيان . – وراح يفك لفافة بصعوبة . وضعت ماتريونا ثوبها الخضري في الصندوق ، وشدت مئزرا ، وقلبت مفرش المائدة على وجهه الآخر ، وراحت تعد المائدة بسرعة . مدت شوكة الموقد داخله ، وانحنت الى الارض

تحت ثقل جعل يديها العاريتين حتى الكوع ، حمراوين ، واخرجت القدر الحديدي لحساء الكرنب . وكان قد وضع على المائدة شحم الخنزير المقدد ، وبطة مدخنة ، وسمك مجفف . والقت على الكسي نظرة سريعة ، فغمز لها . عندئذ جلبت جرة من الفخار مترعة بالخمرة المقطرة بيتيا .

ثم جلس الاخوان الى المائدة . ناول الكسي اخاه القدح الاول . احنت ماتريونا راسها تشجيعا . عند ذاك شرب سيميون الكحول الملتهب في جرعة واحدة تقريبا ، مسح كل من الكسي وماتريونا عينيه . ومعنى ذلك انهما سعيدان جدا بان سيميون حيّ يجلس معهما الى المائدة .

عندما انتهوا من احتساء حساء الكرنب قال الكسي :

– نحن لا نعيش حياة مدهشة ، ولكن حياة لا بأس بها ، مقتدرة .

ورفعت ماتريونا الصحون التي جمعت فيها العظام وجلست بالقرب من زوجها . فاستطرد الكسي في القول :

– هل تذكر الحقل قرب الحرش عند بيت الأمير ، الحقل المسمى بذا القاع الذهبي ؟ عملت ضجيجا كبيرا في القرية . قطرت للفلاحين ستة جرادل من الخمرة فخصصوا هذه الأرض لي . وقد حرثناها انا وماتريونا هذه السنة . وحصلنا في الصيف الماضي على غلة لا بأس بها من شريط الارض عند النهر . وكل ما تراه : السرير ، والمرآة ، ودلات القهوة ، والملاعق والشوكات ، وغير ذلك من الاشياء والحاجات حصلنا عليها في هذا الشتاء . ان زوجتك ماتريونا ربة بيت ماهرة . لا تفوت موعدا واحدا للسوق الريفية . انا ما ازال على الطريقة القديمة ابيع كل شيء بالنقود . اما هي فلا . تذبح خنزيرة او دجاجات وتأخذها على عربة مع الطحين والبطاطس ، وتنزل الى المدينة . . . ولا تذهب الى السوق ، بل تذهب الى السادة السابقين في شققهم ، وتقلب عينيها وتقول : «السرير ببودين من الطحين وستة ارطال من شحم الخنزير . . . وهذا الدثار اشتريه ببطاطس . . .» ستنفجر ضاحكا حين ترانا عائدين من السوق . . . كالغجر . . . عربتنا محملة بحاجات كثيرة .

قالت ماتريونا وهي تعصر يد زوجها :

– هل تذكر ابنة خالتي افدوتيا ؟ اكبر مني بعام واحد . مخطوبة لألكسي .

ضحك الكسي ، وراح يقلب في جيبه .

– النسوان قررن ذلك قبلي . . . أما انا يا اخي فقد مللت حياة الترمل حقا . سكر وعهر . وفي النتيجة تلحق المرء قذارة لا يستطيع ان يتخلص منها فيما بعد . . .

اخرج كيس التبغ وغليونا محروقا مزينا بحليات نحاسية تتدلى منه ، وحشاه بالتبغ المصنوع بيتيا ، وتصاعد الدخان في جو البيت . احس سيميون بالدوار من الكلام ومن الخمرة . فلبث جالسا يستمع ويتعجب .

في الغسق اخذته ماتريونا الى الحمام ، وصوبنت له بعناية ، وغلغلته بالبخار ، ودلكته بالليف ، ولفته بفروة خروف . وعادوا ثانية الى المائدة ، وتعشوا ، وافرغوا ما في الجرة الفخارية الى آخر قطرة . ورغم ان سيميون ما زال ضعيفا الا انه استلقى مع زوجته في الفراش وغفا وذراعها الحارة حول رقبته . وعندما فتح عينيه في الصباح راى البيت نظيفا مدفئا . كانت ماتريونا تعجن العجين وفي عينيها لمعان ، وعلى شفتيها ابتسامة تكشف عن اسنانها البيضاء . وبعد قليل سيحين موعد عودة الكسي من الحقل لتناول فطوره . كان ضوء الربيع يتدفق من النوافذ النظيفة ، ويتحرك لمعانا على اوراق الدريقة . قعد سيميون في السرير وتمطى . وكانت حالته تحسنت ضعفين خلال اليوم الفائت والليلة التي قضاها مع ماتريونا . ارتدى ملابسه واغتسل ، وطلب عدة حلاقة اخيه ، وحلق في غرفته امام شظية المرآة على النافذة . وخرج الى الشارع ، ووقف عند البوابة ، وحيّا شيخا مسنا جالسا في الحديقة الامامية المجاورة عاش في عهود سيطرة اربعة اباطرة . خلع العجوز قبعته ، واحنى رأسه باعتبار ، واستمر على جلسته مادا ساقيه الميتتين في حذائهما اللبادي باستقامة ، واضعا يديه المعروقتين على عجرة عصاه .

كان الشارع الاليف مقفرا في تلك الساعة من النهار . وكانت اشرطة خضرة الحبوب تلوح بين البيوت على امتداد البصر . وعلى

الاكمات عند خط الافق كانت العربات تلوح هنا وهنـاك غير مربوطة بخيول . نظر سيميون يسارا فراى طاحونتين فوق راس متحدر طباشيري تدور دواليبهما بوني . وعلى المنحدر الى الاسفل لاح برج جرس ابيض بين البساتين والسقوف القشية . ووراء حرش ما زال غير مورق كانت الشمس تنعكس ملتهبة على نوافذ دار الامير السابقة . وكانت غربان القيظ تنعب فوق اعشاشها . وكان الحرش ومقدمة البيت الجميلة منعكستين في بركة فيضان . وهناك كانت الابقار تبرك ، والاطفال يتراكضون .

وقف سيميون ينظر من تحت حاجبيه ، وقد حشر يديه في جيبيه الواسعين لسترة اخيه . نظر واحس بلوعة في صـدره . وبالتدريج ، ومن خلال موجات الحر الشفافة المتدفقة على القرية ، وفوق الحدائق الليلكية ، والارض المحروثة كان لا يلوح في عين خياله هذا العالم وهذا السكون . جاء الكسي على عربة ، وناداه مرحا وهو مـا يزال بعيدا . فتح البوابة ، وامعن البصر في سيميون . فكّ عدة الحصان ، واخذ يغسل يديه تحت المغسلة المعلقة في الفناء . وقال بحنان :

– لا باس ، يا اخي ، ستتعود . انا ايضا عندما عدت من الجبهة الالمانية كنت اعاف كل شيء لان امام عيني دما . . . وضجرا . . . آه ، لعنة الله على هذه الحرب . . . تعال نتناول فطورنا .

صمت سيميون . ولكن ماتريونا ايضا لاحظت ان زوجها حزين . بعد الفطور عاد الكسي الى الحقل . وخرجت ماتريونا حافية رافعة اذيال ثوبها ، لتحمل الروث على الحصان الثاني . استلقى سيميون على فراش اخيه ، وتقلب ولم يستطع ان ينام . اثقل الحزن على قلبه . فكر وهو يكز على اسنانه : «انهما لن يفهماني ، ولذا ليس من الضروري ان اتحدث معهما في هذا الموضوع» . ولكن في المساء حين خرج الثلاثة وجلسوا على قرمة عند البوابة ، لم يصطبر سيميون فقال :

– على اية حال يجب ان تنظف البندقية ، يا الكسي .

– لتذهب البندقية الى الجحيم . . . منذ الآن والى مائة عام لن نحارب .

– فرحك مبكر ، مثل اهتمامك باليسار والراحة . .
امتص الكسى من غليونه ، وبصق بين رجليه قائلا :
– وانت ايضا لا تدمدم مغموما قبل الاوان . تعال نتحدث كفلاحين . فلسنا في اجتماع عام . فانا اعرف كل ما يقولونه في الاجتماعات العامة . وقد صرخت نفسي بها . فقط ان تكون قادرا على الاستماع لما هو ضروري لك اما غير الضروري فاطرحه جانبا . اذا قلت ان الارض للشغيلة ، فهذا حق تماما . اما لجان فقراء الفلاحين فنحن في القرية ضيقنا تصرفات اعضائها . وفي قرية سوسنوفكا تفعل اللجنة ما تشاء . والمصادرة وسوء الادب قد بلغا الهامة . وقد تحولت ضيعة الكونت بوبرينسكي الى السوفخوز ، ولم يقتطعوا للفلاحين شبرا واحدا من الارض . وممن تتالف اللجنة ؟ من اثنين من معدمي المنطقة . اما البقية فالشيطان يعرفهم . منهم غرباء ومحكومون سابقون . . . هل فهمت ام لا ؟ .
استدار سيميون قائلا :
– ليس هذا ما عنيت . . .
– اذا كان ذلك لم تعنه فانا الذى اعنيه . في عام ١٩١٧ صرخت في الجبهة عن البرجوازية . واصبت برصاصة في رجلي ، عسى الله يعطى العافية لمن اصابني بها ، فقد سرحت الى البيت رأسا . ورأيت مهما اكلت فانك ستجوع غدا لا محالة ، وتتطلب طعاما . اكدح . . .
ضرب سيميون القرمة باظافره :
– الارض تلتهب تحتكم ، وانتم نائمون .
قال الكسى باصرار :
– وربما عندكم في الاسطول او في المدن لم تنته الثورة بعد . اما عندنا فقد انتهت حالما قسموا الأرض . والآن هذا ما سيحدث : سنجمع الغلال اولا ثم نلتفت الى لجان الفقراء . وحتى عيد القديس بطرس لن نترك لجنة واحدة . سندفن اعضاءها احياء في الارض . نحن لا نخاف الشيوعيين ، ولا اى شياطين . فتذكر ذلك . . .
قالت ماتريونا بخفوت :
– كفى ، يا الكسى ايفانوفيتش . انظر اليه يرتعش بكل كيانه . امعقول ان تجرى تحقيقا مع مريض ؟

صاح سيميون :
– لست مريضا . . . بل انا غريب هنا !
ونهض وسار نحو سياج الحديقة .
وانتهى الحديث عند هذا الحد .
كان خفاشان مثل عفريتين يطيران في شريط الغروب المنطفئ*. وكانت بعض النوافذ مضاءة ذلك لان الناس كانوا ينهون عشاءهم . وحملت الريح اغنية من بعيد باصوات فتيات . ثم انقطعت الاغنية ، وحلت مكانها كركبة حوافر منطلقة في الشارع العريض في غبش المساء . توقف الفارس وهتف بشيء ما ، ثم اطلق العنان لحصانه من جديد . اخرج الكسى غليونه من فمه ، وتسمّع ، ونهض من على القرمة .
وقالت ماتريونا بصوت مرتجف :
– اهى بلية ؟
واخيرا ظهر الفارس وهو فتى حاسر الراس ، حافى القدمين . . . وصاح :
– الالمان قادمون ! . . قد قتلوا اربعة اشخاص في قرية سوسنوفكا ! . .

في منتصف آذار ، حسب التقويم الجديد ، وبعد ان عقد الصلح ، بدأت القوات الالمانية هجوما على اوكرانيا والدنباس على طول الجبهة من ريغا حتى البحر الاسود .
بموجب بنود الصلح كان يجب ان يحصل الالمان من الحكومة المركزية الاوكرانية على ٧٥ مليون بود من الحبوب ، و١١ مليون بود من الماشية الحية ، ومليوني دجاجة وبطة ، ومليونين ونصف مليون بود من السكر ، و٢٠ مليون ليتر من الكحول ، والفين وخمسمائة عربة قطار محملة بالبيض ، و٤ آلاف بود من الشحم الى جانب الزبدة والجلود والصوف والاخشاب وغيرها . . .
هاجم الالمان اوكرانيا وفق كل قواعد الحرب : بطوابير من ذوى البزات الخاكية والخوذ الفولاذية . واكتسحت المدفعية الالمانية الثقيلة حواجز القوات الحمراء الضعيفة .

سارت القوات وطوابير السيارات ومجاميع هائلة من المدفعية الثقيلة عليها خطوط مبرقشة الالوان للتمويه ، وترقعت الدبابات والسيارات المصفحة ، وجلبت عوامات وجسور كاملة للعبور . وازّت اسراب الطائرات في السماء .

لقد كانت تلك مسيرة التكتيك على شعب اعزل تقريبا .

فكانت الفصائل الحمراء المؤلفة من قدامى المحاربين والفلاحين وعمال المناجم وعمال المدن السيئة التنظيم والأقل عددا بعدة مرات من القوات الالمانية تتراجع مقاتلة الى الشرق .

وفي كييف حلّت الحكومة المركزية الاوكرانيــة التي قدمت اوكرانيا للالمان ، ونصب في محلها الجنرال سكوروبادسكي من حاشية القيصر السابق . كان يرتدي المعطف الازرق على التقليد الاوكراني ، ويضع يده على خصره ، ويمسك بصولجان الهيتمان : «عاشت اوكرانيا الحقة ! منذ الآن والى الابد سيستتب السلام والنظام والرخاء . العمال الى آلاتهم ، والفلاحون الى محاريثهم ! والحمر الى جهنم !»

بعد اسبوع من مجيء الفــارس بــالخبر الرهيب في الشــارع العريض في قريــة فلاديميرسكويه ظهرت كوكبــة من الخيالة فوق المنحدر الطباشيري بالقرب من الطاحونتين في الصباح الباكر مؤلفة من عشرين خيالا تمتطي خيــولا سوداء ضخمة — رجال ضخام في هيئة غير روسية يرتدون سترا قصيرة خضراء رمادية وقبعات عالية ذات اشرطة . اطلوا على القرية من عل ، وترجلوا .

كان ما يزال في القرية اناس ، فان الكثيرين منهم لم يخرجوا بعد الى الحقول . تراكض الاولاد من بوابــة الى اخرى ، وتنادت النساء عبر اسيجة حدائقهن وسرعان مــا تجمهر جمهور في ساحة الكنيسة ، واتجهت الاعين الى الأعلى ، حيث نصبت رشاشتان بالقرب من الطاحونتين ، وكانتا تبدوان بوضوح .

وبعد ذلك بقليل قرقعت عجلات مصفحة بالحديد في شارع القرية من الجانب الآخر ، وطقطق سوط ، ودخل الساحة حصانان بنيان مزبدان في عدو سريع يجران عربة عسكرية . كان على مقعد

الحوذي جندي احرق ذو عينين وضــاءتين وفك طويل يرتدي سترة ضيقة وطاقية مسطحة . وقد جلس وراءه ضابط الماني متخوصر وهو سيد في هيئــة غريبة صارمة يضع زجاجة على عينــه ، وقبعة جديدة انيقة مثل قبعات الدمى . والى يساره رجل تعرفه القرية هو مدير اعمال الأمير الذي كان قد هرب من الضيعة في الخريف الماضي في ملابسه الداخلية .

اما الآن فقد كان غريغوري كارلوفيتش ميــــل هذا يجلس مقطب الحاجبين مستدير الوجه الحليق يضع نظارة مذهبة الاطار ويلبس معطفا جيدا وقبعة مدفئة . احس الفلاحون بحكة في جلودهم حين وقعت ابصارهم عليه .

صاح الضابط الغريب الهيئة باللغة الروسية فجاة : «اخلعوا القبعــات !» خلــع بعض الذين كانوا على مقربة منــه قبعاتهم على مضض . وساد السكون الساحة . ظل الضابط على جلسته مخوصرا والتمعت الزجاجة على عينه ، وبدأ يتحدث مخرجا الكلمات بعسر ، ولكن بنطق سليم :

— يا فلاحي قرية فلاديميرسكويه ، ها قد رأيتم على الرابية ، هناك ، رشاشتين المانيتين ، وهما تعملان بشكــــل ممتاز . . . وانتم ، بالطبع ، فلاحون ذو تفكير سليم ، وانا لا اريد ان الحق بكم اذى . ويجب القول ان قوات الامبراطور غليوم الالمانية جاءت اليكم لتعيد بينكم حياة الناس الشرفاء . نحن الالمان ، لا نحب ان تسرق ملكية الآخرين ، وسنعاقب على ذلك عقابا لا رحمة فيه . وقد علمكــم البلاشفــة بشكل آخر ، أليس كذلك ؟ ومن اجل هذا طردنا البلاشفة ، ولن يعودوا اليكم ابدا . انصحكم بان تفكروا جيدا باعمالكم السيئة ، وبان تعيدوا في الحال الى صاحب هذه الضيعة ما سرقتموه منه . . .

اثارت هذه الكلمات نحنحة عصبية في الجمع . كان غريغوري كارلوفيتش طوال الوقت جالسا وقد نزلت شرابة قبعتــــه على عينيه ، وراح يمعن النظر في الفلاحين . وفي مرة واحدة لاحت على وجهه الممتلئ ابتسامة الظفر ، والظاهر انه تعرف على واحــد في

الجمع . انهى الضابط خطابه . وصمت الفلاحون . قال الضابط مخاطبا غريغورى كارلوفيتش :

– اديت واجبى . والآن تحدث أنت ، يا سيد ميل .

رفض غريغورى كارلوفيتش هذا الاقتراح بأدب جم :

– ليس لدىّ ما اقوله لهم ، ايها السيد الملازم . انهم فهموا بدون كلامى .

قال الضابط الذى لم يكن يعنيه الأمر :

– حسنا . سر ، يا اوغست !

ضرب الجندى ذو الطاقية المسطحة بسوطه ، وتدحرجت العربة العسكرية بين الحشد المتراجع متجهة الى بيت الأمير حيث كانت لجنة القضاء التنفيذية تتخذه مقرا لها قبل ثلاثة ايام . وراح الفلاحون يتطلعون فى اثر العربة .

قال صوت فى الجمع :

– جلس الالمانى مخوصرا .

– وغريغورى كارلوفيتش ملتزم الصمت ، يا اصحاب .

– انتظروا ، وسيأتيكم كلامه .

– مصيبة . وماذا فعلنا لنستحقها ؟ . .

– عن قريب سيحضر ضابط البوليس .

– قد جاء فى قرية سوسنوفكا . دعا الى اجتماع ، وامطر المجتمعين سبابا . وقال لهم يا نهابين ولصوص هل نسيتم عام ١٩٠٥ ؟ وثرثر ثلاث ساعات ، شاتما اياهم طوال الوقت . وشرح النظام كله .

– ماذا سيكون الآن ؟

– الجلد .

– انتظر ، وماذا عن الأرض المزروعة ؟ لمن تكون الآن ؟

– بالمناصفة . سيتركوننا نجمع الغلة ، والنصف للأمير .

– أوه ، يا للشيطان ، انا راحل .

– الى اين راحل ، يا احمق ؟ . .

وبعد ان تحدث الفلاحون تفرقوا . وفى المساء اعادوا الى بيت الأمير الارائك والمقاعد والاسرة والستائر والاطارات المذهبة للمرايا واللوحات .

تعشوا فى بيت كراسيلنيكوف دون ان يوقدوا الضوء . كان الكسى يضع ملعقته غير مرة وينظر من النافذة ، ويزفر . وكانت ماتريونا تسير بهدوء كالفارة ما بين الموقد والمائدة . بينما جلس سيميون محدودبا ، وشعره الداكن المتجعد ينزل على جبينه . كانت ماتريونا تمسه من الحين الى آخر بيدها أو صدرها كلما نظفت المائدة من الكسر أو وضعت اناء بطعام جديد . الا انه كان لا يرفع رأسه ، وظل صامتا متجهما .

وفجأة اندفع الكسى الى النافذة ، ونقر زجاجها باظافره ، واطل منها . الآن ، وفى سكون المساء كان يسمع بوضوح صياح وحشى طويل آت من بعيد . قعدت ماتريونا على المصطبة فى الحال ، وحشرت يديها بين ركبتيها .

قال الكسى بصوت خافت :

– انهم يجلدون فاسكا دمينتييف . قبل مدة اخذوه الى بيت الأمير .

همست ماتريونا :

– هذا الثالث .

وصمتوا ، وتسمعوا . وكان الصراخ ما يزال يخيم على مساء القرية بنفس النبرة من القنوط والرعب .

نهض سيميون فجأة . وشد الحزام على بنطاله بحركة مقتضبة ، وذهب الى اخيه فى الغرفة . تبعته ماتريونا صامتة . انزل البندقية من الحائط . طوقته ماتريونا من رقبته ، وتعلقت بها ، دافعة رأسها الى الخلف ، صاكة اسنانها البيضاء ، وجمدت . اراد سيميون ان يدفعها عنه الا انه لم يستطع . سقطت البندقية على الأرض الترابية . عندئذ استلقى على السرير منكفئا بوجهه على الوسادة . جلست ماتريونا على مقربة ، ممسدة بحركات سريعة شعره الخشن .

رجا غريغورى كارلوفيتش ميل مدير اعمال الامير ان ترسل حامية الى قرية فلاديميرسكويه غير معتمد على قوة الحراس والغايداماك – قوات الهيتمان الجديدة . وكان الالمان يوافقون فى

مثل هذه الاحوال عن رضى . دخلت الى القرية فصيلتان ومعهما رشاشات .

وسكن الجنود فى بيوت الفلاحين . وشاع بين الناس ان غريغورى كارلوفيتش نفسه عين البيوت التى ستسكن . وعلى اية حال فقد عين لكل من الفلاحين الذين اشتركوا الاستباحة التى حدثت فى العام الفائت لضيعة الأمير ، او كل عضو من اعضاء اللجنة التنفيذية للقضاء من غير الحزبيين (وكان قد اختفى حوالى عشرة شبان من القرية قبل مجىء الالمان) جنديا واحدا مع حصانه ليطعمهما .

وهكذا طرق بيت الكسى كراسيلنيكوف جندى المانى شهم بكل لباسه العسكرى يحمل بندقية ويرتدى خوذة وغيرها . واظهر لالكسى الأمر الصادر وهو يتفوه بكلمات غير مفهومة ، ثم ربت على كتفه قائلا :

— تمام ، صديق . . .

وخصصت للجندى غرفة الكسى ، ولم يأخذوا منها سوى عدة العربة والسلاح . وهيأ الجندى مكانه فى الحال . فرش بطانية جيدة ، وعلق صورة غليوم على الحائط ، وطلب أن تنظف الارض على نحو أحسن .

وبينما كانت ماتريونا تنظف الارض جمع ملابسه الداخلية وطلب ان تغسل متفوها مزيجا من الكلمات الالمانية والروسية المشوهة . ولما رضى عن كل شىء انهد بحذائه على السرير ، وراح يدخن سيكارة .

كان الجندى بدينا له شاربان مسطحان مرفوعان الى الاعلى ، والثياب التى يرتديها جيدة ومريحة . وكان يأكل كثيرا كالخنزير المخصى ، اكل كل ما جلبته ماتريونا فى الغرفة . وقد اعجبه بشكل خاص شحم الخنزير المملح . وكانت ماتريونا تاسف اشد الأسف على تقديم شحم الخنزير للالمانى ، الا ان الكسى قال : «لا عليك ! دعيه يعلف وينام . شرط الا يحشر أنفه فى اى مكان» .

وفى اوقات فراغه كان الجندى يترنم باناشيد عسكرية او يكتب رسائل الى وطنه على بطاقات بريدية تحمل مناظر كييف . لم يشاكس ، ولكنه كان يسير بخطى ثقيلة عالية ، ويضرب الارض بحذائه وكأنه سيد البيت .

وخيم على بيت كراسيلنيكوف سكون وكأنما قد فجعوا بفقيد . كانوا يجلسون الى المائدة وينهضون صامتين ، والكسى حزين تلوح التجاعيد على جبينه ، وماتريونا شاحبة الوجه ، تتنهد وتمسح الدموع خلسة بمئزرها . وكانت اكثر ما تخاف ان يفقد سيميون السيطرة على نفسه . الا أنه فى تلك الأيام يبدو وكأنه قد هدأ وانطوى على نفسه .

والآن صارت تلصق فى كل يوم على دار ادارة القضاء وعلى بوابات البيوت أوامر الهيتمان حول اعادة الارض والماشية الى اصحاب الاطيان ، وحول المصادرة والضرائب ، وحول بيع الحبوب الاجبارى وحول العقوبات الصارمة لكل محاولة للتمرد واخفاء الشيوعيين وغير ذلك .

وكان الفلاحون يقراون الأوامر ويلوذون بالصمت . ثم شاعت شائعات خبيثة تقول ان التجار دخلوا احدى القرى تحت حراسة الخيالة الالمانية ، واخذوا معهم حتى الحبوب غير المدروسة ، ودفعوا اوراقا نقدية غير روسية حتى ان النساء لم يردن اخذها ، وانهم فى قرية اخرى ساقوا نصف الماشية بل وفى قرية ثالثة لم يبقوا على شىء حتى ما تلتقطه العصافير .

وبدأ الفلاحون يجتمعون جماعات صغيرة ليلا فى اماكن سرية ، واخذوا يسمعون الحكايات ويتذمرون . ما العمل ؟ وبم العون ؟ ان قوة جبارة تجثم على القرية لا تستطيع معها الا ان تتنفس ولا تبدى صوتا .

اخذ سيميون يتردد على هذه الاجتماعات خلف البيوت ، عند الجدول ، تحت شجرة الصفصاف . كان يجلس على الأرض ، وسترته ملقاة على كتفيه ، ويدخن ، ويستمع . واحيانا كان يهم ان ينهض ، ويلقى عنه سترته ، ويبسط كتفيه ليخطب : «ايها الرفاق !..» ولكن ذلك لا يأتى بنتيجة سوى اخافتهم ، فترتعش سراويلهم رعبا ، ويتفرقون .

ذات مرة ، فى غبش المساء ، التقى فى المرعى العام برجل كان واقفا مبتسما . مر سيميون به فناداه الرجل بصوت خفيض :

— اخى !

جفل سيميون . أهو من جماعته حقا ؟ سأل وهو ينظر اليه من طرف عينه :

– ما حاجتك ؟

– هل انت اخو الكسى ؟

– لنفرض .

– انت لا تعرف اصحابك ... هل تذكر بحارة «كيرتش» ؟

– كوجين ! انت ؟

وصافحه سيميون بقوة .

وقفا واحدهما ينظر الى الآخر . قال كوجين وهو يلقى نظرة سريعة الى الخلف .

– هل قطعتم نهايات بنادقكم ؟

– لا . ان كل شيء ما يزال هادئا عندنا !

– وهل عندكم رجال مكافحون ؟

– من يدرى ؟ لم أر بعد . نحن ننتظر ماذا سيحدث .

– ماذا تفعلون ، ايها الاصحاب ؟ – قال كوجين ، وعيناه تتقلبان طوال الوقت تحملقان فى معالم الاشياء المحيطة به فى الغسق – ماذا تنتظرون ؟ سينتفونكم كما تنتف الوزة ، وأنتم قد عطيتم لهم رؤوسكم . أتعرفون انهم قد احرقوا كل شيء فى قريتنا اوسبينسكويه بنار المدفعية . وهربت النساء والاطفال ، ولاذ الرجال فى الغابة ... واهالى قرى نوفوسباسكويه ، وفيدوروفكا ، وغولاى-بوله يتوافدون الينا جميعا ...

– ماذا تعنى بـ«الينا» ؟

– هل تعرف غابة ديبريف ؟ انهم يجتمعون هناك ... حسنا ، اهمس للرجال : على قرية فلاديميرسكويه ان تزود اربعين بندقية مقطوعة النهايات ، وحوالى عشر بنادق اعتيادية مع خراطيشها ، وما يمكن جمعه من القنابل اليدوية ، واخفوا ذلك فى التبن فى الحقل ... هل فهمت ؟ فى قرية سوسنوفكا يخفون ذلك تحت تلال القش . والفلاحون ينتظرون الاشارة منى فقط ... وفى قرية غونديايفكا ثلاثون فلاحا على خيولهم ينتظرون ... يجب ان نخرج .

– الى اين ؟ الى من ؟

– الى الاتمان ... انه يدعى شوس . الآن نحن نجمع

الفصائل فى كل منطقة يكاترينوسلاف ... فى الاسبوع الماضى دحرنا الغايدماك ، واحرقنا مزرعة ... طرافة ومتعة ، يا اخى ، نلقى الكحول والسكر على الفلاحين هبة وعطاء ... تذكر ، سآتى بعد اسبوع ...

وغمز لسيميون ، وقفز سياجا ، وركض منحنيا الى القصب ، حيث كانت الضفادع تنقنق بصوت عال .

كانت الشائعات حول الاتمانات والغارات قد وصلت الى قرية فلاديميرسكويه ، الا ان اهل القرية لم يصدقوا . وها هو شاهد حى قد ظهر بالخبر اليقين . فى ذلك المساء قصّ سيميون ذلك على اخيه . اصغى الكسى بجد .

– ما اسم هذا الاتمان ؟

– يقولون : شوس .

– لم اسمع به . تدور الشائعات حول نستور ايفانوفيتش ماخنو ، يقولون ان لديه زهاء خمسة وعشرين من قطاع الطريق ، وهم يغيرون على الضياع . أما شوس فلم اسمع عنه ... كل شيء ممكن . فالفلاح الآن مقتدر على كل شيء . سواء أكان شوس او غيره فان فى القضية خيرا ... اوصيك فقط الا تتحدث الى الفلاحين . وحين تقتضى الضرورة سأخبرهم بنفسى .

ضحك سيميون ضحكة هازئة ، وهز كتفيه .

– انتظروا حتى يسلخوا جلدكم .

يبدو ان كوجين لم يظهر لسيميون وحده فى ذلك المساء . فقد تهامس الناس فى القرية حول البنادق المقطوعة والقنابل اليدوية وفصائل الاتمان . وكان من الممكن ان تسمع الاذن ، اذا ارهفت ، حزيز المناشير على الحديد فى هذا الفناء او ذاك فى الليالى . الا أن كل شيء كان هادئا بعدُ . بل ان الالمان اقاموا النظام ، واصدروا امرا بأن يكنس الشارع فى عشية السبت على الأحد . فلم يجد الاهالى بدا من كنس الشارع .

ثم وقعت بلية . فى ساعة مبكرة ، وقبل أن تخرج البهائم للشرب سار فى الشارع المكنوس رجال شرطة وجنود يضعون الشارات على صدورهم ، وطرقوا زجاج النوافذ قائلين :

– اخرجوا !

اخذ الفلاحون يخرجون من بيوتهم حفاة يزررون ثيابهم ، فاعطى لهم امر رسمى يفرض على هذا البيت او ذاك مقدارا من الحبوب والصوف وشحم الخنزير والبيض ليقدم الى ادارة مؤنة الجيش الالمانى بسعر معين فى الماركات الالمانية . وكان طابور من العربات العسكرية يقف فى الساحة عند الكنيسة . وكان الجنود الالمان المقيمون فى البيوت يقفون عند بواباتها مرتدين خوذهم وحاملين بنادقهم .

حك الفلاحون رؤوسهم . بعضهم راح يحلف بالرب بانه معدم . وبعضهم رمى قبعته على الارض قائلا :

– لم يعد عندنا قمح ، والله . اذا قطعتمونى لن تجدوا عندى شيئا !..

وفى تلك اللحظة رأوا مدير الاعمال يسير فى الشارع فى عربة ركوب . فكان فزع الفلاحين بنظارته الذهبية اشد من فزعهم من رجال الشرطة والجنود ، لأن غريغورى كارلوفيتش كان يعرف كل شىء ويرى كل شىء .

اوقف حصان عربته . تقدم ضابط الشرطة من العربة . وتحدث الاثنان . وصاح على رجال الشرطة . فدخل هؤلاء الى اول بيت ، وعثروا على حبوب فى الحال مخفية تحت السماد . وحين سمع غريغورى كارلوفيتش صياح صاحب الحبوب لم يبدر منه شىء سوى ان نظارته قد لمعت .

فى ذلك الوقت كان الكسى يذرع فناء بيته شديد الذهول ، ومرآه يثير الأسى . انزلت ماتريونا منديلها على عينيها ، وبكت فى مقدمة البيت .

وكان الكسى يسأل وهو يرفع قطعة خشب أو عجلة مكسورة ويلقيها فى نبات القرّاص عند السياج :

– ما نفع هذه النقود الالمانية لى ، ما نفع الماركات ؟–

وحين لمح ديكا ضرب قدمه على الأرض وشتمه : «حقير !» ومسك بالقفل على حجرة المؤنة :

– ماذا سنأكل اذن ؟ هذه الماركات ؟ اذن يريدوننا أن ننقلب الى متسولين ؟ أن يدمرونا كليا ؟ مرة أخرى فى ربقة الظلم ؟

قال سيميون وهو جالس قرب ماتريونا :

– سيأتى اسوأ من ذلك ... سيأخذون حصانك .

– لن يكون ذلك ابدا . سأقتلهم بالفأس !

– فات الوقت .

وانتحبت ماتريونا :

– اوى ، يا عزيزى ... سأقطع حناجرهم باسنانى ...

طرق الباب بأخمص بندقية . ودخل الجندى البدين الذى كان يقيم عندهم هادئا مرحا وكأنما يدخل بيته . ووراءه دخل ستة من رجال الشرطة ومدنى على قبعته عقدة شريط ثلاثية الاسنان ، رمز الهيتمان ودفتر التسجيل فى يديه . قال له الالمانى ، وهو يشير الى غرفة المؤنة .

– هنا الكثير من القمح وشحم الخنزير .

حدجه الكسى بنظرة ضارية ، وتراجع ، والقى بكل قوته مفتاحا كبيرا صدئا تحت قدم الموظف الهيتمانى .

فصاح هذا :

– احذر ، ايها الوقح . هل يحكك جلدك ، يا ابن الكلبة ؟

دفع سيميون ماتريونا بكوعه ، ووثب من مقدمة البيت ، الا ان حربة عريضة النصل صدته من صدره . وصاح الالمانى بعنف وسلطان :

– توقف . روسى فى مكانك !

ظلت العربات العسكرية طول النهار تُحمل بالمؤن . وتحرك طابورها فى ساعة متاخرة من الليل . نهبت القرية نهبا تاما . ولم يشتعل ضوء فى البيوت ، ولم يجلس الناس الى مائدة . كانت النساء ينتحبن فى البيوت المظلمة ، داعكات بايديهن الماركات الورقية ...

لا جدوى من ان ينزل فلاح وزوجته مع هذه الماركات الى المدينة لانهما لن يحصلا من الحوانيت على شىء ، لا على مسمار ، ولا على ذراع قماش ، ولا قطعة جلد . فان المعامل لا تعمل ، والحبوب والسكر والصابون والخامات تنقل بالقطارات الى المانيا . ولا حاجة لفلاح وإمراته الى ان يجلبا الى البيت بيانو ،

ولا لوحة هولندية قديمة ، ولا ابريق شاى صينيا . وعيونهما لا تقع الا على الغايداماك ذوى الخصلات المتهدلة والشوارب النازلة فى معاطفهم الزرق ، والقبعات الاستراخانية المتوجة باعاليها القرمزية ، كانا يتسكعان فى الشارع الرئيسى بين التجار الزرق الوجوه من الحلاقة ذوى القبعات العالية وهم المحتالون المشتغلون بعمليات بيع وشراء العملة الاجنبية . ويتحسران بالم ، ويعودان الى بيتهما دون اية مشتريات . وفى الطريق ، وبعد عشرين فرسخا يتوقف القطار لأن محاور العربات قد حميت ، ولا يوجد دهن لتشحيمها ، لان الالمان قد اخذوه . فرشوا الرمل على المحاور ، ويتحرك القطار قليلا ثم يتوقف ثانية .

ولهذا كله كانت النسوة ينتحبن ، ويضممن الماركات الالمانية المدعوكة بين اصابعهن ، ويخفى الرجال الماشية فى وهدات الغابة بعيدا عن المصيبة ، فمن يدرى اى امر المانى سيصدر فى الغد !

كانت الاضواء لا توقد فى القرية ، وكل البيوت مظلمة ما عدا بيت الأمير وراء الحرش عند البحيرة ، فقد كانت الانوار تتلالأ فيه تلالؤا زاهيا . اذ كان مدير الاعمال يقيم هناك حفلة تكريمية للضباط الالمان . وتعزف الموسيقى العسكرية . وتحوم انغام موسيقى الفالس الالمانية كالارواح الشريرة فوق القرية المظلمة . ثم يحلق صاروخ كالشهاب النارى عاليا فى السماء لتسلية الجنود الالمان الواقفين فى فناء بيت الأمير حيث دُحرج برميل من الجعة . وكان الصاروخ ينفجر ، وتتضاء السقوف القشية والحدائق واشجار الصفصاف وبرج الجرس الابيض والاسيجة بنجوم تتساقط ببطء . وقد ارتفعت وجوه كثيرة خالية من الفرح نحو هذه الانوار . وكان الضوء يسطع سطوعا يجعل كل غضن فى الوجوه يبرز بوضوح . ومن المؤسف ان احدا لم يصورها وهى فى هذه الحال بآلة تصوير غير منظورة . فان مثل هذه الصور ستكون موضوعا لتفكر فيه هيئة الاركان الالمانية .

وتنورت حتى الحقول على بعد فرسخ من القرية وكانما اهلّ عليها نهار . وكان بعض الرجال الذين كانوا يتسللون نحو كدس من التبن منفرد ، فلما رأوا النور استلقوا على الأرض بسرعة الا

واحدا كان واقفا عند اكداس التبن رفع رأسه الى الانوار المتساقطة من السماء ، وقال بابتسامة هازئة :

– عظيم !

انطفأت الانوار قبل أن تصل الى الأرض ، وعاد الظلام . اجتمعت الرجال عند اكداس التبن ، وطقطقت البنادق ، وهى تقذف على الارض .

– كم مجموعها ؟

– عشر بنادق مقطوعة ، يا رفيق كوجين ، واربع بنادق اعتيادية .

– قليل . . .

– لم يكن لدينا وقت كاف ، غدا ليلا سنجلب عددا آخر . .

– واين الخراطيش ؟

– خذ . انها فى الجيوب . . . عدد كبير .

– اخفوها تحت اكداس التبن ، يا رجال . . . نحتاج الى قنابل يدوية ، اجلبوا قنابل يدوية . . . البندقية المقطوعة سلاح الشيوخ الذين يختفون فى ساقية وراء اجمة . طلقة واحدة ويتهافتون ، وتنتهى المعركة . أما المحارب الشاب فبحاجة الى بندقية ، والشىء الاول قنبلة يدوية . أفهمتم ؟ وسيف لمن يستطيع استعماله . انه خير الاسلحة .

– لطيف ان نبدأ فى الأمر هذه الليلة ، يا رفيق كوجين .

– نثير القرية كلها ، والله العظيم . . . تجمع فى قلوبنا الكثير من الاحن . اخذوا كل ما نملك كأنما انتزعوا منا جزءا من الجسم . . . سنخرج اليهم بالمذرات والمناجل ، او اذا مكن القول ، بكل ادوات الشغل . . . وسنقضى عليهم وهم نائمون بأسهل من السهولة . . .

– وهل أنت الآمر هنا ؟

صاح كوجين بصوت حاد . وصمت برهة . ثم اخذ يتحدث بصوت مداهن ، ثم راح يرفع صوته شيئا فشيئا :

– من الآمر هنا ؟ اريد ان اعرف . . . ام انا اتحدث مع حمقى ؟ أم انصرف وادع الالمان والغايداماك يضربونكم وينهبونكم . . . (وهمس بشتيمة .) الا تعرفون الانضباط ؟ أم

ان عدد الرؤوس التى قطعتها لهذا السبب بسيفى قليل ؟ اذا كنت تريد ان تدخل الى الفصيلة يجب ان تقسم اشد القسم على الطاعة التامة للاتمان . . . والا فلا تدخل . لك عندنا ان تفعل ما تريد : اشرب الخمر وتمتع بالحياة ، ولكن حالما يصيح الاتمان : «الى الخيول» لن تكون ملك نفسك . مفهوم ؟ (صمت . ثم قال بتراض، ولكن بصرامة .) لا يجوز مسّ الالمان لا اليوم ولا غدا . ان الأمر يحتاج الى قوة عظيمة .

– يا رفيق كوجين ، على الاقل اسمح لنا بان ننتقم من غريغورى كارلوفيتش . انه لا يدعنا نعيش على اية حال .

– اما ما يخص مدير الاعمال ففى الاسبوع القادم على اقل تقدير . والا فلن انتهى من شؤونى . قبل ايام اغتصب المانى امراة فى قرية اوسيبوفكا . هكذا . فوضعت ابرا فى الفطائر التى ياكلها . وعندما اكلها قفز من المائدة ، وركض الى الفناء . وسقط . وبعد قليل مات . فما كان من الالمان الا ان قتلوا تلك المراة فى مكانها . فخرج الفلاحون بفؤوسهم . . . وانا لا اريد أن اتذكر ماذا فعل الالمان . . . والآن لن تجدوا اثرا فى المكان الذى كانت فيه قرية اوسيبوفكا . . . تلك هى نتيجة العمل الاعتباطى ! هل أنتم فاهمون ؟

تنهدت ماتريونا ، وتقلبت على السرير . بدأت الدنيا تتنور ، وصاحت ديكة الفجر . كانت قطرات الندى تتناثر على افريز النافذة المفتوحة . وطن البعوض . واستيقظت القطة على سطح الموقد ، وقفزت برفق ، وصارت تتشمم الفضلات فى الركن .

كان الاخوان جالسين الى المائدة العارية يتحدثان بصوت خفيض ، كان سيميون يضع راسه بين يديه ، والكسى منحنيا نحوه يتمعن فى وجهه :

– لا استطيع يا سيميون . ارجو ان تفهمنى ، يا عزيزى . لن تستطيع ماتريونا ان تقوم بامور الاستثمارة وحدها . هنا ما جمعناه خلال سنوات . فكيف اتركه ؟ سيأتون على آخر شىء . وعندما اعود لا أجد غير الخواء .

قال سيميون :

– كيف تتركه ؟ لنفرض انه سيضيع ، فأية اهمية لذلك ؟ سننتصر وستبنى بيتا من آجر . (وضحك بتهكم .) من الضرورى القيام بحرب الانصار ، بينما انت مهتم باستثمارتك .

– مرة اخرى اقول لك : من سيطعمكم ؟

– انت لا تطعمنا على اية حال ، بل تطعم الالمان ، والهيتمان ، وكل سافل حقير . . . انت عبد . . .

– انتظر لحظة . الم احارب فى سبيل الثورة عام ١٩١٧ ؟ الم ينتخبونى الى لجنة الجنود ؟ الم اقوض جبهة الامبرياليين ؟ هكذا . . . فعل مهلك لا تعيرنى ، يا سيميون . . . والآن اذا جاء الجيش الأحمر فساكون اول من يمسك بالبندقية . فالى أين تريدنى أن اذهب الى الاتمانات فى الغابة ؟

– الآن حتى لهؤلاء نفع .

– ليكن ذلك .

قال سيميون ومد يديه على المائدة :

– الجرح اللعين يشد وثاقى . تلك هى مصيبتى . . . والكثيرون من زملائنا فى اسطول البحر الاسود قد دخلوا هذه الفصائل . . . سنشعل النار فى اوكراينا من الجهات الاربع . امهلنا . . .

– هل رأيت كوجين مرة اخرى ؟

– رأيته .

– ماذا يقول ؟

– اتفقنا على أننا نشعل حريقا كبيرا فى قريتكم قريبا .

نظر الكسى الى اخيه وشحب ، واطرق براسه .

– هذا ما يجب ان يكون بالطبع . . . ان بيت الضيعة ذاك يقف مثل قذى فى العين . . . ما دام غريغورى كارلوفيتش حيا ، فانه لن يتركنا نتنفس . . .

نزلت ماتريونا من السرير بقميص النوم فقط – سوى انها القت عليها لفاحا موردا – وتقدمت وضربت المائدة ببراجم قبضتها عدة مرات قائلة :

– لن احتمل ، انهم ينتزعون ما عندى ! نحن النساء نصفى حسابنا مع هؤلاء الشياطين قبلكم ، يا رجال .

نظر اليها سيميون بمرح فجاة :

– هكذا ؟ كيف ستحاربن يا نساء ؟ حدثينا .

– سنحارب على طريقتنا ، نحن النساء . سنضع زرنيخا فى طعامهم ... وسنحصل على هذا الزرنيخ . استدرجه الى المتبن او الى الحمام . الست املك ابرة حياكة او غيرها ؟ ساغرزها به فلا تند عنه صرخة . سنبدا نحن فلا تجبنوا ... واذا اقتضى الأمر حملنا البنادق ، فلسنا اسوا منكم ...

ضرب سيميون الارض بقدمه ، وضحك ملء فمه .

– لست امرأة ! انت شيطان !

– اتركنى .

وارتدت حذاءها على قدميها العاريتين عند عتبة الباب ، وهى تحرك لفاحها ، وطبطبت به ، وخرجت ، لترى الماشية على ما يبدو . ظل سيميون والكسى يهزان راسيهما طويلا ويضحكان «امراة كالاتمان ، ما هى امراة» . هبت من النافذة المفتوحة نسمة قبيل الفجر ، وداعبت اوراق الدُربقة ، وحملت همهمة ونتفا من اغنية غير روسية . كان الجندى المقيم يعود سكران من بيت الضيعة مثيرا الغبار بحذائه .

شد الكسى النافذة بغيظ .

– خير ان تاوى الى غرفتك ، يا سيميون ، وتستلقى .

– تخاف ؟

– ويستطيع هذا الشيطان السكران ان يتشبث بك ... انه يتذكر كيف هجمت عليه .

– ساهجم مرة اخرى . – ونهض سيميون وذهب الى غرفته – آه ، يا الكسى ، الثورة بسبب ذلك تموت ، بسبب صعوبة انهاضكم ... الم يكفكم ما فعل كورنيلوف ؟ وما يفعل الغايدماك والالمان ؟ ماذا تريدون بعد ؟ (وفجاة قطع كلامه .) انتظر ...

ترامت دمدمة من الفناء ، وطبطبة حذاء ثقيل غير واثقة ، وتعالى صوت نسائى حانق : «اتركنى !..» ثم ضجيج مقاومة ،

وتنفس ثقيل ، ثم صاحت ماتريونا ثانية بصوت اشد ، وكانه من الم : «سيميون ، سيميون !..»

اندفع سيميون من البيت مستفزا على ساقين معوجتين . وامسك الكسى بالمسطبة وبقى على جلسته . وليكن فقد كان يعرف ماذا يحصل حين يندفع المرء فى هذه الصورة ... وفكر مع نفسه : «فى المساء تركت الفاس فى الرواق . سيستخدمها اذن ...» صاح سيميون فى الفناء بصوت وحشى . وصدرت ضربة ساحقة . ونش شىء فى الفناء وغرغر ، وسقط ثقيلا .

دخلت ماتريونا مبيضة الوجه كقطعة بياض تجر وراءها لفاحها وانحنت نحو الموقد ، متنفسة بصدرها العالى . وفجاة هزت يديها على الكسى ، على عينيه ...

ظهر سيميون فى الباب هادئا شاحبا .

– ساعدنى ، يا اخى . لنحمله الى مكان ما وندفنه ...

٥

بلغت القوات الالمانية حدود الدون وبحر آزوف وتوقفت . لقد استولى الالمان على منطقة غنية للغاية اكبر حجما من المانيا كلها . وفى الدون ، مثلما فى اوكرانيا ، اسرعت القيادة الالمانية فى التدخل فى السياسة ، وساعدت اصحاب الاراضى الكبيرة ، والقوزاق الاغنياء الذين كانوا قبل اربع سنوات فقط يتبجحون باحتلال برلين بلا صعوبات . ان هؤلاء القوزاق الركينين العراض الوجوه ذوى الشرائط الحمراء على سراويلهم ، الاقوياء وكانهم صبوا من فولاذ انقلبوا الآن الى حملان وديعة .

قبل ان يصل الالمان الى روستوف هجم جيش قوزاقى مؤلف من عشرة آلاف رجل بقيادة الاتمان بوبوف على نوفوتشيركاسك عاصمة الدون . كانت الغلبة تميل الى جانب القوزاق الحمر الذين يؤلفون حامية هذه المدينة والبلاشفة الذين اسرعوا اليهم من روستوف فى معركة دامية على الهضبة العالية فوق الدون . الا أن حادثة خيالية حسمت الأمر .

جاءت جماعة متطوعين بقيادة العقيد دروزدوفسكي من رومانيا مشيا على الاقدام . وفى ٢٢ نيسان فجأة استولت على روستوف ، واحتفظت بها حتى المساء حين اخرجت منها . وسار رجال دروزدوفسكي فى السهب باحثين عن جيش كورنيلوف . وبينما هم فى الطريق فى الخامس والعشرين من نيسان سمعوا ضجيج معركة قرب نوفوتشيركاسك ، فانعطفوا نحو المدينة دون ان يسألوا عن المتحاربين ولماذا يحاربون ، وشقوا طريقهم بمدرعة الى احتياط الحمر ، واثاروا فوضى مريعة . ولما راى قوزاق الدون ان عونا قد هبط عليهم من السماء تحولوا الى الهجوم المضاد ، ودحروا الحمر ، وابعدوهم ، واحتلت نوفوتشيركاسك . وتحولت السلطة من اللجنة الثورية الى «لجنة انقاذ الدون» . وبعد ذلك جاء الالمان .

وتحت حمايتهم سلمت هذه اللجنة فى نوفوتشيركاسك — التى لم يترك الالمان حامية فيها عن تعقل — صولجان الاتمان الى الجنرال كراسنوف «الصديق الشخصى للامبراطور غليوم» على حد تعبيره هو . ودقت اجراس الكاتدرائية برنين رقيق ناعم . وتجمهر القوزاق فى الساحة الكبيرة المرصوفة امام الكاتدرائية هاتفين «هورا !» وتمنى قوزاق القرية الخير للحكم الجديد .

لم يتوغل الالمان فى اعماق الدون وكوبان بعد روستوف . وحاولوا اخضاع قرية باتايسك الواقعة على الضفة اليسرى مقابل روستوف ، والتى يقطنها عمال يعملون فى ورش ومعامل روستوف وفقراء الضواحى . ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على القرية رغم النار الحامية والهجمات الدامية . فقد قاومت باتايسك المحاطة كليا تقريبا بمياه الفيضان مقاومة مستميتة ، وبقيت مستقلة .

وظل الالمان عند هذا الحد . وقصروا جهودهم على تعزيز سلطة الاتمان ، وتزويده بالاسلحة المأخوذة من مخازن الاسلحة الروسية فى اوكرانيا . وعلى هذه الصورة من الحذر حلت مسالة حرجة هى الموقف ازاء الجماعتين من المتطوعين : جيش دنيكين وجماعة دروزدوفسكي . سار المتطوعون على وصيتين : القضاء على البلاشفة ، وتجديد الحرب ضد الالمان ، اى الولاء الى الحلفاء حتى النهاية . وكانت الوصية الأولى تبدو للالمان معقولة وجيدة

بينما اعتبروا الثانية حماقة ليست خطرة الى حد كبير . ولهذا تظاهروا بانهم لا يعرفون بوجود المتطوعين . كما تظاهر رجال دنيكين ودروزدوفسكي بانهم لا يلاحظون وجود الالمان على الارض الروسية .

وهكذا اضطرت جماعة دروزدوفسكي ذات مرة لدى مسيرتها من كيشينيف الى روستوف الى عبور نهر . كان الالمان يقفون على احدى ضفتيه ، فى بوريسلافل ، والبلاشفة على الضفة الثانية ، فى كاخوفكا .

وكان الالمان قد فشلوا فى الاستيلاء على جسر على النهر . وعند ذلك استطاع رجال دروزدوفسكي الاستيلاء على الجسر واخرجوا جماعة الحمر من كاخوفكا ، وواصلوا السير دون أن ينتظروا شكر الالمان لهم .

ووقع رجال دنيكين بنفس التناقض ، ولكن على نطاق اوسع . فى نهاية نيسان استطاعت بقايا جيش المتطوعين التى تمزقت عند يكاتيرنودار ان تصل الى منطقة قريتى يغورليتسكايا وميتشيتينسكايا على بعد حوالى خمسين فرسخا من نوفوتشيركاسك . وهنا هبط عليها خلاص مفاجيء ، وهو نبأ استيلاء الالمان على روستوف ، وقوزاق الدون على نوفوتشيركاسك . فترك الحمر المتطوعين بسلام ، وفتحوا جبهة ضد العدو الجديد — الالمان .

وتمكن المتطوعون من ان ينالوا قسطا من الراحة ، ويعالجوا الجرحى ، ويستجمعوا قواهم . وكانوا ، قبل كل شيء ، بحاجة الى سد النواقص فى عتاد وذخيرة جيشهم .

كانت جميع المحطات من تيخوريتسكايا حتى باتايسك مملوءة باحتياطات هائلة من الاعتدة الحربية للهجوم المضاد الذى يعده الحمر باتجاه روستوف . عندئذ هاجم الجنرالات ماركوف وبوغايفسكي واردلي بثلاثة طوابير اقرب مؤخرة للحمر ، فى محطات كريلوفسكايا ، وسوسيكا ، ونوفوليوشكوفسكايا ودمروا القطارات ، ونسفوا القطارات المصفحة ، وعادوا الى السهب بغنيمة هائلة . واحبط هجوم الجيش الاحمر على الالمان .

شفى الكتف المفصوم ، واندملت الخدوش الصغيرة التى حدثت فى المعارك . وقوى روتشين ، واسمر من تلويح الشمس ، ونال شبعه خلال الايام الأخيرة فى القرية الهادئة .

نفذ المهمة التى كانت تعذبه كمرض نفسى منذ خروجه من موسكو : انتقامه من البلاشفة على الاساءة . كان ينتقم . وكان ، على اية حال ، يتذكر لحظة واحدة ... لحظة عَدْوه نحو سدة الخط الحديدى ... كان الانتصار ... كانت ركبتاه ترتجفان ، والدم ينبض فى صدغيه ... خلع طاقيته اللينة ، مسح بها حربته . وقد فعل ذلك لا شعوريا ، مثل جندى قديم حريص على نظافة سلاحه . لم يكن يحس بالكراهية الجنونية السابقة ، باطواق الرصاص تشد على جمجمته والدم المتدفق الى عينيه . انه قد لحق بعدو وغرز الحربة فيه ، ونظفها . اذن ، فقد كان على حق ؟ ويجاهد عقله الأخذ بالصفاء ليفهم : هل هو على حق ؟ نعم ؟ على حق ؟ ولكن لماذا يسأل هو نفسه عن ذلك ؟

كان يوم أحد . وكانت صلاة القداس تقام فى كنيسة القرية . كان روتشين متأخرا فمكث بعض الوقت على مدرج الكنيسة بين الاقفية المحلوقة حديثا ، وخرج ليتجول فى المقبرة القديمة وراء الكنيسة . سار على عشب نمت عليه هندباء برية ، وقلع خصلة عشب ، وقضمها ، وجلس على اكمة صغيرة . كان فاديم بتروفيتش انسانا نزيها ، وكما قالت كاتيا ، انسانا طيبا .

ترامت من نافذة نصف مفتوحة مغشاة بنسيج عنكبوت اصوات اطفال ، وكانت نبرات الشماس بصوته الكثيف غاضبة خالية من الرافة ، حتى لكأن اصوات الاطفال على وشك ان تفزع ، وتتطاير فى ذعر . ووجد فاديم بتروفيتش فكره يطوف فى الماضى ، وكانما يبحث عن شىء وضاء واحفل بالطهر ...

انه يصحو من الفرح . وراء النافذة النظيفة العالية سماء ربيعية داكنة الزرقة لم ير مثلها منذ ذلك الحين . وكان فى وسعه ان يسمع حفيف الاشجار فى الحديقة ، وعلى الكرسى الى جانب السرير الخشبى قميص جديد من الساتان ازرق مرقط فواح بيوم الاحد . ويفكر ماذا سيفعل طيلة النهار الطويل ، وبمن يلتقى ، وكان لذلك من الاغراء والبهجة ما يجعله يطيل استلقاءه على السرير ...

ويتطلع الى ورق الحائط ، حيث رسمت بتكرار بيوت صينية لها سقوف معكوفة ، وقنطرة شديدة الانحدار ، وصينيان تحت مظلتين ، وصينى آخر فى قبعة تشبه ظليلة المصباح يصطاد السمك من على القنطرة . صينيون طيبون مضحكون ، ما اطيب عيشهم فى البيت عند الجدول ... ويترامى اليه من الرواق صوت امه : «فاديم ، هل انت جاهز ؟ انا تهيأت ...» وهذا الصوت الهادىء الحبيب يرن فى حياته كلها باليمن والسعادة ... ويقف بالقرب من أمه والقميص المرقط على جسده ، وهى فى ثوب حريرى انيق . وتقبله وتخرج مشطا من شعرها ، وتمشط له : «الآن احسن ، لنذهب ...» وتفتح مظلتها ، وهى تهبط السلم العريض . وكانت خيول عربة «الترويكا» * الصهباء لا تكاد تستقر فى مكانها فى البسطة المكنوسة المعلمة بآثار المكنسة . الحصان الايسر يشاكس ، والثانى الاساسى ، الرصين قد حفر الارض بحافره . ويقول الحوذى المشبع المغتبط ذو الكمين الاحمرين البادين من تحت سترة مخملية بلا اكمام رافعا لحيته الشعثاء الى فوق : «كل عام وانتم بخير» . وتجلس الام بوضع مريح فى العربة التى دفأتها الشمس . وينضغط فاديم على امه سعادة وتلهفا لسماع صفير الريح فى اذنيه ، ورؤية الاشجار المتطايرة الآتية من الجهة المقابلة . وتنطلق «الترويكا» ملتفة حول بيت الضيعة . وهذا هو شارع القرية العريض ، والفلاحون المنحنون واحدا اثر الآخر ، والدجاجات المقاقئة المتراكضة من تحت العجلات . سياج الكنيسة الأبيض ، والمرجة الخضراء ، واشجار البتولا المتفتحة البراعم من توها ، وتحتها صلبان معوجة ، والقبور ... ومدرّج الكنيسة الحافل بالمتسولين ... ورائحة البخور الاليفة ...

ما تزال الكنيسة واشجار البتولا قائمة هناك حتى الآن . وفاديم بتروفيتش يرى بعين خياله خضرتها المطرزة على خلفية السماء الزرقاء ... وتحت واحدة منها – الخامسة من ركن الكنيسة – ترقد الأم منذ زمان رقدتها الابدية ، وقد احيط قبرها بسياج . وقبل ثلاثة اعوام كتب القَنْدلَفْت العجوز الى فاديم

---

* عربة تجرها ثلاثة خيول . – **المترجم** .

بتروفيتش أن السياج قد كسر ، وان الصليب الخشبى قد نَخِر . . . والآن فقط تذكر بندم شديد أنه لم يرد على رسالته حتى الآن .

الوجه الحبيب ، واليدان العطوفتان ، والصوت الذى كان يوقظه صباحا ويترعه بالسعادة طوال اليوم . . . حب كل شعرة من شعره ، كل خدش فى جسده . . . يا إلٰهى كان حبها يزيل عنه كل حزن ، مهما يكن ذلك الحزن . والآن كان كل ذلك قد دفن بالوجه الابكم تحت الأكمة الصغيرة فى ظل البتولا مندمجا مع الأرض . . .

وضع فاديم بتروفيتش كوعيه على ركبتيه ، وغطى وجهه بيديه .

مرت اعوام طويلة . وكان يبدو دائما وكانه لم يبق الا مغالبة واحدة ، ويصحو ممتلئا بالسعادة فى صباح ازرق كما فى الماضى سيقوده الصينيان ذوا المظلتين عبر القنطرة المحدودبة الى البيت ذى السقف المعكوف . . . وهناك تكون فى انتظاره حبيبة قريبة الى القلب بشكل لا يوصف . . .

وفكر فاديم بتروفيتش مع نفسه «وطنى !» وتذكر ثانية «الترويكا» المنطلقة فى القرية «انها روسيا . . . ما كان روسيا . . . وقد اختفى ، ولن يكون بعد الآن . . . لقد صار الصبى ذو القميص من الساتان قاتلا» .

ونهض سريعا ، وبدأ سيره على العشب واضعا يديه وراء ظهره ، مفرقعا باصابعه . وقادته افكاره نفسها الى حيث كان يظن انه قد صفق باب الماضى بقوة وحدة . فقد كان متيقنا من انه ذاهب الى الموت . . . وها هو ، لم يمت . . . وما اسهل ان يرقد الانسان الآن فى حفرة فى السهب مغطى بالذباب . . .

وفكر مع نفسه : «الموت سهل ، والعيش صعب . . . وفى ذلك يكمن واجب كل واحد منا : ان يقدم للوطن المحتضر لا زكيبة حية من اللحم والعظم ، بل كل الاعوام الخمسة والثلاثين التى عاشها ، العواطف ، والآمال ، والبيت الصينى ، وكل نقاوته . . .»

توجع ، وتلفت فيما حوله ليعرف هل يسمعه احد . ولكن اصوات الاطفال ما تزال تنشد . والحمامات تهدل على افريز صدىء . . . وتذكر بعجالة كالخلسة ، لحظة اخرى ، لحظة الحنيّة التى

لا تحتمل . (ولم يذكر كاتيا بذلك قط .) كان ذلك فى موسكو ، قبل عام . وكان روتشين قد علم ، وهو فى المحطة ، ان زوج يكاترينا دميتريفنا دفن نفس اليوم ، وانها الآن وحيدة . وقد جاء اليها عند هبوط المساء ، فقالت له الخادمة انها نائمة ، فبقى ينتظر جالسا فى غرفة الجلوس . وقالت الخادمة همسا ان يكاترينا دميتريفنا تبكى طوال الوقت : «تدير وجهها الى الحائط فى سريرها ، وتبكى كالطفل ، حتى اننا نغلق باب المطبخ . . .» فقرر ان ينتظر ، حتى لو انتظر الليل كله ، وظل جالسا على الاريكة ، يسمع تكتكة الساعة فى مكان ما مودعة الوقت ، منتزعة لحظات العمر ، واضعة الغضون على الوجه الحبيب ، ناشرة الشيب الفضى فى الشعر ، بلا رافة ولا هوادة . . . وفكر روتشين فى ان كاتيا ، اذا لم تكن نائمة ، فهى لا بد ان تفكر فى ذلك ، وهى تسمع تكتكة الساعة . ثم سمع خطواتها الواهنة غير الواثقة ، وكان كعب احد نعليها قد التوى . كانت تسير فى المخدع ، وبدا وكانها تهمس بشىء ما . توقفت ، وبقيت بلا حراك فترة طويلة . واخذ روتشين يقلق ، وكانما فهم افكار كاتيا من خلال الجدار . وصر الباب ، ودخلت كاتيا الى غرفة الطعام ، وراحت تحرك اشياء بلورية فى صوان السفرة فترسل رنينا . وتصلب روتشين متحفزا للاندفاع . فتحت الباب قليلا : «يا ليزا ، هذه انت ؟» كانت ترتدى روبا من وبر الجمال ، واحدى يديها تمسك بقدح ، والأخرى بقارورة صغيرة تافهة . . . كانت تنوى ان تتخلص بهذه الوسيلة من الاسى ، من الوحدة ، من الزمن الذى لا يعرف رافة ، من كل شىء . . . كان وجهها الناحل ذو العينين الرماديتين مثل وجه طفل اهمله الجميع . . . جميل لو وجدت نفسها فى البيت الصينى ذاك . قال فاديم بتروفيتش لها عندئذ : «أنا تحت تصرفك ، وكل حياتى تحت تصرفك . . .» وصدقت هى بأن وحدتها كلها ، كل الاعوام المتبقية من عمرها يمكن ان تغرق فى حنيته ، فى حبه . . .

أوه ، يا للشيطان ! كان بالطبع يعرف دائما أن كاتيا لم تتخل عنه لحظة واحدة ، حتى حين كانت الكراهية تضغط على رأسه مثل اطواق من رصاص ، وفى هذا الشهر الرهيب للمعارك ايضا . كانت تسد عليه طريقه بظل غير مرئى ، باسطة يديها ، ومتوسلة

بلا صوت ، وهو ، الذى بح صوته من الصياح الجنونى غرز حربته فى معطف جندى أحمر ، غرزها عبر ذلك الظل الملازم له ، وخلع طاقيته ، ومسح النصل بها . . .

انتهى القداس . وخرج من الكنيسة جمهور من الضباط وطلاب المدارس العسكرية ملوحى الوجوه . وسار الجنرالات المشهورون متماهلين وعيونهم صارمة ، وقمصانهم نظيفة ، وصدورهم مزينة بالنياشين والصلبان : ارديلى الطويل الوسيم الممشوق القوام كالصورة المرسومة بلحيته المنفرجة وطاقيته الممالة ، وماركوف اللاذع بقبعته الفرائية الملطخة ، وكوتيبوف القصير الربع المتين الافطس الأنف ذو العينين الشبيهتين بعينى دب ، والقوزاقى بوغايفسكى بشاربيه المفتولين . ثم خرج دنيكين وورومانوفسكى البارد «العويص» كما يسمى فى الجيش بوجهه الجميل الذكى ، وكان الاثنان يتحادثان . وانتصب الجميع لدى رؤية القائد العام ، والذين كانوا يدخنون تحت اشجار البتولا رموا سكائرهم .

لم يعد دنيكين ذلك البائس بحذائه البالى وملابسه المدنية ، «العجوز» المصاب بالتهاب القصبات ، الذى تعلق بعربات الجيش دون متاع . فقد انتصبت قامته ، وحسنت قيافته ، وكانت لحيته الشائبة توحى لكل انسان بالاحترام الابوى ، وقد تدورت عيناه ، وامتلأتا بفيض الصرامة مثل عينى الصقر . وطبيعى انه ليس كورنيلوف الا انه كان أكثر الجنرالات تجربة وتعقلا . رفع اصبعين الى طاقيته العسكرية ، ومر ببوابة الكنيسة فى أبهة ، وجلس فى العربة مع رومانوفسكى .

اقبل تيبلوف الطويل القامة على روتشين . كانت يده اليسرى فى رافعة ، ومعطف الخيالة المدعوك ملقى على كتفيه . وقد حلق بمناسبة العيد ، وكان فى مزاج ممتاز .

– هل سمعت الاخبار ، يا روتشين ؟ سيحتل الالمان والفنلنديون بطرسبورغ ان لم يكن اليوم فغدا . وهم تحت قيادة مانيرهايم ، هل تذكره ؟ الجنرال من حاشية القيصر ، فتى شاطر ، مقاتل ممتاز . . . وفى فنلنده نحروا جميع الاشتراكيين . والبلاشفة ينسلون من موسكو ، ومعهم حقائبهم ، عبر ارخانغلسك . انها

حقيقة ، كلمة شرف . . . وصل الملازم سيديلنيكوف من نوفوتشيركاسك ، وهو يروى ذلك . . . اما فى نوفوتشيركاسك فيقول ان النساء والفتيات رائعات كاغصان البان ، لكل رجل عشر منهن . . . (وافرج رجليه النحيلتين المطويتين عند الركبتين ، وضحك ضحكة جعلت تفاحة آدم ترتفع من وراء ياقة قميصه .)

لم يشجع روتشين الحديث عن النساء والفتيات فعاد تيبلوف الى الاخبار السياسية التى كان يحياها الجيش ، وهو فى اعماق السهب .

– تبين ان موسكو كلها ملغمة . الكريملين والكنائس والمسارح ، واحسن المبانى جميعا ، واحياء كاملة . وقد مدت اسلاك كهربائية الى سوكولنيكى ، فان هناك بيتا سريا يحرسه اعضاء اللجنة الاستثنائية ليل نهار . . . تصور سنقترب واذا بكل شىء ينسف ! وتتطاير موسكو فى الهواء . . . (وانحنى ، وخفض صوته .) انها حقيقة ، كلمة شرف . . . وقد اتخذ القائد العام تدابير مناسبة . ارسلت الى موسكو استطلاعات خاصة للعثور على هذه الاسلاك . عندئذ سنقترب من موسكو ، ولا ندعهم ينسفونها . . . وبالمقابل سنشنقهم ! فى الساحة الحمراء ! جميل ! على ملأ من الناس وعلى قرع الطبول .

تعبس روتشين ، ونهض :

– من الخير أن تظل على حديثك عن الفتيات ، يا تيبلوف .

– يعنى ، لا يعجبك ؟

– نعم ، لا يعجبنى .

ونظر روتشين بتصميم فى عينى تيبلوف القمحيتين البليدتين . فامال هذا فمه الى جانب .

– يبدو انك لم تنس جراية الحمر .

رفع روتشين حاجبيه ، وتقدم منه :

– ماذا ؟ ماذا قلت ؟

– قلت ما يقوله فوجنا كله . . . حان الوقت لأن تبلغ عن عملك فى الجيش الأحمر ، يا روتشين . . .

– حقير !

ولم ينقذ تيبلوف من صفعة الا كون يده على رافعة ، وما يزال يعتبر جريحا . لم يضربه روتشين ، واستدار الى الوراء بحدة واضعا يده وراء ظهره ، وسار بين القبور متخشبا مرفوع المنكبين .

عدّل تيبلوف معطفه المنسرح ، ابتسم ابتسامة متكدرة ، ونظر الى ظهر روتشين المستقيم . فى تلك اللحظة وصل الملازم فون ميكه ، ومعه ظله الملازم فاليريان اونولى ، وهو شاب ذو وجه منمش وعينين وضاءتين حالمتين واسعتين ، ابن صاحب معمل التبغ من سمفيروبول يرتدى معطف طالب مستهلكا ملطخا بلطخات بنية ، عليه كتافيتا ضابط صف .

– ماذا حدث بينكما ؟ تشاتمتما ؟ – سأل فون ميكه بصوت حاد كصوت الصنْجّ فى العادة .

جذب تيبلوف شاربه ، وهو ما يزال مندهشا ، وروى كل المحادثة بينه وبين المقدم روتشين .

قال اونولى ذو العينين الحالمتين بسآمة :

– عجيب أنك ما تزال مندهشا ، ايها السيد النقيب . كان واضحا لى منذ اليوم الأول ان المقدم روتشين جاسوس .

– اسكت ، يا فالكا ، – قال فون ميكه وهو يغمز بالنصف الايسر من وجهه الذى اصيب بصدمة قنبلة . – والشيء المهم ان الجنرال ماركوف يعرفه شخصيا . . . ولذا يجب ان تكون حذرا . . . اما انا فاراهن بمسدسى على ان روتشين بلشفى ، ووغد ، وقذر . . .

حتى نهاية شهر ايار كان الهدوء النسبى يسود شمال القفقاس . فقد كان كلا الطرفين يستعد للمعركة الحاسمة . المتطوعون يتهيأون للاستيلاء على نقاط الالتقاء الرئيسية على الخطوط الحديدية ، وقطع القفقاس ، وتطهير المنطقة من الحمر بمعونة القوزاق البيض . واللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية كوبان-البحر الاسود تتهيأ للقتال على ثلاث جبهات : ضد الالمان ،

وضد القوزاق البيض ، وضد «عصابات دنيكين» التى انتعشت من جديد .

وكان جيش القفقاس الأحمر المؤلف فى معظمه من الجيش القيصرى السابق لما وراء القفقاس ، والاغراب من المناطق الاخرى وشبيبة القوزاق المالكة لقطع صغيرة من الأرض يصل فى عدده الى مائة الف مقاتل . وكان اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية يشكون فى أن لقائده العام – افتونوموف – ميولا دكتاتورية . كان فى حالة شجار دائم مع الحكومة . وقد وصف اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية فى احد الاجتماعات الحاشدة الكبيرة بجواسيس المان واستفزازيين . وردا على ذلك «وصمته» اللجنة مع سوروكين المقرب اليه بانهما قاطعا طريق ، وعدوان من اعداء الشعب ، ودمغتهما باللعنة والعار الابدى .

وكل هذا التشاجر شلّ الجيش . وبدلا من الشروع بهجوم مركز بثلاث مجموعات على جيش المتطوعين الذى كان فى وسط هذه المجموعات ، شاع الاضطراب فى الجيش الاحمر ، وصار يعقد اجتماعات حاشدة ، ويسقط امراء الوحدات ، وكان فى احسن الاحوال عرضة لهلاك مأساوى .

واخيرا تغلبت المراسيم الصادرة من موسكو على عناد المناطق فى الاطراف ، وعين افتونوموف مفتشا فى الجبهة ، وانتقلت قيادة المجموعة الشمالية الى المقدم كالنين وهو لاتفى جهم المظهر ، بينما بقى سوروكين قائدا للمجموعة الغربية .

وفى ذلك الوقت بالذات انضم الى جيش المتطوعين العقيد دروزدوفسكى بجماعته المؤلفة من ثلاث آلاف ضابط ضار من نخبة ضباطه يعادل كل منهم فى القتال عشرة من الجنود الانفار ، وتدفق قوزاق القرى على افراسهم ، وبدأ الضباط يصلون من بتروغراد وموسكو ومن كل ارجاء روسيا وحدانا وجماعات ، وقد بلغت اسماعهم معجزة «الحملة الجليدية» . وارسل الاتمان كراسنوف السلاح والمال رغم شحه . فكان جيش المتطوعين يقوى كل يوم ، وقد رفعت عزيمتَه الدعاية المقتدرة للجنرالات ورجال المجتمع ، والعمليات غير البارعة للسلطة السوفييتية المحلية ، واقوال شهود العيان القادمين من الشمال .

وفى نهاية ايار لم تكن قوات الحمر المحلية بقادرة على سحق جيش المتطوعين . فتحول الى الهجوم ، ووجه ضربة رهيبة الى المجموعة الشمالية للجيش الاحمر بقيادة كالنين فى محطة تورغوفايا .

– لماذا كففتم عن الغناء ، يا رجال ؟
– بحت اصواتنا .
– دعونى آخذ جمرة .

وقرفص ايفان ايليتش عند النار التى القيت فيها من الأعلى لوحة الخط الحديدى الخشبية الواقية من الثلج ، ولما اشعل الغليون بقى ليتسمع .

كان الوقت متأخرا . وقد انطفأت كل النيران تقريبا على طول خط السكة الحديدية . وفى الليل الطرى لمعت نجوم كثيرة . كانت النار تضيئ الى الأعلى على سدة الخط قطارات البضاعة وهى عربات الحمولة الحمراء بلون الآجر ، المحطمة والممزقة . لقد جاء بعضها من سواحل المحيط الهادى ، والبعض الآخر من المستنقعات القطبية ، ومن رمال توركستان ، ومن الفولغا وبوليسيه . وكانت كل عربة تحمل ملاحظة «تُرجع على الفور» . ولكن المواعيد كلها قد فاتت منذ زمان . وها هى هذه العربات المعدة للعمل السلمى المصطبرة على المحن طويلا بمحاورها التى لم تدهن ، وجوانبها المحطمة كانت مهيأة – وهى تستريح الآن تحت النجوم – الى عمل خيالى كليا . انها ستلقى بقطاراتها الكاملة وحمولتها عن الخط . بعضها سيُحشى بالاسرى من الجنود الحمر كالسردين فى العلب ، وبرشمت نوافذه وابوابه بالالواح ، ليسير آلاف الاميال وقد عُلم بالطباشير : «حمولة غير قابلة للفساد . سرعة بطيئة» . وبعضها يصبح مقابر للمصابين بالتيفوس ، وثلاجات لنقل الجثث المجمدة . وبعضها ينسف ويتطاير شظايا فى السماء . . . وفى مناطق سيبيريا النائية ستستخدم ابوابها وجدرانها لصنع اسيجة وزرائب للماشية . وستنقضى شهور عديدة قبل ان يعود السليم منها نصف محروق . مضعضعا الى المكان الذى طالب بعودته الفورية ، ويقف على القضبان الصدئة للتصليح .

8*

– ماذا يكتبون من موسكو ، يا رفيق تليغين . هل ستنتهى الحرب الاهلية قريبا ؟
– عندما ننتصر .
– يعنى . . . انهم يؤملون علينا . . .

كان بعض الذين عند النار يستلقون بارتخاء ملتحين ملوحى البشرة سود . . . لم تكن لهم رغبة فى النوم ، ولا فى حديث طويل . طلب احدهم تبغا عند تليغين .

– يا رفيق تليغين ، من هم هؤلاء التشيكوسلوفاكيون ومن اين جاءوا الينا ؟ انهم حسب ما اذكر لم يكونوا فى الوجود قبل هذا . . .

اوضح ايفان ايليتش ان التشيكوسلوفاكيين هم اسرى الحرب النمساويين ، وقد بدأت الحكومة القيصرية تشكل منهم فيلقا لترسله الى فرنسا ، ولكن الوقت لم يتسن لها لتفعل ذلك . . .

– اما الآن فان السلطة السوفييتية لا تستطيع ان تسرحهم ما داموا يريدون يحاربوا فى الجبهة الامبريالية . . . وقد طالبنا بتجريدهم من السلاح ، ولهذا تمردوا . . .
– امعقول اننا سنحاربهم ايضا ، يا رفيق تليغين ؟
– لا احد يعرف شيئا الآن . . . المعلومات غير محددة تماما . . أنا اشك فى ذلك . . . عددهم حوالى اربعين الفا . لا غير . . .
– اذن ، من السهل ان نقضى على هذا العدد . . .

وعاد الصمت يلف المجتمعين عند النار . قال الذى طلب تبغا من تليغين ناظرا من مؤخر عينيه ، والظاهر لمجرد الاشتراك فى الحديث :

– فى عهد القيصر ارسلونا الى سارا كاميش . ولم يوضحوا لنا شيئا : لماذا يجب ان نحارب الترك ، وفى سبيل من نضحى بحياتنا . والجبال فى تلك البقعة فظيعة . وتنظر وتفكر بان امك ولدتك فى ساعة نحس . . . أما الآن فالأمر مختلف . انها حرب فى سبيلنا . حرب استماتة . كل شىء مفهوم : مَن ولأى شىء .
– حذنى على سبيل المثال . يدعوننى تشيرتوغونوف .

قال جندى آخر بصوت كثيف رافعا جسمه على كوعه ، وجلس

فى مكان اقرب الى النار حتى لكان من المدهش ان النار لم تخطف لحيته . كان ذا شكل مخيف ، وشعره الاسود نازل على جبينه ، وعيناه المستديرتان تلتهبان فى وجهه الملوّح . ثم استطرد يقول :

– كنت فى الشرق الاقصى مرتين ، وقضيت فى السجن مددا متفاوتة على التشرد . . . طيب . ومع ذلك وضعونى فى الثكنة ، واعطونى بطاقتى العسكرية ، وارسلونى لأحارب . . . جرحت ستة جروح . . . هذه هى ، انظروا – ووضع اصبعه فى فمه ، وجذبه الى طرف ، وكشف عن اسنان مكسورة – ودبرت امرى ، ووصلت الى موسكو ، الى مستشفى عسكرى . وهناك وجدت البلاشفة . . . وانتهت كل متاعبى . سألونى : وضعك الاجتماعى ؟ اجبتهم : لا تبحثوا بعيدا . انا سليل عامل زراعى محترم ، لا اعرف اقارب لى . فضحكوا كثيرا واعطونى بندقية ، وترشيحا . وصرنا فى ذلك الوقت نجوب المدينة باحثين عن البرجوازيين . . . اذا دخلنا الى شقة فاخرة نجد اهلها خائفين ، بالطبع . . نبحث فنجد انهم قد اخفوا الطحين والسكر . . . الاوغاد ! انهم خائفون يرتجفون ، ولكن لا تند عنهم كلمة واحدة . واحيانا يغمرنى الغيظ واخرج عن اطورى الانسانية . تحدث يا وغد ، واشتم وتوسل بى . . . اسبه اقبح السباب ، ولكن لن اجده يتحدث . . . فاقول لنفسى : ما هى القضية ؟ . . واحس بالاهانة . صمتّ طوال عمرى ، وعملت لهؤلاء الابالسة ، وارقت من اجلهم دمى . . . وهم لا يعتبروننى انسانا . وافكر : هؤلاء هم ، البرجوازيون : منذ ذلك الحين صار يحرقنى الحقد الطبقى . حسنا . . . ذات مرة كانت تجب مصادرة بيت التاجر ريابينكين . كنا اربعة ومعنا رشاشة لاثارة الخوف . ونطرق الباب الخارجى . وبعد قليل تفتح لنا الباب خادمة انيقة ، وقد شحبت واضطربت متلجلجة : آه ، آه . . . وسارت على اطراف اصابعها . . . نحيناها جانبا ، ودخلنا صالة . غرفة كبيرة مزينة باعمدة ، وفى الوسط مائدة كان يجلس اليها ريابينكين وضيوف ياكلون الفطائر . حدث ذلك فى اسبوع المرفع وكان الجميع سكارى بالطبع . . . كان ذلك فى وقت يموت فيه البروليتاريون جوعا ! . . ولذا ضربت الارض بالبندقية بشدة ، وصرخت بهم بصوت عال ! بينما هم جالسون يبتسمون . . . ويهرع ريابينكين للقائنا متوردا

مرحا ، وعيناه جاحظتان ويقول : «ايها الرفاق الاعزاء ، انا اعرف منذ زمان انكم ستصادرون بيتى بكل محتوياته ! امهلونى لانتهى من الفطائر . بالمناسبة ، اجلسوا معنا . . . ولا عيب فى ذلك لأن هذا كله ملك للشعب» ويشير الى المائدة . . . اخذنا نتردد ، ولكننا جلسنا الى المائدة ، ونحن نمسك البنادق متجهمين . . . أما ريابينكين فقد قدم لنا الفودكا والفطائر والمشهيات . . . ويتحدث ويضحك . . . لم يترك شيئا لم يتحدث فيه ، مقلدا اشخاصا متفوها بلاذع الكلام . . . والضيوف يقهقهون . . . واخذنا نحن نضحك . . . وقيلت نكات مختلفة عن سلوك البرجوازيين ، وبدا جدال . ولكن كلما تعبس احدنا قليلا اغرق صاحب البيت عبوسه بالفودكا : شربنا بأكواب للشاى ، ولم نشرب بغيرها . . . وبدأوا يفضون زجاجات الشمبانيا ، فوضعنا بنادقنا فى ركن . . . واقول لنفسى : «يا تشيرتوغونوف ، اهذا انت تسير فى الصالة ، وتتعلق بالاعمدة ؟» وبدأنا نغنى الاغانى جماعيا . وعند المساء تركنا الرشاشة على مقدمة البيت ، كيلا يدخل شخص غريب علينا ، وبقينا نشرب ستا وثلاثين ساعة . استرجعت فيها ما خسرته خلال حياتى البكماء . ومع ذلك فان ريابينكين قد خدعنا ، ذلك التاجر الخبيث ! . . بينما كنا نمرح ونشرب استطاع – وساعدته الخادمة فى ذلك – أن يخفى كل المجوهرات والذهب والعملة الاجنبية ، ومختلف الاشياء الثمينة فى مكان مامون . . . فلم نصادر غير الجدران والاثاث . . . وعند الانصراف قال ريابينكين مودعا ، وهو سكران بالطبع : «ايها الرفاق الاعزاء ، خذوا كل شىء ، انا لا اتاسف على شىء . لقد خرجت من الشعب ، واعود الى الشعب . . .» وفى ذلك اليوم رحل خارج القطر . اما انا فاستدعيت الى اللجنة الاستثنائية . قلت لهم : «مذنب انا . ارمونى بالرصاص» . الا أنهم لم يرمونى الا لكونى غير واع . وانا حتى الآن سعيد لاننى قد تمتعت . . . هناك شىء يستحق ان اتذكره . . .

قال احد الجالسين وراء الدخان :

– هناك الكثير من الخبثاء بين البرجوازيين ، ولكنهم ليسوا قلة بيننا .

توجهت الانظار اليه . وقال الذى طلب تبغا من تليغين :

– لا احد يوقف الشعب الآن ، ما دام قد خاض الدم فى عام ١٩١٤ . . .

قال صوت من وراء الدخان :

– ليس هذا ما اعنيه . العدو عدو ، والدم دم . . . ولكن عنيت الخبثاء .

– وأنت مَنْ ؟

اجاب الصوت خافتا :

– أنا ؟ أنا خبيث .

عندئذ صمت الجميع ، وراحوا ينظرون فى الجمر الهامد . سرت برودة فى ظهر تليغين . كان الليل طريا . انقلب شخص عند النار ، واستلقى موسدا خده على قبعته .

نهض تليغين ، وتمطى ، وعدل من هندامه . وحين انزاح الدخان الآن صار من الممكن رؤية «الخبيث» جالسا طاويا رجليه فى الجانب الآخر من النار . كان يقضم نصل الافسنتين وكان الجمر يضىء وجهه الطويل الناحل بشعره المزغب الفاتح قليلا ، ونعومته الشبيهة بنعومة وجه نسائى . وقد سرح على قفاه طاقية مستهلكة ، ووضع على كتفيه الضيقين معطف جندى . كان عاريا حتى الحزام . كان القميص ، الذى كان يبحث فيه عن قمل كما يبدو ، مرميا بالقرب منه . لاحظ أن العيون متجهة اليه فرفع رأسه ببطء وابتسم ابتسامة طفولية بطيئة .

عرفه تليغين . كان احد المقاتلين فى سريته . واسمه ميشكا سولومين من الفلاحين القاطنين بالقرب من مدينة يليتس ، وقد تطوع فى الحرس الأحمر ، وجاء الى شمال القفقاس من جيش سيفرس .

ما ان التقت عيناه بعينى تليغين حتى خفضهما ، وكأنه قد ارتبك . عندئذ فقط تذكر ايفان ايليتش ان ميشكا سولومين معروف فى السرية كناظم اشعار ، وسكير معربد ، رغم انهم لم يروه سكران الا نادرا . القى المعطف عن كتفيه بحركة كسول ، واخذ يلبس قميصه . ارتقى ايفان ايليتش السدة الى عربة الركاب ، حيث رأى مصباح الكيروسين يشتعل ساهرا فى النافذة الوحيدة فى مقصورة آمر الفوج سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف .

ومن على السدة كانت النجوم ونقاط النار الموشكة على الهمود على الارض فى الاسفل تبدو اكثر وضوحا .

مد سابوجكوف راسه من النافذة ، وفى فمه غليونه المعكوف وقال :

– تعال ، يا تليغين . عندى ماء مغلى .

كان مصباح الكيروسين المثبت على الجدار الجانبى يرسل ضوءا شاحبا فى المقصورة المهلهلة فى الدرجة الثانية ، فيضىء السلاح المعلق من خطافات ، والكتب المبعثرة فى كل مكان ، والخرائط العسكرية . كان سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف فى قميص قذر من الجيت ، وقد التفت الى تليغين لدى دخوله ، وسأله :

– هل تريد كحولا ؟

جلس ايفان ايليتش على التخت . ترامى سجع سمان من النافذة المفتوحة مع طراوة الليل . خرج احد الجنود من عربة مجاورة ، وهو بين النوم واليقظة ، يسير بخطوات متعثرة لقضاء حاجته . واهتزت اوتار «بالالايكا» خافتة الرنين . وارتفع صياح ديك من مسافة قريبة . وكان الليل قد جاوز نصفه .

سأل سابوجكوف ، وقد فرغ من تهيئة السخان :

– ديك يصيح ؟

كانت عيناه حمراوين ، ووجهه النحيل مبقعا ببقع حمر . . . تلمس التخت وراءه ، وعثر على النظارة الانفية ، ووضعها على انفه ، واخذ ينظر الى تليغين :

– اذن ، فان الفوج يملك ديكا حيا ؟

– جاء نازحون جدد ، وقد اخبرت المفوض بذلك . عشرون عربة بنساء واطفال . . . اية لعنة هذه . – قال تليغين مقلبا الشاى فى القدح .

– من اين جاءوا ؟

– من قرية بريفولنايا . طابور كبير . وقد هاجمهم القوزاق فى الطريق . كلهم اغراب ، فقراء . شكل ضابطان قوزاقيان فى قريتهم جماعة . واغاروا فى الليل ، وشتتوا السوفييت ، وشنقوا عددا من رجال القرية .

قال سابوجكوف ناطقا كل حرف بوضوح :

– وباختصار ، حادثة اعتيادية .

وبدا فى سكر شديد ، دعا تليغين الى ان يرفه عن نفسه . . . كان جسم تليغين يئن كله من التعب . ولكنه أحس بأن الجلوس فى مكان وثير واحتساء الشاى سيريحانه حتى انه لم ينصرف رغم ان الحديث مع سيرغى سيرغييفيتش لن يأتيه بجدوى .

– اين زوجتك ، يا تليغين ؟

– فى بتروغراد .

– انت رجل غريب . فى زمن السلام يمكن ان تكون مواطنا سعيدا كل السعادة . زوجة طيبة ، وطفلان صالحان ، وغرامفون . . . ولكن اى شيطان جعلك تدخل الجيش الاحمر ؟ سيقتلونك . . .

– لقد اوضحت لك الأمر من قبل .

– تناور لتدخل الحزب ؟

– اذا كان الأمر يقتضى فسادخل الحزب .

قال سابوجكوف ، وقلص عينيه من وراء زجاج النظارة الانفية العكر :

– أما أنا فحتى لو سلقتنى فى ثلاثة مراجل لما جعلتنى شيوعيا . . .

– اذن ، لو كان هناك رجل غريب من بيننا فهو انت ، يا سيرغى سيرغييفيتش . . .

– لا ، ابدا . لى عقل غير ديالكتيكى . . . طبيعة وحشية ، عينى دائما على الغاب . هكذا ! تقول اننى غريب ؟ (وضحك باستهزاء ، وبارتياح على ما يبدو .) منذ تشرين الاول وانا احارب فى سبيل السلطة السوفييتية . هكذا ! هل قرات شيئا لكروبوتكين ؟ •

– لا ، لم اقرأ .

– ذلك واضح . . . سام ، يا اخ . . . العالم البرجوازى سافل ومضجر بشكل جهنمى . . . واذا انتصرنا فسيكون العالم

• كروبوتكين (١٨٤٢–١٩٢١) احد كبار رجال الفوضوية ونظرييها فى روسيا . – **المترجم** .

الشيوعى ايضا مضجرا واعتياديا ، فاضلا ومضجرا . . . وكروبوتكين شيخ طيب . . . عنده شعر واحلام ، ومجتمع بلا طبقات . انه شيخ رفيع التربية : «اعطوا للناس حرية فوضوية ، وحطموا مواطن الشر فى العالم ، اى المدن الكبيرة ، وستقيم الانسانية اللاطبقية جنة ريفية على الأرض ، لأن المحرك الاساسى فى الانسان هو حب القريب . . .» ها – ها . . .

وضحك سابوجكوف ضحكة مجلجلة ، وكانه يريد أن يهين شخصا ، ونطت نظارته الانفية على انفه العظمى . واندس تحت التخت ، وهو يضحك ، واخرج علبة تصديرية فيها كحول ، وصب فى قدح ، وشرب ، وقضم قطعة سكر مهشما اياها تحت اسنانه .

– ان مأساتنا ، يا عزيزى ، هو أننا ، نحن المثقفين الروس ، قد نشأنا فى الحضن الوادع لنظام القنانة ، واخافتنا الثورة لا الى حد الموت ، بل الى حد التقيؤ الذهنى . . . لا يجوز اخافة ناس وادعين الى هذه الدرجة ! ها ؟ كنا نجلس فى عشنا الريفى ، ونفكر مستمعين الى صداح الطيور : «لطيف لو نظمت الحياة بشكل يجعل كل الناس سعداء . . .» من هذه البيئة خرجنا . . . والمثقفون فى الغرب عقول كبيرة ، زبدة البرجوازية ينفذون مهمة ملحة : تطوير العلم والصناعة ، ونشر سراب المثالية المواسى على العالم . . . المثقفون هناك يعرفون لماذا يعيشون . . . أما عندنا ، فالعياذ بالله ! . . مَنْ نخدم ؟ وما هى مهماتنا ؟ من جهة نحن جزء لا يتجزأ من النزعة السلافية ، ونحن ورثتها فى الفكرة . وما هى النزعة السلافية ، لو تعرف ؟ انها مثالية اصحاب الاراضى الروس . ومن جهة اخرى ان برجوازية وطننا تدفع لنا المال ، ونحن نعيش على حسابها . . . بينما نحن نخدم الشعب وحده . . . ياللغرابة ، الشعب ! . . تراجيديا كوميدية ! وقد بكينا على مصائب الشعب كثيرا حتى شحت دموعنا . . . وعندما حرمونا من امكانية ذرف الدموع لم نجد ما نعيش به . . . وصرنا نحلم بان فلاحينا سيصلون قريبا الى القسطنطينية ويصعدون الى القبة ، ويركزون صليب الارثوذكسية فوق كاتدرائية القديسة صوفيا . . . حلمنا بان نهدى الكرة الارضية للفلاحين فقابلونا بالمذارى ، نحن المتحمسين الحالمين الباكين . . . فضيحة فريدة

من نوعها ! رعب مريع !.. ويبدأ التخريب ، يا عزيزى ... ويحاول المثقفون التراجع ، وتخليص رؤوسهم من الربقة : «لا اريد ، حاولوا ان تدبروا الأمر بدونى . . .» كان ذلك وروسيا على شفا هاوية مميتة ... خطأ فادح غير قابل للتصحيح . وسبب ذلك فى اننا جميعا قد تربينا تربية ارستقراطية ، رقيقون جدا : غير قادرين على فهم الثورة خارج الكتب ... والكتب تتحدث عن الثورة وكأنها السحر الحلال ... وهنا يهرب الجنود من الجبهة الالمانية ، ويغرقون الضباط ، ويمزقون القائد العام ، ويحرقون الضياع ، ويتصيدون زوجات التجار على الخطوط الحديدية ، وينتزعون من الاماكن المصونة فيهن اقراط الماس ... لا ، لن تلعب مع مثل هذا الشعب وكتبنا خالية من اى وصف له ... فما العمل ؟ ان نذرف دموعا غزيرة فى بيوتنا ، ولكن المصيبة أننا نسينا كيف نذرف الدموع !.. تحطمت احلامنا تماما ونفقد ما نعيش به . . . وهكذا نحن من الرعب والقرف ندفن رؤوسنا تحت الوسائد ، ويهرب بعضنا الى خارج الوطن ، اما الذين اكثر حنقا فيشهرون السلاح . وتحصل فضيحة فى عائلة كريمة ... اما الشعب ، وسبعون بالمائة منه اميون ، فلا يعرف ماذا يفعل بما تراكم فيه من كراهية ، ويخوض فى الدم والرعب ... فيقول : «خانونا ، شربوا بثمننا ! حطموا المرايا اذن ، واقلعوا كل شىء من الجذر !» زمرة واحدة بين المثقفين احتفظت باتزانها . انهم الشيوعيون . ماذا يفعل الناس حين تاخذ سفينة بالغرق ؟ يقذفون خارجها بكل ما هو زائد ... واول ما فعله الشيوعيون هو ان قذفوا ببراميل المثالية الروسية القديمة خارج سفينتنا ... وكل ذلك عمل زعيمهم ، انسان روسى . . . واحس الشعب راسا ، وبحاسة غريزية ان هؤلاء هم من جماعته ، وليسوا سادة . انهم لن يتباكوا ، وانهم سيسوون الأمر بسرعة ... ولهذا السبب ، أنا معهم ، يا عزيزى ، رغم أننى قد تربيت فى دفيئة كروبوتكين الزجاجية ، فى الاحلام ... وما اكثر الذين من امثالى ! لا تكشر ، يا تليغين . انت على العموم جنين ، بدائى وفرح ... بعضنا ، اذا اردت ان تعلم ، يحتاج الى أن يقلب ، عن وعى ، ظهرا على بطن ، عندئذ سنشعر بكل لمسة ، مؤكدين فى انفسنا القوة

الارادية الواحدة : الحقد . . . ولا يجوز ان نحارب بدون ذلك . . . اننا نفعل كل ما فى الطاقة الانسانية واضعين امامنا غاية يسعى الشعب نحوها ... ولكننا زمرة ... والاعداء فى كل مكان ... هل سمعت بالتشيكوسلوفاكيين ؟ سيأتى المفوض ويحدثك عنهم ... هل تدرى ، ماذا اخاف ؟ اخاف ان يكون ذلك انتحارا لنا . لا اثق بانتصارنا . سنصمد شهرا او شهرين او ستة أشهر ، ولا نصمد اكثر ... نحن هالكون ، يا اخ ... سينتهى كل شىء بالعودة الى الجنرالات ... وانا اقول لك ان اللوم فى كل ذلك يقع على انصار السلافية ... عندما بدأ تحرير الفلاحين كان يجب ان نصرخ : «النجدة ، سنهلك . نحن بحاجة الى الزراعة المكثفة ، الى تطوير مشدد للصناعة ، الى تعليم عام ... وليخرج من بين الفلاحين بوغاتشيف جديد ، وستينكا رازين جديد . لا يهم من هو الذى يحطم صلب القنانة تحطيما كليا . . .» هذه هى الاخلاق التى كان يجب ان نلقيها بين الجماهير ، بهذه الاخلاق نربى المثقفين . . . ولكننا اسرفنا فى ذرف سيول من دموع الفرح . «يا ربى ، ما ارحب روسيا وما اشد اصالتها ! الفلاح حر الآن كالهواء ، وضياع ملاكى الأرض بالآنسات الموصوفات فى قصص تورجينيف سليمة ، والروح ملغزة فى شعبنا ليس كما هى الحال فى الغرب الشحيح . . .» وها انا الآن اطأ بنعلى كل حلم !

ولم يستطع سابوجكوف ان يقول أكثر من ذلك . فقد توهج وجهه ولكنه لم يقل الشىء الاهم على ما يبدو . جلس تليغين فاغر الفم مغمورا بفيض كلماته . وقد وضع قدح الشاى البارد على ركبتيه . تردد وقع اقدام فى ممر العربة تبدو لانسان ثقيل جدا . وفتح باب المقصورة ، وظهر رجل ربع القامة عريض المنكبين التصق شعره القاتم على جبينه الواسع . جلس صامتا قرب المصباح واضعا يديه الكبيرتين على ركبتيه . كانت الغضون القليلة تبدو كالندوب على وجهه الملوح بالريح . وكانت عيناه لا تظهران ، وهما فى ظل وقبيهما والحاجبين المتدليين . انه رئيس الشعبة الخاصة للفوج ، الرفيق غيمزا .

سأل بصوت خفيض وبلهجة جادة :

— الكحول مرة أخرى . حذار ايها الرفيق ...

قال سابوجكوف :

– اى كحول ؟ اوه ، اذهب الى جهنم . ها أنت ترانا نشرب شايا .

فهدر غيمزا دون ان يتحرك :

– واسوأ من ذلك ان تكذب . رائحة الكحول تفوح من نافذتك . بدأ اضطراب فى العربات ، فان الجنود يتشممون . . . وهل متاعبنا قليلة ؟ والشىء الثانى انك بدأت تتحدث فى الفلسفة حديثا لا نهائيا احمق ، ومن هنا استنتج انك سكران .

– حسنا ، سكران . ارمنى .

– لا احتاج الى وقت طويل لكى ارميك ، وانت تعرف ذلك جيدا . اما اصطبارى عليك فراجع الى اخذى بعين الاعتبار صفاتك القتالية . . .

قال سابوجكوف :

– اعطنى تبغا .

اخرج غيمزا من جيبه كيس قماش بوقار ، ثم تابع كلامه مخاطبا تليغين بصوت بطىء ، وكأنه يطحن بالرحى .

– المرة بعد الأخرى نفس المنظر غير المقبول : فى الاسبوع الماضى رمينا بالرصاص ثلاثة اوغاد ، وقد استجوبتهم بنفسى . متعفنون . اعترفوا بكل شىء . وفى الحال حصل على كحول . . . واليوم رمينا وغدا خبيثا ، من استخبارات دنيكين . قبض عليه بنفسه بين نبات الاسل . . . اما الآن فهو امامكم سكران يتفلسف . خليط عجيب فى ذهنه . كنت واقفا عند النافذة انصت . اوشكت على التقيؤ ، وكأنما من رائحة شىء عفن . . . لو كان اى واحد غيرى لأرسله من زمان الى الشعبة الخاصة على هذه الفلسفة ، لأنه يتحلل خلقيا . . . وبعد ذلك سيمرض يومين ، ولا يستطيع قيادة الفوج . . .

– ولكن ما العمل اذا قد رميت زميلى فى الجامعة ؟

وقلص سابوجكوف عينيه ، واختلج منخراه .

لم يرد غيمزا بشىء ، وكأنه لم يسمع قول سابوجكوف . خفض تليغين رأسه . . . وتكلم سابوجكوف دافعا انفه العرق نحو غيمزا :

– صحيح انه من استخبارات دنيكين . بينما كنا ، انا وهو ، نتردد على «الامسيات الفلسفية» . لا ادرى كيف صار فى الجيش الابيض . . . ربما عن يأس . . . انا الذى جلبته اليك . . . الم يكفك اننى اديت واجبى ؟ أم تريدنى ان ارقص ، حين رأيتهم يسوقونه الى المنخفض ؟ . . سرت فى الخلف ورأيت . – وتفرس فى عينى غيمزا المظلمتين الغائرتين . – هل من حقى ان تكون لى مشاعر انسانية ، ام يجب ان احرق كل شىء فى نفسى ؟

اجاب غيمزا على مهل :

– لا ، ليس من حقك . . . اما بالنسبة لغيرك فانا لا اعرف . . . ولكن بالنسبة اليك فيجب ان تحرق فى نفسك كل شىء . . . فان هذه البؤرة نفسها الموجودة فى نفسك ستولد العداء للثورة .

صمتوا طويلا . كان الجو ثقيلا . وهدأت كل الاصوات خارج النافذة . صبّ غيمزا لنفسه شايا ، وقطع قطعة كبيرة من الخبز الرمادى ، واخذ يأكله ببطء ، مثل رجل شديد الجوع . ثم بدأ يتحدث بصوت كامد عن التشيكوسلوفاكيين . كانت الانباء مقلقة . فقد تمرد التشيكوسلوفاكيون فى جميع القطارات ، الممتدة من بينزا الى فلاديفوستوك . قبل ان تعى السلطة السوفييتية الأمر كانت الطرق الحديدية والمدن تحت ضربات التشيكيين . استولت الوحدات الغربية على بينزا ، واتجهت نحو سيزران ، واحتلتها ، واستمرت زحفها نحو سامارا . كانت هذه القوات ملتزمة بالانضباط التزاما جيدا حسنة التسليح تحارب باقتدار واستماتة . وكان من الصعب الآن معرفة ما اذا كان ذلك مجرد عصيان عسكرى ، أم توجهها قوى معينة من خارج البلاد . والظاهر انه هذا وذاك . وعلى اية حال ، ان جبهة جديدة تمتد من المحيط الهادىء حتى الفولغا قد تفجرت كخط من البارود منطوية على فواجع فادحة .

فى الخارج تقدم شخص من النافذة . صمت غيمزا ، وتعبس والتفت . ناداه صوت :

– يا رفيق غيمزا ، تعال . . .

– ماذا تريد ؟ تكلم .

– سرى .

انزل غيمزا حاجبيه على محجريه ، واسند يده على التخت ، وجلس بهذه الصورة برهة ، ثم انهض نفسه قسرا ، وخرج ضاربا بكتفيه جانبى الباب . وفى فسحة العربة جلس على الدرجات ، وانحنى بجذعه . طلع من الظلام شخص طويل فى معطف خيالة ، وتقدم نحوه مصلصلا بمهمازيه وهمس فى اذنه بشىء على عجل . . .

اما سابوجكوف فما ان خرج غيمزا حتى اخذ يمص غليونه مصات سريعة ، وبصق فى النافذة عدة مرات بضراوة ، ورمى نظارته الانفية ، وراح يضحك فجأة .

— كل السر فى الأمر هو ان تجيب على السؤال المطروح اجابة مباشرة . . . هل يمكن قتل الانسان ؟ يمكن . ما هو الهدف الاقرب ؟ الثورة العالمية . . . لا دخل لعواطف المثقفين هنا ، يا اخ . . .

وفجأة قطع كلامه ، وانتصب ، وراح يتسمع . كانت العربة كلها تهتز . فقد كان غيمزا يضرب جدارها بقبضته . وارتفع صوته الحاد المبحوح :

— وماذا لو كذبت علىّ ، يا ابن الكلبة . . .

امسك سيرغى سيرغييفيتش يد تليغين . . .

— هل سمعت ؟ أتعرف ما الامر ؟ هناك شائعات كريهة حول قائدنا العام سوروكين . . . وهذا رفيق من الشعبة الخاصة قد عاد من هناك . هل فهمت السبب فى عبوس غيمزا الجهنمى ؟ . .

شحب ضوء النجوم قبيل الفجر . وصاح ديك مرة اخرى بين العربات . ونزل الندى على المعسكر الهاجع . ذهب تليغين الى مقصورته ، وخلع حذاءه ، واستلقى على التخت متنهدا ، وصرّت النوابض من تحته .

كان تليغين يتخيل احيانا ان سعادة الحياة القصيرة فكأنه قد رآها فى نومه فى السهب الأخضر ، تحت قرقعة عجلات القطار . . . كانت حياته موفقة وادعة : عهد الطلبة ، وبطرسبورغ الهائلة اللانهائية ، والوظيفة ، والصحبة الرخية لذوى الاطوار الغريبة الذين كانوا يعيشون فى شقته فى جزيرة فاسيليفسكى . آنذاك كان المستقبل يبدو واضحا وكانه قد جمع فى راحة يد . فلم يطل التفكير

فى المستقبل . كان مرور الاعوام فوق سطح بيته متمهلا غير مرهق . كان ايفان ايليتش يعرف بانه سيؤدى ما يجب عليه عمله بنزاهة ، وحين يشتعل رأسه شيبا ، ينظر الى الخلف ليرى ما صنع ويجد انه قد قطع طريقا طويلة دون ان ينحرف فى مزالق خطرة مثل آلاف من امثاله . وقد دخلت داشا الى حياته اليومية البسيطة ، دخلتها بسلطان ، وتألقت عيناها الرماديتان بسعادة صارمة . حقا لقد كان يراود نفسه شك قصير الأجل وفى الاغوار العميقة منها ، فى ان هذه السعادة لم تكن مكتوبة له ! الا انه كان يطرد شكه ويعقد النية على ان يقيم — حين تنتهى الحربان — بيتا سعيدا لداشا . وحتى حين انهارت الجدران الصلبة للامبراطورية ، واختلط كل شىء ، وجار من الحنق والألم شعب تعداده مائة وخمسون مليون انسان بقى ايفان ايليتش موقنا بان العاصفة ستمر ، وان المرجة عند بيت داشا ستزهر عامرة بالسلام بعد المطر .

وها هو مرة اخرى على التخت فى قطار عسكرى . بالأمس معركة ، وفى الغد معركة . وواضح الآن ان الماضى لا عودة له . وكان يشعر بالخجل حين يتذكر انه قبل عام كان يشغل نفسه فى تأثيث شقة فى جادة كامينواوستروفسكى ، فيشترى سريرا من الخشب النفيس لتلد داشا عليه طفلا ميتا .

كانت داشا اول من اصطدمت بقعر الدوامة . كانت الثورة بالنسبة لها «القفازان» اللذان قفزا عليها فى الحديقة «ليتنى» ، والوليد الميت بشعره المنتصب ، والمجاعة ، والظلام ، والمراسيم المفعمة كلماتها بالحقد والكراهية . وكانت الثورة فى الليالى تصفر فوق السطوح ، وتقذف النوافذ المتجمدة بالثلج ، وتصرخ بداشا باصوات معولة : «غريبة !» . وفى ربيع بطرسبورغ الرمادى هبت ريح رطبة ، ونزلت قطرات الماء من السطوح ، وسقطت قطع الجليد بضجيج من انابيب التصريف المثقوبة . وقالت داشا لايفان ايليتش (وكان قد عاد الى البيت دافقا بالحيوية ، فى معطف غير مزرر ، وعيناه اللامعتان بشكل خاص ترمقان داشا التى كانت منكمشة ملفوفة فى المنديل حتى حنكها) :

— اود لو احطم راسى ، يا ايفان ، وانسى كل شىء الى الابد . . . عندئذ يمكن ان اكون لك صديقة . . . وفى هذه الحال ، لا اقدر ان

امضى فى ملازمة الفراش الفظيع ، ومواجهة النهار اللعين من جديد . افهمنى ، ارجوك . لا اقدر ، لا اقدر على العيش . لا تتصور اننى بحاجة الى رفاه ، لا شىء ، لا شىء احتاج اليه . . . فقط ان اعيش حياة بكل انفاسى . . . لست بحاجة الى توافه . . . فقدت حبى . . . اعذرنى . . .

قالت ذلك ، واستدارت .

كانت داشا صارمة فى عواطفها دائما . اما الآن فقد اضحت قاسية . سالها ايفان ايليتش :

– لعل من الافضل ان ننفصل لبعض الوقت يا داشا ؟ . .

وعندئذ ولاول مرة خلال الشتاء كله راى حاجبيها يرتفعان بفرح ، وتتألق عيناها بأمل غريب ، ويختلج وجهها النحيل شكاية . . .

– اظن من الافضل ان نفترق ، يا ايفان .

عندئذ بدأ يسعى بحزم وعن طريق روبليف ليدخل الجيش الأحمر ، وفى نهاية آذار رحل فى قطار عسكرى الى الجنوب . وقد ودعته داشا على رصيف محطة اكتيابرسكى ، وحين مّرت نافذة العربة بكت بكاء مرا ، ملقية الشال الصوفى على وجهها .

ومنذ ذلك الحين قطع ايفان ايليتش مئات الفراسخ ، ولكن ما من معركة ولا تعب ولا حرمان استطاع ان ينسيه الوجه الحبيب الباكى فى زحام النساء عند حائط المحطة المسود . كانت داشا تودعه ، وكانما الى الأبد . واجهد ايفان ايليتش نفسه ليعرف لماذا لم يرق لها ؟ انه فى نهاية المطاف هو المسؤول عن برودها طبعا . انها ليست اول امرأة تلد طفلا ميتا . وليست الثورة هى التى انتزعت منها القلب . . . ان ذاكرته حافلة بالازواج الذين زادهم الزمن العصيب المضطرب قربا الى قرب . . . فعلى اى شىء تلومه ؟

واحيانا كان يتولد فى نفسه حنق : حسنا ، يا عزيزتى ، ابحثى واعثرى على رجل آخر يدللك مثل هذا التدليل . . . العالم ينهار ، ومعاناتها تبقى اغلى لها من كل شىء . . . مجرد انفلات ، تعود على الطعام الناعم واستنكاف عن الخبز الناشف .

كل ذلك صحيح ، ولكن الاستدلال الذى يتولد منه ان ايفان ايليتش مثال للفضيلة ، وان عدم الوقوع فى حبه جريمة . وفى كل

مرة كان يصطدم بهذا . . . فيقول لنفسه : «حقا ، اى شىء فريد فىّ؟ انا معافى جسميا . هذا اولا . فهل انا ذكى وجذاب بشكل خارق ؟ لا . انا اعتيادى مثل اى رجل عادى . . . وهل انا بطل ، انسان كبير ؟ ذكر فاتن ؟ لا ، ابدا . . . انا رجل عامى بسيط نزيه ، مثل ملايين الناس . . . وقد ربحت ورقة يانصيب مصادفة ، اذ احبتنى فتاة ساحرة ارهف احساسا منى بالف مرة ، واذكى ، وارقى ، وكفت عن حبى بنفس الطريقة غير المفهومة . . .»

وعندما كان ينظر الى نفسه بهذا المنظار كان يفكر : العل السبب فى انه ليس فى مستوى الزمن الذى يعيشه ، بل ويقاتل قتالا عاميا ، وكانه يخدم فى مصلحة ؟ كان قد التقى باناس اشداء فى الشر والخير ، يسيرون بظل عملاق فى المعارك الدموية . . . ويقول لنفسه : «اما انت ، يا ايفان ايليتش ، فليتك كرهت العدو كل الكراهية وخشيت الموت بقوة . . .»

واغتم ايفان ايليتش لذلك كثيرا . ودون ان يلاحظ ذلك بنفسه اصبح واحدا من اكثر العاملين فى الفوج وثوقا وتعقلا وشجاعة . عهدت اليه بعمليات خطيرة فنفذها بشكل باهر .

جعله الحديث مع سيرغى سيرغييفيتش شديد التفكير . ان الامر المرح كان ايضا فريسة حزن . . . فريسة حزن شديد . . . وميشكا سولومين ؟ وتشيرتوغونوف ؟ وآلاف ممن تمر بهم دون ملاحظة ؟ انهم جميعا يضارعون زمنهم . ضخام ، شعث تشوههم العذابات . وليس لديهم الكلمات ليقولوها ، لا شىء غير البندقية فى اليد ، وعند آخرين عنف وحشى يتبعه ندم . . . تلك هى روسيا ، تلك هى الثورة . . .

– ايها الرفيق آمر السرية . . . استيقظ . . .

جلس تليغين على التخت . كان قرص الشمس الذهبى يطل من النافذة معلقا فوق حافة السهب الاصفر . وهز الجندى ايفان ايليتش مرة اخرى . وكان عريض الوجه اصهب اللحية احمر كالشمس الصباحية .

– آمر الفوج يطلبك بسرعة . . .

كان المصباح ما يزال يضيىء فى مقصورة سابوجكوف مرسلا رائحة كريهة . وقد اجتمع فيها غيمزا ومفوض الفوج سوكولوفسكى السقيم الاسود الشعر ذو العينين السوداوين الملتهبتين من الارق ، وآخران من امراء الكتائب وبعض امراء السرايا ، وممثل لجنة الجنود الذى كان يرتسم على وجهه تعبير عن الاستقلالية بل والتأذى ... وكان الجميع يدخنون . كان سيرغى سيرغييفيتش الذى كان قد ارتدى سترته وعلّق مسدسه يمسك الشريط البرقى بيد مرتجفة . وقد قرأ بصوت مبحوح حين توقف ايفان ايليتش عند الباب :

– «... وهكذا قطع احتلال العدو المفاجىء للمحطة قواتنا وجعلها تحت ضربة مزدوجة . نناشدكم باسم الثورة وباسم السكان التعساء الذين ينتظرهم حتما الموت والشنق والتعذيب ، اذا تركناهم لتحكم عصابات البيض ، ان ترسلوا التعزيزات دون ان تضيعوا دقيقة واحدة» .

صاح سوكولوفسكى :

– ماذا نفعل بدون أمر القائد العام ؟ ساذهب مرة اخرى لا حاول الاتصال به بالخط المباشر ...

قال غيمزا حانقا :

– اذهب ، وحاول (ونظر الجميع اليه .) اما انا فاقول لك : اذهب انت ، خذ اربعة من المقاتلين وتليغين ، واذهبوا الى مقر القيادة فى عربة ترولى . ولا تعد دون ان تحصل على الأمر ... سابوجكوف ، اكتب ورقة الى القائد العام سوروكين ...

كان احد الخيالة واقفا فى الرابية المعشبة ، وقد وضع كفه فوق عينيه ، وراح يمعن النظر فى شريط الخط الحديدى ، فقد كانت عليها سحابة من الغبار تقترب بسرعة .

وحين اختفت السحابة فى تجويف من الارض مسّ الخيّال فرسه بساقه ثم بالمهماز . هزّ الفرس الاصهب النحيل راسه مغتاضا ، واستدار ، ونزل من الرابية التى كانت تختبىء على منحدريها فصيلة من الضباط المتطوعين امام كتل الطين التى جمعت من توها .

قال فون ميكه : «عربة ترولى» وقفز من السرج واخذ يضرب ركبتى الفرس الاماميتين بمقرعته ليجعله يبرك . ضمّ الفرس الحرن

رجليه ، وحرّك اذنيه ، ولكنه اطاع ، ونزل الى الأرض زافرا زفرة عميقة . ومس التراب ببوزه ، وبرك . وكان جنبه المخدد بالاضلاع يرتفع ويهبط .

قرفص فون ميكه على الرابية والى جانبه روتشين . وفى تلك اللحظة خرجت عربة الترولى من التجويف وكان من الممكن الآن تمييز ستة رجال بمعاطف عسكرية .

– نعم ، حمر ! – وادار فون ميكه راسه الى اليسار – رهط ! – ثم اداره الى اليمين – استعداد ! نار سريعة نحو الهدف المتحرك ... اضرب !

تمزق الهواء فوق الرابية كالقماش المنشىّ . ومن خلال غمامة الغبار كان من الممكن ان يرى الرائى رجلا يسقط من عربة الترولى ، وينقلب عدة مرات ، ويتدحرج على المنحدر مجتثا العشب بيديه .

اطلقت النار من عربة الترولى من ثلاث بنادق ومسدسين . وبعد لحظة كان يجب ان تختفى فى التجويف الثانى وراء كشك التحويل . مزّق فون ميكه الهواء بصفير سوطه ، واستشاط غضبا :

– سيغيبون ، يغيبون ! كان الاحرى بكم ان تصطادوا غربانا ! عار !

كان روتشين يُعتبر جيد الرماية . وجه بندقيته على بعد قدم امام العربة ، وصوب على رجل عريض المنكبين ضخم حليق الوجه يبدو انه الآمر ... وفكر مع نفسه «انه كثير الشبه بتليغين ! نعم ... سيكون ذلك فظيعا ...»

واطلق روتشين . طارت طاقيته من على راسه ، وفى تلك البرهة غاصت عربة الترولى فى التجويف الثانى . قذف فون ميكه بسوطه .

– قذارة . كل الرهط قذارة . لستم رماة ، يا حضرات الضباط ، بل قذارة .

وراح يشتم جاحظ العينين مثل قاتل مؤرق حتى نهض الضباط من على الارض نافضين ركبهم ، واخذوا يتذمرون :

– يا آمر السرية .. الاحرى بك ان تمسك لسانك ، عندنا من هو اعلى منك رتبة .

وضع روتشين مشطا جديدا ، واحس بان يديه ما تزالان ترتجفان . فمن اى شىء ؟ أمن المعقول من مجرد التفكير بأن ذلك الرجل كان يشبه ايفان تليغين ؟ هراء . انه فى بتروغراد .

صعد المفوض سوكولوفسكى وتليغين براس مضمد الى مقدمة بيت آجرى من طابقين هو مقر ادارة القرية يقع مقابل الكنيسة كالعادة مطلا على ساحة غير مرصوفة كانت الاسواق الريفية تقام فيها سابقا . كانت الدكاكين الآن مغلقة بالالواح ، والنوافذ محطمة ، والاسيجة مخلوعة . وقد اقيم فى الكنيسة مستشفى عسكرى . كانت اسمال الجنود ترفرف على الحبال فى فناء الكنيسة .

كانت اعقاب السكائر وقصاصات الورقة مبعثرة فى رواق ادارة القرية ، حيث كانت تقيم هيئة اركان القائد العام سوروكين وكان جندى احمر يجلس الى جانب السلم المؤدى الى الأعلى على مقعد من الخشب المعوج واضعا بندقيته بين رجليه . وكان يهوم بشىء سهبى وعيناه مغمضتان . كان فتى عريض الوجنتين ذا خصلة متهدلة – امارة مالوفة على الغلظة العسكرية – تبرز من تحت طاقيته المسرحة على قفاه بشريطها الاحمر . سال سوكولوفسكى بعجالة :

– نريد مقابلة الرفيق سوروكين . . . كيف نذهب ؟

فتح الجندى عينيه الكدرتين من ضجر ناعس . كان انفه ناعما لا ينم عن جدية . نظر الى سوكولوفسكى – الى وجهه وملابسه وحذائه ، ثم نظر بهذه الطريقة الى تليغين . تقدم منه الآمر بنفاد صبر .

– انا اسالك ، يا رفيق . . . نحن نريد مقابلة القائد فى أمر استثنائى .

قال ذو الخصلة المتهدلة :

– ولكن الحديث مع الحارس لا يجوز .

صاح سوكولوفسكى :

– اللعنة . دائما تجد مثل هؤلاء الاوغاد فى مقر الاركان . شكليون ! اطالبك يا رفيق بان تجيب : هل سوروكين موجود هنا ام لا ؟

– غير معلوم . . .

– واين رئيس الاركان ؟ فى الدائرة ؟

– فى الدائرة .

جذب سوكولوفسكى تليغين من كمه ، واندفع يصعد السلم . عند ذاك قام الحارس بحركة تحفز ولكن دون ان يترك مقعده ، فقد اخرج البندقية من بين رجليه :

– الى اين ذاهبان ؟

– كيف الى اين ؟ الى رئيس الاركان .

– هل لديكما ترخيص ؟

بدا المفوض يشرح للحارس السبب الذى حملهم الى المجىء على عربة ترولى ، وقد تميز غيظا حتى طفح الزبد على شفتيه . فاصغى هذا وهو ينظر الى الرشاشة الرابضة امام المدخل ، والى المراسيم والاوامر والاعلامات التى كانت تملأ حيطان الرواق . وهز رأسه . وقال بكآبة :

– يجب ان تفهم ، يا رفيق ، وانت الواعى . اذا كان معك ترخيص اتركك تذهب ، والا اطلقت النار بلا رحمة .

وكان لا بد من الخضوع ، رغم ان الترخيصات كانت تعطى فى مكان ما فى الطرف الآخر من الساحة . والمكتب فى اغلب الظن مقفول . سيقولون لهما ان القومندان قد خرج ولم يحضر الا فى الغد . وظهر الاعياء على سوكولوفسكى فورا . . . وفى تلك اللحظة اندفع من الساحة الى الباب شخص قصير القامة فى قميص مشقوق حتى وسطه يضرب الارض بحذائه الطويل .

– يا ميتكا* . . يوزعون الصابون . . .

وكان ريحا قذفت بالحارس من الكرسى . وثب خارجا الى مقدمة البيت . صعد سوكولوفسكى وتليغين الى الطابق الثانى دون ان يعترضهما عارض . وبعد استرشاد بحسناوات منتفخات العيون فى بلوزات حريرية بعثن بهما يمينا وشمالا عثرا اخيرا على غرفة رئيس الاركان .

دخلاها فرأيا عسكريا انيق الملبس ينظف اظافره ، وهو مستلق على اريكة مهلهلة ممددا رجليه . استوضحهما حقيقة الأمر بادب جم ، واستقبال بروليتارى معتن به شافعا كل كلمة بـ«يا

* صيغة لاسم دميترى . — المترجم .

رفيق» (رغم ان هذه الكلمة كانت تخرج من فمه وكأنها «يا كونت سوكولوفسكي» و«يا امير تليغين») ثم استأذن وخرج يصرف بحدائه الاصفر الطويل ذي الاربطة حتى ركبتيه . وبدا همس وراء الحائط ، وصفق باب من بعيد ، ثم هدأ كل شيء .

نظر سوكولوفسكي الى تليغين بعينين ملتهبتين :

– هل تفهم شيئا ؟ الى اين جئنا ؟ ربما هذه قيادة البيض ؟

رفع كتفيه النحيلتين ، وبقي مصعوقا في غاية الدهشة . عاد الهمس مجددا من وراء الحائط . وانفتح الباب على سعته ، ودخل رئيس الاركان ، وهو رجل في اواسط العمر ركين ذو جبهة عريضة صلعاء وسحنة متجهمة يرتدي قميصا عسكريا خشنا مشدودا بحزام قوزاقي على بطن كبير . وتفرس في تليغين خطفا ، وهز راسه تحية لسوكولوفسكي ، وجلس وراء المنضدة ، واضعا يديه المشعرتين امامه بحركة معتادة . كانت جبهته رطبة مثل جبهة رجل قد فرغ لتوه من الاكل والخمرة . وحين احس بالنظرات مصوبة اليه زاد من جهامة وجهه الأحمر المنتفخ . قال باعتبار وبرود :

– ابلغني النوبجي انكما ، ايها الرفيقان ، قدمتما في امر مستعجل . يدهشني لماذا لم يستخدم آمر الفوج ، او انت ، ايها الرفيق المفوض ، خط الاتصال المباشر . . .

قال سوكولوفسكي :

– حاولت الاتصال ثلاث مرات . – وقفز على قدميه واخرج من جيبه شريطا برقيا ، وقدمه الى رئيس الاركان قائلا :

– كيف يمكن ان ننتظر بهدوء ورفاقنا يهلكون . . . ولا اوامر من قيادة الجيش . . . والناس يتوسلون الينا لاغاثتهم . . . وفوج «الحرية البروليتارية» يهلك ومعه طابور من العربات وفيها الفان من اللاجئين . . .

القى رئيس الاركان نظرة خاطفة على الشريط ، وقذفه فتلوى حول محبرة كبيرة :

– نحن ، ايها الرفاق ، على علم في المعارك الجارية الآن في منطقة فوج «الحرية البروليتارية» . . . وانا اقدر حماسكم ، وسورتكم الثورية (كان يبدو وكأنه يبحث عن الكلمات بجهد) . ولكنني اطلب منكم في المستقبل الا تثيروا الرعب . . لا سيما وان عمليات العدو

عارضة . . . وباختصار ان كل التدابير قد اتخذت ، ويمكنكما ان تعودا الى واجباتكما مطمئنين .

ورفع راسه . كانت نظرته صارمة وصافية . نهض تليغين حين عرف بان المحادثة قد انتهت . وظل سوكولوفسكي جالسا كأنما قد صعق . قال :

– لا استطيع العودة الى الفوج بمثل هذا الجواب . سيعقد الجنود اجتماعا عاما هذا اليوم وسيهب الفوج اليوم لاغاثة «البروليتاريين» بمحض ارادته . . . وانبهك ، يا رفيق ، بانني ساخطب في الاجتماع مؤيدا الهجوم . . .

اخذ وجه رئيس الاركان يحمر ، وجبهته الضخمة الصلعاء تلمع . دفع كرسيه بحركة صاخبة ، ونهض ، فارتخى عليه بنطاله العسكري حشر يديه وراء حزامه قائلا :

– ستكون مسؤولا امام المحكمة العسكرية الثورية ، يا رفيق ! لا تنسى اننا لسنا في عام ١٩١٧ !

– لا تحاول ان تخيفني ، يا رفيق !

– اسكت !

في تلك اللحظة انفتح الباب بسرعة ، ودخل رجل طويل رشيق القامة يرتدي بشكل غير اعتيادي سترة جركسية من القماش الرقيق . كان وجهه الجميل الكئيب بشعره الاسود الساقط على الجبهة ، وشاربيه المتدليين مصطبغا بذلك اللون الوردي الفاتح الذي يكون عادة لدى المسرفين في السكر او القساة . كانت شفتاه مبللتين حمراوين ، وعيناه السوداوان متسعتين . اقترب تماما من سوكولوفسكي وتليغين ملوحا بكم سترته الايسر ، وحدق فيهما بنظرة وحشية . والتفت الى رئيس الاركان ، وقد ارتعش منخراه بحنق :

– ما هذا السلوك على النمط القيصري مرة اخرى ! ما هذه «اسكت» ؟ اذا كانا مذنبين يرميان بالرصاص . . . ولكن دون اهانة من قبل جنرال . . .

سمع رئيس الاركان هذه الملاحظة صامتا ، وقد اطرق براسه . وما كان من سبيل لاي اعتراض ، فقد كان هذا هو القائد العام سوروكين نفسه . قال بهدوء :

– اجلسا ، ايها الرفيقان . انا مصغ اليكما .

وجلس على افريز النافذة .

عاد سوكولوفسكى يشرح الغرض من مجيئهما : الحصول على اذن لفوج فارنافسكى فى الهجوم فورا لمساعدة جاره فوج «الحرية البروليتارية» . ان ذلك الى جانب كونه واجبا ثوريا يمليه حساب بسيط : فلئن دمر «البروليتاريون» ، فـان فوج فارنافسكى سيجد نفسه مقطوعا عن القاعدة .

لم يجلس سوروكين على افريز النافذة غير ثانية واحـدة . طفق بعدها يذرع الغرفة من الباب الى الباب ملقيا اسئلة قصيرة . وكلما كان يستدير بحركة حادة كان شعره المصفوف يتطاير . كان الجنود يحبونه على حماسته وشجاعته . وكان يجيـــد الكلام فى الاجتماعات العامة . وكانت هذه الصفات غالبا ما تحتل مكان العلم العسكرى فى تلك الايام . كان ضابطا قوزاقيا برتبة نقيب ، وقد حارب فى جيش يودينيتش فى ما وراء القفقاس . وبعد انقلاب اكتوبر عاد الى قريته بتروبافلوفسكايا فى كوبان ، وشكل فصيلة انصار من ابناء قريته . حارب معها فى حصار يكاترينودار ، وحالفــه التوفيق . وطلع نجمه بسرعة . وادار المجد رأسه . وكانت قواه طافحة ، وكان يجد الوقت الكافى للقتال واللهو . وفضلا عن ذلك فان رئيس الاركان احاطه عن قصد بنساء مليحات ، وكل الجو الملائم للفجور .

سال حين فـرغ سوكولوفسكى من الحديث ، ومسح جبهتــه عصبيا بمنديل مدعوك قذر :

– وماذا اجابوكما فى هيئة اركانى ؟

اسرع رئيس الاركان ليقول :

– اجبتهما باننا قد اتخذنا جميع الاجراءات لانقاذ فوج «الحرية البروليتارية» . وقلت ان قيادة فوج فارنافسكى تتدخل فى اوامر قيادة الجيش ، وهذا أمر غير مسموح به كليا ، وفضلا عن ذلك فانها تثير ذعرا لا يقوم على اساس .

قال سوروكين بلهجة تصالحية مفاجئة :

– لا يجوز ان يعالج الموضوع بهذا الشكل ، يـا رفيق . الانضباط ضرورى بالطبع . . . ولكن هناك اشياء اهم بالف مرة

مما تقوله عن الانضباط . . . ارادة الجماهير ! يجب تشجيع المــد الثورى ، رغم ان ذلك يناقض ما تقوله عن العلم العسكرى . . . ولتكن عملية فوج فارنافسكى بلا جدوى ، ولتكن مضرة ، لتكن ما تكون ! عندنا ثورة . . . واذا منعتهم الآن هرعوا الى عقد اجتماع عام . انا اعرف هؤلاء الصياحين . سيصرخون ثانية بانني احطم الجيش بالسكر . . .

واندفع الى الموقد ، ونظر الى سوكولوفسكى نظرة ضارية :

– قدم تقريرك !

اخرج تليغين ورقة على الفور ، ووضعها على الطاولة . اختطفها القائد ، ومرر عليها عينيه السريعتين ، واخذ يكتب ناثرا الحبر من ريشته :

«آمر فوج فارنافسكى بالقيام فورا بالزحف ، وتادية واجبــه الثورى» .

نظر رئيس الاركان اليه بابتسامة ساخرة ، ولكنه تراجــع خطوة حين مد القائد العام الورقة اليه ، ووضع يديه خلف ظهره :

– لاقدم الى محكمة ، ولكنى لن اوقع هذا الأمر . . .

فى تلك اللحظة قفز ايفان ايليتش وامسك سوروكين مــن معصمه مانعا اياه من رفع المسدس . وحجب سوكولوفسكى رئيس الاركان بجسمه . ترددت انفاس الاربعة ثقيلـــة . حرر سوروكين نفسه ، ووضع المسدس فى جيبه ، وخرج صافقا الباب بشـــدة جعلت بعض الجص يتساقط . . .

صفقت ابواب ، وتلاشت خطوات القائد المتسرعة .

قال رئيس الاركان بمصالحة ونبرة جشاء :

– استطيع ان اؤكد لكم يا رفاق ، انني اذا وقعت على هذا الأمر فان مصيبة قد تحصل على نطاقات واسعة .

سال سوكولوفسكى بصوت مبحوح بعد ان سعل :

– اية مصيبة ؟

نظر رئيس الاركان نظرة غريبة اليه .

– الا تحدس عم اتحدث ؟

– لا .

ورفت عينا سوكولوفسكى من طرفيهما .

– انا اقصد جيشى . . .
– يعنى ؟
– ليس لى الحق فى ان اكشف عن اسرار عسكريـــة امام مفوض فوج . أليس كذلك ، يا رفيق ؟ ستكون اول مَنْ يرمينى بسبب ذلك . . . ولكننا تعرضنا اثناء حديثنا فى شؤون عميقة . حسنا . . . خذوا كل شىء على مسؤوليتكم . . .

اقبل على خارطة غرزت فيهـــا اعلام صغيرة . تقـــدم سوكولوفسكى وتليغين وصـارا وراء ظهره . والظاهر ان تقارب حرارة الانفاس فى فمين ازعج رئيس الاركان بعض الشىء . تحركت لوحتا كتفيه تحت القميص . الا انه اخرج بهدوء عودا قذرا لتخليل الاسنان ، ومرر نهايته المقضومة على الخارطة من الاعلام الثلاثيـــة الالوان فى الاتجاه الجنوبى الى مواقع الحمر الكثيفة . وقال :
– هنا البيض .
– اين ؟ – وتقدم سوكولوفسكى من الخارطة تماما ، ممررا عليها عينيه العمشاوين . – ولكن هذه تورغوفايا . . .
– نعم ، تورغوفايا . وسقوطها سينظف نصف الطريق امام البيض .
– انا لا افهم . . . تصورنـــا البيض ابعد الى الشمال على الاقل بحوالى . . .
– نحن تصورنا ، لا البيض . تورغوفايا فى اللحظة الراهنة تحت ضربـــة مركزة . والبيض يملكون طائرات ودبابات . وهم ليسوا شرذمة كورنيلوف السابقـة . . . انهم يعملون على خطوط داخلية ، ويوجهون الضربات اينما يريدون . والمبادرة فى ايديهم .
قال تليغين :
– فى الشمال من تورغوفايـــــا فرقـــة دميترى شيليست الحديدية . . .
– تحطمت . . .
– وفرقة الخيالة ؟
– تحطمت .
أتلع سوكولوفسكى رقبته ، وتقدم من الخارطة . وقال :
– أنت انسان شديد التحفظ ، يا رفيق . كانك قد قنعت

بسقوط تورغوفايا . . . هنـا تحطم وهنـا تحطم . – واستدار نحو رئيس الاركان مخاطبا – وجيشنا ؟
– نحن ننتظر امر القيادة العامة العليا . فان للرفيق كالنيين حساباتـه الخاصة . ولا تستطيع اركان قيادة الجيش ان تطالب اركان القيادة العامة العليا بالهجوم ، وهى تهز قبضتها عليها . فماذا تظن انت ؟ ان الحرب ليست اجتماعا عاما .

وابتسم رئيس الاركان ابتسامة رقيقة . نظر سوكولوفسكى الى وجهه الممتلىْ الهادىْ حابسا انفاسه . وتحمل رئيس الاركان تلك النظرة . قال وهو يعود الى الطاولة :
– تلك هى الامور ، ايها الرفيقان . ولهذا السبب لا املك الحق فى ان اسحب وحدة عسكرية واحدة من الجبهة ، ولو ان ذلك يبدو معقولا كليا وضروريا . . . ان وضعنا ليس بالسهل ابدا . الآن ، عودا الى وحدتكما فورا . وكل ما قلته لكما سرى لا يُفشى فى الوقت الحاضر . يجب المحافظة على الهدوء التام فى الجيش . اما بشأن فوج «الحرية البروليتاريـــة» فلا حاجة للفزع على مصيره ، فقد حصلت على معلومات مطمئنة . . .

وانعقد حاجبا رئيس الاركان فوق انفـه المعكوف . وصرف الزائرين بهزة من رأسه . خرج سوكولوفسكى وتليغين من مكتبه . فى الغرفة المجاورة كان النوبجى ينظف اظافره واقفا عند النافذة . وقد حيا الخارجين بأدب .
همس سوكولوفسكى :
– وغد .
عندما خارجا الى الشارع ، امسك بكم تليغين :
– ها ؟ ما رأيك ؟
– شكليا انه على حق . اما من حيث الجوهر فان ذلك تخريب بالطبع .
– تخريب ؟ لا . ان اللعبة اكبر . سأعود لارميه . . .
– دع عنك هذا ، يا سوكولوفسكى . لا تأت بحماقة . . .
تمتم سوكولوفسكى :
– خيانة . اقول لك ان هنا خيانة . كل يوم يبلغون غيمزا بأن فى هيئـــة الاركان سكـرا . وقد شتت سوروكين المفوضين .

وحاول انت ان تقف امامه . ان سوروكين قيصر وآله فى الجيش . انه محبوب لشجاعته ، لأنه من عندهم . وهل تعرف من رئيس الاركان هذا ؟ انه عقيد قيصرى يدعى بيلياكوف . . . هل فهمت العقدة ؟ ولكن لنذهب . . . ما رايك ، هل سنتخطى البيض بنجاح ؟

هز رئيس الاركان الجرس . ظهر النوبجى على الباب .

قال بيلياكوف وهو ينظر الى الاوراق جهما :

– اعرف لى ما هى حالة القائد ؟

– الرفيق سوروكين فى المطعم . وحالته بين بين .

وانتظر النوبجى حتى ابتسم رئيس الاركان ابتسامة ساخرة على مضض ، وعندئذ ابتسم النوبجى ابتسامة كثيرة الدلائل :

– زينكا * معه .

– حسنا . انصرف .

ذهب بيلياكوف الى شعبة الاتصال . وعاين الاخبار التلفونية . وقع بخط واضح بطىء بعض الاوراق ، ولبث برهة فى الممر عند الباب الاخير ، حيث كانت تتردد من ورائه انغام هادئة على اوتار . اخرج رئيس الاركان منديله ، ومسح رقبته الحمراء القوية ، وطرق الباب ، ودخل دون ان ينتظر ردا .

كان سوروكين يجلس مشمرا كمى سترته العريضين عند مائدة فى وسط الغرفة مفروشة بجرائد وعليها آنية مستخدمة واقداح . وكان وجهه الوسيم ما يزال عابسا ، وقد تساقطت خصائل من شعره الاسود على جبهته الندية . نظر فى بيلياكوف بحدقتين متسعتين . كانت زينكا تجلس على مقعد بلا ظهر الى جانبه واضعة ساقا على ساق حتى لاح رباط جوربها ، ومخرمات ثوبها الداخلى ، وكانت تعزف على قيثار . كانت امراة شابة ذات عينين زرقاوين زاهيتين وشفتين نديتين ، وأنف دقيق ينم عن الحزم ، وشعر اشقر منفوش مرفوع الى اعلى راسها . والثنيات السقيمة وحدها عند الفم ، ولو انها لا تكاد تبين ، كانت تضفى على وجهها الرقيق مسحة حيوان وحشى يستطيع ان يعض . كانت حسب هويتها ابنة عامل سكك الحديد من انحاء اومسك ، وذلك ما لم يكن يصدق به

---

* صيغة لاسم زينايدا . – **المترجم** .

اى انسان بالطبع ، مثلما لم يصدق انسان بان عمرها ثمانية عشر عاما ، وبانها من عائلة تدعى كانافينا ، وبأن اسمها زينايدا . الا انها كانت تضرب على الآلة الكاتبة بشكل ممتاز ، وتشرب الفودكا ، وتعزف على القيثار ، وتغنى اغانى عاطفية جذابة . وقد وعد سوروكين بانه سيرميها بيده لدى اول محاولة منها لنشر فساد الحرس الابيض والتعفن فى هيئة اركانه . واطمأن الناس عند ذلك .

قال بيلياكوف هازا راسه ، وبقى عند الباب للتحوط :

– رائع ، بكل تاكيد . فى اى وضع تضعنى انت ؟ يأتى اثنان من اللجنة المركزية كما هو واضح ، ويهددان بالاجتماعات العامة . فاذا أنت تنحاز الى جانبهما بسرعة . . . ما اسهل الذهاب الى جهاز التلفون ، والاتصال بيكاترينودار ، ليرسلوا لك على الفور يهوديا ينظم لك هيئة الاركان ، وينام معك فى السرير ، ويصحبك الى المرحاض ، ويضبط جميع افكارك . فظاعة ، بالتاكيد ! ان لدى القائد العام سوروكين ميلا الى الدكتاتورية ! اذهب لتكون تحت الرقابة . . . اما انا فلا اريد . . . يمكنك ان ترمينى . . . ولكنى لن اسمح لك بان تهددنى بالمسدس فى وجود مَنْ هم اقل رتبة . . . اى انضباط سيكون بعد هذا ! . . . ليتخطفك الشيطان .

مضى سوروكين ينظر الى رئيس الاركان ، ومد يده الكبيرة القوية ، ولكنه قبض على الهواء بدلا من عنق الزجاجة . سرت رعشة فى فمه ، وتوتر شارباه . الا انه استطاع ان يمسك بالزجاجة على اية حال ، وصب كوبين .

– اجلس ، واشرب .

نظر بيلياكوف بطرف عينه الى مخرمات سروال زينكا ، وتقدم من المائدة . قال سوروكين :

– لو لم تكن ذكيا لرميتك بالرصاص . . . الانضباط . . . ان انضباطى هو القتال . هيا ، ليحاول اى منكم انهاض الجماهير . . . سأقودها . انتظر وقتا . لا احد غيرى يستطيع دحر البيض ، انا الذى سيحطم الاوغاد البيض . . . وسيهتز العالم . . .

واستنشق منخراه الهواء ، وبدات العروق على صدغيه تنبض :

– سانظف مناطق كوبان والدون وتيريك بدون اللجنة المركزية . . . ان هؤلاء الاوغاد ، اعضاء اللجان ، ماهرون فى تصرفاتهم فى يكاترينودار لا فى الجبهة . . . انهم جبناء . . . اذن فانا على حق ، فى المعركة دكتاتور . . . انا اقود جيشا !

ومد يده الى قدح الكحول ، الا ان بيلياكوف دلق له القدح ، وقال :

– كفى شربا .

– آها ، تامرنى ؟

– ارجوك ، كصديق . . .

القى سوروكين نفسه على ظهر المقعد ، وزفر عدة زفرات قصيرة ، واخذ يجيل ببصره حتى اوقفه على زينكا . كانت تمرر اظافرها على الاوتار .

غنت ، وقد رفعت حاجبيها بتكاسل : «وتنفس الليل . . .» استمع سوروكين ، والعروق على صدغه راحت تنبض بقوة اسرع . نهض ، ودفع راس زينكا الى الوراء ، وراح يقبلها من فمها بنهم . استمرت زينكا فى العزف ، ثم نزل القيثار من ركبتيها .

قال بيلياكوف بلطف :

– هذا امر يختلف . آه ، يا سوروكين . احبك ، ولا ادرى لماذا احبك .

حررت زينكا نفسها اخيرا ، وانحنت انحناءة واطئة الى الارض محمرة ورفعت القيثار . ولمعت عيناها الناصعتان من تحت شعرها المشوش . لصقت شفتيها المتورمتين بطرف لسانها وقالت :

– اوف ، اوجعتنى . . .

– أتعرفون يا اصدقائى ؟ عندى زجاجة مخبأة . . .

وقطع بيلياكوف كلامه مختنقا بكلمته . وتعلقت فى الهواء يده المنفرجة الاصابع . ازت رصاصة وراء النافذة وتعالت اصوات . خرجت زينكا من الغرفة مع قيثارتها خطفا وكانها مدفوعة بريح . تجهم سوروكين واتجه نحو النافذة .

قال رئيس الاركان بعجالة :

– لا تخرج . ساعرف قبلك ما الأمر .

كان العراك واطلاق الرصاص ظاهرة اعتيادية فى مقر هيئة

الاركان . فقد كان جيش سوروكين يتالف من جماعتين اساسيتين : القوزاق الكوبانيين[1] الذين كان سوروكين قد شكل نواتهم فى العام الماضى والاوكرانيين الذين جمعوا من بقايا الجيوش الاوكرانية الحمراء التى تراجعت تحت ضغط الالمان . . . وكان بين القوزاق والاوكرانيين شحناء مزمنة . كان الاوكرانيون لا يحسنون المقاومة فى اراض غريبة ، ولا يتورعون كثيرا اذا كان الأمر يتعلق بالعلف والتموين ، حين كانوا يمرون فى قرى القوزاق .

وكان العراك واطلاق الرصاص يحدث كل يوم . ولكن ما بدأ اليوم كان اكثر خطورة . اندفع القوزاق الخيالة بالصيحات . وتراكض الجنود الحمر جماعات مذعورة من سياج الى آخر ومن حديقة الى اخرى . وسُمِع اطلاق نار شديد باتجاه المحطة . وفى الساحة امام نوافذ مقر الاركان كان قوزاقى جريح يصرخ بوحشية زاحفا ومتلويا فى الغبار .

وبدا هرج ومرج فى مقر الاركان . كان خط التلفون منذ الصباح لا يرد على المكالمات . والآن عاد يحمل من هناك سيلا من الانباء المخبولة لا يمكن ان يفهم منه غير شىء واحد : ان البيض فى زحفهم السريع باتجاه سوسيكا – اومانسكايا يطاردون امامهم وحدات الحمر المذعورة . ووحداتهم الامامية التى وصلت الى مقر الاركان بدات بالنهب فى المحطة والقرية . وفتح الكوبانيون النار ، ونشبت معركة .

اندفع سوروكين خارج البوابة على فرس اصهب ضخم شرس . ووراءه زهاء خمسين راكبا فى ستر جركسية وسيوف معوجة ، وقلانسهم تتطاير وراء ظهورهم . وكان سوروكين يجلس على الصهوة وكانه قد سمر فيها . كان حاسر الراس ليعرف الناس وجهه حالا . القى راسه الجميل الى الوراء . فصارت الريح تعبث بشعره وكميه واذيال سترته . كان ما يزال سكران ، بادى الحزم ، شاحب الوجه . وكانت عيناه تنظران بتفرس ، ونظرتهما رهيبة . وكانت سحابة من الغبار تتطاير وراء الخيول المنطلقة .

كانت بعض الطلقات تسمع من وراء الحاجز النباتى بالقرب من المحطة . كان بعض المرافقين يطلق صرخات عالية ، وقد وقع

احدهم من حصانه ، الا ان سوروكين لم يعر الى ذلك التفاتا . كان ينظر الى حيث كانت جمهرة رمادية من الجنود تتصايح وتفور وتركض بين قطارات البضائع .

عرفوه من بعيد . صعد الكثيرون الى سطوح العربات . وارتفعت البنادق فوق الرؤوس وتعالى الصياح . تخطى سوروكين سياج حديقة المحطة دون ان يخفف سرعته ، وعدا على السكك الى قلب الجمهرة . امسك الجنود بلجام فرسه . رفع ذراعيه فوق راسه وصاح :

– ايها الرفاق ، رفاق السلاح ، ايها المقاتلون ! ماذا حدث ؟ ما هذا الرمى ؟ ولماذا الهلع ؟ مَنْ ادار لكم رؤوسكم ؟ اى وغد ؟

ارتفع صوت هالع :

– غدروا بنا !

وارتفعت اصوات اخرى :

– غدر بنا امراء الوحدات ! كشفوا الجبهة !

راح جمهور مؤلف من عدة آلاف يصرخ على السكك الحديدية ، وفى الحقل ، والعربات :

– غدروا بنا . . . تحطم الجيش كله . . . يسقط القائد ! اقتلوا القائد !

وصدر صفير وعويل ، وكان ريحا شيطانية كانت تهب . صهلت خيول المرافقين ، ووقفت على ارجلها الخلفية . وتدافعت نحو سوروكين وجوه متلوية وايد سوداء . صرخ بشدة جعلت رقبته القوية تنتفخ :

– سكوت ! لستم جيشا ثوريا . . . شرذمة من قطاع الطرق والاوغاد . . . ارونى الخائفين على جلودهم ومثيرى الهلع . . . اروني اعوان الحرس الابيض !

وحث حصانه فجأة ، هز الحصان جزءه الامامى ، واندفع عميقا بين الجمهور . انحنى سوروكين من على السرج واشار باصبعه :

– هذا هو !

التفت الجمهور بصورة لا ارادية الى الذى اشار اليه سوروكين . كان رجلا طويلا نحيلا ذا انف كبير . شحب الرجل ، ورفع مرفقيه ، وتراجع . لا احد يدرى هل كان سوروكين يعرفه

حقا ام قد ضحى به كاول رجل فى طريقه ليجد مخرجا للوضع الحرج . . . وكان الجمهور بحاجة الى دم . اختطف سوروكين سيفا معوجا ، ورفعه فى الهواء ، وهوى به على رقبة الرجل الطويلة يصفر صفيرا . انبجس الدم على بوز الحصان برشاش قوى .

– هكذا يعامل الجيش الثورى اعداء الشعب .

حث سوروكين حصانه ثانية ، ودار فى الحشد رهيبا شاحبا ملوحا بالسيف الدامى لاعنا مهددا مهددا :

– لا اندحار ابدا . . . الجواسيس وعملاء البيض يثيرون الرعب عن قصد . . . وهم الذين يدفعونكم الى النهب ، ويقوضون الانضباط . . . من قال انهم حطمونا ؟ من رآهم يضربوننا ؟ هل رايت ذلك ايها الحقير ؟ ايها الرفاق ، لقد قدتكم الى المعركة ، وانتم تعرفوننى . . . انا ايضا احمل فى جسدى ستة وعشرين جرحا ! اطالبكم بأن تكفوا عن النهب فى الحال ! وليذهب كل واحد منكم الى قطاره ! اليوم سأقودكم فى هجوم . . . اما الجبناء والخائفون على جلودهم فبانتظارهم انتقام السخط الشعبى . . .

استمع الجمهور . وعلته الدهشة ، وصعد بعض الافراد على اكتاف آخرين ليلقوا نظرة على قائدهم العام . ما تزال الاصوات تزعق ولكن القلوب تتوهج . وتردد هنا وهناك : «انه يقول الحقيقة . . . ليقدنا . لنذهب معه . . .» . وظهر امراء السرايا الذين كانوا قد اختفوا ، واخذت الوحدات تعود الى قطاراتها شيئا فشيئا . كان ثمة شق فى سترة سوروكين عند الصدر . افرجه واظهر آثار جراح قديمة . . . وكان وجهه شاحبا ماخوذا . . . زال الهلع . نصبت حواجز الرشاشات لملاقاة القطارات المقتربة . وحفل الخط كله ببرقيات فى منتهى الحزم .

ومع ذلك فقد كان لا محيص من تراجع الجيش . وبعد عدة ايام فقط امكن اعادة النظام الى الوحدات العسكرية فى منطقة محطة تيماشيفسكايا ، والبدء بهجوم مضاد . زحف الحمر فى طابورين على فيسيلكى وكورينيفكا . كان الجنود الحمر يرون سوروكين منطلقا على حصانه الاصهب كلما تأرجحت كفة المعركة . وكان يبدو وكانه بارادته الملتهبة وحدها قد حوّل مصير الحرب

منقذا المنطقة الساحلية على البحر الاسود . ولم يبق امام اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية شمال القفقاس الا ان تعترف رسميا بأسبقيته فى العمليات الحربية .

٦

فى تلك الايام من اواخر ايار ، حين كان جيش دنيكين يقوم بـ«حملة كوبان الثانية» خيم خطر جديد على جمهورية روسيا السوفييتية . ثارت ثلاث فرق تشيكية فى وقت واحد تقريبا فى جميع القطارات من بينزا الى اومسك زاحفة من الجبهة الاوكرانية نحو الشرق .

وكان هذا التمرد اول ضربة اعدها مسبقا المتدخلون ضد روسيا السوفييتية . كانت الفرق التشيكية قد بدأت تتشكل منذ عام ١٩١٤ اولا من التشيكيين الذين كانوا يعيشون فى روسيا ، ثم من اسرى الحرب ، وقد اضحت بعد ثورة اكتوبر جسما غريبا داخل البلاد ، وراحت تتدخل فى الشؤون الداخلية بقوة السلاح .

ولم يكن من السهل دفع التشيكيين الى الهجوم المسلح على الثورة الروسية ، لأنهم كانوا ما يزالون ينظرون الى روسيا باعتبارها المحرر المقبل للشعب التشيكى من الحكم الامبراطورى النمساوى . وكان الفلاحون التشيكيون الذين كانوا يسمننون الاوز لعيد الميلاد يقولون على العادة القديمة «واوزة واحدة للروسى» . كانت الفرق التشيكية وهى تتراجع تحت ضغط المعارك مع الالمان فى اوكرانيا تتهيأ الى الانتقال الى فرنسا ليظهروا فى الجبهة ، للعالم اجمع ، تأييدهم لحرية بلاد التشيك ، والمساهمة فى انتصارها على النمساويين والالمان .

تحرك اسرى الحرب الالمان والمجريون المكروهون بشكل خاص للقاء القطارات التشيكية المتجهة الى فلاديفوستوك . وكان فوران الدم يحتدم فى الاماكن التى يلتقى فيها هذان التياران . وكان عملاء الحرس الابيض يوشوشون للتشيكيين بنوايا البلاشفة السيئة ، وبمقاصدهم المزعومة عن تجريد الوحدات التشيكية السيارة وتقديمها الى الالمان .

وفى ١٤ ايار حدث عراك خطير بين التشيكيين والمجريين فى محطة تشيليابنسك . فاعتقل سوفييت نواب الشغيلة فى هذه المدينة بعض التشيكيين الذين تمادوا فى القتال بشكل خاص . مما ادى الى ان يهب القطار كله لرفع السلاح . واضطر السوفييت الى التراجع لأن الجنود الحمر عنده فى خط السكة الحديدية كله لم يكونوا مسلحين التسليح الكافى . شاع نبأ حادث تشيليابنسك فى القطارات التشيكية كلها . وحدث الانفجار حين أعلن الأمر الخيانى الاستفزازى لرئيس المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية ردا على هذه الاحداث :

«على جميع السوفييتات تجريد التشيكوسلوفاكيين من السلاح ، والمخالف سيقع تحت طائلة المسؤولية . وكل تشيكوسلوفاكى يوجد مسلحا على الخط الحديدى يجب ان يرمى فى مكانه ، وكل قطار يعثر فيه ولو على مسلح واحد يجب ان تفرغ عرباته ، ويوضع ركابها فى معسكر لاسرى الحرب» .

ولما كان للتشيكيين انضباط فائق وتضامن وخبرة فى القتال وعدد وافر من الرشاشات والمدافع ، بينما لم يكن للسوفييتات غير فصائل رديئة التسلح من الحرس الأحمر ، وبلا قيادة محنكة ، فانهم هم الذين قاموا بتجريد السوفييتات ، وليس بالعكس ، وبسطوا سيادتهم على طول الخط من بينزا الى اومسك .

بدأ التمرد فى بينزا ، حيث ارسل السوفييت خمسمائة من الحرس الاحمر لملاقاة اربعة عشر الفا من التشيكيين . وقد قام الحمر بهجوم على محطة السكة الحديدية ، ودمروا على بكرة ابيهم تقريبا . واخرج التشيكيون معهم من بينزا آلة طباعة «بعثة اعداد اوراق الدولة» ودحروا الحمر فى معركة كبيرة قرب بيزنتشوك وليبياغى ، واحتلوا سامارا .

وعلى هذا النحو تشكلت جبهة جديدة للحرب الاهلية شملت بسرعة مساحات هائلة فى الفولغا والاورال وسيبيريا .

كان الدكتور دميترى ستيبانوفيتش بولافين يرقد على بطنه فى شباك مفتوح ، ويصغى الى الهدير الاصم لقصف المدافع . كان الشارع خاليا . والشمس البيضاء تحرق بشكل لا يطاق جدران

البيوت غير العالية ، والنوافذ المتربة للمخازن الخالية ، واللافتات غير المجدية والشارع الاسفلتى المغطى بغبار الكلس .

فى الساحة الى اليمين ، الى حيث كان ينظر الطبيب برزت المسلة الخشبية المغطاة باسمال ناحلة اللون والتى تستر تمثال الكسندر الثانى ؛ والى جنبها نصب مدفع ، وتجمع رهط من الناس يقلبون الحجارة ، ويحفرون شيئا ، بلا جدوى ، كما هو واضح . كان بينهم القس سلوفوخوتوف وكاتب العدل ميشين بهاء وفخر المثقفين فى سامارا وروما‍نـــــــــوف صاحب مخزن للماكولات ، وستراميوف العضو السابق للادارة المحلية الذاتية ، وكورويدوف صاحب الاطيان الاشيب الوسيم الذى كان رجلا كبيرا فى زمانه . وجميعهم زبائن دميترى ستيبانوفيتش ، وشركاؤه فى لعبة الورق «الهويست» . . كان احد الجنود الحمر يضع بندقيته بين رجليه ويدخن جالسا على حجر .

دوّت المدافع وراء نهر ساماركا . ورن زجاج النوافذ رنينا خافتا . تلوى فم الطبيب على هذه الاصوات وعقا ، ناخرا من منخريه فى شاربيه الاشيبين كان نبضه مائة وخمسة . ومعنى ذلك ان الخميرة الاجتماعية القديمة ما تزال فيه . ولكن اظهار عواطفه اكثر من ذلك ما يزال امرا خطرا . لان أمر اللجنة الثورية الذى يهدد العناصر المضادة للثورة بالرمى بالرصاص كان يلوح كالعين الحمراء فى مكانه على الالواح التى سدت بها النافذة اللامعة المهشمـــــة لمخزن ليدر للمجوهرات فى الجانب الآخر من الشارع مقابل داره .

ظهر فى الشارع الخالى شخص غريب المظهر مرعوب يرتدى قبعة تسمى «سلاما ووداعا» من ليف جوز الهند ، وسترة من حرير التيسور من فصال ما قبل الحرب . كان الرجل ينسـل بمحاذاة الجدار ، ويتطلع الى الخلف بين برهـــة واخرى ، ويثب ، وكأن طلقات كانت تتفجر قرب اذنه . كان شعـــره بلون ليفة الكتان يتدلى حتى كتفيه ، ولحيته الصهباء قليلا تبدو وكانها قد لصقت بوجهه الشديد الشحوب .

كان ذلك الشخص هو غفيادين الاحصائى فى الادارة المحلية الذاتيـــة (الزيمستفو) والذى حـاول ذات مرة ان يثير فى داشـا «الحيوان الجميل» الكامن فيهـــا . كان قادمـــا لزيارة دميترى

ستيبانوفيتش ، والقصد من الزيارة ، كما يبدو ، مهم جدا جعله يتغلب على خوف الشارع الخالى ، ودوى قصف المدفعية .

راى غفيادين الطبيب فى النافذة . فلوح له بذراعه متضايقا ، وكانه يقول له : «من اجل الرب لا تنظر لانهـــم يراقبوننى» . انضغط على الحائط تحت أمر اللجنة الثورية متلفتا الى الوراء ، ثم ركض عبر الشارع ، واختفى وراء البوابة . وبعد دقيقة دق باب الطبيب الخلفى .

همس غفيادين وهو يدخل غرفة الطعام :

– اغلق النافذة ، بحق الرب ، انهم يراقبوننـــا . وانزل الستـــار ... لا ... الافضل الا تنزلهـــا ... يـــا دميترى ستيبانوفيتش ، انا مبعوث اليك ...

– اى خدمة ؟

سال الطبيب بسخرية ، وجلس الى المائدة المغطاة بمشمع قذر محروق . ثم قال :

– اجلس ، وحدثنى . . .

تناول غفيادين مقعدا ، وهبط عليه ، وعكف ساقه تحته ، وهمس فى اذن الطبيب همسا عاليا متطاير اللعاب :

– دميترى ستيبانوفيتش . . . قبل حين جرى تصويت فى اجتماع سرى للجنة الجمعية التاسيسية للاقتراح عليك بشغـــل منصب نائب وزير الصحة .

– نائب وزير ؟ – استفسر الطبيب ، وارخى طرفى فمه حتى ان حنكه قد تغضن كله . – هكذا . ولأية جمهورية ؟

– ليس لجمهورية بل لحكومة . . . اننا ناخذ بايدينا المبادرة للقتال . . . نفتح جبهة . . . نحصل على آلة لطبـــــع الاوراق النقديـــة ... ونزحف برئاســـة الفيلق التشيكوسلوفاكى على موسكو . . . ونستدعى جمعية تاسيسية . . . وكل هذه الاعمال ننفذها نحن ، انت تفهم ، نحن . . . اليـــوم حصل نزاع حاد . الاشتراكيون-الثوريون والمناشفة طالبوا بكل المناصب الوزارية . ولكن ، نحن اعضاء الادارة المحلية الذاتية ، دافعنا عنك ، ومررنا ترشيحك . . . هل انت موافق ؟

وفى تلك اللحظة بالذات صدر دوى رهيب وراء نهر ساماركا جعل الاقداح تطقطق على المائدة حتى ان غفيادين وثب على قدميه ، وامسك بقلبه قائلا :

– انهم التشيكيون . . .

وصدر دوى آخر ، ولعلعت رشاشة كانت تبدو قريبة للغاية . جلس غفيادين ثانية وقد شحب كليا ، وطوى ساقه .

– انهم الاوغاد الحمر . . . عندهم رشاشات نصبوها على سايلوات الحبوب . . . ولكن لا مجال للشك فى ان التشيكيين يقتحمون المدينة . . . سيستولون عليها حتما .

تمتم دميترى ستيبانوفيتش بصوت اجش :

– اعتقد انى موافق . هل تريد شايا ، ولكنه بارد ؟

امتنع غفيادين عن الشاى ، وراح يهمس وكانه فى غيبوبة :

– سيرأس الحكومة وطنيون – انزه الناس ، شخصيات نبيلة . . . فولسكى ، وانت تعرفه ، محام من تفير ، رجل ممتاز . . . والنقيب فورتوناتوف . . . وكليموشكين ، وهو من بلدتنا سامارا ، انه انسان نبيل ايضا . . . وجميعهم من الاشتراكيين-الثوريين ، مناضلون صلبون . . . يتوقعون ايضا تشيرنوف نفسه . ولكن ذلك سرى للغاية . . . انه يقاتل البلاشفة فى الشمال . . . والضباط فى كتلة وثيقة معنا . . . ومن العسكريين يرشح العقيد غالكين . . . يقولون انه دانتون الجديد . . . وباختصار ، كل شىء مهيأ . ونحن بانتظار الهجوم فقط . . . وكل المعلومات تشير الى ان التشيكيين قد عينوا اليوم ليلا موعدا للهجوم . . . وانا امثل الميليشيا . وهذا عمل خطير ويحتاج الى جهد كثير . . . ولكن يجب ان نقاتل ، وان نضحى بالنفس . . .

ترددت وراء النافذة اصوات عالية ناشزة لأبواق عسكرية تعزف «النشيد الاممى» . طوى غفيادين جذعه ، ووضع راسه على بطن دميترى ستيبانوفيتش ، كان شعره الكتانى يبدو كشعر دمية .

انحجبت الشمس وراء سحابة ممطرة . ولم تات الطراوة مع الليل . وغشى النجوم نقاب من الظلمة . وازداد قصف المدافع وراء

النهر حدة وكثافة . فكانت البيوت تهتز من الانفجارات . وكانت بطارية البلاشفة ذات ٦ بوصات ، المنصوبة على السايلو ترعد فى الظلام . وكانت الرشاشات تلعلع على سطوح البيوت . وفيما وراء النهر ، فى ضواحى سامارا التى كانت ترتبط بجسر خشبى كان الحراس الحمر فى النقاط الامامية يطلقون النار ، فتردد اصواتها ضعيفة .

انتشرت سحابة فى السماء بدمدمة راعدة . وحلّ ظلام حالك . ولم يلح اى ضوء لا فى المدينة ولا على النهر . لا شىء غير ومضات المدافع وهى تطلق نيرانها .

لم ينم احد فى المدينة . وكانت لجنة الجمعية التاسيسية تجتمع بشكل متواصل فى مكان مجهول . وكان المتطوعون من منظمات الضباط هائجى الاعصاب فى البيوت فى بدلهم وباسلحتهم . وكان اهالى المدينة يقفون عند النوافذ يحدقون فى الظلام الليلى ؛ ورجال الدوريات يتنادون فى الشوارع . وفى فترات السكون كانت تسمع صافرات القاطرات وهى تنقل القطارات صوب الشرق .

راى المتطلعون من النوافذ برقا متعرجا يقطع السماء من الحافة الى الحافة . واضاء مياه الفولغا الكدرة بضوء كئيب . ولاحت معالم الصنادل والسفن عند الارصفة ، وظهر عاليا فوق النهر وحديد السطوح هيكل السايلو الضخم ، والبرج المستدق للكنيسة اللوثرية ، وبرج الجرس الابيض الملحق بدير النساء ، والمشيد ، كما يقال ، بالاموال التى جمعتها الراهبة المتجولة سوسانا . وانطفأ البرق . وحلّ الظلام . . .

تمزقت السماء . وهبت ريح . واعولت مداخن المواقد عويلا رهيبا . وبدأ التشيكيون الهجوم .

هجم التشيكيون بصفوف غير كثيفة من جانب محطة كرياج الى جسر السكة الحديدية ، وخلال مصانع كبس الشحم الى ضواحى المدينة فى ما وراء النهر . وقد اعاقت تقدمهم وعورة المنطقة ، والسد ، وتكاثر الصفصاف الارجوانى .

وكان المدخل الى المدينة يقع عبر الجسرين الخشبى والخاص بالسكة الحديدية . وكانت مدافع البلاشفة فى الساحة وراء سايلو الحبوب تقصف مشارف المدينة . وايّدت ضرباتها القوية

والانفجارات على روح الشجاعة فى وحدات الحمر غير الواثقة بخبرة قيادتها .

وفى اواخر الليل لجأ التشيكيون الى الحيلة . كان بقايا اللاجئين البولونيين يعيشون فى عنابر بالقرب من سايلو الحبوب مع نسائهم واولادهم . وكان ذلك معروفا لدى التشيكيين . وحين اخذت قذائفهم تنفجر فوق السايلو خرج البولونيون من العنابر ، وتناثروا هنا وهناك بحثا عن ملجأ . ابعدهم المدفعيون عن المدافع بالشتائم وباسياخ تسليك المدافع . وابتعدوا حين راحت المدافع ذات الست بوصات تهدر مصمة تخطف الابصار ... ولكن حشدا جديدا من النساء تراكض من العنابر ، وتصايح :

– لا تطلقوا ، يا بانى * ، لا تطلقوا من فضلكم ، نتضرع اليكم الا تصرعوا التعساء .

واحاط بالمدافع من كل جانب .

امسكت البولونيات غريبات الشكل باسياخ التسليك ، وعجلات المدافع ، واخذن بالايدى ، وتعلقن ثقيلات بالمدفعيين المصعوقين بهدير المدافع ، وتشبثن بلحاهم ، وسحبنهم الى الارض ... وكان تحت بلوزة كل واحد منهن قميصا عسكريا ، وتحت كل تنورة بنطلونا عسكريا ...

وصرخ شخص :

– يا اصحاب ، هؤلاء تشيكيون !

فعاجلته طلقة مسدس حطمت راسه ... اخذ البعض المقاومة ، ولاذ البعض الآخر بالفرار ... اما التشيكيون فكانوا قد خلعوا المغاليق من المدافع ، وتراجعوا مطلقين النار . ثم غابوا فى الفواصل بين العنابر وكأن الارض ابتلعتهم .

اعطبت البطارية . وسكتت الرشاشات . واستمر التشيكيون فى الهجوم محتلين ضواحى سامارا فيما وراء النهر ووصلوا الى الفولغا .

فى صباح اليوم التالى انقشعت السحب ، وانعكست الشمس الجافة على نوافذ بيت دميترى ستيبانوفيتش غير المغسولة . كان

---

* «بانى» جمع «بان» وهي تعنى السيد بالبلونية .ـ المترجم .

الدكتور جالسا الى الطاولة فى هندام انيق ، وعيناه غائرتان ، لأنه لم ينم الليلة . كان مغسل الاوانى والصينية وصحون الفناجين مملوءة باعقاب السكائر . كان بين الفينة والاخرى يتناول بمشط مكسور ، ويمشط به خصلات شعره الجعداء الشائبة الى جبينه . كان يتوقع فى كل لحظة ان يدعى لاداء واجباته الوزارية . لقد تبين انه كان طموحا .

كان الجرحى يمرون بنوافذ بيته فى شارع دفوريانسكايا وكأنهم يسيرون فى مدينة شبه ميتة . وكان بعضهم يجلس على الارصفة بمحاذاة الجدران ، ويلفون جراحهم بخرق مدماة على نحو ما . وكانوا يرفعون ابصارهم الى النوافذ الفارغة ، ولكن لا يجدون احدا يطلبون منه ماء او خبزا .

كانت الشمس تسخن الشارع الذى لم ترطبه عاصفة المطر ليلا . وكانت اصوات المعركة تترامى قادمة من وراء النهر . انطلقت سيارة مالئة شارع دفوريانسكايا بسحب الغبار الكلسى ، وتراءى وجه المفوض العسكرى الملتوى ذو الفم الاسود . انحدرت السيارة فى الشارع عبر الجسر الخشبى ، حتى نسفت بقذيفة مدفع بكل ركابها ، كما ذكر فيما بعد . توقف الزمن . وبدت المعركة بلا نهاية . وخمدت المدينة فلم تعد تتنفس . وارتدت نساء المجتمع اثوابهن البيضاء واستلقين واضعات الوسائد على رؤوسهن . وتناولت لجنة الجمعية التاسيسية شايها الصباحى الذى اعدته صاحبة الطاحونة . وبدت وجوه الوزراء فى السرداب شاحبة شحوب الموت . واصوات المعركة ما تزال تترامى من وراء النهر ...

عند الظهر تقدم دميترى ستيبانوفيتش من النافذة ونخر وفتحها ، حيث لم يعد قادرا على الجلوس فى دخان التبغ الازرق . كان الشارع قد خلا من اى جريح . والكثير من النوافذ قد فتح فتحات صغيرة ، فلاحت عين تتلصص من وراء ستارة هنا ، وتراءى وجه منفعل هنا وهناك . واطلت رؤوس من مداخل البيوت ، واختفت . كان يبدو وكأن البلاشفة لم يعودوا فى الوجود ... ولكن ما هذه الطلقات المتتابعة من وراء النهر ؟ .. آه ، ما اتعب الوضع ! ..

وفجأة – كمعجزة – ظهر من وراء المنعطف ضابط طويل

الساقين في سترة عسكرية ناصعة كالثلج مرتفعة عند الخصر ، وتوقف برهة ، وسار في وسط الشارع . كان سيفه يضرب في جانب حذائه . وكانت كتافيتاه المذهبتان تتالقان مثل شمس الظهيرة ، مثل نعمة من العهد القديم .

ورفّ في قلب دميتري ستيبانوفيتش شيء منسي ، وكأنما تذكر شيئا ، وحنق على شيء . أطل برأسه من النافذة بحيوية مبهمة ، وصاح على الضابط :

– عاشت الجمعية التاسيسية !

القى الملازم نظرة غامزة على وجه الطبيب الممتلىء ، واجاب على نحو غامض :

– سنرى ...

واطل الناس من جميع النوافذ ، ونادوا ، وتساءلوا :

– يا حضرة الضابط ... كيف الحال ؟ استولينا ؟ رحل البلاشفة ؟

ارتدى دميتري ستيبانوفيتش قبعة بيضاء لها حافة ناتئة ، وتناول عصاه ، ونظر الى نفسه في المرآة ، وخرج . كان الناس يملؤون الشوارع ، وكأنهم خارجون من كنيسة . وفي الواقع رن جرس كنيسة رنينا رقيقا . تزاحم الجمهور الصاخب ببهجة على المفرق . امسكت بكم دميتري ستيبانوفيتش احدى زبائنه ، وهي سيدة لها ثلاثة ذقون . كانت رائحة التفتاليين تفوح من الزهور الاصطناعية على قبعتها الضخمة ، وقالت :

– دكتور ، انظر انهما تشيكيان !

كان تشيكيان يقفان على ملتقى الشوارع محاطين بالنساء ، وبندقيتاهما مائلتان الى الارض ، احدهما ازرق الوجه من الحلاقة ، والآخر ذو شاربين اسودين ضخمين . كانا يبتسمان بعصبية ، ويلقيان نظرات سريعة على السطوح والنوافذ والوجوه .

كانت قبعتاهما الانيقتان ، والسترتان العسكريتان بازرارهما الجلدية ، والعلامتان المشدودتان على ذراعيهما اليسراوين ، والحقيبتان وامشاط الرصاص المتينة ، ووجهاهما الناعمان عن تصميم ، كل ذلك يبعث الانشراح والدهشة المقرونة بالاحترام . فكان هذين قدما الى شارع دفوريانسكايا من عالم آخر .

صاح بعض الموظفين من وسط الزحام :

– مرحى ! عاش التشيكيون ! لنرفعهم على ايدينا ! هيا !

اراد دميتري ستيبانوفيتش ان يقدم التحية اللائقة ، وقد انحشر منضغطا ونخر من انفه ، الا ان الانفعال جفف حنجرته ، فاسرع الى الشقة السرية ، حيث كانت تنتظره التزامات رفيعة .

كان السرداب عند صاحبة الطاحونة فارغا ، لا شيء غير بقايا رائحة التبغ المحترق ، ونفاضات مملوءة باعقاب السكائر ، وفي طرف المنضدة كان رجل اشقر ينام ورأسه ملقى على اوراق رسمت عليها وجوه كبيرة الانوف . مسّ دميتري ستيبانوفيتش كتفه . تنفس الاشقر نفسا عميقا ، ورفع وجهه الملتحي بعينيه الزرقاوين الفاتحتين المتقلبتين بعد النوم .

– ما الخبر ؟

سال دميتري ستيبانوفيتش بحدة :

– اين الحكومة ؟ الذي يتكلم معك نائب وزير الصحة .

– آه ، الدكتور بولافين . اوه ، اللعنة . كنت ... ما هي الحال في المدينة ؟

– لم يتم تطهير كل شيء . ولكن هذه هي النهاية . الدوريات التشيكية في شارع دفوريانسكايا .

كشف الاشقر عن اسنانه فاتحا فمه ، وقهقه .

– لطيف ! .. يا للشيطان ... مهارة ! اذن فالحكومة ستجتمع هنا تمام الساعة الثالثة . اذا سار كل شيء على ما يرام سننتقل في المساء الى مكان افضل ..

وهلّ على دميتري ستيبانوفيتش حدس مخيف فقال :

– اعذرني ... هل انا اتحدث مع عضو في اللجنة المركزية للحزب ؟! هل انت افكسينتيف ؟

اجاب الاشقر بايماءة غير محدودة ، وكأنه يقول : «ما العمل ...» دق جرس التلفون . تناول السماعة من على المنضدة .

– اذهب ، يا دكتور . ان مكانك الآن في الشارع ... تذكر اننا يجب الا نسمح بالمتطرفين ... انت ممثل المثقفين البرجوازيين . فحاول ان تهدئ من ثائرتهم . .. والا فانت تعرف – وغمز له – ستحدث منغصات في المستقبل ...

خرج الدكتور . كانت المدينة كلها الآن قد خرجت الى الشوارع . كان الناس يتبادلون التحيات ، وكانهم فى عيد الفصح . وكانوا يتبادلون التهانىء ، ويتناقلون الاخبار . . .

– البلاشفة يندفعون الى ساماركا بالآلاف . يحاولون العبور الى هذه الضفة . . .

– ولكن يقتلونهم . . .

– وغرق منهم الكثير الكثير . . .

– صحيح تماما . الفولغا كلها فى اسفل المدينة مغطاة بالجثث . . .

– اذن فشكرا للخالق على ذلك . . . انا لا اعتبر ذلك خطيئة . . .

– حقا موت الكلاب للكلاب . . .

– يا سادة ، هل سمعتم ؟ قذفوا القندلفت من على برج الجرس . . .

–مَنْ ؟ البلاشفة ؟

– حتى لا يدق الجرس . . هذا ما يسمى صفق الباب وراءك . . . يمكن ان افهم لو كان آخر غير القندلفت .

– الى اين ، يا اب ؟

– الى الاسفل . اريد ان اعاين الهُرى . هل هو سالم .

– هل فقدت عقلك ؟ ما زال البلاشفة على ارصفة النهر .

– دميترى ستيبانوفيتش ، جاء اليوم السعيد ! . . لماذا اراك مشغول الفكر ؟

– اختارونى نائب وزير . . .

– تهانىّ ، يا صاحب المعالى . . .

– لم يحن الوقت بعد للتهنئة . . . لم نستول على موسكو بعد . . .

– آه ، يا دكتور ، على الاقل ان نتنفس هواء نقيا . . وسنقول شكرا على ذلك . . .

كانت الكتافيات المذهبة تطوف فى الحشد هنا وهناك متباهية . كانت رمزا لكل ما هو قديم ومريح ومأمون . مرت جماعة من الضباط بخطى حازمة يصاحبها صبيان متاكفون . ضحكت نساء

انيقات . انعطف الجمهور من شارع سادوفايا الى شارع دفوريانسكايا مارا بفيلا لكورلينا ذات الأبهة السخيفة ، المرصوفة بالبلاط الاخضر . اندفع رجل فى الحشد . . .

– ما هذا ؟ ماذا حصل ؟

– يا حضرة الضابط ، فى هذا الفناء بلشفيان يختفيان وراء الخشب . . .

– هكذا . . . يا سادة ، يا سادة ، تحركوا . . .

– الى اين هرب اولئك الضباط ؟

– يا سادة ، يا سادة ، لا حاجة الى اى فزع . . .

– وجدوا اعضاء فى اللجنة الاستثنائية !

– دميترى ستيبانوفيتش ، لنبتعد احتياطا ، والا . . .

صدرت طلقات . ماج الحشد . وتراكض الناس فاقدين قبعاتهم . ووجد دميترى ستيبانوفيتش نفسه فى شارع دفوريانسكايا مرة اخرى لاهثا . وشعر بالمسؤولية ازاء كل ما يحدث . بلغ الساحة وقلص عينيه ناظرا الى المسلة التى تغطى نصب الكسندر الثانى . مد ذراعه ، وقال بلهجة غاضبة وبصوت عال :

– البلاشفة مستعدون لتحطيم كل ما هو روسى . وهم يريدون ان ينسى الشعب الروسى تاريخه . هنا ينتصب تمثال لقيصر محرر لا يؤذى احدا . ارفعوا عنه هذه الالواح السخيفة ، وهذه الخرق الكريهة .

كان هذا اول خطاب له فى الشعب . وفى الحال صاح شبان فى قبعات لها حواف ناتئة – تدل هيئتهم على انهم باعة فى حوانيت :

– اكسروها !

ارتفعت قرقعة الالواح ، وهى تخلع عن التمثال . واصل دميترى ستيبانوفيتش سيره . قلّ الجمهور . كانت الطلقات تتردد هنا من وراء النهر باصوات اعلى . جاء رجل عار الا من سروال داخلى مبلل يركض من الجهة المضادة للجهة التى كان يتقدم منها دميترى ستيبانوفيتش . كان شعره الداكن يتهدل على عينيه ، وصدره العريض موشوما . تصايحت بعض النسوة ، وابتعدن عنه متراكضات الى البوابات . استدار الرجل فجاة ، وانطلق هابطا

المنحدر الى الفولغا . ركض وراءه ثلاثـــة آخرون ، ثم آخرون ، وآخرون مبللين نصف عراة لاهثين . . . وارتفعت اصوات فى الشارع :

– بلاشفة ! اقتلوهم !

كان الجميع كالشناقيب التى افزعتها الطلقات ينعطفون نحو المنحدر ، الى الارصفـــة . قلق دميترى ستيبانوفيتش ، وركض ايضا ، وامسك برجل سقيم ذى انف معقوف ، وبلا رموش .

– انا وزير فى الحكومة الجديدة . . . يجب ان توضع رشاشة هنا فى الحال ! اذهب ، واجلبها ، انا آمرك . . .

– لا افهم الكلام الروسى .

اجاب الرجل السقيم ممتعضا مديرا لسانه بصعوبة . . . دفعه الطبيب . . . يجب الاسراع بالفعل . . . ذهب بنفســـه ليبحث عن تشيكيين عندهم رشاشة . . . واذا به يرى بلشفيا آخر عند المدخل الحديدى ، حيث كانت تتعلق نجمة حمراء نصف مخلوعـــة . كان الرجل مسوّد البشرة من تلويح الشمس ، حليق الراس ذا لحية تترية . كان القميص العسكرى الذى يرتديه ممزقا ، وقد سال الدم من بقعة صغيرة على كتفه . هز رأسه كالكلب مبديا اسنانا صغيرة مقرقشا ، وقد لاح عليه الرعب من الموت .

هاجمه حشد من الناس . وتفوهت النساء خاصة بكلمات مبهمة . ولوّح الكثيرون بالمظلات والعصى والقبضات المضغوطة . . . واحتد جنرال متقاعد واقف على درجات مدخل بيت ورفع صوته فوق جميع الاصوات ملوحا على البلشفى بذراعيه الليلقيتين . وقد تحدرت طاقيته الضخمة على صلعتيه الجانبيتين ، وتأرجح الوسام تحت رقبته الرخوة .

– احزم ، يا سادة . . . انه مفوض . . . بلا رحمة . . . ان ابنى هو الآخر احمر . . . محنة عظيمة . . . ارجو ، يا سادة ، ان تجدوا ابنى وتجلبوه لى . . . سأقتله هنا ، امام الجميع . اقتل ابنى . . . يجب الا تكون ثمة رحمة فى هذا الخصوص ايضا . . .

فكر دميترى ستيبانوفيتش قلقا : «التدخل لا فائدة منه فى هذه الحال» وتلفت مبتعدا . . . هدأت الصيحات . . . وفى المكان الذى كان يقف فيه المفوض الجريح قبل حين كانت المظلات والعصى تلوح فى الهواء . . . عمّ السكون تماما ، ولم تسمع الا الضربات .

نظر الجنرال المتقاعد من على مدخل البيت الى الاسفل ملوّحـــا بذراعيه بوهن كقائد فرقة موسيقية ، وقد نزلت قبعته على انفه .

لحق بدميترى ستيبانوفيتش كاتب العدل ميشين . كان فى سترة قذرة مزررة حتى عنقه ، ووجهه منتفخ ، ونظارته الانفية قد فقدت احدى عدستيها .

– قتلوه . . . انهالوا عليه بالمظلات . . . انه فظيع مثل هذا الحكم الكيفى للغوغاء . . . آه ، يا دكتور ، ويقولون ان اشياء فظيعة تحدث على شاطئ ساماركا . . .

– لنذهب الى هناك فى هذه الحال . . . انت تعرف اننى فى الحكومة . . .

– اعرف ، انا مسرور . . .

وباسم الحكومة اوقف دميترى ستيبانوفيتش جماعة من ستة ضباط ، وطالبهم بمصاحبته الى شاطئ النهر ، حيث كانت تجرى تجاوزات غير مرغوب فيهـــا . الآن كانت الدوريات التشيكية تقف فى كل مكان عند مفارق الشوارع . كانت النساء الانيقات يزيننهـــم بالزهور ، ويعلمنهم النطق بالروسية متضاحكات ضحكا رنانا محاولات ان يعجب الاجانب بالنساء والبلدة وبروسيـــا كلها التى اذاقت التشيكيين العلقم فى سنوات الأسر .

على شاطئ ساماركا القذر قضى متطوعون من الاهالى على فلول الحمر الفارين من ضواحى سامارا . وصل دميترى ستيبانوفيتش الى هناك متاخرا كثيرا . استطاع الحمر الذين وفقوا فى عبور الجسر الخشبى ، وعبروا النهر سباحـــة بخط مائل ان يركبوا الصنادل والسفن ، ويرحلوا الى اعلى الفولغا . كانت بعض الجثث مطروحة على الشاطئ فى الموج المتكاسل ، ومئات اخرى قد جرفتها الفولغا .

كان غفيادين يجلس على زورق مقلوب عفن ، وقد شد على كمه شريطا ثلاثى الالوان . وشعره الكتانى مبلل من العرق . كانت عيناه البيضاوان تماما تنظران ببؤبؤيهما الصغيرين الى النهر المشمس . تقدم دميترى ستيبانوفيتش منه ، وهتف بحدة :

– ايها السيد معاون رئيس الميليشيا ، بلغنى ان تجاوزات غير مرغوب فيها تحدث هنا .. والحكومة تامر بان . . .

لم يتم الدكتور كلامـــه اذ وقع بصره على هراوة من البلوط

فى يدى غفيادين التصق بها دم وخصل من الشعر . همس غفيادين بصوت مكتوم . يكاد يسمع :

– هذا آخر يعوم . . .

ونزل من الزورق بتراخ ، وتقدم من الماء ، ونظر الى راس حليق يعوم ببطء وانحراف عن التيار . تقدم خمسة او ستة من الشبان من غفيادين ومعهم العصى . عندئذ عاد دميترى ستيبانوفيتش الى ضباطه الذين كانوا يشربون الكفاس * الباقارى من بائع نشط فى مئزر نظيف لا احد يعرف اية حماسة جعلته يخرج بعربته . خطب الدكتور بالضباط يحثهم على وضع حد للقسوة الزائدة . واشار الى غفيادين والى الرأس العائم . حرك ضابط الفرسان الطويل الساقين ذو القميص الناصع الذى رأيناه قبل حين ، حرك شاربيه الابيضين من زبد الكفاس ، ورفع بندقيته ، واطلق الرصاص . فغاص الرأس تحت الماء .

عندئذ شعر دميترى ستيبانوفيتش بانه فعل كل ما يتعلق به ، فاستدار عائدا الى المدينة . كان عليه الا يتاخر على اجتماع الحكومة الاول . صعد فى التل لاهثا مثيرا الغبار بحذائه . كان نبضه لا يقل عن مائة وعشرين . لقد تكشفت امام بصره آفاق تدير الرأس : الزحف على موسكو ، الرنين الرقيق لكنائسها التى لا تحصى ، بل والله يعلم ربما كرسى الرئاسة . . . فان الثورة أمر لا يُحزر ، واذا تدهورت متراجعة فان كل هؤلاء الاشتراكيين-الثوريين والاشتراكيين-الديموقراطيين سيجدون انفسهم صرعى تحت عجلاتها فى لمحة البصر . . . لا ، لا ، لنوقف اعمال اليساريين المتطرفين .

٧

جلست يكاترينا دميتريفنا فى غرفة الجلوس الواطئة وراء شجيرة الدُريقة ، عصرت المنديل المبلل بالدمع ، وراحت تكتب رسالة الى اختها داشا .

---

* مشروب مصنوع من الخبز الاسود . – **المترجم** .

كان المطر يصفع النافذة المحببة ، والاقاصيا تتمايل فى الفناء بشدة . وكان ورق الجدران المحلول يهتز فى الريح الذى كانت تسوق السحب من بحر آزوف .

كتبت كاتيا :

«داشا ، يا داشا . قنوطى لا حدود له . فاديم قتِل . وقد ابلغنى بذلك صاحب البيت الذى اعيش فيه ، المقدم تيتكين . لم اصدق ، وسألته ممن عرف ذلك . فاعطانى عنوان فاليريان اونولى احد رجال كورنيلوف الذى جاء من الجبهة . فى الليل هرعت الى فندقه . يبدو انه كان سكران ، فقد جرنى الى غرفته ، واخذ يعرض على ان اشرب النبيذ . . . كان ذلك فظيعا . . . انت لا تستطيعين ان تتصورى اى اناس هنا . . . سألته : «هل زوجى قتل ؟ . .» كان اونولى من الفوج الذى خدم فيه فاديم ورفيقه ، وقد اشترك معه فى معارك . . . وكان يراه كل يوم . . . اجابنى باستهزاء : «نعم قتِل ، فاهدئى ، يا فتاة . فقد رأيت بنفسى كيف كان الذباب يأكله . . .» ثم قال : «كان روتشين تحت الشبهة عندنا ، ومن حسن حظه انه قتل فى معركة . . .» ولم يذكر اليوم الذى حصل فيه الحادث ، ولا المكان الذى قتل فاديم فيه . . . توسلت ، وبكيت . . . صرخ بى : «لا اذكر كل الاماكن التى قتل فيها قتيل ومتى» . وعرض علىّ نفسه كبديل . . . آه ، داشا ! اى اناس هؤلاء ! . . هربت من الفندق مذهوبة العقل . . .

انا لا استطيع ان اصدق ان فاديم لم يعد فى الوجود . . . ولكن لا يجوز الا اصدق به . فلماذا يكذب هذا الرجل ؟ والمقدم ايضا يقول هذا ما حصل ، كما يبدو . . . لم اتلق من فاديم طوال وجوده فى الجبهة غير رسالة واحدة قصيرة تبدو وكأنما كتبها شخص آخر غيره . . . وقد جاءتنى فى الاسبوع الثانى بعد عيد الفصح . . . رسالة بلا خطاب . . . وهذه هى كلمة بكلمة : «ارسل لك نقودا . . . انا لا استطيع ان أراك . . . اتذكر كلماتك عند الفراق . . . انا لا اعرف هل يمكن ان يكف الانسان عن ان يكون قاتلا . . . انا لا ادرى كيف اصبحت قاتلا . . . وانا احاول الا افكر ، ولكن يبدو اننى سأضطر الى ان افكر وان افعل شيئا . . . وحين يزول ذلك – اذا كان ذلك ممكنا – عندئذ سنتقابل . . .»

وهذا كل شيء ، يا داشا ، وكم ذرفت من دموع . لقد رحل عنى ليموت . . . باى شيء كنت استطيع ان اوقفه ، اعيده ، انقذه ؟ ماذا فى وسعى ان افعل ؟ ان اضمه فى قلبى بكل قوتى . . . هذا فقط . . . ولكنه لم يعد يلاحظنى فى المدة الاخيرة . كانت الثورة تحدق فى وجهه بكل عيونها . آه ، انا لا افهم شيئا . هل ينبغى علينا جميعا ان نعيش ؟ لقد تهدم كل شيء . . . نحن ، كالطيور فى العاصفة ، ننطلق فى ارجاء روسيا . . . لماذا ؟ لو ان كل الدم المراق ، كل العذابات والآلام تعيد لنا البيت ، وغرفة الطعام النظيفة ، والاصحاب الذين يلعبون الورق . . . فهل سنعود سعداء من جديد ؟ ان الماضى مات ، مات الى الابد ، يا داشا . . . وانتهت الحياة ، فليأت آخرون اقوياء وافضل . . .»

وضعت كاتيا القلم ، ومسحت عينيها بمنديل مدعوك . ثم نظرت الى المطر النازل على زجاجات النافذة الاربع . كانت الاقاصيا تنحنى وتتمايل فى الفناء بشدة ، وكان الريح الغاضبة تنفش شعرها . وعادت كاتيا تكتب :

«رحل فاديم الى الجبهة . وحل الربيع . كان هدف حياتى كلها انتظارا لفاديم . ما احزن ذلك ، وما كان اقله ضرورة لاى انسان . . . اتذكر كيف نظرت من خلال الشباك قبيل المساء . وقد تفتحت الاقاصيا ، وتفتقت البراعم الكبيرة . واضطرب سرب من العصافير . . . واحسست بالكدر والوحشة . . . انا غريبة ، غريبة على هذه الارض . . . انتهت الحرب ، وستنتهى الثورة . وستتغير روسيا . نقاتل ، ونُهْلَك ، ونتعذب . اما الشجرة فتتفتح كما تفتحت فى الربيع الماضى ، الذى سبقه ، وما قبله وقبله . وهذه الشجرة والعصافير – والطبيعة كلها – قد ابتعدت عنى الى مدى كبير ، وهى تعيش هناك حياتها غير المفهومة لى . . .

داشا ، لماذا عذاباتنا كلها ؟ لا يمكن ان تكون عبثا . . . نحن ، النساء ، انا وانت ، نعرف عالمنا الصغير . . . ولكن كل ما يحدث حولنا – كل روسيا – اى موقد ملتهب هو ! لا بد ان تخلق هناك سعادة جديدة . . . واذا كان الناس لا يؤمنون بذلك ، فليس من المعقول ان يصير احدهم يبغض الآخر ويقتل احدهم

11*

الاخر بهذا الشكل . . . لقد فقدت كل شيء . . . ولست بحاجة الى نفسى . . . ولكننى اعيش لأنه من العار ، ليس من الخوف ، بل من العار ان اضع رأسى تحت عجلات قطار . . . او ان اتعلق من حبل على خشبة .

غدا سأغادر روستوف كى انسى كل شيء . . واسافر الى يكاترينوسلاف . . . فهناك عندى معارف . وهم ينصحوننى بان اعمل فى محل حلويات . وربما ستأتين انت ايضا الى الجنوب ، يا داشا . . . يقولون ان الحال عندكم فى بتروغراد سيئة جدا . . .

هذا هو الفرق : ان المرأة لن تهجر حبيبها ولو فى نهاية العالم . . . بينما رحل فاديم . . . لقد احبنى طالما كان واثقا من نفسه . . . انت تذكرين اى شمس كانت تضيئ سعادتنا فى بطرسبورغ فى حزيران . . . لن انسى ما حييتُ شمسَ الشمال الشاحبة . . . لم تبق لى من فاديم صورة فوتوغرافية ، ولا شيء آخر . . . كأن كل شيء كان حلما . . . لا استطيع ، يا داشا ، لا استطيع ان اصدق بأنه قُتِل . . اظن اننى سافقد عقلى . . . لقد عشت حياتى عيشة حزينة ، وبلا جدوى . . .»

ولم تستطع كاتيا ان تستمر فى الكتابة اكثر . . . كان المنديل قد تبلل كله . . . ومع ذلك فقد كان يجب ان تنقل الى اختها كل ما هو مألوف واعتيادى مما يقدره الناس اكثر من غيره فى الرسائل . . . وقد كتبت تحت ضجيج المطر هذه الكلمات دون ان تضع فيها فكرة او شعورا . . . عن ثمن المواد الغذائية ، وعن غلاء المعيشة . . . «لا توجد اية اقمشة ، ولا خيط . . . والابرة بألف وخمسمائة روبل او بخنوصين حيين . . . جارتى فى البيت ، فتاة فى السابعة عشرة عادت ليلا عارية مضروبة ، فقد جردوها من ملابسها فى الشارع . والشيء الرئيسى انهم يقتنصون الاحذية اقتناصا . . .» وكتبت عن الالمان انهم يعزفون فى حديقة البلدية موسيقى عسكرية ، وهم يأمرون بكنس الشوارع . اما الحبوب والسمنة والبيض فيحملونها بالقطارات الى المانيا . . . وعامة الناس والعمال يكرهونهم ، ولكنهم يلزمون الصمت ، لانهم لا يتوقعون معونة من احد .

وكل ذلك اخبرها به المقدم تيتكين . «انه طيب جدا ولكن

اطعام فم زائد كان يرهقه على ما يبدو . وزوجته لم تعد تخجل من ان تذكر ذلك» . وكتبت كاتيا ايضا : «يوم امس الاول اكملت ٢٧ عاما من عمرى ، ولكن شكلى .. اوه ، دعك عن هذا ... انه غير مهم الآن ... ليس لى احد يهتم بشكلى ...»

وتناولت المنديل مرة اخرى .

سلمت كاتيا هذه الرسالة الى تيتكين . فوعد بان يرسلها الى بتروغراد فى اقرب فرصة . ولكنها ظلت فى جيبه مدة طويلة بعد رحيل كاتيا . كان الاتصال بالشمال صعبا جدا . ولم يكن البريد يعمل . وكانت الرسائل ترسل بايدى رُسُل خاصين من المجازفين ، وكانوا يتقاضون عليها نقودا كثيرة .

باعت كاتيا ، قبيل رحيلها ، كل الاشياء القليلة التى حملتها من سامارا . لم تُبق الا شيئا واحدا هو الخاتم الزمردى الذى كان قد أُهدى لها فى عيد ميلادها . وكان ذلك منذ زمن بعيد قبل الحرب ، فى صباح ربيعى فى بطرسبورغ . وقد صار ذلك ذكرى بعيدة حتى ان كاتيا لم تحس بارتباط مع تلك المدينة الضبابية التى انقضى فيها صباها ... خرجت داشا والمرحوم نيقولاى ايفانوفيتش وكاتيا الى جادة نيفسكى . . . واختاروا خاتما فيه فص من الزمرد . فوضعت القبس الأخضر فى اصبعها ، ولم يبق الا هو من الحياة الماضية . . .

غادرت عدة قطارات محطة روستوف تباعا . دُفعت كاتيا وحُشرت فى عربة من الدرجة الثالثة . فجلست عند النافذة ، ووضعت على ركبتيها صرة من الثياب الداخلية المرقعة . ومرت بها المروج المغمورة بالماء ، ومستنقعات الدون ، والادخنة فى الافق ، والمعالم الضبابية لباتايسك التى لم يقهرها الالمان . وتحت الضفة العالية قرى الصيادين الغاطسة فى الماء الى النصف ، وبيوت طينية وبساتين وزوارق مقلوبة ، واولاد يحملون عُدَد صيد . ثم انبسط بحر آزوف كغطاء حليبى ، وفى البعيد بعض القوارب الشراعية المائلة . ثم المداخن المنطفئة لمصانع تاغانروغ ، وسهوب ورواب ومناجم مهملة وقرى كبيرة على منحدرات تلال

طباشيرية ، وبواشق فى السماء الزرقاء . وصفير القطار موحش كهذه الرحاب . وفلاحون جهمون فى المحطات . وخوذ الالمان الحديدية . . .

نظرت كاتيا من نافذة القطار منحنية الظهر كالعجوز . لعل وجهها كان حزينا وحلوا حتى ان الجندى الالمانى الذى كان يجلس قبالتها حدق طويلا فى هذه المرأة الروسية الغريبة . وكان الحزن ايضا يبدو على وجهه النحيل المتعب فى نظارة اطارها من النيكل .

قال لها بالالمانية بصوت خفيض :

– الجناة يلقون القصاص على كل شىء ، يا سيدة . سيحين الوقت . سيكون ذلك عندنا فى المانيا ، وفى العالم اجمع : المحكمة الكبرى . . . سوسياليزموس سيكون اسمها . . .

لم تفطن كاتيا فى الحال الى انه يخاطبها بالذات . رفعت بصرها الى النظارة الصافية الكبيرة النيكلية الاطار . احنى الالمانى راسه لها بمودة :

– السيدة تتكلم بالالمانية ؟

– نعم .

– حين يتعذب الانسان كثيرا يجد السلوى فى معقولية اسباب عذابه . – قال الالمانى وقد وضع رجليه تحت المقعد ، وانزل جبهته بحيث ان عينيه صارتا تنظران الى كاتيا من فوق النظارة . – لقد درست كثيرا تاريخ الانسانية . اننا بعد فترة طويلة من الهدوء نعود مرة اخرى لندخل فى عهد الكوارث . هذا هو استنتاجى . نحن نشهد بداية انهيار حضارة عظيمة . وقد مرّ العالم الآرى بمثل ذلك ذات مرة . كان ذلك فى القرن الرابع ، حين خرب البرابرة روما . والكثيرون مستعدون لايجاد اوجه تشابه مع عصرنا هذا . ولكن هذا لا شىء . فروما قد حطمتها افكار المسيحية . ولم يعمل البرابرة اكثر من ان مزقوا جثة روما . اما الحضارة الحديثة فان الاشتراكية ستعيد تنظيمها . فى المثل السابق كان هناك هدم ، اما هنا فانشاء . كانت اكثر افكار المسيحية تحطيما هى المساواة ، والاممية ، والتفوق الخلقى للفقراء على الاغنياء . وكانت هذه افكار البرابرة الذين كانوا يغذون روما الطفيلية الفظيعة الغارقة فى الترف . وبسبب ذلك كان

الرومان يخافون المسيحيين ذلك الخوف الشديد ويلاحقونهم بتلك القسوة . ولكن المسيحية لم تكن لها فكرة انشائية ، ولم تنظم العمل . واكتفت على الارض بالتهديم فقط ، اما سائر الاشياء فقد وعدت بها فى السماء . المسيحية لم تكن الا سيفا للتحطيم والعقاب . وحتى فى السماء وفى الحياة المثلى لم يكن فى وسعها ان تعد الا نظام الامبراطورية الرومانية الطبقى البيروقراطى ذا المقامات المقلوب راسا على عقب . وكانت هذه اخطاءها الرئيسية . وبمقابل ذلك وضعت روما فكرة النظام . ولكن انعدام النظام فى ذلك الحين – الفوضى الشاملة – كان هو الحلم الامثل للبرابرة الذين كانوا يتحينون ساعة اقتحام اسوار روما . وقد حانت تلك الساعة . وتحولت المدن الى خرائب داخنة . وتناثرت الجثث فى الطرقات مطعونة بالسنان مسحوقة بعجلات البرابرة . ولم يكن ثمة خلاص لان اوربا وآسيا الصغرى وافريقيا كانت تحترق من ادناها الى اقصاها . وحام الرومان كالطيور فوق حريق العالم . فقتلهم البرابرة ، وفتكت بهم الوحوش فى الغاب ، وهلكوا فى الصحارى من الجوع والحر والقر . قرأت قصة لاحد المعاصرين تحكى كيف ان «بروبا» زوجة حاكم روما هربت فى قارب ليلا مع ابنتيها من روما التى اجتاحها الالمان الاريخ . ورأت الرومانيات ، وهن يعمن فى نهر التيبر اللهب الذى كان يلتهم المدينة الخالدة . وكان ذلك نهاية العالم . . .

فك الالمانى صرة متاعه ، واخرج من قعرها دفتر مذكرات سميك ذا غلاف جلدى متهرئ ، واستغرق فى تورقيه بعض الوقت مبتسما ابتسامة متحفظة . وقال وقد انتقل الى مقعد كاتيا :

– هذا لتتصورى على نحو افضل كيف كانت حالة الرومان قبيل هلاكهم . استمعى الى فقرة من اميانوس مارسيلنوس . هذا وصفه لأسياد الكون :

«الاثواب الطويلة من الارجوان والحرير ترفرف فى الريح ، وتتيح النظر من تحتها الى القميص الغالى المطرز برسوم الحيوانات المختلفة . وعرباتهم المغلقة المرفقة بخمسين من الخدم تهز الارصفة والبيوت وهى تنطلق فى الشارع بسرعة فائقة . واذا ما دخل احدهم الحمامات المتصلة عادة بحوانيت ومطاعم واماكن للنزهة فانه يطلب بلهجة آمرة ان تخصص كل ادوات الاستعمال العام لاستخدامه وحده .

ويخرج من الحمامات لابسا خواتم وحلى مع الاحجار الكريمة ، ورافلا بروب ثمين يكفى قماشه لاكساء اثنى عشر رجلا . ثم تاتى الثياب الخارجية التى ترضى غروره . وعلاوة على ذلك لا ينسى ان يتخذ مظهر العظمة التى لا تُغتفر حتى لمارسيلوس العظيم غازى سيراقوسة . واحيانا كان هو ايضا يقوم برحلات جريئة ومعه حاشية ضخمة من الخدم والطهاة والمشايعين والخصيان المشوهين الى ضياعه الايطالية ، حيث يمارس صيد الطيور والارانب الداجنة . واذا ما صادف لا سيما فى ظهيرة قائظة ان واتته الشجاعة ليعبر بحيرة لوكرين بمركبه المذهب قاصدا دارته البحرية فانه فيما بعد يقارن هذه الرحلة بحملات قيصر واسكندر الاكبر . واذا نفذت ذبابة الى ما وراء الستارة الحريرية لسطح مركبه ، او سقطت اشعة الشمس من خلال الثنيات فانه يندب حظه العاثر متأسفا على انه لم يلد فى البلدان الكيميرية ، حيث يخيم الظلام الابدى . وضيوف الاعيان المفضلون هم الطفيليون والمتزلفون الذين يهللون لكل كلمة للسيد . انهم يتطلعون بغبطة الى اعمدة الحجرات المرمرية والى الارضية الفسيفسائية . وعلى المائدة طيور واسماك غير اعتيادية فى حجومها تثير دهشة الجميع حتى يجلب ميزان للتاكد من جسامة هذه الماكولات ، وفى الوقت الذى يشيح فيه الضيوف الرزينون بوجوههم من هذا المنظر يطلب الطفيليون كاتب عدل ليكتب وثيقة فى صحة هذه الاعاجيب . . .» .

قال الالمانى وهو يصفق دفتر مذكراته :

– نعم ، sic transit* . ان هؤلاء الناس راحوا يجوبون الطرقات والمدن المخربة بحثا عن الطعام . واستمرت موجات البرابرة تاتى من الشرق ساحقة ناهبة . وبعد حوالى خمسين سنة لم يبق للامبراطورية الرومانية أثر . ونما العشب فى مكان روما العظيمة وراحت الاغنام ترعى بين القصور المهجورة . وخيم ليل على اوربا قرابة سبعة قرون .

وقد حدث ذلك لأن المسيحية استطاعت ان تدمر ، ولكنها لم تكن لديها فكرة عن تنظيم العمل . والوصايا المسيحية لا تتحدث عن

* هكذا ينقضى . . . (مجد العالم) .

العمل . ان قوانينها الخلقية لا تطبق على من يزرع ويحصد ، بل على من يزرع لهم العبيد ويحصدون . واصبحت المسيحية دين الاباطرة والغزاة . وبقى العمل غير منظم ، وخارج الاخلاق . والبرابرة الجدد هم الذين يجلبون دين العمل الى العالم ، اولئك هم الذين يحطمون روما الثانية . هل قرات شبينغلر ؟ انه رومانى من راسه حتى اخمص قدمه ، وهو على صواب فى شىء واحد فقط ، وهو ان الشمس تغرب من اوربا له . ولكنه تشرق علينـــا . انه لا يستطيـــع ان يجلب البروليتاريا العالمية الى قبره . ان البجع يصرخ قبيل الموت . وعلى هذا النحو ، اجبرت البرجوازية شبينغلر على ان يصرخ كالبجعة ... انه آخر ورقـة رابحـة لديها . لقد تعفنت اسنان المسيحيـة . اما اسناننـا فهى من حديد . ونحن نعارضهـا بالتنظيـم الاشتراكى للعمل ... انهم يجبروننا على محاربـة البلاشفـة ... اهوه !.. أتحسبين اننا لا نفهم من يدفع يدنـا ، وضد مـَن ؟ اننا نفهم اكثر بكثير مما يبدو فى الظاهر ... من قبل كنا نحتقر الروس . اما الآن فقد بدأنا نعجب بالروس ونحترمهم ...

مر القطار بقريـة كبيرة يصفر صفيرا ممطوطا . تراءت بيوت متينة ذات سقوف مغطاة بالحديد ، واكداس قش طويلة ، وحدائق مسيجة ، ولافتات حوانيت . سارت عربة صغيرة على درب مترب الى جانب القطار يسوقها فلاح يرتدى قميصا عسكريا بلا حزام وقبعة من فروة . خروف وقف الفلاح فارجا ساقيه على العربة بعجلات حديدية لافا طرفى الزمام . جرى الحصان الممتلىء الضخم محاولا ان يسبق القطار . التفت الفلاح نحو نوافذ العربة ، وهتف بشىء كاشفـا عن اسنان بيض . قال الالمانى:

— هذه غولاى-بوله . قرية غنية جدا .

اضطرت كاتيـا ان تنتقل من قطار الى آخـر عدة مرات ، اذ اخطات فلم تاخذ القطارالمباشر . وقد صرفها عن افكارها المرهقة الضوضاء والانتظار فى المحطات ، والوجوه الجديدة ، ورحاب السهوب التى لم تكن قد راتها من قبل منداحة خارج نافذة العربـة . وكان الالمانى قد نزل منذ وقت طويل ، وقد هزّ يدها بقوة عند الوداع . لقد كان هذا الرجل شديد الوثوق فى حتمية الاحداث الراهنة ، كما حدد بدقة ، على ما يبدو ، نصيبه فى الاشتراك فيهـا . وقد ادهش

كاتيا تفاؤله الرصين واقلقها . فان كل ما كان الجميع يعتبرونه هلاكا وقطاعة وفوضى كان بالنسبة له بداية متوقعة طويلا لعهد عظيم .

كانت كاتيا طوال هذا العام لا تسمـع غير صريف الاسنان العاجز ، وتنهدات اليأس الشديد ، ولا ترى – مثل ذلك الصباح من آذار فى بيت ابيها – غير وجوه متلويـة ، وقبضات مشدودة . صحيح ان المقدم تيتكين لم يكن يتنهد ولم يصرف باسنانه ، الا انه ، على حد تعبيره ، «مغتبط» وكان يرحب بالثورة انطلاقا من ايمانـه «المغتبط» بالعدالة .

كان جميع الناس فى الوسط الذى عاشت فيه كاتيا يرون فى الثورة هلاكا نهائيا لروسيا وللثقافة الروسية ، وهزيمة للحيـاة كلها ، وفتنة عالميـة ، وسفر الرؤيا الموعودة . لقد كانت هناك امبراطورية ، وكان جهازها يعمل بشكل مفهوم واضح . كان الفلاح يحرث ، وعامل المنجـم يقلع الفحـم ، والمعامل تصنـع البضائع الرخيصـة والجيدة ، والتجار يبيعون بنشاط ، والموظفون يعملون كالساعة . والناس الذين فى الاعلى كانوا يتنعمون بنعم الحياة . وكان يقال ان مثل هذا النظام غير عادل . ولكن ما العمل . والله قد قضى بذلك . وفجاة يتحول كل شىء الى حطام ، وتتحول الامبراطورية الى خلية نمل مهاجة ... وسار رجل وعربد مترنحا وعيناه مبيضتان من الفزع ...

توقف القطار طويلا فى سكون عند محطة صغيرة . اخرجت كاتيا راسها من القطار . كانت اوراق شجرة عالية تحف حفيفـا هادئا فى الظلام . وكانت السماء المنجمة تبدو لا نهائية فوق هذه الارض التى يلفها الغموض .

وضعت كاتيا مرفقيها على اطار النافذة المفتوحة . ذكرهـــا حفيف الاوراق والنجوم ورائحة الارض الدافئة باحدى الليالى ... كان ذلـك فى منتزه قـرب بـاريس ... وكان بعض الاشخـاص وجميعهـم بطرسبورغيون تعرفهـم جيدا قد جـاءوا الى هنـاك فى سيارتين ... وكان الجو رائقا جدا فى التعريشة فوق البركة التى تناولوا عشـاءهم فيها حيث كانت اشجار الصفصاف الباكى يبدو كالغمائم الفضية فوق الماء .

كان بين الذين كانوا يتناولون العشـاء رجل المانى عاش فى

وقت ما فى روسيا لا تعرفه كاتيا . وكان يجيد التحدث بالفرنسية . وكان يرتدى بدلة المساء وبلا قبعة . كان نحيلا ذا وجه عصبى مستطيل ذى جبين عريض مشى فيه الصلع ، وعينين جديتين لهما جفنان ثقيلان . وكان يجلس هادئا واضعا اصابعه الطويلة على اسفل قدح النبيذ . كانت كاتيا حين تعجب بشخص يشيع فى داخلها دفء وحنان . وكان الليل التموزى يبدو وكانه يمس كتفيها نصف العاريتين . وكانت النجوم تتراءى من خلال اوراق الكرمة المتسلقة التعريشة ، والشموع تلقى ضوءا دافئا على وجوه الاصدقاء والفراشات الليلية على مفرش المائدة وعلى وجه الغريب الغارق فى افكاره . واحست كاتيا بانه مستغرق فى افكاره وهو ينظر اليها . لعلها كانت حلوة جدا فى ذلك المساء .

وحين نهضوا من وراء المائدة ، وساروا فى الدرب القاتم المعرش باشجار طويلة متجهين الى نهاية المنتزه ، الى السطيحة ليطلوا منها على اضواء باريس سار الالمانى الى جانبها وقال بصوت صارم مؤكدا انه لا يريد ان يعطى لكلامه معنيين :

— الا تعتبرين الجمال ، ايتها السيدة ، غير جائز وغير مسموح به ؟

كانت كاتيا تسير ببطء . ما اعذب ان يكون هذا الرجل قد بدأ حديثا معها ، وان صوته لم يكن يغطى على حفيف اوراق الاشجار القاتمة . كان الالمانى ينظر الى الامام ، وهو يسير الى يسارها مرسلا بصره الى اعماق الدرب . حيث كان يلوح وهج المدينة الليلقى . وتابع الرجل قوله :

— انا مهندس . وابى ثرى جدا . وانا اشتغل فى مشاريع كبيرة ، اتعامل مع مئات الالوف من الناس . وارى واعرف الكثير مما تجهلينه . اعذرينى ، هل حديثى مضجر لك ؟

ادارت كاتيا رأسها نحوه ، وابتسمت صامتة ، وعلى انعكاس الوهج البعيد لمح الالمانى ابتسامة فى عينيها فتابع قوله :

— نحن ، لسوء الحظ ، نعيش على ملتقى قرنين . احدهما ، العظيم والبهى ، يزول . والثانى يولد فى ضجيج الآلات ، والشوارع المعملية الصارمة المظهر والرتيبة . واسمى هذا القرن بقرن الجماهير ، الجماهير الانسانية ، حيث تتحطم جميع الفوارق . ان

الانسان ليس الا يدين ماهرتين توجهان الآلات . هنا قوانين اخرى ، وحساب جديد للزمن ، وحقيقة اخرى . وانت ، يا سيدة ، الاخيرة من العصر القديم . ولهذا السبب يعتورنى الحزن وانا انظر الى وجهك . والعصر الجديد ليس بحاجة الى وجهك مثل اى شىء لا فائدة منه ، ولا نظير له ، قادر على اثارة المشاعر التى تضمحل : الحب ، والتضحية بالذات ، والشعر ، ودموع السعادة .. جمال ! .. لأى شىء ؟ انه شىء مقلق ... شىء غير مسموح به ... وانا اؤكد لك ان الناس فى المستقبل سيشرعون القوانين ضد الجمال ... هل صادف وان سمعت عن العمل على خط الانتاج المتحرك ؟ هو آخر ابتكار امريكى . يجب ادخال فلسفة العمل على الخطوط المتحركة الى الجماهير ... يجب ان تبدو السرقة والقتل اقل اجراما من ثانية من الارتباك عند خط الانتاج ... والآن تصورى ان الجمال يدخل فى قاعات الورش الحديدية ، ما يقلق ... فماذا يحصل ؟ تشربك الحركات ، ارتعاش العضلات ، وتأخر الايدى لثوان ، تخلخل ... ومن ثوانى الخطأ تتكون ساعات ، ومن الساعات كوارث ... ومصنعى يصير ينتج منتجات اقل جودة من المصنع المجاور ... ويفشل المشروع ... ويفلس بنك فى مكان ما ... وتستجيب البورصة بهبوط حاد ... ويطلق شخص الرصاص على قلبه ... وكل ذلك لأن امرأة رائعة الجمال بشكل اجرامى سارت فى الورشة تحف بفستانها .

ضحكت كاتيا . لم تكن تعرف شيئا عن خط الانتاج . ولم تزر مصنعا قط ، ولم تر غير المداخن المسخمة التى تفسد المنظر الطبيعى ... وقد احبت كثيرا جمهور الناس — الحشد — فى البولفارات الكبيرة ولم تتخيل شرا فيه . وكان اثنان من معارفها على مائدة العشاء عند البركة من الاشتراكيين-الديموقراطيين . يعنى ان ضميرها مرتاح . اما كلام محدثها الذى يسير بطيئا مرفوع الراس فى عتمة الدرب الدافئة فقد كان طريفا وجديدا ، مثل اللوحات التكعيبية مثلا ، تلك التى كانت معلقة فى غرفة الطعام عندها ... ولكن الفلسفة لم تكن تعنيها فى ذلك المساء ...

قالت كاتيا :

— اظن ان شيئا فظيعا قد لحق بك من النساء الجميلات لكى تضمر لهن الكراهية الى هذا الحد .

وضحكت ضحكا خافتا ثانية مفكرة بشىء آخر غير محدد كهذا الليل ، فيه رائحة زهور واوراق واشعة نجوم فى الفرجات بين رؤوس الاشجار - انه الحب الذى كان يدير الراس دورانا حلوا . ليس حبا لهذا الرجل الطويل ، او ربما حبا له . فانه يثير فيها الرغبة . والشىء الذى بدا الى وقت قريب صعبا بل لا أمل فيه ، قد اقترب بسهولة ، واستولى عليها بسهولة . . .

ليس من المعروف ما كان يمكن ان يحدث لها فى تلك الايام فى باريس . . . الا ان كل شىء قد تقطع فجاة . . . زارت مدافع الحرب العالمية . ولم تلتق كاتيا بالالمانى بعد ذلك اللقاء . . . فهل كان يعرف بدنو الحرب ام حدس ذلك ؟ واثناء الحديث اللاحق عند الحاجز الحجرى ، حيث كانا يمتعان المنظر بانوار باريس المتناثرة فى الأفق القاتم والمتالقة كالالماس ، كان الالمانى يبدا عدة مرات كلامه عن حتمية الكارثة بيأس حاد . وكانما قد تملكته فكرة لا فرار منها فى ان كل شىء لا جدوى منه سواء أكان فتنة الليل او سحر كاتيا .

ولم تذكر ما قالت له ، فعلى الاغلب انه كان هراء . ولكن ذلك لم يكن مهما . وقف مرتفقا على الحاجز يكاد يمس بخده كتف كاتيا . وكانت كاتيا تعرف ان هواء الليل قد امتزج برائحة عطرها ورائحة كتفيها وشعرها . . . ولو انه وضع يده الكبيرة على ظهرها لما دفعتها عنها ، ام هذا ما يخيل اليها الآن . . . لا ، ان ذلك لم يحدث . . .

خفق الهواء فى خدها ، وعبث فى شعرها . وانقذفت شرارات من القاطرة . وسار القطار فى السهب . ادارت كاتيا عينيها عن النافذة بنظرة غير مرئية ، وانحشرت فى زاوية تختها ، وشدت اصابعها الباردة .

واحست بتانيب الضمير . ما هذا ؟ لم يمض على معرفتها بمصرع فاديم اسبوع ، وها هى تقع فى اسوأ من الخيانة . . . حلمت برجل لم يكن حبيبها . . . ان ذلك الالمانى قد قُتل بالطبع . كان ضابط احتياط . قُتل ، قُتل . . . كلهم ماتوا ، كل شىء هلك ، ودمر ، وتلاشى كتلك الليلة على السطيحة فى المنتزه ، فوق البركة ، اختفى بلا عودة .

زمت كاتيا شفتيها حتى لا تئن ، واغمضت عينيها . ونفذت الى صدرها لوعة حادة . . . كان فى العربة القذرة المضاءة

بشمعة شاحبة الضوء غير كثير من الناس . وكانت ظلال سوداء ساهرة تتقلب عاكسة يدا مرفوعة او لحية شعثاء او قدمين حافيتين متدليتين من التخت الاعلى . لم ينم احد رغم ان الساعة متاخرة . وكان الركاب يتحدثون باصوات خفيضة .

- اقول لك ان هذه المنطقة اسوأ المناطق . . .

- وماذا ؟ هل من المعقول أنْ لا أمن هنا ايضا ؟

- انا اعتذر ، ما هذا الذى تقوله ؟ هنا ايضا ينهبون . هذا غريب . فماذا يفعل الالمان ؟ انهم ملزمون على حراسة المسافرين . . . ما داموا قد احتلوا البلاد وجب عليهم المحافظة على النظام .

- اعذرونى ، يا سادة ، على التعبير الخشن ، ولكن الالمان يبصقون علينا . . . انهم لا يريدون ان يتدخلوا فى شؤوننا ويريدون ان ندير شؤوننا بانفسنا . . . نعم ، ان اللصوصية والنهب فى خلقنا . . . اناس اوغاد . . .

رد على ذلك صوت واثق :

- يجب ان يشطب على كل الادب الروسى ويحرق فى العالم باسره . . . ان الكتاب قد صوروا الناس بصورة جميلة . . . ربما لا يوجد رجل نزيه فى كل روسيا . . . اتذكر اننى كنت فى فنلنده ، وتركت نعالى فى الفندق . . . فارسلوه الىّ مع رجل على فرس ، بينما النعال مثقوبة . . . هذا شعب نزيه . ما اشد تنكيلهم بالشيوعيين ، وبالروس بشكل عام . فى مدينة «آبو» بعد قمع الانتفاضة احرق الفنلنديون وعذبوا رئيس الحرس الاحمر هناك . وكان يسمع صراخ هذا البلشفى الفنلندى حتى من وراء النهر .

- آوه ، يا آلهى ، حتى يكون عندنا نظام ما . . .

- اعذرونى . كنت فى كييف . . . مخازن فاخرة ، وموسيقى فى المقاهى . . . والسيدات يخرجن علنا وهن يتحلين بالالماس . حياة دافقة . . . ومصالح شراء الذهب وغيره تعمل جيدا جدا . . . وتزدهر حياة الشارع . . . مدينة رائعة . . .

- قطعة قماش للبنطلون تساوى رواتب نصف عام . المضاربون اطبقوا على خناقنا . . . جميعهم ذوو جباه عالية ، وجميعهم فى بدل زرقاء من الجوخ . . . يجلسون فى المقاهى يتاجرون بالفاتورات . . . خرجت فى الصباح فلم اجد فى المدينة علبة كبريت .

وبعد اسبوع صارت العلبة بروبل . او خذوا الابر مثلا . اهدوا لزوجتى فى عيد ميلادها ابرتين وبكرة خيوط . وفى الماضى كنت اهدى اقراط الماسية . . . والمثقفون يهلكون ، يشرفون على الموت . . .

– يجب ان يُرمى المضاربون بالرصاص بدون شفقة . . .

– ايها السيد الرفيق ليس عندنا بلشفية . . .

– ما هى اخبار كييف ؟ هل حكم الهيتمان قوى ؟

– ما دام الالمان يسندونه . يقولون طلع مدع آخر باوكرانيا هو فاسيلى فيشيفانى . انه امير من هابسبورغ ، ولكنه يلبس الملابس الاوكرانية .

– يا مواطنون حان وقت النوم ، حبذا لو اطفأتم الشمعة .

– كيف نطفىء الشمعة ؟ اننا فى عربة قطار . . .

– بهذا الشكل آمن . . . كل النوافذ تُرى من الخارج ، تتراءى .

صمت ركاب العربة فجأة . وتناهت ضربات العجلات على السكة بوضوح اشد . وتطاير الشرر من القاطرة فى ظلام السهب . ثم بح صوت بحنق شديد :

– من قال : «اطفئوا الشمعة» ؟ (صار الصمت منحوسا .) اذن «اطفئوا الشمعة» ، بينما هو يمد يده الى الحقائب . دلونى على القائل ، وسالقيه من العربة .

اخذ احدهم يصرف باسنانه بضجر . وقال صوت يثير الهلع :

– عندما كنت مسافرا فى الاسبوع الماضى سرقوا من امراة صرتين بالخطاف . . .

– كانوا من جماعة ماخنو بالتاكيد .

– جماعة ماخنو لا يلوثون ايديهم بصرتين فقط . يمكن ان يسرقوا قطارا بكامله . هذا ما يفعلونه .

– يا سادة ، لا يجوز ذكرهم فى الليل . . .

جرت احاديث احدها افظع من الآخر . . . وذكرت حكايات تبث القشعريرة فى الجلد . وظهر ان الاماكن التى كان يسير القطار فيها الآن غير متعجل اشد أوكار قطاع الطرق خطرا ، يتحاشاها حتى الالمان وحتى الحراس نزلوا فى المحطة السابقة . . . وفى القرى يتبختر الفلاحون بمعاطف السمور ، والفتيات بالحرير والمخمل .

اللعنة ! لا يمضى يوم دون ان يحدث حادث : إما انهم يطلقون النار على قطار من رشاشة ، او يفكون العربات الاخيرة ، ويسرحونها ، او يفتح الباب فجأة والقطار يسير فى كامل سرعته ، ويدخل رجال ملتحون يحملون الفؤوس والبنادق المقطوعة المواسير قائلين : ارفعوا ايديكم ! ويتركون الروس كما ولدتهم امهاتهم . اما اذا وقع يهودى فى اليد . . .

– يهودى ؟ ما علاقة اليهودى هنا ؟ لماذا اليهودى مذنب فى كل شىء ؟ . .

زعق رجل حليق فى بدلة زرقاء من الجوخ ، هو نفس الرجل الذى اعلن اعجابه بكييف .

ومن هذا الزعيق تكثف الرعب كليا . هدات الاصوات . واغمضت كاتيا عينيها من جديد ، لا شىء يسرق منها الا الخاتم الزمردى . الا ان رعبا مرهقا قد استولى عليها ايضا . ولكى تتخلص من اضطراب القلب المزعج حاولت ان تتذكر ثانية سحر تلك الليلة التى لم تتم . ولكنها لم تسمع غير قرقعة عجلات القطار فى الخواء الليلى . . . كاتيا ، كاتيا . . . انتهى ، انتهى كل شىء . . .

. . . توقفت العربة بحدة ، وكانها وقعت فى زقاق مسدود . وزعقت الفرامل زعيقا حديديا ، وصلصلت السلاسل ، ورن الزجاج ، وسقطت بعض الحقائب من التخت الاعلى . واغرب ما فى الأمر ان احدا لم تبدر منه حتى انة . قفز الركاب من اماكنهم وحدقوا ، وتسمعوا . وكان واضحا بدون كلام ان مأزقا قد وقع .

صدرت فى الظلام طلقات بنادق . وتحرك الرجل الحليق ذو بدلة الجوخ فى العربة وغاب واختفى . ووراء النافذة تراكض الناس عند السدة تماما . ترامت اصوات طلقات والتمعت نارها فى العيون ، وضربت قعقعتها فى الآذان . . . وصاح صوت رهيب : «لا تطلوا من النوافذ !» وانفجرت قنبلة يدوية . وارتجت العربة . وراحت اسنان الركاب ترتعد ارتعادا شديدا ، وصعد اشخاص الى فسحة العربة . وضربوا الباب باخامص البنادق . ودخل زهاء عشرة رجال متدافعين يلبسون قبعات فراء الاغنام ملوحين بالقنابل اليدوية وبنادقهم يضرب بعضها ببعض . وكانت الانفاس تتردد مسموعة فى الصدور .

– اجمع الاشياء ، واخرج الى الحقل .

– تحرك انشط ، والا . . .

– ميشكا ، فجّر البرجوازيين بقنبلتك اليدوية . . .

تحرك المسافرون . اندفع شاب اشقر ذو وجه شاحب خبيث الى الامام بكل جرمـــه ، ورفع قنبلة يدوية ، وجمد لحظة وذراعه مرفوعة . . .

ترددت اصوات : نخرج ، نخرج ، نخرج .

وخرج المسافرون من العربة ولم يعودوا يحتجون ولا ينطقون بكلمة واحدة . كان بعضهم يحمل حقيبة ، وبعضهـم لم يحمل غير مخدة او سخان شاى . . . بل وابتسم احدهم ، وهو رجل ذو نظارة انفية ، ولحية صغيرة مائلة الى جانب ، شاقا طريقـــه بين قطاع الطرق .

كان الليل طريـــا ، والنجوم تنداح فوق السهب مثل غطاء فاخر . جلست كاتيا ، ومعهـا صرتها ، على كومـــة من العوارض الخشبية المتهرئة . ما داموا لـم يقتلوا راسا ، فانهم لن يقتلوا الآن . واحست بوهن شديد ، وكانها قد افاقت من غيبوبة لتوها . وفكرت : «وهل هناك فرق فى ان اجلس هنا على العوارض او اجوب يكاترينوسلاف وليس معى قطعة خبز . . .» وكانت تحس ببرد فى كتفيهـــا . تثاءبت . فى العربة سحب فلاحون اشداء الحقائب من الرفوف ، وقذفوها من النوافذ . حاول ذو النظارة الانفية ان يصعد المنحدر متجها الى العربة .

– يا سادة ، يا سادة ، عندى اجهزة فيزياوية هناك ، بحق الرب على مهل ، فانها سريعة الكسر .

اسكته بعضهم ، وامسكوا مشمعه من الخلف ، ودفعوه الى حشد الركاب . وفى تلك اللحظة انطلقت من الظلام كوكبة من الخيالة فى قعقعة وكبكبة . اندفع امامهـم على بعد امتار رجل قوى بشكل مذهل فى قبعـة عالية متواثبا على سرجـه . تراجـع المسافرون . توقفت الكوكبة عند العربة وافرادهـا يرفعون ايديهـم بالبنادق والسيوف . صاح الرجل القوى ذو القبعـة العالية بصوت رنان :

– بلا خسائر ، يا فتيان ؟

ردت اصوات :

– لا ، لا . . . نحن نفرغ الحمولة . . . ارسل لنا العربات .

استدار الرجل القوى ذو القبعة العالية بحصانه ، ودخل حشد المسافرين ، وأمر متلاعبا بحصانــه حتى ان الزبد تطاير من بوز الحصان فى عيون المسافرين المبحلقة رعبا :

– اخرجوا هوياتكـــم . لا تخافوا . انتم تحت حماية جيش الاتمان ماخنو الشعبى . نحن لا نرمى غير الضباط والجندرمة–ورفع صوته مهدد– والمضاربين باقوات الشعب .

ومرة اخرى تقدم الرجل ذو المشمع ، وعدل نظارته الانفية .

– اعذرنى . يمكننى ان اقدم لك كلمة شرف على انه لا يوجد بيننا الاصناف التى ذكرتها من الناس . . . لا يوجد غير اناس بسطاء مسالمين . . . اسمى اوبروتشيف معلم فيزياء . . .

قال الرجل القوى ذو القبعة بلهجة تعنيف :

– معلم ، معلم . وتتعامل مع مختلف الاوغاد . تنح جانبا . يا فتيان ، لا تمسوه ، انه معلم .

جلبت الشمعة من العربة . وبدأ التدقيق فى الهويات . حقا لم يكن فى الجمع ضابط ولا جندرمة . كان الرجل الحليق ذو بدلة الجوخ يتحرك مشغولا اقرب الناس الى الشمعة . . . ولكنه لم يكن الآن فى بدلة الجوخ ، بل فى سترة فلاحية مهلهلة ، وقبعة جندى ذات حافة ناتئة . ولم يكن مفهوما اين حصل على كل ذلك . لعلـه وضعها فى حقيبته . كان يربت على اكتاف اللصوص بمودة .

– انا مغنٍ . سعيد جدا بالتعرف عليكم ، ايها الاصدقاء . الفنانون يجب ان يعرفوا الحياة ، وانا فنان . . .

وسعل منظفا حنجرته حتى قال له احدهم بغموض :

– سيعرفون اى فنان انت ، فلا تفرح قبل الاوان . . .

جاءت العربات على عجلات مغلفة بالحديد . القى الماخنوويون فيها الحقائب والسلال والصرر ، وصعدوا على الامتعـــة ، وصفر السواقون على الطريقـة السهبية ، وانطلقت خيول «الترويكـــا» الشبعى ، واختفى طابور العربات فى السهب فى صفير وقرقعة .

انطلقت كوكبة الخيالة ايضا . وكان بعض الماخنوويين يسير حول العربة . عندئذ اختار المسافرون وفدا بطريقة رفـع الايدى البسيطة ليطلبوا اذنا من اللصوص بمواصلة السفر . تقدم الشاب الاشقر محملا بالقنابل . كانت خصلة الشعر البارزة من حافة قبعته

تغطى على عينه . بينمـــا كانت العين الاخرى الزرقاء تنظر بصفاء ووقاحة .

سأل وهو يتمعن فى كل موفد من راسه الى اخمص قدمـــه :

– مـــا هذا ؟ الى اين تسافرون ؟ وفى اى واسطة ؟ آه ، يـــا حمقى . . . سائق القطار قد نزل من القاطرة هاربا فى السهب وهو الآن على بعد عشرة فراسخ . وانا لا استطيـــع ان اترككـــم فى الليل هنا ، فمـــا اكثر المتسكعين هنـــا فى السهب . . . ايهـــا المواطنون ، اسمعوا امرى . . . (ونزل من منحدر السدة ، وعدل من حزامه الثقيل . وهبط نحوه الآخرون ، ملقين بنادقهـــم وراء ظهورهم) ايها المواطنون ، اصطفوا اربعة اربعة . . . واذهبوا مع حاجياتكم فى السهب . . .

ولما مر بكاتيا انحنى نحوها ومس كتفها قائلا :

– يا فتاة . . . لا تحزنى ، لن نسيىٔ اليك . . . خذى صرتك وسيرى الى جانبى خارج الصف .

سارت كاتيا فى السهب المنبسط ، وصرتها فى يدها ، وقـــد انزلت منديلهـــا حتى حاجبيهـــا . كان الشاب الاشقر يسير الى يسارهـــا ناظرا من خلال كتفـــه الى جمع الاسرى السائرين فى جمع حزين صامت . كان يصفر صفيرا خافتـــا من بين اسنانه . سأل كاتيا :

– من انت ؟ ومن اين ؟

لم تجب كاتيا ، وادارت وجهها . الآن لم تعد تشعر برعب ولا اضطراب ، بل بلا اكتراث فقط . بدا كل شىء لها وكانه سنـــة من نوم . اعاد الشاب سؤاله من جديد .

– اذن ، فانت لا تريدين ان تحطى من نفســـك بالتحدث مع قاطع طريق . مؤسف جدا ، يا سيدة . يجب ان تنزلى من غرورك الارستقراطى . ولى ذلك العهد . . .

التفت ونزع فجاة بندقيته من كتفه ، وصاح بخبث على شخص غير واضح كان يسير منزويا عن الاسرى :

– هاى ، يا وغد ، تتاخر . . . سارميك !

اندفع الشخص داخل الجمع بسرعة . فضحك الشاب راضيا .

– والى اين سيهرب هذا الاحمق ؟ يبدو انه يريد ان يقضى حاجـــة . هكذا اذن ، ايتها السيدة . . . لا تريدين ان تتكلمى ، وتصمتين ، شىء افظع . . . لا تخافى . لست سكران . عندما اسكر اصمت ويسوء سلوكى . . . لنتعارف–ورفع اصبعين الى حافة طاقيته محييا – انا ميشكـــا سولومين . الهارب من الجيش الأحمر . . . وبالاحرى قاطع طريق بطبيعته ، اذا اردت الحقيقة . رجل فاسد . لم تخطئى فى وصفى . . .

سالت كاتيا :

– الى اين ذاهبون ؟

– الى مقر الفوج فى القرية . نتحقق منكـــم ، ونستجوب . البعض سيرمى ، والآخر سيطلق سراحه . وانت ، كامراة شابـــة ، لا حاجة الى ان تخافى من شىء . . . وفضلا عن ذلك ، فانا معك .

– ارى انك اكثر ما يجب ان اخافه .

قالت كاتيا ، والقت نظرة جانبية خاطفة على الشاب . ولم تتوقع ان تلذعه هذه الكلمات على هذا النحو . فقد توتر ، وتنهد تنهدات حادة من منخريه ، وتعبس وجهه الطويل الشاحب فى ضوء النجوم . وهمس «كلبة» . وسارا صامتين . لف ميشكا لفافة اثناء سيره ، وراح يدخن .

– انا اعرف من انت ، ولو كنت ستتنكرين . انت من فئة الضباط .

قالت كاتيا :

– نعم .

– زوجك فى عصابات البيض ، بالطبع .

– نعم . . . زوجى قُتِل . . .

– لا استطيع ان اضمن لك انه لم يضرع برصاصتى . . .

وابدى اسنانه – القت كاتيا نظرة سريعة عليه ، وتعثرت . اسندها ميشكا من مرفقها . فكت ذراعها من قبضته ، وهـــزت رأسها .

– انا من جبهة القفقاس . ولم يمض علىّ هنا غير اربعـــة اسابيـــع ، طوال الوقت كنت احارب عصابات البيض . وكـــم من

رصاصة نفذت من هذه البندقية فى عظامهم الزرقاء .

هزت كاتيا راسها مرة اخرى . سار الشاب بعض الوقت صامتا ، ثم راح يضحك وقال :

– ثم وقعنا فى مازق حرج عند محطة اومانسكايا . وتمزق فوجنا ، فوج فارنافسكى . قتل مفوض الفوج سوكولوفسكى . ومضى آمر الفوج سابوجكوف مع حفنة من المحاربين قدما ، وجميعهم جرحى جراحا عديدة ... ونفذت انا خلال الجبهة الالمانية الى الاتمان . هنا الجو امرح . لا احد يقف فوقى . جيش شعبى . نحن انصار ، يا سيدة ، ولسنا قطاع طرق . نحن نختار آمرينا بانفسنا ... ونتخلص منهم بانفسنا : نمسك بالمسدس ونضرب ... شخص واحد فوقنا هو الاتمان ... اتظنين اننا نهبنا القطار لنصرف ما كسبناه على الخمرة ؟ لا ، ابدا . كل المغانم الى مقر الفوج . وهناك يجرى التوزيع . قسم الى الفلاحين ، وقسم الى الجيش . والقطار هو قاعدة تموينا . نحن جيش شعبى ، يعنى ان الشعب نفسه فى حالة حرب مع الالمان . تلك هى المسالة . نحن نفتك بملاكى الاراضى . ومن الخير للجندرمة وضباط الهيتمان الا يقعوا فى قبضتنا ، نقضى عليهم بالسلاح البارد . اننا ندفع فصائل النمساويين والالمان الصغيرة نحو يكاترينوسلاف . ها هو جوهر لصوصيتنا .

كانت النجوم فى السهب تبدو بلا نهاية . وفى الطرف الذى كانوا يتجهون اليه من الافق بدات السماء تخضوضر قليلا . كانت كاتيا تتعثر اكثر فاكثر ، وتمسك انفاسها . اما ميشكا فكان لا يضايقه شىء ، يستطيع ان يقطع الف فرسخ على هذا المنوال ، والبندقية على كتفه . كانت كاتيا تهتم الآن فى شىء واحد : الا تبدى ضعفا ، والا تدع هذا المتباهى المتبجح يشفق عليها ...

– كلكم على حد السواء !

وتوقفت ، وعدّلت من وضع منديلها لتلتقط انفاسها ، وسارت من جديد على الافسنتين وجحور الصوالق :

– نحن ، النساء نلد ابناءنا ليقتلوهم لا يحق لاحد ان يقتل ، وهذا كل ما فى الأمر .

قال ميشكا دون ان يفكر لحظة واحدة :

– سمعنا هذه الاغنية . اغنية النساء القديمة . ومفوضنا يشرح المسالة كالآتى : «انظروا الى الامر من وجهة النظر الطبقية ...» عندما تصوب البندقية فانك لن تتصور ان امامك انسانا بل ظاهرة طبقية . مفهوم ؟ لا مجال للشفقة هنا ، ان ذلك عداء للثورة محض . وهناك مسالة اخرى ، ايتها العزيزة ...

وتغير صوته فجاة بشكل غريب . صار خافتا وكانه يستمع الى كلماته :

– لن اقضى العمر كله اسير فى الجبهات ببندقيتى . يقولون ان ميشكا ، رجل ضائع ، سكير . ستنتهى به الحال الى حفرة . صحيح ، ولكن ليس تماما ... لست مستعجلا على الموت . بل لا ارغب فى ذلك البتة ... لم تصنع ، بعدُ ، الرصاصة التى ستقتلنى .

وازاح خصلة الشعر من على جبينه .

– ما هو الانسان الآن ؟ معطف عسكرى وبندقية ؟ لا ، ليس كذلك ... ما اكثر ما اود ان اريده فى هذه الدنيا ! ولكننى لا اعرف بنفسى ما اريد ... وافكر : كومة من الفلوس ؟ لا . ان الانسان فى داخلى يتعذب ... ولا سيما فى وقت كهذا – ثورة ، وحرب اهلية . اننى ابرى رجلىّ ، وانا اتعذب من البرد ، ومن الجراح فى سبيل طبقتى وعن وعى ... فى آذار كان علىّ ان استلقى نصف نهار فى حفرة ثلج تحت نيران رشاشة اثناء نوبة الخفارة . الا يعنى ذلك اننى بطل ازاء الجبهة ؟ ومن انا ، بينى وبين نفسى ؟ مشبع بالكحول ، وحانق على نفسى والسكين اخرجه من وراء حذائى ...

وانتصب ميشكا مرة اخرى مستنشقا هواء الليل الطرى . وبدا وجهه حزينا ورقيقا تقريبا . حشر يديه عميقا فى جيبى معطفه ، وصار لا يتحدث الى كاتيا ، بل وكانما الى ظل يسرى امامه :

– تعليم ... اعرف وقد سمعت به ... انا رجل متوحش ... اولادى سيكونون متعلمين . اما انا الآن فى حالتى الراهنة وبخلقى وعاداتى فانا شرير ... فى ذلك موتى ... عن

المثقفين تكتب الروايات . ما اكثر الكلمات الطريفة . ولكن لماذا لا يكتبون رواية عنى ؟ أتظنين ان المثقفين وحدهم يخرجون عن اطوارهم ؟ انا فى النوم اسمع صياحا . . . فاستيقظ ، مستعدا لأن اقتل مرة ثانية . . .

طلع من الظلام فرسان صارخين من بعيد : «قف ، قف . . .» نزع ميشكا بندقيته . «قف ، يا ابن ! . . لا تعرف جماعتك !» ترك ميشكا كاتيا ، وسار نحو الفرسان ، وتشاوروا هناك طويلا .

وقف الاسرى ، وتهامسوا هالعين . جلست كاتيا على الارض . وانزلت رأسها على ركبتيها . ومن الشرق ، حيث كان الفجر يخضوضر بوضوح اشد انبعثت رطوبة ودخان روث محترق ، ورائحة قرية .

بدات نجوم ذلك الليل الذى لا ينقضى تشحب وتغور . ومرة اخرى كان على كاتيا ان تنهض وتسير . وبعد قليل اخذت الكلاب تنبح ، وظهرت اكداس القش وشواديف الآبار ، وسقوف البيوت . ولاح الاوز النائم فى المرج كقطع من الثلج . وانعكس الفجر الوردى على سطح بحيرة . اقبل ميشا عبوسا :

— لا تذهبى مع الآخرين ، سانزلك فى بيت على حدة .

قالت كاتيا «حسنا» وكأنما تسمعه من بعيد . ولم يكن يهمها اين تذهب . فقط ان تتمدد ، وتنام . . .

رأت من خلال جفنيها المسبلين زهور عباد شمس كبيرة ، ووراءها صفاقات خضر رسمت عليها زهور وطيور . نقر ميشكا باظافره على زجاج النافذة الصغيرة المحبب . وفتح الباب ببطء فى جدار البيت الابيض ، واطل راس فلاح اشعث . ارتفع شارباه الى فوق ، وتثاءب فمه مبديا اسنانا كبيرة . وقال : «حسنا ، ادخل . . .»

دخلت كاتيا البيت وهى تترنح . وكان الذباب يطن فيه مذعورا . اخرج الفلاح فروة خروف ومخدة من وراء حاجز وقال «نامى» ، ومضى . وجدت كاتيا نفسها على السرير وراء الحاجز .

خيل اليها ان ميشكا انحنى عليها ، وعدّل من وضع المخدة تحت رأسها . كان استغراقها فى الغيبوبة لذيذا جدا . . .

. . . قرقعة العجلات . ظلت تقرقع وتدمدم . سارت عربات خيول عديدة . والشمس انعكست خلفها على نوافذ بيوت شامخة . سطوح قرميدية نصف دائرية . باريس . مرت عربات فيها نساء انيقات . الجميع يصرخ بشىء ما ، ويتقلب ، ويومىء . . . النساء يلوحن بمظلات مدنتلة . . . وتصبح العربات اكثر فاكثر . يا آلهى ! هذه مطاردة . . . فى البولفارات فى باريس ! هذه هى . ظلال هائلة على خيول شعثاء فى الفجر المخضوضر . لا تستطيع ان تتحرك او تهرب ! كركبة حوافر ! صيحات ! وضيق نفس ! . .

. . . جلست كاتيا على السرير . هدرت عجلات وصهلت خيول وراء النافذة . ومن خلال باب الحاجز غير المحجوب بستارة رات الناس يدخلون ويخرجون مدججين بالاسلحة ، وسمعت طنين اصوات فى البيت ودمدمة احذية . وعند المنضدة تزاحم كثيرون يتفحصون شيئا عليها . ونُطِقت كلمات قوية . وكان النهار قد طلع ، ونفذت بعض الاشعة الداخنة من خلال النوافذ الصغيرة الى دخان التبغ الازرق الكثيف فى البيت .

ولم يلتفت احد الى كاتيا . عدلت ثوبها وشعرها ولكنها بقيت جالسة فى السرير . الظاهر ان قوات جديدة دخلت القرية . وكان واضحا من الدوى المقلق للمتزاحمين فى البيت انهم يعدون لشىء جدى . صاح صوت حاد متأتىء فى نبرة نسائية وبلهجة آمرة :

— ليأخذه الشيطان ! استدعوا هذا الوغد !

وترامت اصوات وهتافات من البيت الى الفناء والشارع ، حيث كانت تقف عربات بخيولها الثلاثية ، وخيول مسروجة ، وتجمعات جنود وبحارة وفلاحين مسلحين .

— بتريتشينكو . . . اين بتريتشينكو ؟ . . . اجرِ فى اثره . . .

— اجرِ انت ، ايها الخنزير السمين . . . يا اخ ، نادِ العقيد . . . ولكن اين هو ، عليه اللعنة ؟ . . . انه هنا ، سكران نائم على عربة . . . الق عليه جردلا من الماء . . . اسمع ، اذهب الى البئر بجردل — لا نستطيع ايقاظ العقيد . . . يا اخوان لن

نوقظه بالماء ، بل اطل بوزه بالقطران ... صحا ، صحا ... قل
له : الاتمان ساخط ... انه قادم ... قادم ...
ودخل الى البيت نفس الرجل الضخم ذو القبعة العالية . ونام
قبل ذلك الحين ، على ما يبدو ، نوما عميقا ، حتى كان من الصعب
ان ترى عيناه المتنفختان في وجهه المحمر المشـــــورب ... شق
طريقه الى المنضدة وهو يدمدم ، وجلس .
صاح صوت عال صارف متلعثم :
– ما هذا ، يا وغد ، تخون الجيش ! اشتروك !
– ماذا ؟ غفوت وكفى .
لغط العقيد بصوت اجش عميق ، وكانه خارج مـــن تحت
برميل .
غمغم الصوت المتقطع :
– انت ... انت ... سهوت عن الالمان اثناء نومك .
– كيف ذلك ؟ لم اسمع عن شيء .
– اين نقاط حراستك ؟ سرنا طوال الليل ولم نجد نقطة
واحدة ... لماذا الجيش في المصيدة ؟
– ما هذا الصياح ؟ لا احد يعرف من اين جاء الالمان ...
السهب كبير ...
– الذنب يقع عليك ، يا حقير .
– حذار ...
– مذنب !
– لا تمسك بي !
وعم السكون البيت فجأة . ابتعد الواقفون عن المنضدة .
صارع رجل لاهث الانفاس . وارتفعت يد بمسدس . تشبثت بها
عدة ايد . وصدرت طلقة . صمت كاتيا اذنيهـــــا ، واسرعت في
الارتماء على المخدة . تساقط نثار الجص من السقف . ومن جديد
تعالت اصوات ، ولكن بمرح هذه المرة . نهض العقيد بتريتشينكو
وهو يكاد يمس سقف البيت بقبعة من فراء الاغنام ، وخـرج الى
الشارع بعظمة مع جمهرة من الرجال .
بدات حركة وراء النافذة . ركب المتمردون خيولهم ، وتحركوا
في عربات . وفرقعت سياط ، وزعقت محاور ، وارتفع سبـــاب

فاحش . وخلا البيت . وعندئذ ادركت كاتيا لماذا لم تستطع حتى
ذلك الحين ان ترى الذي كان يصرخ بصـــوت نسائي آمر . كان
رجلا ضئيلا جالسا الى المنضدة ، وظهره الى كاتيا واضعا كوعيه
على خارطة .
كان شعره السبط الكستنائي الطويل يسقط على كتفيـــه
الضيقين مثل كتفي غـــلام . وكانت سترته من الجوخ الاســـود
مشدودة بحزامين متصالبين ، وخلف الحزام الجلدي مسدســـان
وسيف . وكانت رجلاه المرتديتان حذاء طويلا انيقا مــع مهماز
متصالبتين تحت المنضدة . كان يكتب بعجالة وراسه يهتز فيجعل
شعره المدهون يتدلى على كتفيه ، والحبر يتناثر من تحت ريشته ،
وينشق الورق .
من الفناء دخل الفلاح الذي تنازل لكاتيا عن فراشه . دخل
بحذر .
كان وجهه ورديا مستعطفا . وفي شعره بعض القش . جلس
رامشا بخفة على المسطبة قبالة الرجل الذي كان يكتب ، ووضع
تحت فخذيه كلتا يديه ، وحك قدمه الحافية بالاخرى .
– كل الوقت مشغول ، يا نستور ايفانوفيتش ، بينمـــا
ظننت انك ستبقى للغداء . بالامس ذبحنا عجلا ، وكان قلبي قد
اعلمني انك ستاتي ...
– لا وقت لدي ... لا تعيقني ...
– طيب ... (وصمت الفلاح برهة ، وكف عن الرمش ،
وصارت عيناه ذكيتين ثقيلتين . تابع بهما يد الكاتب بعض الوقت)
اذن ، يا نستور ايفانوفيتش ، لا تنوي ان تدخل في معركــة في
قريتنا ؟
– حسب الظروف ...
– نعم ، القضية حربية ... ولكنني افكر فقط في انه لو
تحصل معركة هنا ينبغي ان تتدبر امر الماشية ... هل نسوقها
للمزارع ؟
القى الرجل الطويل الشعر قلمه ، وحشر يده الصغيرة في
شعره ، وهو يقرا ما كتبه . حكت الفلاحَ لحيته وما تحت ابطه
فحكهما . وقال وكانه تذكر لتوه :

– نستور ايفانوفيتش ، كيف نتصرف بالقماش ؟ لقد منحت الجوخ وهو جيد . انه جوخ ميرى عرضة للانظار ... انها ست عربات .

– قليل عليكم ؟ لم تشبعوا ؟ قليل ؟

– ليس بالقليل ، ولا نعرف كيف نشكرك عليه ... انت تعرف اننا ارسلنا اربعين مقاتلا من القرية اليك ... وذهب ابنى ايضا . قال لى ان عليه التضحية بالدم فى سبيل قضية الفلاحين ... واذا كان قليلا خرجنا نحن الشيوخ الى المعركة . . . حارب وستلقى المساندة منا ... اما قضية القماش ، فاذا هاجمنا الالمان ، لا قدر الله ، او الجندرمة ... فانت تعرف تنكيلهم . اذن هل يوجد شك فى المعركة ام لا ؟

انتصب ظهر الرجل الطويل الشعر . واخرج يده من شعره ، وامسك بحافة المنضدة . وكانت انفاسه تتردد مسموعة . مد راسه الى الوراء . فتراجع الفلاح عنه على المسطبة بالحذر ، واخرج يديه من تحته ، وخرج من البيت خلسة .

ترنح الكرسى فدفعه طويل الشعر عنه بساقه . واخيرا رات كاتيا ، وهى ترتعش ، وجه هذا الرجل الضئيل ببزته السوداء نصف العسكرية التفصيل . كان يبدو مثل راهب متنكر . تطلعت الى كاتيا عينان بنيتان متفرستان محتدتان من محجرين تحت حاجبين قويين . كان وجهه مجدرا بعض الشىء مصفرا حسن الحلاقة نسائيا فيه شىء ينم عن عدم النضوج والضراوة مثل وجه غلام . كل شىء ، ما عدا العينين ، الهرمتين الذكيتين .

ولو كانت تعرف انها امام الاتمان ماخنو لارتعشت اكثر . كان ماخنو ينظر الى امراة شابة جالسة على السرير فى حذاء مترب ، ورداء حريرى مدعوك ما زال انيقا ، وقد شدت رأسها كالفلاحات بمنديل داكن ، غير قادر على ان يعرف مَنْ هذا الطائر الذى دخل عنده . انفرجت شفته العليا الطويلة عن ابتسامة هازئة كشفت عن اسنان منفرجة . وسأل باقتضاب وحدة :

– من انت ؟

لم تفهم كاتيا فهزت راسها . غادرت الابتسامة وجهه وصار بشكل جعل شفتيها ترتجفان .

– من انت ؟ مومس ؟ اذا كان فيك سيفلس سارميك بالرصاص ؟ هل تعرفين الكلام بالروسية ؟ مريضة ؟ أم بصحة ؟

قالت كاتيا بصوت لا يكاد يسمع :

– انا اسيرة .

– ماذا تعرفين ؟ هل تعرفين تقليم الاظافر ؟ سنعطيك الادوات ...

اجابت بصوت اخف :

– حسنا .

– ولكن لا تنشرى الفسق فى الجيش . . . فهمت ؟ ابق . عندما اعود مساء بعد المعركة ، ونظفى اظافرى .

كان الكثير من القصص يدور بين الناس حول الاتمان ماخنو . فكان يقال انه حاول عدة مرات ، بينما كان يقضى الاشغال الشاقة فى سجن اكاتوى ، ان يهرب وهرب ، ولكنه اصطيد فى سقيفة لخزن الحطب فحارب الجنود بفاس . وقد حطمت كل عظامه باخامص البنادق وصفد بالسلاسل ، حيث ظل فيها ثلاثة اعوام ، صامتا كابن عرس محاولا ليلا ونهار ان ينزع الاصفاد الحديدية عنه بلا نجاح . وفى السجن تعرف على الفوضوى ارشينوف-مارين وصار تلميذا له .

كان نستور ماخنو ابن نجار من قرية غولاى-بوله من منطقة يكاترينوسلاف . وقد تعود على الضرب منذ ان كان صبيا يعمل فى دكان لبيع السلع الصغيرة ، وكان آنذاك يدعى «ابن عرس» لشراسته وعينيه البنيتين . وقد طرد وهو صبى حين سكب – بعد جلده – على كبيرمساعدى صاحب الدكان ماء فائرا . وقد جمع له شرذمة صار يسطو بها على مزارع القرعيات والبساتين ، ويبدى شقاوة ويعيش على هواه حتى اعطاه ابوه الى مطبعة . وقيل ، هناك رآه الفوضوى فولين الذى صار بعد ثمانية عشر عاما رئيس اركان لدى ماخنو والراس المفكر فى جميع الاعمال . وقد اعجب به فولين فى صباه فصار يلقنه مبادئ التعليم والفوضوية ، وارسله الى مدرسة فصار ماخنو معلما . الا ان ذلك غير صحيح ، اذ لم يكن ماخنو معلما قط ، والاصح من ذلك انه عرف فولين فيما بعد وقد تعرف على الفوضوية عن طريق ارشينوف اثناء السجن .

ومنذ عام ١٩٠٣ عاد ماخنو الى تصرفاته السابقة من جديد فى غولاى-بوله ، ولكن لا على نطاق مزارع القرعيات والبساتين بل على ضياع الاعيان واهراء الباعة . مرة يسرق الخيول ، واخرى ينهب الاقبية ، وثالثة يكتب المذكرات للباعة يأمرهم بوضع نقود تحت حجر . وكانت له فى ذلك الوقت صداقة سكر غريبة مع البوليس .

وصار ماخنو مرهوب الجانب ، الا ان الفلاحين لم يشوا به ، لأن مضايقاته لاصحاب الاطيان اخذت تشتد كلما اقترب الزمن من ثورة ١٩٠٥ . وحين بدأت الضياع تحترق اخيرا ، واضحى الفلاحون يزرعون اراضى الاعيان انسل ماخنو الى المدن ليقوم بعمل كبير . وفى بداية عام ١٩٠٦ هاجم مع عصابة من فتيانه بيت المال فى برديانسك ، ورمى ثلاثة من الموظفين ، وقبض على الخزنة ، الا ان رفيقه وشى به ، وارسل الى الاشغال الشاقة فى اكاتوى . . .

وبعد اثنى عشر عاما ، حين حررته ثورة شباط ظهر فى غولاى-بوله من جديد حيث كان الفلاحون يطردون اصحاب الاطيان ويتقاسمون الارض غير مصغين الى اوامر الحكومة الموقتة المواربة. وذكرهم ماخنو بخدماته السابقة فانتخب نائبا لرئيس الادارة المحلية الذاتية فى القضاء . واتخذ فى الحال نهجا حادا لاقامة «النظام الفلاحى الحر» واعلن فى اجتماع الادارة المحلية ان رجال الادارة برجوازيون وكاديت ، وعند احتدام النقاش اطلق النار فى الاجتماع على عضو الادارة ، ونصب نفسه رئيسا ومفوضا للمنطقة.

ولم تستطع الحكومة الموقتة ان تفعل شيئا معه . وبعد عام دخل الالمان ، واضطر ماخنو الى الهرب ، وقضى بعض الوقت يجوب روسيا حتى وصل الى موسكو فى صيف ١٩١٨ ، وكانت فى ذلك الوقت تعج بالفوضويين . فكان فيها العجوز ارشينوف الذى كان يتابع بعينين حزينتين احداث الثورة التى كان البلاشفة يوجهونها بلعبة من القدر لا يفهمها ، وكان فيها فولين النظرى الجبار واحد اعلام فوضوية – «أم النظام» – الذى لم تعرف لحيته ولا شعره التمشيط ، كما كان فيها بارون الطموح وعديم الصبر وارتين وتيبر ويعقوب آلى وكراسنوكوتسكى وغلاغزون وتسينتسيبر وتشيرنياك وكثيرون آخرون من عظماء الناس الذين لم يستطيعوا ان ينفذوا الى الثورة ، وقعدوا فى موسكو بلا نقود وبجدول اعمال

واحد لاجتماعاتهم اليومية : «وضع التنظيم والشؤون المالية» . . . وفيما بعد اصبح بعضهم قادة الفوضوية الماخنوية ، والبعض الآخر مشتركين فى الانفجار الذى حصل فى مقر لجنة موسكو البلشفية فى شارع ليونتيفسكى الجانبى .

وليس من شك فى ان وصول ماخنو قد اثر فى الفوضويين المتراخين فى مقاهى موسكو . فقد كان ماخنو رجل عمل ، وصاحب حزم ايضا . ففكروا بان يسافر نستور ايفانوفيتش الى كييف ، ويقتل الهيتمان سكوروبادسكى وجنرالاته .

وعبر الحدود الاوكرانية فى بيلينخين ومعه فوضوى مساعد له بعد ان راوغ المفوض الرهيب ساينكو الذى كان يراقب تلك الطرق بعين يقظة . وتزيا ماخنو بزى ضابط ، الا انه عدل عن الذهاب الى كييف ، فقد شم رائحة السهب الطليقة ، ولم يطب له العمل التآمرى . فذهب الى غولاى-بوله راسا .

فى هذه القرية ، مسقط راسه ، جمع خمسة من الفتيان الموثوقين . وتربصوا فى وهدة مسلحين بالفؤوس والسكاكين والبنادق المقطوعة على مقربة من ضيعة صاحب الاطيان رزنيكوف ، وفى الليل سطوا على البيت دون كبير ضجة وذبحوا صاحب الاطيان مع اخوته الثلاثة العاملين فى شرطة المنطقة ، واضرموا النار فى البيت . وحصل فى هذه الغارة على سبعة بنادق ومسدس وخيول واسرجة وبعض بزات الشرطة .

وبعد ان تسلح جيدا وصارت له خيول لم يضيع الوقت واخذ مع خمسته يسطو على الضياع ويحرقها من جهاتها الاربع . وجمع فصيلة وراح ينطلق بجنون من طرف القضاء الى طرفه الآخر منظفا اياه من اصحاب الاطيان . حتى عمد اخيرا الى قضية اشتهر بها شهرة واسعة .

كان ذلك فى عيد الثالوث الاقدس . وكان صاحب الاطيان ميرغورودسكى احد سلاطين السهب يزوج ابنته لعقيد الهيتمان . وفى يوم العرس قدم بعض الجيران الذين لا يخافون ، فى مثل هذا الوقت العصيب ، الجرى على الطريق السهبى . وجاء ضيوف من المحافظة ومن كييف .

وكانت ضيعة ميرغورودسكى تحت حراسة قوية من قبل الشرطة . وقد نصبت رشاشة فى علية البيت ، كما ان العريس نفسه جاء مصحوبا برجال فوجه الاشداء بسراويلهم الزرقاء العريضة التى يجب ان تمس اواسطها الارض على العادة القديمة ، ومعاطف من الجوخ القرمزى وطرابيش استراخان لها شراريب مذهبة تكاد تصل الى الحزام . وكانت السيوف المعكوفة تتدلى الى جنبهم جميعا وتضرب باحذيتهم المرفوعة المقدمات من جلد الماعز .

وكانت العروس قد جاءت قبل مدة غير بعيدة من انجلترا ، حيث اكملت تعليمها فى مدرسة داخلية للاوانس ، وتتحدث الاوكرانية بلهجة لا بأس بها ، وقد ارتدت الاكمام المطرزة والعقود والاشرطة والحذاء الطويل الأحمر . وكان ابوها قد تسلم من كييف ، وبناء على توصية خاصة ، روبا مخمليا مؤطرا بالفراء ، وهو صورة طبق الاصل للروب الذى كان يرتديه الهيتمان مازيبا فى صورته الشهيرة . لقد كانوا يريدون ان يقيموا زفافا على الطريقة القديمة . ورغم ان شراب العسل المعتق كان من الصعب الحصول عليه فى اوكرانيا الملتهبة فقد كان هناك الكثير منه لمأدبة عظيمة .

بعد القداس ساروا بالعروس عبر المنتزه الى الكنيسة الحجرية الجديدة . وكانت اشبينات العروس اللواتى يرافقنها ويغنين الاغانى فى منتهى الجمال . وكانت هى تبدو وكأنها طالعة من اغنية قوزاقية . حتى قال اشابين العريس ، وهم ينتظرون عند السياج : «يبدو ان عهود اوكرانيا الطيبة قد عادت اليها . . .» وبعد عقد القران نثرت على الزوجين حبوب الشوفان . وباركهما الاب البان فى روبه المازيبى بايقونة قديمة من ميجيغوريه . وشربوا الشمبانيا ، وهتفوا بالانخاب ، وحطموا الاكواب وركب العروسان فى سيارة الى القطار ، وبقى الضيوف ياكلون ويشربون .

هبط الليل على فناء الضيعة الواسع ، حيث كان الخدم والجندرمة يرقصون الرقصات المعقدة . وكانت نوافذ البيت كلها تتالق ببهجة . وكانت الفرقة الموسيقية اليهودية التى جلبت من الكسندروفسك تعزف بكل قوتها . ورقص الاب البان رقصة «الهوباك» المجنونة وشرب ماء الصودا . ونشدت الفتيات والسيدات الطراوة فى النوافذ المفتوحة . وعاد اشابين العريس – وجميعهم ضباط

قوزاقيون – الى موائد النواشف من الطعام مصلصلين بسيوفهم مهددين بالذهاب الى موسكو نفسها وقتل الروس الملاعين .

وفى ذلك الوقت ظهر بين الضيوف ضابط قصير القامة فى بزة شرطة الهيتمان . ولم تكن اية غرابة فى ان ياتى شرطى الى الضيعة فى مثل هذا اليوم . دخل متواضعا ، وحيا بانحناءات صامتة ، ونظر صامتا الى الموسيقيين . الا ان بعضهم لاحظ ان البزة كبيرة عليه بعض الشىء ، ثم ان احدى السيدات قالت للاخرى فجاة فى قلق : «من هذا ؟ يبدو مرعبا ! . .» ورغم ان الضابط الغريب كان يحاول ان يخفض بصره ، الا ان عينيه كانتا تلتهبان رغم ارادته ، كعينى شيطان . . . ولكن ما اكثر ما يتوهم السكران من اوهام . . .

عزف الموسيقيون التانغو بعد رقصات المازوركا والفالس . بدأ اثنان او ثلاثة من ذوى القمصان الحمراء ممن ما يزالون واقفين على اقدامهم الرقص مع السيدات . وطلب احدهم اطفاء الاضواء العليا . وفى الضوء الشاحب لاحت النغمات الضعيفة وكأنها آتية من اعماق السنين الخوالى ، وتراخى الراقصون فى حركاتهم وتهافتوا معبرين عن شهوات الموت .

وعند ذاك انطلقت رصاصة . وجمد حشد الضيوف . وانقطعت الموسيقى . كان ماخنو المتزى ّ بزى ضابط شرطة واقفا وراء مائدة الطعام عند باب مفتوح الى النصف يطلق الرصاص من مسدسين على ذوى القمصان الحمراء . وقع المقدم الأحمر الضخم صديق العريس على المائدة ثقيلا باسطا ذراعيه وقالبا المائدة . ارسلت النساء صيحات زاعقة . حاول آخر ان يستل سيفه ، فعاجلته رصاصة وطرحته على وجهه على البساط . . . وهاجم ثلاثة آخرون ماخنو فسقط اثنان منهم فى الحال ، وقفز الثالث الى النافذة وصرخ هناك كالارنب . ظهر فى الباب المقابل رجلان فى بزتى شرطة ايضا ضاريان فى مظهرهما تتدلى ناصيتاهما من تحت قبعتيهما ، وفتحا النار على الضيوف ايضا . ركضت النساء من جهة الى اخرى وسقطن . ولم يستطع الاب البان ان ينهض من مقعده فتقدم ماخنو منه ، واطلق رصاصة فى فمه . وصدرت طلقات فى الفناء ايضا وفى المنتزه حيث تراكض الضيوف الذين قفزوا من النوافذ . واستطاع

القليلون الاختفاء فى الاجمات وبين نبات الاسل فى البركة . وذبح الخدم والجندرمة بالجملة . ثم شدّ رجال ماخنو الخيول على العربات ، وظلوا حتى الفجر يحمّلونها الامتعة والسلاح . وطلعت الشمس على الضيعة وهى تحترق .

وتركت هذه الغارة الجريئة اثرا قويا فى غولاى-بوله . وفى ذلك الوقت كان الفلاحون يرزحون تماما تحت الالمان وتحت اصحاب الاراضى الحديثى النعمة ، وتحت قمع رجال الشرطة السريعين فى تصرفاتهم الوحشية . رفض اصحاب الاراضى تأجير الاراضى الى الفلاحين غير مصدقين بهم ، وطالبوا ليس فقط بمحصول الصيف الحالى ، بل وباعادة خسارة العام الفائت من الحبوب . ولم يبق امام الفلاحين الا ان ينوحوا على مصيبتهم . وظهر ماخنو ، واعلن الارهاب . وسرت الشائعات فى القرى بان اتمانا قد ظهر .

تشجع الفلاحون . واضرمت النيران فى الضياع . واحرقت اكداس القمح فى السهوب . وهجمت فصائل الانصار بجراة على المراكب والصنادل المحملة بالحبوب المنقولة الى المانيا . وسرت القلاقل الى الضفة اليمنى للدنيبر . وصدرت الاوامر الى القوات النمساوية والالمانية لوضع حد للفوضى . وانتشرت مئات من فصائل التنكيل فى البلاد . وعندئذ بادر ماخنو بمهاجمة القوات النمساوية بفصيلته الصغيرة الحسنة التسليح .

فى ذلك الحين لم يكن جيش الاتمان ماخنو كثير العدد . فان نواته الدائمية المتماسكة كانت تتألف من مائتين او ثلاثمائة من الرجال الجسورين . كان من بينهم بحارة من البحر الاسود ، وجنود حاربوا فى الجبهة ، وهم ممّنْ لم يستطع لسبب او لآخر الظهور فى قريته الاصلية ، والاتمانات الصغار المنضوون تحت لوائه مع فصائلهم ، واناس لا عوائل لهم يحاربون اظهارا لجسارتهم وحبا للحياة المرحة .

وعندئذ انضم الى الجيش فوضويون فرادى هم من يسمون بـ«المحاربين» الذين سمعوا بعصابات جديدة تتنقل حرة على خيولها . جاء الفوضويون الى مقر ماخنو على الاقدام مهلهلى الثياب جياعا فى احد جيوبهم قنبلة ، وفى الجيب الآخر مجلد كروبوتكين ، وقالوا للاتمان :

– سمعنا انك شخصية عبقرية . فلننتظر !

اجاب الاتمان :

– انظروا .

فقالوا :

– اذا كنت كذلك حقا ، فانك ستصنع صفحات من التاريخ العالمى . الشيطان يعرف ، فقد تكون فجأة كروبوتكين الثانى .

اجاب الاتمان :

– جائز .

واخذ الفوضويون يتبعون الاتمان فى طابوره ، ويحتسون معه الكحول ، ويقولون له كلمات مدهشة كان يتعشقها كثيرا – حول التاريخ والمجد . وشيئا فشيئا بدأ بعضهم يصعد الى المناصب المسؤولة والقيادية . وصار لكل واحد منهم عربته من الاسلاب المغنومة فى المعارك : صندوق كونياك ، وبرميل صغير من الذهب ، وزكيبة من الملابس . وكان من بين هؤلاء الافراد تشالدون ، سكوروفيونوف ، يوغولوبوف ، تشيريدنياك ، انغاريتس ، فرانتسوز ، وكثيرون غيرهم . وخلال فترات القعود الطويلة كانوا يجمعون حولهم مجاميع كاملة من الفتيات المنطلقات ، وينظمون ليالى اثينية مؤكدين للاتمان ان هذه الطريقة فى معالجة القضية الجنسية تعتق الحياة ، اما السيفلس فانه محض هراء ما دامت الحرية المطلقة محققة . وسمى ماخنو فوضوييه بالثعابين الزاحفة ، وهددهم اكثر من مرة بالاعدام رميا بالرصاص ، ولكنه تحملهم كرجال قرأوا الكتب ويعرفون جيدا ما هو المجد العالمى .

لم يكن للجيش مقر قيادة دائم . وكان يتنقل حسب الضرورة من طرف المحافظة الى طرفها الآخر على الخيول والعربات . قبل قيام ماخنو بغارة او معركة كان يرسل الرسل الى القرى ، ويلقى هو فى مكان مزدحم خطابا لاهبا ، وبعده كان فتيانه يلقون القماش من العربات على المحتشدين . وفى يوم واحد كان ينضم الى نواة جيشه انصار-فلاحون . وحين كانت المعركة تنتهى كان المتطوعون يعودون بالسرعة نفسها الى قراهم ، ويخفون الاسلحة ، وحين كانت المدفعية الالمانية تمر بهم بحثا عن العدو كانوا يقفون امام بوابات بيوتهم ، وكأنهم لم يفعلوا شيئا ، هارشين اجسامهم بكسل . كانت الفصائل

الالمانية والنمساوية وهى تبحث عن ماخنو لا تجد شيئا دائما ، بينما كان هذا الشيطان الموجود فى كل مكان دائما فى مؤخرتهم . كان الانصار كالرحل القدامى لا يشتركون فى اية معركة حاسمة ، بل ينتشرون على خيولهم وعرباتهم زاعقين صافرين مطلقين الرصاص ، ويجتمعون فى مكان لم يتوقعوا فيه ، ويهجمون فجاة .

خلت القرية . خرج ماخنو فى اثر الجيش على عربة تجرها ثلاثة خيول ومفروشة ببساط . كان الوقت ظهرا . كانت فتاة بدينة شوهها البكاء فى تنورة محزومة الى فوق تكنس البيت بمكنسة من الافسنتين . وكان صاحب البيت جالسا قرب نافذة مفتوحة ينظر الى التلال التى اتجه نحوها المشاة والفرسان . وحيث يدور دولابا طاحونتين بوداعة ، وزفر زفرة ثقيلة ، فان الحديث مع ماخنو قبل قليل لم يدخل الهدوء الى نفسه .

ذهبت كاتيا الى البئر ، واغتسلت ، ورتبت هندامها . دعاها صاحب البيت الى الفطور ، فاكلت فطيرتين وشربت بعض الحليب . وجلست عند النافذة الاخرى ، وهى لا تعرف الآن ماذا تفعل وماذا تنتظر . كان الجو حارا جدا . وفى الشارع دجاج كثير يطوف بين الروث الطازج . وفى الحدائق امام البيوت كانت تتمايل زهور عباد الشمس الذهبى ، وتنضج ثمار الكرز . والبواشق تحوم فوق القرية . تنحنح صاحب البيت ، وتنهد . وقال للفتاة الباكية :

– كان من الافضل ان ترفعى التنورة اعلى . ليست مصيبة فى انهم مسوك . . . لست الاولى .

اجهشت الفتاة ، والقت المكنسة ، وانزلت تنورتها على ساقيها البيضاوين الممتلئتين . نظر صاحب البيت الى المكنسة بعض الوقت .

– من هو ؟ قولى ، ولا تخافى ، يا الكسندرا . . .

– لا اعرف ما اسم هذا اللعين . . . ليس من ابناء قريتنا . . . يلبس نظارة . . .

اسرع صاحب البيت يقول وكانه قد فرح :

– ها ! يلبس نظارة . . . انه احدهم ، فوضوى . – والتفت الى كاتيا – انها ابنة اخى الكسندرا . . . ارسلتها الى الهرى لتجلب

القش . . . اتعرفين اين يقع الهرى ؟ وعادت فى الصباح وثيابها ممزقة . اللعنة ! . .

– كان سكران . وهددنى بالمسدس . فماذا فى امكانى ان افعل ؟

قالت الكسندرا مولولة . ضرب صاحب البيت الارض بقدمه الحافية مهددا :

– اخرجى من هنا . انا نفسى لا اعرف هل سابقى على قيد الحياة او لا .

خرجت الفتاة راكضة . عاد الى النحنحة من جديد محدقا فى التلال .

– ما العمل ؟ وهل نحن سعداء فى اطعام هؤلاء اللصوص ؟ نعطيهم الخيول لعرباتهم . وهم يسوقونها بسرعة ثمانين فرسخا . هؤلاء الشياطين . والحصان ليس سيارة ، ويجب الاعتناء به . ان ماشيتنا كلها الآن مصابة . . . آه ، الحرب ! . .

اهتزت زجاجة المصباح المعلق فوق المنضدة ، ورن زجاج النوافذ رنينا خافتا . وكأن الهواء الحار قد تنهد . وسرى فى الارض هدير بعيد . مد صاحب البيت نصف جسمه من النافذة بحركة حية ، وحدق طويلا فى التلال ، حيث لاح فارس وحيد بالقرب من الطاحونتين . ثم جمع اصابعه ، ورسم علامة الصليب امام الصورة الموضوعة فى زاوية .

قال :

– المدفعية الالمانية تضرب جماعتنا – ثم هرش تحت قميصه الحائل اللون وقال – زمان !

ورفع المكنسة ، والقاها فى زاوية ، وخرج الى الفناء جامعا اصابع قدميه الحافيتين . وعاد الهدير يسرى فوق القرية . لم تستطع كاتيا ان تطيل البقاء فى البيت اكثر ، وخرجت الى الظهيرة القائضة الفواحة بالروث .

رات جمعا مضطربا من مسافرى الأمس يسير فى الشارع . سار فى المقدمة معلم الفيزياء اوبروتشيف ناظرا من فوق نظارته الانفية . كان يلبس ممطارا مطاطيا وكالوشا ، ويبدو رئيسا وموضع ثقة . هتف بكاتيا :

– انضمى الينا !

اقتربت . كان المسافرون فى مظهر مهروس ، وقد نحلت وجوههم . انتفخت عيون المراتين الكهلتين من ذرف الدموع . ولم يكن بينهم المضارب الذى غيّر ملابسه .

قال اوبروتشيف بصوت مرح :

– اختفى احد اصحابنا دون أثر . والظاهر انه قد اعدم رميا . وجميعنا ينتظرنا نفس المصير ، يا سادة ، اذا لم تكن لدينا الحيوية الكافية . يجب ان نقرر على الفور : هل سننتظر نتيجة المعركة ، ام ننتهز فرصة عدم حراستنا من قبل احد ، على ما يبدو ، ونحاول ان نصل مشيا الى السكة الحديدية . . . انا احدد لكل متكلم دقيقة واحدة .

عندئذ تحدث الجميع دفعة واحدة . اشار البعض الى ان قطاع الطرق اذا لحقوا بهم فى السهب فسيقضون عليهم بدون شك . وقال آخرون ان فى الهروب نصيبا من الخلاص على اية حال . اما الفريق الثالث الذى كان واثقا من انتصار الالمان فقد اصر على انتظار نتيجة المعركة . وحين تعالى الهدير وراء التلال من جديد صمت الجميع ، وقلصوا عيونهم متأملين وحدقوا الى حيث لم يكن يُرى غير اجنحة الطاحونتين تتحرك بونى . القى اوبروتشيف خطبة محكمة سرد فيها كل التناقضات فى وجهات النظر . حدقت السيدتان فى فمه ، وكأنه واعظ . ولم يستقر المسافرون على رأى فظلوا واقفين فى الشارع المقفر بين الدجاج والعصافير ، حيث لا احد يفكر فى ان يشفق على روسى من ابناء قوميته . . . لا ابـــدا ! ها هى امـــرأة حاسر الرأس اطلت من نافذة ، وتثـــاءبت ، واشـــاحت براسهـــا . خرج فلاح بلا حزام فى مظهر غاضب من وراء بيت ، ونظر من خلالهم ، والتقط قطعة من طين ، ورمى بها خنزيرا لاحد الجيران بكل قوته . وحامت فوق القريـــة بواشـــق بلا اكتراث ناظرة الى ابنـــاء المدن المنهوبين الذين لا يهتم بهم احد هنا .

ارتفعت سحابـــة من الغبار من وراء التل . اندفـــع فارس من الطاحونتين ، واختفى . اقترح احـــد المســـافرين العودة الى ادارة القرية ، حيث قضى الجميع ليلتهم هناك . سارت السيدتان اولا . وحين ظهرت عربات «الترويكـــا» من وراء التلال منطلقـــة باقصى

سرعتها انصرف الآخرون ايضـــا . بقيت كاتيـــا ومعلـــم الفيزياء فى الشارع ، وقد صلب المعلم يديه تحت المشمع بحزم .

كانت العربات اربعا او خمسا . دارت حول البحيرة ، ووصلت الى القريـــة . كانت تحمـــل الجـــرحى . توقفت الاولى عند نوافذ بيت . صاح سائق الخيول وهو رجل ضخم من الانصـــار فى سترة جلديـــة غير مزررة :

– ناديجدا ، جلبوا رجلك .

خرجت امرأة من البيت راكضة خالعة مئزرهـــا عنهـــا واجهشت بصوت واطىء ، والقت نفسهـــا على العربة . نزل من العربـــة رجل شاحب الى حد الاخضرار ، وامسك برقبة الزوجة والقى راســـه الى الاسفل ، وسار نحو البيت بخطى رخوة منحنى الجذع . انتقلت العربة الى بيت آخر ، حيث خرجت ثلاث فتيات فى ثياب ملونة .

صاح السائق بهن مرحا :

– خذن صاحبكن ، يا حمامات . جرحه طفيف .

وبعد ذلك استدار بالعربة بحركة بطيئة وهو يفكر اين سينقل الجريح الاخير . كان ميشكا سولومين يجلس فى العربة مقلصا عينيه ، وقد شد رأسه بخرقة من قميص مدماة واسنانه مصكوكة . وفجأة اوقف السائق الخيول :

– اوه ، يا ربى . . . يكاترينا دميترييفنا ؟ . .

ولم تكن كاتيا تتوقع ذلك البتة . ضاقت انفاسها من القلق ، وهرعت الى العربة . كان الكسى كراسيلنيكوف يقف عليها فارجـــا ساقيه عريضا مسندا احدى يديه على جنبه ممسكا العنان بالاخرى . كانت لحيته تتلوى على خديه ، وعيناه الوضيئتان تنظران بمرح . وقد شد على وسطه قنابل يدوية ، وشريط رشاشة فوق سترتـــه الجلدية ، ووراء كتفيه بندقية فرسان .

– كيف جئت الينا ، يا يكاترينـــا دميتريفنـــا ؟ فى اى بيت تقيمين ؟ فى هذا ؟ عنـــد ميتروفان ؟ انـــه ابن عم لى ، من عائلـــة كراسيلنيكوف ايضـــا . انظرى الى ميشكا . مسكين . شجت نصف راسه قنبلة شرابنيل . . .

سارت كاتيا الى جانب العربـــة . كان الكسى ما يزال محتدا ثملا بالمعركة . تلمع عيناه واسنانه وابتسامته .

– مزقنا الالمان تمزيقا . . . الحمقى . . . القوا انفسهم على رشاشاتنا ثلاث مرات . وهم الآن منطرحون فى الحقل كلـه . . . الآن صـار للاتمـان من الملابس ما يلبس به الجيش كلـه . . . قف . . . ميتروفان ! . . اخرج من مغارتـك ، واستقبـل البطـل الجريح . . . اما انت ، يا يكاترينا دميتربيفنا فلا تغادرى هذا البيت . الحالة قلقة عندنا . . .

صدر من برج الجرس رنين رقيـق بهيـج . انفتحت ابواب الحدائق فى القريـة كلها ، ورفعت الصفاقـات وركضت النساء فى الشـارع ، وخرج الرجـال الحـذرون . وطلـع عدد كبير من النـاس من حيث لا يدرى احد ، وسـاروا مغنين متحدثين الى الدرب للقاء جيش ماخنو المنتصر .

جلب الكسى كراسيلنيكوف ، وكاتيا معه ، ميشكا شبه الميت الى فناء ميتروفان ، وارقده فى الظليلة على سرير الكسندرا . راحت كاتيا تبدل ضماده . نزعت بصعوبة من شعره الخرقة التى جمد عليها الدم . لم يبدر من ميشكا غير صريف الاسنان . وعندما بدأت كاتيا تغسل الجرح الرهيب فى الجهة اليمنى من الجمجمة ، تأوهت الكسندرا التى كانت تمسك بالحوض ، وترنحت ، امسـك الكسى بالحوض ، ودفعها . وقال لكاتيا :

– انظرى ، هناك فلقـة عظـم ناتئـة . الكسندرا ، اجلبى كماشة السكر .

– غير موجودة ، انكسرت .

امسكت كاتيا باظافرها فلقة العظم التى كانت ناتئة فى الجرح . وسحبتها . صرخ ميشكا . لقد كانت فلقة بالتأكيد . وكانت اظافرها تنزلق فتنفذ اعمق ، وتخرجها .

زفر الكسى زفرة صاخبة وضحك قائلا :

– هكذا نقاتل ، على طريقة الفلاحين ! . .

شُدّت راس ميشكا بقماشة نظيفة . فرقد تحت فروة خروف مبللا مرتجفا ارتجافا شديدا ، وفتح عينيه . انحنى الكسى عليه :

– كيف الحال ؟ هل ستكون على قيد الحياة ؟

قال ميشكا مبتسما ابتسامة ميتة :

– يوم امس تبجحت امامها ، وهذه نتيجة التبجح .

ونظر الى كاتيا . كانت تمسح يدها . تقدمت ايضـا وانحنت عليه . حرك ميشكا شفتيه :

– احرص عليها ، يا اليوشا* .

– اعرف ما اعرف .

– فكرت بان ارتكب عمـلا سيئا نحوهـا . . . يجب نقلهـا الى المدينة .

ومرة اخرى ثبت فى كاتيا بصره المجنون تقريبـا . كان يقاوم الألم ووهج الحمى وكانها شيء تافـه ، مجرد هراء ومضايقـة . فان مصاقبة الموت شتتت فيه جميع زوابـع الانفعالات والتناقضات . وقد احس فى تلك اللحظـة بانـه ليس الفتى السكير الشرير ، بل روحا روسية كالطائر يصعد اثناء العاصفة وانه فى الاعمال البطولية لا يقل صلاحا عـن الآخرين ، وانه قادر على الاتيان بالاعمـال الرفيعة . . .

قال الكسى بخفوت :

– الآن دعيه ينام . لا باس ، انه فتى متدفق الحيويـة . سينام ويشفى .

خرجت كاتيـا مـع الكسى الى الفناء . مـا تزال وكانها فى حلم يقظة غريب تحت سماء لا حدود لها فى هذا السهب الحار حيث يفوح بدخان الروث الجاف القديم ، حيث كان رجل بعد وقفة طويلـة ينطلق على فرسه مكشرا اسنانه للريح الطليقة ، والسورات تطفأ كما يطفأ الظمأ بقدح مترع .

ولم تشعر بخوف . ان مصيبتها المطمورة فى اعماق النفس لا حاجة بها لأحد ، وحتى لنفسها فى هذه الاحوال . كانت على استعداد الى التضحية ، الى القيام بمأثرة دون اى تردد . ولو دعيت للموت لتنهدت تنهيدة ورفعت عينين صافيتين الى السماء . قالت :

– فاديم بتروفيتش قُتِل . ولن اعود الى موسكو ، اذ ليس لى احد هنـاك . . . ولا شيء . . . لا اعـرف ماذا جـرى لأختى . . . ظننت اننى اسافر الى مكان ما ، ربما الى يكاترينوسلاف . . .

افرج الكسى ساقيه ، ونظر الى الارض ، وهز رأسه :

---

* صيغة تدليل لاسم الكسى . – **المترجم** .

– من المؤسف ان يقتل فاديم بتروفيتش ، فقد كان رجلا طيبا . . .

– نعم ، نعم–قالت كاتيا واغرورقت عيناها بالدموع .–كان انسانا طيبا جدا .

– لم تسمعا كلامى آنذاك . بالطبع نحن نكافح من اجل هدفنا وانتم من اجل هدفكم . ولا حاجة الى التكدر فى هذه المسالة . ولكن هل من الممكن ان يحارب المرء ضد الشعب ! ليس من المعقول ان نستسلم !.. هل رايت الفلاحين اليوم ؟ ومع ذلك كان فاديم بتروفيتش منصفا على اية حال . . .

قالت كاتيا ، وهى تنظر الى غصن شجرة كرز مثقل متدل من وراء السياج :

– انصحنى ماذا افعل ، يا الكسى ايفانوفيتش . انه يجب ان اعيش . . . –قالت واحست برعب فقد ضاعت كلماتها فى خواء . ولم يجب الكسى راسا :

– ماذا تفعلين ؟ سؤال من اسئلة السادة . وكيف ذاك ؟ انت امراة مثقفة تعرفين لغات اجنبية ، وجميلة ، وتسالين فلاحا : «ماذا افعل ؟»

واكتسى وجهه تعبير الازدراء . وطقطق بالقنابل المعلقة فى حزامه طقطقة خافتة . انكمشت كاتيا . قال الكسى :

– ستجدين اعمالا فى المدينة . ربما فى حانة تغنين وترقصين وربما كمومس ، وربما فى مكتب تطبعين على الآلة الكاتبة . لن تضيعى .

خفضت كاتيا راسها ، واحست بانه ينظر اليها ، ومن نظرته تلك لم تستطع ان ترفع راسها . وقد ادركت فجاة ، كما هى الحال مع ميشكا ، لماذا كان الكسى يثبت بصره فوق راسها بهذه الموجدة . لا وقت الآن للصفح والشفقة . ان لم تكن منهم فهى عدو . انها سالت كيف عليها ان تعيش . القت هذا السؤال على محارب ما زال ملتهبا بالفروسية ، بازيز الرصاص ، بسكرة النصر . . . كيف عليها ان تعيش ؟ وبدا هذا السؤال غريبا لها الآن . فلو سالته مع مَنْ وفى سبيل اية حقيقة ينطلق على هذه العربة فى السهب لرات الطيبة تلمع فى عينيه . . .

ادركت كاتيا ذلك ، ولجات الى المكر مثل حيوان صغير . لقد حاولت لاول مرة فى هذا اليوم ان تدافع عن نفسها :

– لقد أسأت فهمى ، يا الكسى ايفانوفيتش . ليس ذنبى ان تتقاذفنى الارض كالورقة اليابسة . ماذا علىّ ان احب ؟ وبم اعتز ؟ لم يعلمونى ذلك . فلا تسالنى . علمنى اولا . (كف عن الطقطقة بالقنابل . ومعنى ذلك انه ارهف السمع .) ذهب فاديم بيتروفيتش الى الجيش الابيض خلاف ارادتى . لم ارد ان يفعل ذلك . وقد عاتبنى لأن نفسى لا تضمر بغضا . . . انا ارى كل شىء ، وافهم كل شىء ، يا الكسى ايفانوفيتش . ولكننى فى الهامش . . . هذا شىء فظيع . وفى ذلك يكمن عذابى كله . . . ولهذا سالتك ماذا افعل وكيف اعيش . . .

صمتت برهة ، ثم حدقت فى عينى الكسى ايفانوفيتش تحديقة جلية صافية . فرمش . ولاح على وجهه بعض السذاجة والحيرة ، وكانما قد احتيل عليه . رفع يده الى علبائه ، وحك .

قال مغضنا انفه :

– هذه مأساة . انت على حق . المسالة سهلة بالنسبة لنا . اخى قتل المانيا فى فناء بيتى ، فاحرقنا البيت وخرجنا نحن . الى اين ؟ الى الاتمان . اما انت ، المثقفة . . . فحقا . . .

ونجح مكر كاتيا . وعزم الكسى ايفانوفيتش ، فى الظاهر ان يحل المسالة اللعينة فى هذه اللحظة : فى سبيل اية حقيقة تناضل امراة مثل كاتيا لا ارض لها ولا فرس .

لقد كان مضيعة للوقت الوقوف عند السياج تحت شجرة الكرز التى كانت تنظر اليها كاتيا . لقد كانت تود لو تقطع حبتين سوداوين لتعلقهما قرطا ، ولكنها استمرت واقفة بهدوء امام كراسيلنيكوف ، الا ان ومضات الفكاهة كانت تومض فى عينيها الواسعتين وقد اضاءتهما السماء .

قال الكسى ايفانوفيتش مقويا تاثير كلماته بايماء حاسم :

– اذا كنا نحن الفلاحين نطعمكم ، يا ابناء المدن فان الواجب يقتضى ان تقفوا الى جانبنا . نحن الفلاحين ضد الالمان ، وضد البيض ، وضد الشيوعيين ، ولكننا فى سبيل سوفييتات الريف الحرة . مفهوم ؟

هزت راسها . فتابع كلامه . امــا هى فوقفت على اطراف اصابعهـا ، ورفعت ذراعها اليسرى ، لأن كمها الايمن مشقوق تحت الابط ، وقطعت حبتين من الكرز . وضعت واحدة فى فمها . واخذت تدير الاخرى من عودها . قالت وقد لفظت النواة :

– لو كنت قروية لكان كل شىء واضحا لى . كم مرة سمعت : الوطن ، روسيا ، الشعب . ولكننى لاول مرة أرى ما تعنى هذه الكلمات . واكلت الحبة الاخرى ناظرة الى الكسى ايفانوفيتش ، والى لحيته التى لاحت فى النور ذهبية ، والى السترة الجلدية المفتوحة ، والى رجليه القويتين ، وتسلحه المخيف . قال وهو يزداد ارتباكا :

– الشعب ، الشعب . اعجوبة صغيرة ، بالطبع . . . ولكننا لن نتخلى عما يخصنا . – وامسك بقوة بالخابور الطالع من السياج وجرّبه ليتاكد من ثباته . – سنحارب بقســوة ولو فى العالم كله . . ليتك تسمعين ما يقوله فوضويونا ، لا ما اقوله انا . انهم اساتذة فى فن الكلام . . . فقط . . . (وتحرك حاجباه ، ومرر عينيه على كاتيا بنظرة فاحصة .) ولكن المصيبة : انهم فســاق وسكيرون دون تحفظ . . . اظن من الخير الا تدعى عيونهم تقع عليك . . .

– لا اهمية لذلك ، – قالت كاتيا .

– كيف لا اهمية لذلك ؟

– اقصد لست صغيرة . ولا اسمح لأحد بان يمسنى .

– انت تتكلمين جيدا . . .

ارتجف حنك كاتيا ، وابتسمت ، ورفعت جسمها الى غصن الكرز ثانية . واحست بان حرارة الشمس تنفذ الى جسمهــا وتداعبه . وكان ذلك حلم يقظة . قالت :

– على اية حال ماذا تظن ان فى وسعى ان افعل عندكم ، يا الكسى ايفانوفيتش ؟

– فى حقل التنويــر . . . لدى الاتمان يتكوّن قســم سياسى . . . ويقولون يريد ان يصدر جريدة .

– وانت ؟

– انا ؟ . . (وامسك بالخـابور مرة أخرى ، وهز السيـاج .) انا محارب بسيط . سائق عربة رشاشة . ومكانى فى القتــال .

وانت ، يا يكاترينا دميتريفنا ، القى نظرة فى البداية ، ولا تتخذى قرارا راسا . انا سأعرفك بزوجة اخى ماتريونا . يعنى نضمك الى عائلتنا . . .

– ولكن الاتمان ماخنو طلب الىّ ان آتى مســاء لانظف اظافره .

– ماذا ؟ ! – وامسك الكسى فى الحال حزامه بكلتا يديه تحت السترة الجلدية . بل وان انفه قــد تدبب . – اظافره ؟ وبماذا اجبته ؟

قالت كاتيا هادئة :

– اجبته باننى اسيرة .

– حسنا ، سيرســل فى طلبك – اذهبى . ولكننى ساكون هناك . . .

فى تلك اللحظة هبطت الكسندرا السمينة من مدخل البيت ، ومئزرها يهتز . صاحت وانطلقت تفتح الباب :

– انهم قادمون ، قادمون !

كانت «هورا» تسمع من بعيد مع طلقات منفردة ، ووقع حوافر خيول . لقد عـاد الاتمـان مـع الجيش . خرج الكسى وكاتيـا الى الشارع . ارتفعت سحابة الغبار فوق الدرب . كان الفرســان والعربات تنطلق على الاكمات مرورا بالطاحونتين .

دخلت مقدمة الجيش القرية . واحاط الصبيان بها وتراكضت الفتيات . كانت بطون الخيول العرقة المزبدة الاشداق تعلــو وتهبط . وقف رجال ماخنو على العربات مغبرين عرقين وطاقياتهم مائلة الى الوراء .

جاء ماخنو على عربـة عليها بساط فارسى تتطاير حوافيـه . كان يجلس على صندوق ذخيرة مترنحا ممسكا بقبعته الفرائية قرب فخذه . وقد جمد وجهه الشاحب متوترا ، وشفتاه الجافتــان المتشققتان مزمومتان .

وفى العربة الثانية وراءه ركب ستة اشخاص فى هيئــة مدنية – يرتدون سترا وقبعات ناعمــة وطاقيات قشيــة وقد ارسلوا جميعا شعورهم ولحاهم ، ووضعوا النظارات عــلى عيونهم . انهم الفوضويون من هيئة الاركان والقسم السياسى .

٨

عاشت داشا تليغينا خمسة اشهر وحيدة فى غرف خالية . حين خرج ايفان ايليتش الى الجبهة ترك لها الف روبل ، الا ان هذه النقود لم تكف وقتا طويلا . ومن حسن الحظ ان اجنبيا حاذقا يدعى ماته قد نزل فى شقة تقع تحت شقتها كان يقيم فيها موظف كبير من بطرسبورغ هرب مع عائلته فى كانون الثانى . وكان هذا الاجنبى يشترى اللوحات والاثاث واى شىء كان .

باعت داشا له السرير العريض لشخصين ، وبعض المخفورات ، والحليات الصينية . وتخلت بلا مبالاة عن الاشياء التى كانت تعبق بالرائحة القديمة والذكريات الماضية . لقد انتهى كل شىء من الماضى .

وقضت الربيع والصيف على النقود التى تسلمتها من بيع الاشياء . خلت المدينة . كانت الجبهة تبدأ وراء نهر سيسترا على بعد ساعة ركوبا بواسطة نقل من بطرسبورغ . انتقلت الحكومة الى موسكو . وكانت القصور تطل على نهر النيفا بنوافذها المحطمة الفارغة . ولم تكن الشوارع مضاءة . ولم تكن لرجال الميليشيا رغبة كبيرة فى الحفاظ على دعة البرجوازيين وهم الى زوال على اية حال . وفى الاماسى كان يظهر فى الشوارع اناس رهيبون لم يكن لهم وجود من قبل . كانوا يتطلعون فى النوافذ ويتجولون فى السلالم المظلمة محاولين تدوير قبضة الابواب . والعياذ بالله لو غفل بعض الناس ، ولم يقفلها بعشرات المزاليج والسلاسل . فقد كانت تسمع خشخشة ، ويدخل الشقة مجهولون قائلين : «ارفعوا ايديكم !» ويهجمون على الساكنين ، ويربطونهم بالاسلاك الكهربائية ، ثم يشدون الغنيمة بصرر غير متعجلين .

وظهرت الكوليرا فى المدينة . وحين نضجت الاعناب عم الرعب . تساقط الناس فى الشوارع والاسواق يتلوون من الالم . وجرى التهامس فى كل مكان . وتوقع الناس بلاء شديدا . وقالوا ان رجال الجيش الاحمر يضعون النجوم الخماسية معكوسة على قبعاتهم – وتلك علامة المسيح الدجال – وزعموا ان «الرجل الابيض» صار يظهر فى الكنيسة الصغيرة المغلقة على جسر الضابط شميدت ،

وهذا يعنى ان المصائب متوقعة من البحر . ومن الجسور كان الناس يشيرون الى مداخن المصانع الخامدة التى كانت تبدو فى الشفق القرمزى مثل «اصابع الشيطان» .

واغلقت المعامل . وانضم العمال الى فرق التموين ، او ذهبوا الى الريف . وطلع العشب بين بلاطات الشوارع .

ولم تكن داشا تخرج من البيت كل يوم ، واذا خرجت ففى الصباح الى السوق حيث طلبت المضاربات الفنلنديات الوقحات على البود * الواحد من البطاطس بنطلونين . وكان غالبا ما يأتى رجال الحرس الاحمر الى السوق ، ويفرقون بقايا النظام البرجوازى باطلاق النار فى الهواء : الفنلنديات مع بطاطسهن ، والسيدات بصررهن من ثياب الرجال وستائر النوافذ . وصار الحصول على الطعام يزداد صعوبة من يوم الى يوم . واحيانا كان يسعفها ماته هذا بان يبادلها المعلبات والسكر بالاشياء العتيقة الثمينة .

كانت داشا تحاول ان تقلل من طعامها لتقلل من اتعابها . كانت تستيقظ فى ساعة مبكرة ، وتخيط شيئا اذا وجدت خيوطا ، او تتناول كتابا مطبوعا فى عام ١٩١٣ او ١٩١٤ ، وتقرأ لمجرد الا تدع عقلها يفكر . ولكنها كانت تفكر فى اكثر الاوقات وهى جالسة الى النافذة ، او بالاحرى كان فكرها يحوم حول نقطة داكنة . سورتها النفسية قبل مدة ، يأسها ، حنينها ، فكان كل شىء قد تكور الآن فى هذه الكتلة الغريبة فى عقلها ، عقابيل مرض . وقد نحلت نحولا شديدا حتى اصبحت كفتاة فى السادسة عشرة . انها قد احست وكأنها انقلبت الى فتاة ، ولكن بلا لعب الفتاة .

وكان الصيف ينقضى . وانتهت الليالى البيضاء ، وامسى الغروب وراء كرونشتادت اكثر كآبة . ومن النافذة المفتوحة فى الطابق الخامس كانت تنداح الى مسافة بعيدة الشوارع الآخذة بالاقفار عند هبوط المساء ، ونوافذ البيوت المظلمة . ولم تكن الاضواء تنار . ونادرا ما تسمع خطوات عابر سبيل .

وكانت داشا تفكر : ماذا سيكون بعد الآن ؟ متى ينتهى هذا الجمود ؟ عن قريب سيأتى الخريف والامطار ، وتعول الريح

* بود يساوي ١٦,٣٨ كيلوغراما . ــ المترجم .

الباردة فوق السطوح من جديد . ولا يوجد حطب . والمعطف الفرائى قد بيع . ربما يعود ايفان ايليتش . . . ولكن الوحشة تاتى من جديد ، ذبالات المصباح المحمرة ، الحياة التى لا فائدة منها .

ليتها تجد القوة ، وتحطم الجمود ، وتخرج من هذا البيت الذى تدفن فيه حية ، وتغادر هذه المدينة المحتضرة ! . . عندئذ لا بد ان يحصل شىء جديد فى الحياة . . . ولاول مرة فى هذه السنة فكرت داشا بـ«الجديد» ، وجدت نفسها تفكر بذلك ، واضطربت ودُهشت ، وكانما عاد يلوح من خلال ستار الجزع القانط ألق الرحابة البراقة ، لذلك الذى داعب آمالها فى تلك الباخرة على الفولغا .

ثم جاءت ايام الاسى على ايفان ايليتش . بدات تشفق عليه بطريقة جديدة ، اشفاق الاخت . وتذكرت باسف همومه الصابرة ، وطيبة قلبه التى لا تضايق احدا على اية حال .

عثرت داشا فى خزانة الكتب على ثلاثة مجلدات بيضاء تضم اشعار بيسونوف . انها ذكرى خمدت كليا . وقراتها قبيل المساء ، فى السكون ، حين كانت الخطاطيف تتطاير حول النافذة كالخطوط السوداء . ووجدت فى الاشعار كلمات عن اساها ، عن وحدتها ، عن الريح القاتمة التى ستصفر فوق قبرها . . . وغرقت داشا فى احلامها ، وبكت . وفى الصباح اخرجت من الصندوق بين النفتالين الثوب الذى خاطته لزفافها ، وبدات تعيد خياطته . وكانت الخطاطيف تطير ، كما فى الامس ، والشمس شاحبة الضوء . وفى السكون ترامت من بعيد ضربات نادرة ، واحيانا هبدة ، وكان شيئا ثقيلا يسقط على الرصيف . لعل بيتا خشبيا يحطم فى شارع جانبى .

اخذت داشا تخيط على مهل . وكان الكشتبان يخرج مرارا من اصبعها الناحلة وكاد يسقط ذات مرة من فوق النافذة . وتذكرت يوم جلست مع هذا الكشتبان على الصندوق فى رواق شقة اختها ، وهى تاكل المربى بالخبز . كان ذلك فى عام ١٩١٤ . وكانت كاتيا قد تخاصمت مع زوجها ، وقد تهيات للسفر الى باريس . كانت ترتدى قبعة صغيرة فيها ريشة صغيرة رقيقة . وبينما كانت

عند الباب التفتت ورات داشا قاعدة على الصندوق ، فقالت : «داشينكا ، تعالى معى . . .» ولكن داشا لم تسافر . اما الآن . . . فلو تنتقل الى باريس . كانت داشا تعرفها من رسائل كاتيا : زرقاء حريرية عاطرة كعلبة عطور . . . راحت تخيط وتتنهد من الانفعال . ان تسافر ! . . يقولون ان القطارات معدومة ، ولا يسمح بالسفر الى الخارج . . . ودت لو تذهب مشيا ، تسير والحقيبة على ظهرها عبر الغابات والجبال والحقول والانهار الزرقاء المياه ، متنقلة من بلد الى آخر ، حتى المدينة الرائعة الانيقة . . .

وتساقطت الدموع من عينيها . اية حماقة ، آه ، اية حماقة ! الحرب تجرى فى كل مكان . والالمان يطلقون النار على باريس من مدفع هائل . مجرد احلام ! امن العدل الا تتاح للانسان حياة هادئة مفرحة . . . «ماذا فعلت لهم ؟ . .» وقع الكشتبان تحت الكرسى . ولمعت الشمس من خَلَل الدموع ، وانطلقت الخطاطيف بصفير فارغ . ما يهم هؤلاء بشىء ، فقط ان يتوفر ذباب وبعوض . . . «ولكننى ساسافر على اية حال !» – قالت لنفسها وهى جاهشة . . .

ثم ترددت طرقات متقطعة ملحاحة على الباب فى الرواق . وضعت داشا ابرتها والمقص على افريز النافذة ، ومسحت عينيها بلفة خياطتها ، والقتها على المقعد ، وذهبت لتسال من الطارق . . .

– هل داريا دميتريفنا تليغينا تعيش هنا ؟ . .

وبدلا من ان تجيب انحنت على فتحة المفتاح . ومن الجانب الآخر انحنى شخص على هذه الفتحة ايضا ، وقال صوت حذر : «لها رسالة من روستوف . . .» اسرعت داشا لفتح الباب . دخل رجل غريب فى معطف جندى مدعوك ، وقبعة مشقوقة . خافت داشا ، وتراجعت ، ومدت يديها . قال الرجل بعجالة :

– بحق الرب ، يا داريا دميتريفنا ، الم تعرفينى ؟ . .

– لا ، لا . . .

– كوليتشيك ، نيكانور يوريفيتش . . . مساعد المحامى . هل تذكرين سيسترورتسك ؟

انزلت داشا يديها ، وحدقت فى وجهه النحيل المدبب الانف الذى لم يحلق منذ زمن . كانت الغضون عند العينين المنتبهتين

السريعتين تنم عن عادة الحذر ، والفم الغريب الشكل عن التصميم والقسوة . كان يشبه وحشا صغيرا يتوجس خطرا .

– أمن المعقول انك نسيت ، يا داريا دميتريفنا . . . كنت آنذاك مساعد المرحوم نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف زوج اختك . . . كنت مغرما بك ، وقد صددتنى صدا قويا . . . هل تذكرين ؟ – وابتسم فجأة بسمة منسية ، بسمة «ما قبل الحرب» ببساطة قلب . واذا بداشا تتذكر كل شيء : الشاطئ الرملى المنبسط ، والغبش الشمسى فوق الخليج الداقئ الناعس ، وتذكرت نفسها «الشانكة» والعقدة الصبوية على الفستان ، وكوليتشيك العاشق ، الذى كانت تزدريه من كل عفافها المتشامخ . . . ورائحة اشجار الصنوبر العالية التى كانت تحف ليل نهار بعظمة على الكثبان الرملية . . .

قالت داشا بصوت مرتجف :

– لشدّ ما تغيرت .

ومدّت يدها له . امسكها كوليتشيك بخفة وقبلها . كان يبدو ، رغم المعطف العسكرى القذر ، انه كان يخدم فى سلاح الفرسان طوال هذه السنوات .

– اسمحى لى ان اقدم لك الرسالة . اسمحى لى ان اخلع حذائى فى مكان ما . . . لقد وضعتها ، وارجو المعذرة ، فى لفافة الساق – ونظر نظرة ذات مغزى ، ودخل وراء داشا الى غرفة فارغة حيث جلس على الارض ، واخذ يسحب حذاءه الطويل الملطخ بالقذر وهو يغضن وجهه .

كانت الرسالة من كاتيا ، وهى نفس الرسالة التى سلمتها كاتيا الى المقدم تيتكين فى روستوف .

صاحت داشا من السطور الاولى التى قراتها ، وامسكت برقبتها . . . فاديم قُتِل ! . . وطوفت ببصرها فى الرسالة مستعجلة عينيها . واعادت قراءتها بنهم . وجلست على ذراع المقعد خائرة القوى . كان كوليتشيك يقف على انفراد متواضعا .

– نيكانور يوريفيتش ، هل رأيت اختى ؟

– لا . سلمت الىّ الرسالة قبل عشرة ايام من قبل شخص . وقد ذكر ان يكاترينا دميتريفنا غادرت روستوف منذ شهر . . .

– ياآلهى ! اين هى الآن ؟ ماذا حصل لها ؟

– مع الاسف لم يكن فى الامكان الاستفسار عن ذلك .

– هل كنت تعرف زوجها ؟ فاديم روتشين ! . . قُتِل . . . كاتيا تكتب . . . آه ، ما افظع ذلك !

رفع كوليتشيك حاجبيه بدهشة . كانت الرسالة تهتز بيدها النحيلة اهتزازا شديدا حتى انه تناولها ، ومرر عينيه على السطور التى كانت تتحدث عن فاليريان اونولى الذى روى لها مصرع زوجها . . . ارتفع طرف فم كوليتشيك الى الاعلى بحركة غاضبة :

– كنت دائما اعتقد ان اونولى قادر على السفالة . . . يستدل من اقواله ان روتشين قتل فى ايار . اليس كذلك ؟ انه لغريب . . . يخيل الىّ اننى رأيته فى وقت متاخر عن ذلك بعض الشيء .

– متى ؟ اين ؟

الا ان كوليتشيك مد انفه الكاسر ، وتفرس فى داشا بنظرة فاحصة شائكة . وقد استمر كل ذلك ثانية واحدة . كانت عينا داشا الملتهبتين بالانفعال واصابعها الباردة المتشابكة تقول باوضح الوضوح انها لن تخونه ، ولو كان زوجها ضابطا أحمر ، فليكن على ثقة من ذلك . سأل كوليتشيك متقدما من عينى داشا :

– لا يوجد فى الشقة غيرنا ؟ (هزت داشا راسها بسرعة : لا ، لا .) اسمعى ، يا داريا دميتريفنا ، ما سأقول لك يجعل حياتى متوقفة على . . .

– هل انت من ضباط دنيكين ؟

– نعم .

طقطقت داشا باصابعها ، ونظرت بوحشة فى النافذة ، فى الزرقة التى لا يمكن بلوغها .

– ليس عندى ما يخيفك . . .

– كنت واثقا من ذلك . . . اريد ان اسألك مبيتا عندك لعدة ايام .

قال ذلك بصرامة بل بتهديد تقريبا . اطرقت داشا براسها .

– حسنا . . .

– ولكن اذا كنت خائفة . . . (وقفز متراجعا .) لست خائفة ؟ (وتقدم .) انا فاهم ، فاهم . . . ولكن لا شيء تخافينه . . . انا حذر جدا . . . سأخرج في الليل فقط . . . لا احد يعرف انني في بتروغراد . . . (واخرج من بطانة القبعة هوية جندي .) هذه . . . ايفان سفيتشيف . جندي احمر . . . وثيقة حقيقية . تخلصت منه بيدي واخذتها . . . تريدين ان تعرفي عن فاديم بتروفيتش . . . اظن ان هناك بعض البلبلة .

امسك كوليتشيك يدي داشا وضغط عليها :

– اذن ، فانت معنا ، يا داريا دميتريفنا ؟ اذن ، شكرا . ان جميع المثقفين ، جميع الضباط المهانين المعذبين ينضمون تحت راية جيش المتطوعين المقدسة . انه جيش الابطال . . . وسترين ان روسيا ستنقذ ، ستنقذها الايدي البيضاء . اما تلك البراثن الخشنة فلترتفع عن روسيا ! كفى عواطف . الشعب الكادح ! لقد قطعت منذ حين الف وخمسمائة فرسخ على سطح عربة ، ورأيت الشعب الكادح ! وحوش ! وانا اؤكد لك اننا وحدنا ، الزمرة القليلة من الابطال ، نحمل في قلوبنا روسيا الحقيقية . وسندق قانوننا بالحربة على مدخل قصر تافريتشسكي .

واحست داشا بان سيل الكلمات يصم اذنها . . . شق كوليتشيك الهواء بظفره الاسود ، وتتطاير الزبد من طرفي فمه . على الاغلب انه اضطر الى لزوم الصمت وقتا طويلا وهو على سطح العربة .

لا اخفي عليك شيئا ، يا داريا دميتريفنا . . . انا مرسل الى هنا ، الى الشمال للاستخبارات والتجنيد . ان الكثيرين لا يتصورون حتى الآن قوتنا . . . نحن في صحفكم مجرد عصابات من الحرس الابيض ، حفنة ضئيلة ستمحى في القريب العاجل عن وجه الارض . . . فلا غرابة ان يخاف الضباط الانضمام الينا . . . ولكن أتعرفين ما يجري في منطقتي الدون وكوبان في واقع الامر ؟ ان جيش اتمان الدون يكبر مثل كتلة الثلج . وقد طهرت محافظة فورونيج من الحمر ، وستافروبول مهددة . . . ومن يوم الى يوم ننتظر ان يخرج الاتمان كراسنوف على الفولغا ، ويستولي على تساريتسين . . . حقا انه يتعاون مع الالمان ، ولكن ذلك شيء

موقت . . . ونحن رجال دنيكين نزحف على جنوب كوبان ، وكأننا في استعراض . وقد استولينا على تورغوفايا وتيخوريتسكايا وفيليكوكنياجيسكايا . وقد مُزق سوروكين تمزيقا . وجميع قرى القوزاق ترحب بجيش المتطوعين بحفاوة . وبالقرب من بيلايا غلينا خضنا معركة ضارية ، وزحفنا على تلال من الجثث حتى ان خادمك المطيع خوّض بالدم حتى الحزام .

شحبت داشا وهي تنظر في عينيه . وضحك كوليتشيك بعظمة :

– أتظنين ذلك كل شيء ؟ ان ذلك بداية التنكيل . يشمل الحريق البلاد كلها . محافظات سامارا واورنبورغ واوفا ، والاورال كله في لهب . واحسن جزء من الفلاحين ينظم بنفسه جيوشا بيضاء . والفولغا الوسطى كلها في ايدي التشيكيين . والانتفاضة شاملة من سامارا الى فلاديفوستوك . ولو لا الالمان الملاعين لهبت اوكرانيا كلها هبة رجل واحد . ومدن حوض الفولغا الاعلى تشبه اقبية معبأة بالديناميت لا يعوزها الا ان يشعل الفتيل فيها . . . ولا اقدر للبلاشفة من الحياة شهرا واحدا ، ولا اراهن على البلاشفة حتى بقشة .

وكان كوليتشيك يرتعش من الانفعال . ولم يعد يبدو وحشا صغيرا . حدقت داشا في وجهه المدبب الانف الملفوح بريح السهوب ، والمقسى بنار المعارك . لقد كان هذا حياة حارة دخلت مندفعة الى وحدتها الشفافة . شعرت داشا بتصدع شديد في صدغيها ، وخفقان في قلبها . وعندما بدأ يلف لفافة من الماخوركا مبديا اسنانا صغيرة سألت داشا :

– ستنتصرون . ولكن الحرب لن تستمر الى الابد . . . فماذا سيكون بعد ذلك ؟

– ماذا بعد ذلك ؟ – ومصّ من سيكارته وقلص عينيه . – الحرب ضد الالمان حتى النصر النهائي ، والمؤتمر السلمي الذي سندخل فيه ابطالا عظاما . وبعد ذلك وبالقوى المشتركة للحلفاء ولاوروبا كلها نعيد روسيا : النظام والقانون ، والبرلمانية ، والحريات . . . ذلك في المستقبل . . . ولكن في المستقبل القريب . . .

وفجأة امسك بالجهة اليمنى من صدره . وتلمس شيئا من تحت معطفه . واخرج كارتونة مقطوعة نصفين هى عبارة عن غطاء علبة سكائر ، وادارها باصابعه . ووخز وجه داشا بحدقتيه مرة اخرى .

– لا استطيع ان اجازف . . . والمقصود . . . عندكم تفتيش فى الشوارع . . . سأعطيك شيئا . – ونشر الكارتونة بحذر ، واخرج منها مثلثا صغيرا مقطوعا من بطاقة زيارة خط عليه باليد حرفا : «و» و«ك» . . . وقال : خبئى هذا ، يا داريا دميترييفنا ، واحرصى عليه كحرز مقدس . . . وسأعلمك كيف تستخدمينه . . . اعذرينى . . . الا تخافين ؟

– لا .

– نعم الفتاة انت !

ووقعت داشا ببساطة ودون وعى مدفوعة بارادة جارفة فى صميم مؤامرة ما يسمى بـ«اتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» التى شملت العاصمتين وعددا من مدن روسيا الكبرى .

كان سلوك كوليتشيك – عميل قيادة دنيكين – اهوج لا يكاد لا يصدق : ان يكشف نفسه بصراحة ومن الكلمات الاولى لامرأة قليل المعرفة بها ، هى زوجة ضابط احمر . الا انه كان فى وقت ما يعشق داشا ، والآن لم يستطع ، وهو ينظر فى عينيها الرماديتين ، الا ان يصدق بان عينيها تقولان : «ثق بى» .

فى ذلك الحين كان الحماس ، وليس التروى الهادئ ، هو الذى يحرك ارادة الناس . كانت زوبعة الاحداث تعصف والخضم الانسانى يهدر ، وكل انسان يحس بانه منقذ السفينة الهالكة ملوحا بمسدسه وهو على السطح المهتز موعزا بان تدار الدفة يمينا او يسارا . وكل ذلك كان مجرد وهم . كان سراب يصوره الحرس الابيض يطوف حول روسيا المترامية الاطراف . وقد غشت الكراهية على العيون . وكل ما كانوا يبتغونه كان يظهر فورا فى صورة بهارج السراب الخيالى .

وهكذا بدا هلاك البلاشفة الوشيك امرا غير مشكوك فيه .

فقد تبين ان قوات المتدخلين قد دخلت من الجهات الاربع لمساعدة الجيوش البيضاء ، وان مائة مليون فلاح روسى كانوا مستعدين ليصلوا للجمعية التاسيسية ، وان مدن الامبراطورية الموحدة غير القابلة للتجزئة لا تنتظر غير الاشارة لتفرق السوفييتات ، وتعيد ، فى اليوم التالى ، النظام والشرعية البرلمانية .

وكان الجميع يخدعون انفسهم ويتعلقون بالخيالات ابتداء من سيدات بطرسبورغ الهاربات الى الجنوب ومعهن تبديلة واحدة من الثياب الداخلية الى البروفيسور ميلوكوف الحكيم بالابتسامة المتعاظمة ينتظر نهاية الاحداث التى انتظمها بنفسه فى رؤية تاريخية .

كان ما يسمى بـ«اتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» واحدا من المؤمنين فى الخيالات المطمئنة . وكان قد تاسس فى بداية ربيع عام ١٩١٨ من قبل بوريس سافينكوف بعد انتحار الاتمان كاليدين المعين ، وخروج جيش كورنيلوف من روستوف . وكان الاتحاد بمثابة منظمة سرية لجيش المتطوعين .

وكان يراسه سافينكوف المراوغ المتخفى الذى كان يجوب موسكو بشاربيه المصبوغين ، ويرتدى السترة الانجليزية ، وطماقا اصفر ومعطفا بلون كاكى . وكان الاتحاد منظما على الطريقة العسكرية : هيئة اركان ، وفرق ، والوية وافواج واستطلاع وكافة الخدمات . وكان العقيد بيرخوروف يدير مؤسسات هيئة الاركان .

كان تعبئة الى عضوية الاتحاد يجرى فى سرية شديدة . والشخص الواحد لم يكن يستطيع ان يعرف غير اربعة اشخاص ، فلا يمكن فى حالة الانكشاف غير اعتقال خمسة اشخاص ، ولا تكتشف خيوط اكثر . وبقى عنوان المقر واسماء الزعماء سرية للجميع . وكان رئيس الفوج او الوحدة يذهب الى بيوت الراغبين فى الانضمام الى الاتحاد ، ويستفسر ويقدم النقود كعربون ، ويسجل فى بطاقته اسمه وعنوانه بالشفرة . وكانت هذه البطاقات الحاوية على دوائر تحدد عدد الاعضاء وعلى عناوين ترسل اسبوعيا الى هيئة الاركان . وكان استعراض القوات يجرى فى البولفارات بالقرب من النصب التذكارية ، وبالاضافة الى ذلك كان على اعضاء المنظمة ان يرتدوا معاطف عسكرية مزررة بطريقة خاصة او يشدوا شريطا فى

موضع معين من المعطف . وكان الذين ينفذون الاتصال يميزون بمثلث مقصوص من بطاقة زيارة عليه حرفان يعني الاول منهما كلمة السر ، والثاني المدينة . وعند اظهار المثلث يوضع على البطاقة التي قطع منها . وكانت لدى الاتحاد قوات كبيرة من الاستخبارات . وفي المؤتمر السري الذي عقد في نيسان تقرر وقف اعمال التخريب ، والتحول الى العمل في المؤسسات السوفييتية . وبهذه الصورة نفذ اعضاء الاتحاد الى وسط جهاز الدولة . وانتظم قسم منهم في ميليشيا موسكو . ودُسَّ في الكريملين ممثل لهم . كما تسللوا الى الرقابة العسكرية ، بل وحتى الى المجلس العسكري الاعلى . وكما يبدو شملت شبكاتهم الكريملين بقوة .

وفي ذلك الوقت كان استيلاء القوات الالمانية بقيادة الفيلدمارشال ايخغورن يبدو امرا محتوما . وبالرغم من ان الشعور الموالي للالمان كان قويا بين اعضاء الاتحاد – الوثوق فقط في الحراب الالمانية – فان الميل العام كان نحو الحلفاء . بل وان هيئة اركان للاتحاد حددت اليوم الذي سيهجم فيه الالمان على موسكو ، وهو الخامس عشر من حزيران . ولهذا السبب تقرر التخلي عن الاستيلاء على الكريملين وموسكو ، والخروج بقوات الاتحاد الى قازان ، ونسف جميع الجسور ، ومضخات الخزانات المائية في ضواحي موسكو ، واثارة الانتفاضات في قازان ونيجني وكوستروما وريبينسك وموروم ، والتوحد مع التشيكيين ، وتشكيل الجبهة الشرقية بالاعتماد على الاورال ومناطق ما وراء الفولغا الغنية .

صدقت داشا بكل ما قاله كوليتشيك : الوطنيون الروس ، او كما سماهم بفرسان الروح كانوا يحاربون في سبيل القضاء على المضاربات الفنلنديات الوقحات اللواتي يتاجرن بالبطاطس ، واضاءة شوارع بطرسبورغ اضاءة باهرة يسير فيها جمهور مبتهج انيق ، في سبيل ان يستطيع المرء في اية لحظة جزع ان يرتدي قبعة بريشة ، ويسافر الى باريس . . . ولكي يقضي على النطاطين قرب الحديقة «ليتني» ، ولا تعود الريح الخريفية تصفر على قبر ابن داشا .

لقد وعدها كوليتشيك بكل ذلك في حديثه وهو يحتسي الشاي . كان جائعا كالكلب اتى على نصف المؤنة من المعلبات ،

بل واكل الطحين مع الملح . وعند هبوط الظلام اختفى دون ان يُلحظ بعد ان اخذ مفتاح الباب .

ذهبت داشا لتنام . اسدلت الستارة على النافذة ، واستلقت . وكما يحدث في ساعات الارق المرهقة تدفقت الافكار والصور والذكريات والحدوس المفاجئة ، والندامات الحارة متزاحمة يسابق بعضها بعضا . . . تقلبت داشا ، وحشرت يديها تحت ابطيها ، واضطجعت على ظهرها ، وعلى بطنها . . . لذعتها البطانية وانغرزت لوالب الاريكة في جنبها ، ووقعت الاغطية على الارض . .

كانت ليلة مزعجة طويلة كالعمر . انتعشت البقعة الداكنة في ذهن داشا من جديد ، وارسلت جذيراتها السامة في التلافيف الخفية . ولكن لِمَ كل هذه الندامات والشعور بالخطا الفظيع ، بالذنب ؟ ليتها تفهم !

وبعد ذلك ، حين ازرورقت الستارة على النافذة تعبت داشا من الدوران في دوامة الافكار الخيالية ، وضعفت . وبعد ان هدات اخذت تعاقب نفسها بصراحة ونزاهة من البداية حتى النهاية . وشطبت على كل شيء في نفسها .

جلست على الفراش ، وجمعت شعرها في عقصة ، ودبسته ، والقت ذراعيها العاريتين النحيلتين على ركبتيها ، وانشأت تفكر . . . امراة وحيدة حالمة باردة لم تحب احدا ، فلتذهبي الى الجحيم ، وداعا . انت لا تثيرين شفقة . . . حسنا فعل النطاطون حين اخافوك عند الحديقة «ليتني» . لم يخيفوك الا قليلا ، كان من الافضل ان يخيفوا اكثر . . . الآن اختفي . . . الآن طيري مع الريح ، يا روحي ، الى حيث يأمرون ، وافعلي ما يطلبون منك . . . لا ارادة لك . انت واحدة من ملايين عديدة . . . فاية سكينة واي انعتاق ! . .

لم يعد كوليتشيك يومين وليلتين . وكان قد جاء في غيابه عدة اشخاص جميعهم ضخام في ستر مهترئة كانوا ينحنون على ثقب المفتاح ، ويقولون كلمة السر . وكانت داشا تدعهم يدخلون .

وبعد ان يعرفوا ان «ايفان سفيتشيف» غير موجود في البيت كانوا لا يخرجون راسا . كان بعضهم يشرع فجأة في الحديث عن مصائبه العائليـــة ، والبعض الآخر يطلب الاذن بـــان يدخن سيكارة ، ويخرج بحذر ونعومة تبغا سوفييتيا كريه الرائحة من علبة سكائر عليها رموز ويلعن بفحش «نواب السرطانات والكلاب» وهو يشدد على «الراء» في الكلمات . وينفلت ثالث في صراحة فيقول ان زورقه البخاري مهيأ في جزيرة كريستوفسكي ، عند قصر بيلوسيلسكي-بيلوزيرسكي ، وقد استطاع ان ينتزع اشيـاء ثمينـــة من الخزنة ، الا ان اطفاله يعانون السعــــــال الديكي . . . من سوء الحظ ! . .

والظاهر ان الجميع كانوا يميلون الى التحدث مع هذه المرأة الشابة الرقيقة النحيلة ذات العينين الواسعتين . وكانوا يقبلون يديها حين ينصرفون . وكان الشيء الوحيد الذي يدهش داشا هو سذاجة هؤلاء المتآمرين ، وكانما هم ابطال مسرحية كوميديـــة سخيفة . . . وكانوا جميعا تقريبا يستفسرون بعبارات حذرة : الم يجلب «ايفان سفيتشيف» المال ؟ وفي آخر الأمر اضحوا واثقين كل الثقة من ان «حكاية البلاشفة الحمقاء» ستنتهي قريبـــــــا جدا . «سيحتـــل الالمان بتروغراد ، والأمـــر لا يحتاج الى جهود» .

وجاء كوليتشيـك اخيرا ، جـاء جائعا مرة اخرى قذرا شديد الاستغراق في افكاره . وسأل عمن جاء في غيابه . فاطلعته داشا على ذلك بالتفصيل . فكشر عن اسنانه :

— السفلة ! جاءوا يطلبون الفلوس . . . ويسمون انفسهم حرسا ! يتكاسلون عن رفع عجيزاتهم الارستقراطية عن الكرسي ، ويرغبون في ان ياتي الالمان ليحرروهـم قائلين لهم : تفضلوا ، يا سادة ، ها نحن قد شنقنا البلاشفة ، وكل شيء على ما يرام . . . شيء فاضح ، فاضح . . . من بين مائتي الف ضابط لـم يبق من ابطال الروح غير ثلاثة آلاف عند دروزدوفسكي ، وحوالي ثمانية آلاف عند دنيكين ، وخمسة آلاف عندنا في «اتحاد الدفاع عن الوطن» . هذا كل شيء . . . فاين الآخرون ؟ باعوا ارواحهـــم وضمائرهم للجيش

الاحمر . . . وبعضهم يصنع صبغ الاحذية ، ويتاجر بالسكائر . . . وجميع ضباط هيئة الاركان تقريبا لدى البلاشفة . . . يا للعار ! . .

واكل الطحين مع الملح ، وشرب ماء مغليا ، وذهب لينام .

وفي الصباح الباكر ايقظ داشا . لبست داشا ملابسها على عجل ، وخرجت الى غرفة الطعام فوجدته يتخطى سريعا بالقرب من المائدة متجهم الاسارير . صاح على داشا نافد الصبر :

— مثلا انت ؟ ايمكنك ان تجازفي وتضحي بالشيء الكثير ، وتقاسي آلاف المصاعب ؟ . .

— نعم ، — قالت داشا .

— انا لا اثق باحد هنا . . . وصلت انباء مقلقة . . . ويجب السفر الى موسكو ، فهل تسافرين ؟

رمشت داشا ، ورفعت حاجبيها فقط . . . تقدم كوليتشيك نحوها بعجالة ، واجلسها الى المائدة ، وجلس قريبا تماما ويمسها بركبتيه ، واخذ يشرح لها منْ يجب ان تقابل في موسكو ، والكلمات التي تنقلها اليه عن منظمة بتروغراد . وغرز الكلمات في ذاكرة داشا متحدثا بضراوة بطيئة . وجعلها تكرر . فاعادت الكلمـــات طائعة .

نهض واقفا وفرك يديه بقوة قائلا :

— عظيم ! ذكية ! نحن بحاجـة الى امثالك بالذات . والآن ماذا عن شقتك ؟ قولي للجنة المساكن انك مسافرة الى لوغا لمدة اسبوع ، وسأبقى هنـــا بضعة ايام اخرى ، ثم اعطي المفتاح الى الرئيس . . . حسنا ؟

ودار راس داشا من كل هذه العجلـة . واحست مدهوشـة بانها مستعدة دون اعتراض الى ان تسافر الى حيث يشـاء ، وتفعل ما تؤمر به . . . وعندما ذكر كوليتشيك الشقـة التفتت داشا الى الصـوان من خشب القيقب وهي تفكـر : «صوان كريـه موحش كالتابوت . . .» وتذكرت الخطاطيف التي اغرتها ذات مرة بالفضـاء الازرق . وتصورت ان السعادة قد طارت من هذا القفص المترب الى حياة وحشية طليقة . . . قالت :

— الشقة ؟ ربما لا اعود اليها . فافعل ما يحلو لك .

كان من بين الذين جاءوا فى غياب كوليتشيك شخص طويل القامة طويل الوجه متدلى الشاربين مؤدب اجلس داشا فى عربة للدرجة الثالثة تهشم زجاج جميع نوافذها . انحنى عليها ، واسر اليها فى اذنها بصوت عميق : «خدماتك لن تنسى» واختفى فى الزحام . وقبيل تحرك القطار مر به اناس يتراكضون وتسللوا من النوافذ وصررهم فى اسنانهم . وازدحمت العربة كليا . ركب الناس فى الاماكن المخصصة للحقائب ، وانسلوا تحت التخوت ، وهناك اشعلوا اعواد ثقاب ، ودخنوا الماخوركا بتلذذ تام .

سار القطار ببطء قرب المستنقعات الضبابية ومداخن المصانع المنطفئة ، والبرك المغطاة بالصوفة ، وتراءى من بعيد مرتفع بولكوفو فى ضوء الشمس حيث كان الفلكيون المنسيون من العالم كله وغلازيناب نفسه بسنه السبعين يتابعون تعداد النجوم فى الكون . ومرت شجيرات الصنوبر الغضة والاشجار الكبيرة والبيوت الريفية . وفى المحطات لم يسمحوا لأحد بركوب العربة ووضعت الحراسة المسلحة . وحلت الطمانينة فى العربة الآن رغم صخبها .

كانت داشا تجلس محصورة بين جنديين من جنود الجبهة . ومن التخت الاعلى دلى احدهم راسه مرحا وظل مشتبكا بحديث لا يكاد ينقطع .

– ثم ماذا ؟ – سالوا من التخت وهم يغصون بالضحك – وكيف انتم ؟

كان فلاح اعور نحيل متدلى الشاربين غير حليق الوجه ذو قبعة من القش يجلس مقابل داشا بين امراتين صامتتين غارقتين فى التفكير . كان القميص الذى يرتديه من خيش الزكائب ، مشدودا حول عنقه بشريط . وقد تدلى من حزامه مشط وقطعة من قلم حبر النسخ ، وتحت صدر قميصه اوراق .

لم تعر داشا انتباها الى الحديث فى بادىء الأمر . ولكن حديث الاعور كان يبدو جذابا جدا . وبالتدريج استدارت الرؤوس نحوه من جميع التخوت ، وهدات الضجة فى العربة اكثر من ذى قبل . وقال الجندى ذو البندقية بثقة :

– لقد فهمتكم . بكلمة واحدة انتم من الانصار ، من جماعة ماخنو .

صمت الاعور قليلا مبتسما فى شاربيه بخبث :

– اراكم قد سمعتم بالاخبار ، ولكن ليس بالشكل الصحيح . ووضع يده المعروقة تحت شاربيه منحرفة ، وكانه ليزيل ابتسامته ، وقال فى شىء من المهابة :

– عند ماخنو تنظيم كولاكى . وهو يعمل فى منطقة يكاترينوسلافل لا احد يملك هناك اقل من مائة فدان ، اما نحن فشىء آخر . نحن انصار حمر . . .

سال ذو الوجه المرح :

– وماذا تفعلون ؟

– منطقة عملياتنا محافظة تشيرنيغوف ، واقضية نيجين الشمالية . مفهوم ؟ ونحن شيوعيون . نحن لا نفرق بين الالمان ومالك الارض البولونى ، وغايداماك الهيتمان ، والكولاك من قريتنا . . . يعنى لا يجوز ان تخلطنا مع جماعة ماخنو . مفهوم ؟

– نعم ، فهمنا ، ولسنا اغبياء . فاكمل حديثك .

– تكملة الحديث ان عزائمنا قد خارت بعد القتال مع الالمان . وتراجعنا فى غابات كوشيليف ، ونفذنا الى احراش لا يعيش فيها غير الذئاب . واسترحنا قليلا . واخذ الناس من القرى المجاورة يفدون الينا . وقالوا ان الحياة صارت متعذرة عليهم وان الالمان اخذوا يطهرون المنطقة من الانصار بشكل جدى . وساعد الغايداماك الالمان فى ذلك ، فما يمر يوم دون ان يهجموا على قرية ، ويجلدوا كل من يشير اليه الكولاك . وقد استبد الغيظ برجالنا من هذه الحكايات حتى ضاقت انفاسهم . وفى ذلك الوقت جاءت فصيلة اخرى ، واجتمع فى الغابة جيش كامل ، حوالى ثلثمائة وخمسين رجلا . وانتخبوا رئيسا للجماعة وهو الملازم الثانى غولتا احد الانصار من فيركييف . واخذنا نفكر فى الاتجاه الذى ستكون فيه عملياتنا المقبلة ، وقررنا ان نراقب نهر ديسنا . وكانت الذخيرة الحربية الى الالمان تمر عبر هذا النهر . وذهبنا ، واخترنا مكانا تضطر فيه السفن الى الاقتراب من الشاطىء تماما . وكمنا هناك . . .

وسال شخص من فوق :

– عظيم ، وماذا بعد ؟

– هكذا . تتقدم السفينة فيصيح صوت فى الصف الامامى منا : «قف !» . ولم يطع القبطان امرنا فاطلقنا القذيفة . وبالطبع ترسو السفينة على الشاطىء . فنصعد على متنها فى الحال ، ونضع الحرس ، ونقوم بتفتيش الهويات .

قال الجندى :

– حسب الاصول .

–والسفنية محملة بالسروج والعُدد . ينقلهـــا ضابطان برتبة عقيد ، احدهما رخوتماما ، والثانى شاب ذو فتوة . وبالاضافة الى ذلك توجد ادوية . وهذا ما نحتاج اليه . وقفت على ظهر السفينة احقق فى الهويات . فاذا بشيوعيين يتقدمان الىَّ هما بيتر وايفان بتروفسكى من مقاطعة بوروديانسك . وحدست فى الحال انه يجب الا اظهر انهما من معارفى . وعاملتهما بشكل رسمى وبجدية : «هوياتكما» . قدم بتروفسكى هويته لى ومعها مذكرة على ورقة سكائر جاء فيها : «الرفيق بيافكا ، انا اغادر مع اخى تشيرنيغوف ، ومسافر الى روسيا ، فارجو ان تكون بلا رافة معنا حتى لا تثير انتباه المحيطين بنا ، لأن حولنا جواسيس . . .» حسنا . . . بعد ان دققنا فى الهويات افرغنا العُدد والسروج والادوية ، وخمسة عشر صندوقا من النبيذ لتقوية جرحانا . ويجب ان نقول الانصاف فى حق طبيب السفينة ، فقد تصرف ببطولة . صاح : «لا استطيع ان اتخلى على الادويـة فان ذلك مخالف لجميع القوانين ، والعرف الدولى ايضا» . وقد اجبناه باختصــار : «نحن ايضــا عندنــا جرحى ، ومعنى ذلك ان العرف الانسانى لا الدولى يقتضى اعطاء الادوية ! . .» واعتقلنــــــا عشرة ضباط ، وانزلناهم الى الشاطىء ، وتركنــا السفينـة تمر . وعلى الشاطىء اخذ العقيد العجوز يبكى ويتوسل الا نقتله ، وعدد خدماته العسكرية . وفكرنا : «لماذا نمسه ، انه سيموت بنفسه قريبا» . واطلقنا سراحه تحت تأثير الشهامة . اما هو فركض الى الغابة . . .

ارسل الذى كان يدلى براسه من التخت قهقهة فرح . واستمر الاعور فى حديثه حين انتهت نوبة الضحك :

– والشخص الآخر ، وهو موظف لدى هيئة عسكرية ، ترك فى انفسنا انطباعا حسنا . فقد اجاب على جميع الاسئلـة بحماس ، وتصرف ببساطة ، فاطلقنا سراحه ايضا . . اما الآخرون فاخذناهم

الى الغابة . . . وهنـا رميناهم بالرصاص لأن احدا لم يرد ان يقول شيئا . . .

نظرت داشا الى الاعور مكتومـة الانفاس . كان وجهه هادئا متغضنا عن حزن . كانت عينه الوحيدة الرمادية التى شهدت احداثا بحدقتهـا الصغيرة تراقب بتفكير اشجار الصنوبر المارة من خلف النافذة . واستمر الاعور فى حديثه بعد وقت وجيز :

– لم نمكث طويلا على ديسنا . فقد التف حولنا الالمـان ، فتراجعنا الى غابات دروزدوف . ووزعنا الغنائم على الفلاحين . حقا ان كل واحد منا شرب قدحا من النبيذ ، ولكننا اعطينا الباقى الى المستشفى . فى ذلك الوقت كان كرابيفيانسكى يعمل الى يسارنـا ومعه فصيلـة كبيرة ، وكان الى يميننـا مارونيا ، وكانت مهمتنـا المشتركة شق طريقنا الى تشيرنيغوف ، واحتلالها بهجوم . ويا ليت كان لنـا اتصال جيد بين الفصائل . . . ولكن لم يكن ثمـة اتصال حقيقى . فتاخرنـا . وكان الالمـان فى كل يوم يرسلـون القـوات والمدفعية والخيالة ضدنا . فقد كان وجودنا يزعجهم كثيرا . كانوا ما ان يغادروا قرية حتى تشكل فى القرية لجنة ثورية ، ويعلق واحد او اثنان من الكولاك على جذع شجرة . . . وذات مرة ارسلونى الى فصيلة مارونيا لجلب نقود . فقد كنا بحاجـة ماسة اليها . . . كنا ندفع للسكان نقودا على المـواد الغذائيـة . وكان النهب ممنوعـا عندنـا وعقوبتـه المـوت . ركبت عربـة ، وذهبـت الى غابـات كوشيليف . وهناك تحدثت مع مارونيا عن شؤوننا ، وحصلت منه على الف روبل من عملة كيرينسكى ، وعدت راجعا . . . وبالقرب من قرية جوكوفكا ، وما كدت انزل الى الوادى حتى هاجمنى اثنان من الخيالة ، من دوريات اللجنة الثورية فى جوكوفكا . «الى اين ذاهب والالمان هنا ! . .» – «اين ؟» – «انهـــم يقتربون من جوكوفكا» . ورجعت . . . وخبأت الفرس فى حرش ، ونزلت من العربة . واخذنا نتناقش ماذا نفعل ؟ لا مجال ابدا لمقاومة جماهيريـة ضد الالمان . فقد كانوا يزحفون بطابور كامل ومعهم مدفعية . . .

قال الجندى :

– ثلاثة مقابل طابور أمر صعب .

– امر صعب تماما . فقررنا ان نخيف الالمان فقط . وزحفنا فى

حقل الجودار . ونرى امامنا جوكوفكا ، ومن غابة صغيرة يخرج طابور من مائتى شخص تقريبا ، ومدفعان وصف عربات ، وعلى مسافة اقرب الينا دورية من الخيالة . والظاهر ان شهرة الانصار هدرت هديرها حتى انهم ارسلوا ضدنا حتى المدفعية . استلقينا فى حدائق الخضروات . وكانت معنويتنا عالية ، نضحك مقدما . وتصير الدورية على بعد خمسين خطوة منا . واصدر أمرى : «كتيبة ، ارمى !» وطلقة وراءها اخرى . . . وانكفا حصان . ووقع الالمانى فى القرّاص . وانا صائح : النار ! وقلقلنا بالترابيس ، وضججنا وهدرنا . . .

تقلبت عينا الرجل المطل برأسه من التخت العلوى ، وضم فمه بيده منعا لانطلاق ضحكة او انفلات كلمة تعليق . وضحك الجندى راضيا .

– عادت الدورية خببا الى الطابور ، واستدار الالمان ، ودفعوا صفوفهم ، وانتقلوا الى الهجوم حسب الاصول . وفصلوا المدافع من عرباتها ، وانطلقت القنابل من عيار ثلاث بوصات على حدائق الخضروات ، بينما كانت النساء يقلعن البطاطس منها . . . وتفجرت الارض وارسلت ترابها الى فوق . . . ونساؤنا (ودفع الاعور قبعته على اذنه بظفره ، ولم يستطع ان يكتم ضحكة ، وقهقه الرجل من فوق التخت .) ونساؤنا تفرقن من الحدائق مثل دجاجات مروّعة . . . بينما تقدم الالمان من القرية بخطوات سريعة . . . وهنا قلت : «يا اولاد مزحنا ، والآن لنتراجع» . وزحفنا ثانية خلال الجودار الى منخفض وصعدت انا الى العربة واتجهت الى غابة دروزدوف دون مغامرات . وقد روى اهالى جوكوفكا فيما بعد ان الالمان تقدموا من حدائق الخضروات ، الى اسيجتها تماما ، وهم يهتفون «هورا» . . . ولكن لم يجدوا احدا وراء الاسيجة . والذين رأوا هذا المنظر انفجروا ضاحكين . . . احتل الالمان جوكوفكا ، ولم يجدوا احدا من اللجنة الثورية ولا من الانصار ، واعلنوا حالة الطوارىء فى القرية . وبعد يومين او ثلاثة جاءتنا اخبار الى غابة دروزدوف تقول ان قافلة المانية كبيرة دخلت جوكوفكا تحمل عتادا وخراطيش . وكان العتاد والخراطيش اثمن شىء لنا . . . واخذنا نناقش ونقلب الأمر ، واشتدت شهية الاولاد فقررنا الهجوم على جوكوفكا والاستيلاء على الخراطيش . واجتمع حوالى مائة منا . وارسل

ثلاثون منهم الى الطريق العام ليمنعوا الالمان من التراجع الى تشيرنيغوف فى حالة نجاحنا . وسار الآخرون طابورا نحو جوكوفكا . وعند هبوط الظلام زحفنا ، واستلقينا فى حقل الجودار قرب القرية ، وارسلنا سبعة اشخاص فى استطلاع ليطلعوا على كل المواقع ويبلغونا ، وفى الليل نقوم بهجوم مباغت . استلقينا دون اية ضجة ، ومنعنا التدخين . ونزل المطر رذاذا ، وغالبنا النعاس ، وكانت الارض رطبة . . . وظللنا ننتظر ، حتى بدأ الظلام ينقشع . وما من حركة . فما السبب ؟ ونجد النساء يبدان باخراج الماشية لترعى فى الحقل . ويأتى اصحابنا السبعة المستطلعون عائدين بادراجهم . . . ويتبين ان هؤلاء الملاعين عندما وصلوا الى الطاحونة استلقوا ليستريحوا فغفوا ، وناموا الليل كله ، حتى وصلت النساء اليهم مع الماشية . ولا مجال للهجوم بعد الآن ، بالطبع . . . وقد تكدرنا عظيم الكدر حتى ضاقت بنا الارض . وكان يجب تشكيل محكمة وانزال العقاب بالمستطلعين . وقررنا بالاجماع رميهم بالرصاص . الا انهم اخذوا يبكون ، ويطلبون الرحمة ، واعترفوا بذنبهم كليا . كانوا فتيانا اغرارا قد ارتكبوا خطأ لاول مرة . . . وقررنا ان نعذرهم ، ولكن اقترحنا على ان يكفروا عن ذنبهم فى المعركة الاولى .

قال الجندى :

– يحق العفو فى بعض الاحيان .

– نعم . . . واخذنا نتداول . اذا كنا لم نستول على جوكوفكا ليلا فسنستولى عليها نهارا . العملية جدية ، وفهم الاولاد الامر الذى يقدمون عليه . وتناثرنا جماعات صغيرة ، وانتظرنا ان تلعلع الرشاشات . لم نزحف ، بل ركضنا على الاربع . . .

وصدر من الاعلى صوت ضاحك .

– وبدلا من ان نلتقى بالالمان التقينا بنساء يحملن سلالا ، فقد كن خارجات لجمع الاعناب البرية ، وكان اليوم يوم احد . وضحكن منا ضحكا عاليا ، قائلات : تاخرتم ، القافلة الالمانية خرجت منذ حوالى ساعتين فى طريق كوليكوفو . وهنا قررنا بالاجماع ملاحقة الالمان ، ولو قتلنا فى المعركة جميعا . واخذنا معنا ارفاشا لنقوم بحفر الخنادق . واعطتنا النسوة فطائر وكعكا . وخرجنا وسار وراءنا جمع غفير من الناس ، جيش كامل ، اكثرهم بدافع الفضول . وهذا

ما فعلناه : وزعنا الخوازيق على الفلاحين والنساء واصطففنا في صفين ، وجعلنا بين كل شخص وآخر زهاء عشرين خطوة بحيث يكون بين كل مسلح شخص يحمل خازوقا او عصا لمجرد التخويف . وامتددنا الى حوالى خمسة فراسخ . وقد اخترت انا ١٥ محاربا من بينهم مستطلعينا الخائبين اولئك ، واخذت ضابطين من الذين جندناهما ، وهما من المعادين للثورة بشكل واضح ، ولكننا قلنا لهما : اذا بررتما ثقتنا سننقذ حياتكما . وركضنا ، بجماعتنا هذه ، امام القافلة الالمانية على الطريق العام ... ونشبت معركة ، يا اخواننا ، دامت اكثر من يوم ويومين ... (وهز ذراعه وكأنه لا يريد ان يكمل الحديث) .

شال الجندى :

– وكيف كان ذاك ؟

– هكذا . . . انا والجماعة تركنا الطابور يمر ، وهجمنا على المؤخرة ، على طابور العربات . واستولينا على عشرين عربة من العتاد تقريبا . ملأنا الحقائب بالخراطيش ووزعنا البنادق على الفلاحين ، قدر ما تمكنا ، وتابعنا الهجوم على الطابور . ظننا اننا قد احطنا به فاذا بالالمان قد احاطوا بنا ، فقد زحفت الى ذلك المكان جميع اصناف السلاح على ثلاثة طرق ... تجزأنا الى جماعات صغيرة ، ونزلنا الى الاخاديد . ومن حسن حظنا ان الالمان قد نظموا العملية وفق كافة اصول المعركة الكبيرة ، والا لما خرج منا واحد حيا . . . لم يبق احياء من الانصار غير عشرة اشخاص ، على ما اظن . حاربنا الى آخر طلقة . وبعد ذلك قررنا ان البقاء هنا مستحيل ، ويجب التسلل الى ما وراء ديسنا ، الى منطقة محايدة ، في روسيا . اخفيت البندقية ، وتظاهرت بانني اسير حرب ، وتوجهت الى نوفغورودسيفيرسكى . . .

– وانت الآن ، الى اين ذاهب ؟

– الى موسكو طلبا للتوجيهات .

وتحدث بيافكا بقصص اخرى عن حركة الانصار وعن حياة الريف . «نخرج من مصيبة ، وندخل في أخرى . تلك هي حياتنا . دفعوا الفلاح الى ان يحيا حياة الذئاب ، ولم يبق امامه الا ان يقتَل» .

وكان هو من نيجين . وكان يعمل في مصانع بنجر السكر . وقد فقد عينه في عهد كيرينسكى اثناء هجوم حزيران التعيس . وقد عبر عن ذلك قائلا : «كيرينسكى هو الذى فقأ عينى» . وفي خنادق الجبهة تعرف على الشيوعيين ، وكان عضوا في سوفييت نيجين ، وعضوا في اللجنة الثورية ، وعمل سريا في تنظيم حركة المقاومة .

وقد اثرت قصته في داشا تأثيرا قويا . فقد كانت فيها صدق . وقد فهم ذلك ايضا جميع المسافرين الذين كانت عيونهم تتطلع الى فم المتحدث .

كانت بقية النهار والليل بطوله متعبين . كان داشا تجلس مطبقة ساقيها مغمضة عينيها تفكر الى حد وجع الرأس ، الى حد القنوط . كانت هناك حقيقتان : حقيقة هذا الرجل الذى فقد عينه ، وهذين الجنديين من الجبهة ، وهاتين المرأتين الشاخرتين بوجهيهما البسيطين المتعبين ، والحقيقة الاخرى هي الحقيقة التى زعق بها كوليتشيك . ولكن لا وجود لحقيقتين . فلا بد ان واحدة منهما خاطئة ، مفزعة ، مهلكة . . .

وصل القطار الى موسكو في منتصف النهار . ونقل حوذى عربة عجوز داشا بخبب غير سريع عبر شارع مياسنيتسكايا القذر المسلوخ الجدران ، حيث كان الوحل يلطخ واجهات المخازن الفارغة . وادهش داشا فراغ المدينة ، فقد كانت تتذكرها ايام كانت آلاف الناس تسير ملوحة بالاعلام منشدة الاغاني في الشوارع الجليدية ، متبادلة التهاني بالثورة التى لم يرق فيها دم .

في ساحة لوبيانسكايا كانت الريح تدوم غبارا . سار جنديان بقميصين عسكريين بلا حزام ، وياقتاهما مطويان . ونظر الى داشا شخص واهن طويل في سترة مخملية ، وصرخ بشيء لها ، بل وركض وراء العربة . الا ان الغبار غشى على عينيه ، فتأخر . كان فندق «متروبول» مثلما بقذائف المدافع ، وكان الغبار يدوم هنا في الساحة ، وكان غريبا ان يرى المرء في الساحة القذرة حوضا من الزهور الزاهية ، لا يُعرف من غرسها ولِمَ .

وكان شارع تفيرسكايا اكثر حيوية . كانت الحوانيت مفتوحة هنا وهناك . ومقابل سوفييتات المدينة ، وفى مكان نصب الجنرال سكوبيليف نهض مكعب خشبى هائل مكسو بقماش احمر وبدا هذا لداشا مرعبا . اشار الحوذى العجوز اليه بسوطه :

– رفعوا البطل من مكانه . انا اسوق منذ زمان فى موسكو ، فاراه واقفا فى مكانه . ولم يرق للحكومة الحاضرة . كيف سنعيش ؟ لا يبقى امامنا غير نستلقى ونموت . بود التبن بمائتى روبل . السادة تفرقوا ، ولم يبق الا الرفاق ، وهؤلاء يمشون على ارجلهم فى الغالب . . . أوه ، دولة ! . . – وجذب العنان . – يا ليت ان يكون لنا ملك ، اى ملك . . .

قبل ان تصل داشا الى ساحة ستراستنايا رات يسارا تحت لافتة «مقهى بوم» ووراء واجهتين صقيلتين شبانا عاطلين وشابات مسترخيات على الارائك ، وكان الجميع يدخنون ويشربون نوعا من المشروب . وعلى الباب المفتوح على الشارع وقف رجل حليق طويل الشعر اشعثه يدخن غليونا وقد اتكا بكتفه . وبدا وكانه قد اندهش من مراى داشا ، فاخرج غليونه من فمه . ولكن داشا عبرته . وظهر برج كاتدرائية ستراسنوى الوردى ، وتمثال بوشكين . رات داشا الخرقة الناصلة اللون التى كانت قد علقت اثناء الاجتماعات الحاشدة الصاخبة ما تزال متدلية من تحت مرفقه . وكان اطفال نحاف يتراكضون على قاعدته الغرانيتية . وعلى مصطبة جلست سيدة تضع نظارة انفية وتعتمر بقبعة تشبه تماما القبعة التى وضعها بوشكين وراء ظهره .

مرت سحائب مزيلة فوق بولفار تفيرسكوى . وضجت سيارة لورى محملة بالجنود . وقال الحوذى وهو يومى' اليها :

– جاءوا لينهبوا . أتعرفين فاسيلى فاسيليفيتش اوفسيانيكوف ؟ اول مليونير فى موسكو . بالامس جاءوا اليه فى سيارات لورى مثل هذه ، واخذوا كل ما فى منزله . فاكتفى فاسيلى فاسيليفيتش بهز راسه ، وخرج الى حيث لا يدرى احد . يقول الشيوخ ان الناس نسوا الرب . . .

ظهرت فى آخر البولفار خرائب منزل غاغارين . وفى اعلى الجدار وقف رجل وحيد فى صدار يقلع الآجر بمعول ويقذفه الى الاسفل . والى

15*

اليسار هيكل بيت محروق ينظر الى السماء الشاحبة بنوافذها الفارغة . وجميع البيوت المجاورة مثقبة بالرصاص كالغربال . قبل عام ونصف كانت داشا وكاتيا تسيران على هذا الرصيف وقد وضعتا على راسيهما منديلين وبرين . وكان الجليد الرقيق يخشخش تحت اقدامهما ، والنجوم منعكسة على البرك المتجمدة . كانت الشقيقتان منطلقتين الى نادى المحامين للاستماع الى محاضرة استثنائية حول الاشاعات عن الثورة التى زعم انها بدأت فى بطرسبورغ . وكان هواء الربيع يبعث النشوة كالسعادة . . .

هزت داشا راسها تطرد الذكريات عنه ، وقالت لنفسها : «لا اريد . . . هذا ولى . . .»

خرجت العربة الى شارع اربات ، واستدارت يسارا الى شارع جانبى . وكان قلب داشا يدق بشدة حتى انها شعرت ان الدنيا اسودت فى عينيها . . . وظهر بيت ابيض من طابقين ينتهى بعلية . فى هذا البيت كانت داشا قد عاشت مع كاتيا والفقيد نيقولاى ايفانوفيتش فى عام ١٩١٥ . والى هذا البيت جاء تليغين بعد هربه من الاسر الالمانى . وفيه التقت كاتيا بروتشين وقد خرجت داشا من هذا الباب المقشر فى يوم زفافها ، فاجلسها تليغين فى عربة يجرها حصان رمادى وانطلقا فى الغبش الربيعى بين الاضواء التى ما زالت شاحبة للقاء السعادة . . . كانت نوافذ العلية محطمة . وتعرفت داشا على ورق الجدران فى غرفتها السابقة . كان يتدلى مزقا . طار غراب من النافذة . سأل الحوذى :

– يمينا ام يسارا ؟

التجأت داشا الى الورقة تستفسرها . توقفت العربة عند بيت متعدد الطوابق . كان الباب الخارجى مسمرا بالالواح من الداخل . وكان لا يجوز لداشا ان تسأل فبحثت طويلا فى السلالم الخلفية عن الشقة رقم ١–١١٢ . كان وقع خطاها يجعل بعض الابواب تفتح قليلا من سلسلتها . وظهر ان وراء كل باب كان يقف شخص ينبه السكان على الخطر .

فى الطابق الخامس طرقت داشا ثلاث طرقات وطرقة اخرى منفصلة ، حسب ما علموها . تردد وقع خطوات حذرة ، ونظر شخص من ثقب الباب الى داشا زافرا بانفاسه منه . وفتحت الباب

سيدة طويلة فى منتصف العمر لها عينان جاحظتان مفزعتان زرقاوان زرقة ساطعة . مدت داشا اليها المثلث الكارتونى صامتة . قالت السيدة :

– آه ، من بطرسبورغ . . . تفضلى بالدخول .

مرت داشا عبر مطبخ لم يستعمل منذ وقت بعيد على ما يبدو الى حجرات كبيرة مسدلة الستائر . وفى شبه الظلمة لاحت معالم اثاث فاخر ، ولمع برونز ، الا ان هنا ايضا لا وجود لرائحة حياة . دعت السيدة داشا الى الجلوس على اريكة ، بينما جلست هى الى جانبها متفحصة الضيفة بعينيها المرعبتين المتسعتين . قالت بصرامة وآمرية :

– تحدثى .

جمعت داشا افكارها مجاهدة ، وبدات بنفس المجاهدة تنقل المعلومات المقلقة التى طلب كوليتشيك اليها ان تنقلها . شبكت السيدة يديهـــا الجميلتين المزينتين بالخواتم على ركبتيهـــا المضمومتين ، وطقطقت باصابعها . وقاطعتها :

– يعنى انكم لا تعرفون شيئا فى بتروغـــراد ؟ – واهتز صوتها الخفيض فى حنجرتها . – لا تعرفون انه فى بيت العقيـــد سيدوروف جرى التفتيش الليلة البارحة . . . وعثروا على خطة الجلاء وبعض سجلات التجنيد . . . ولا تعرفون ان فيلينكين قد اعقتل اليوم عند الفجر . . .

ورفعت السيدة صدرها بحركة متشنجة ، ونهضت مـــن الاريكة ، وسحبت الستار المســـدول على الباب ، والتفتت الى داشا :

– تعالى الى هنا : سيتحدثون اليك . . .

قال الرجل الواقف وظهره الى النافذة ، وفى صوته نبرة آمرة :

– كلمة السر .

مدت داشا اليه المثلث الكارتونى فقال :

– مَنْ الذى اعطـــاه لك ؟ (بدات داشـــا تشرح .) باختصار !

كان يضع بيده اليسرى منديلا حريريا على فمه حاجبـــا به وجهـــه الاسمر او ربما المموه . وكانت عينـــاه غير واضحتى اللون والمؤطرتان بصفرة تتفرسان فى داشا بنفاد صبر . قاطعهـــا من جديد :

– اتعلمين انك فى دخولك المنظمة تخاطرين بحياتك ؟

قالت داشا :

– انا وحيدة وحرة . وانا لا اكاد اعرف شيئا عن المنظمة . وقد عهد نيكانور يوريفيتش الىّ بمهمة . . . لا استطيع ان اظل مكتوفة اليدين . اؤكد لك اننى لا اخاف العمل ولا . . .

– انت ما زلت صغيرة .

قال ذلك بنفس الحدة ، ولكن داشا رفعت حاجبيها بتيقظ :

– عمرى اربعة وعشرون عاما .

– هل انت سيدة ؟ (لم تجب .) فى الظرف الراهن هذا مهم . (هزت راسها باثبات .) يمكنك الا تتحدثى عن نفسك . انا اسبر اغوارك كلها . واثق بك . فهل يدهشك ذلك ؟

رفت عينا داشا ولم تقل شيئـــا . فان العبارات الحادة الواثقة ، والصوت الآمر ، والعينين الباردتين قد اوثقت بسرعـــة ارادتها المتأرجحة . واحست بنفس الارتياح الذى يحس به انسان وهو يجد طبيبا يجلس عند فراشه تلمع نظارتاه الحكيمتان : «يا ملاكى ، منذ اليوم سنتصرف هكذا . . .»

والآن راحت تتطلع بانتباه الى هذا الرجل الذى يضع منديلا على وجهه . كان ربع القامة يرتدى قبعة ناعمة ومعطفا بلون الكاكى مفصلا عليه تفصيلا جيدا ، وطماقين جلديين . وكان بلباســـه وحركاته الدقيقة يشبه اجنبيا ، وكان يتحدث بلهجة بطرسبورغية ، وبصوت غير محدد واجش .

– اين نزلت ؟

– لم انزل فى مكـــان ما . جئت من المحطـــة الى هنـــا راسا .

– لطيف جدا . الآن اذهبى الى مقهـــى «بوم» فى شارع تفيرسكايا . وتناولى طعامـــك هناك . وسيأتى عليك شخص ستتعرفين عليه من دبوس رباطه على شكل جمجمة . وسيقول لك

كلمة السر : «يصحبك الله فى الطريق الميمون» . عندئذ أريه هذا (وقطع المثلث الكارتونى واعطى نصفه لداشا .) اظهريه بحيث لا يراه احد . وسيعطيك تعليمات اخرى . اطيعيه طاعة مطلقة . عندك فلوس ؟

واخرج من محفظة الجيب ورقتين من فئة الف روبل من عملة «الدوما» . وقال :

— سيدفع حسابك . حاولى ان تحافظى على هذه النقود للطوارئ فى حالة الانهيار المباغت ، وللرشوة ، والهرب . كل شىء يمكن ان يحصل لك . اذهبى . . . انتظرى . . . هل فهمتنى جيدا ؟

— نعم .

اجابت داشا متلعثمة ، وهى تطوى الورقتين النقديتين على شكل مربع اصغر فاصغر .

— لا تذكرى شيئا عن لقائى معك ، ولا اى شىء عن مجيئك الى هنا . انصرفى .

ذهبت داشا الى شارع تفيرسكايا . كانت جائعة تعبى . مرت امام عينيها اشجار بولفار تفيرسكوى والمارة القليلون المتجهمون ، وكأن كل ذلك تراه من خلال ضباب . وكانت ما تزال تشعر بالهدوء لكونها قد وضعت حدا لركودها المعذب ، وجرفتها الاحداث غير المفهومة لها مثل دوامة عاصفة ، وحملتها الى حياة وحشية .

مرت بها امرأتان فى نعلين ليفين وكأنهما ظلان على شاشة . والتفتا الى داشا وقالت احداهما بخفوت :

— لا تستحى . لا تكاد تقف على رجليها .

وثم مرت امرأة فارعة لها شعر وخطه الشيب جمع فى تسريحة تشبه عش غراب ، وقد احاطت بفمها غضون بائسة للغاية . وانطبعت حيرة كبيرة على وجهها الذى على ما يبدو كان جميلا فى يوم ما . كانت تنورتها الطويلة السوداء مرقعة بقماش مختلف وكأنه عن عمد . وقد امسكت ضمة من الكتب تحت شالها

الذى كانت تجر طرفه على الارض . توجهت الى داشا بصوت خفيض :

— عندى كتب روزانوف الممنوعة ، والاعمال الكاملة لفلاديمير سولوفيوف . . .

وفى مكان ابعد وقف بضعة شيوخ يفعلون شيئا ما وهم ينحنون على مصطبة حديقة ، ولما مرت داشا بهم رأت جنديين من الحرس الاحمر غارقين فى نوم عميق على المصطبة متلاصقين بكتفيهما وقد فتحا فميهما ، ووضعا بندقيتيهما بين ركبتيهما . وكان الشيوخ يشتمونهما همسا بكلمات بذيئة .

كانت الريح الجافة تطارد الغبار وراء الاشجار . دق جرس ترام منفرد ، ومرقاته المخلوعة تضرب بلاط الشارع . كانت مجاميع رمادية من الجنود تتعلق بالدرابزين وعلى مكان الفرامل الى الخلف . وكانت العصافير تنط على راس تمثال بوشكين البرونزى لا يهمها شىء من امر الثورات .

استدارت داشا نحو شارع تفيرسكايا . واقتحمتها من ظهرها سحابة من الغبار ، وغطتها بقطع الاوراق ، ودفعت بها الى مقهى «بوم» — المعقل الاخير للحياة القديمة اللاهية .

فى هذا المكان كان يجتمع الشعراء من كل المدارس ، والصحفيون السابقون ، والمضاربون بالادب ، والشبان النشطاء ، الذين يكيفون انفسهم للزمن المضطرب ببساطة ومهارة والفتيات المسممات بالسأم والكوكائين ، والفوضويون الصغار الذين يبحثون عن التسليات الحادة ، والزوار المنجذبون الى اكل الكعك .

ما كادت داشا تحتل مقعدا فى اقصى المقهى تحت تمثال نصفى لكاتب شهير حتى بسط احد الاشخاص ذراعيه ، واندفع خلال دخان التبغ ، وجلس على مقعد بجوار داشا مقهقها بنداوة كاشفا عن اسنان فاسدة . لقد كان ذلك هو الشاعر الكسندر جيروف الذى كانت تعرفه منذ قبل .

— لحقت بك على ساحة لوبيانسكايا . . . كنت على يقين من انك كنت فى العربة ، يا داريا دميتريفنا . فاية مصادفة . من اين جئت ؟ هل انت وحدك ؟ مع زوجك ؟ هل تذكريننى ؟ كنت فى يوم ما اعشقك . وكنت تعرفين هذا ، أليس كذلك ؟

كانت عيناه نديتين . وكان لا ينتظر جوابا عن اى سؤال ، على ما يبدو . وكان على عهده فى الماضى – فى سورة من الانفعال ، سوى ان بشرته السقيمة قد ارتخت . كان انفه المعكوف العريض فى الاسفل يبدو كبيرا فى وجهه الطويل النحيل .

– كم عانيت خلال هذه السنوات ... شىء خيالى ... جئت الى موسكو منذ وقت قصير ... انا من جماعة الشعراء التصويريين : سيرغى يسينين ، بورليوك ، وكروتشينيخ . نحن نحطم ... هل مررت بكاتدرائية ستراستنوى ؟ هل رايت الحروف الكبيرة على الجدار ؟ تلك جراة عالمية ... حتى البلاشفة ذاهلون ... انا ويسينين عملنا طوال الليل ... صورنا فى شعرنا مريم العذراء وعيسى المسيح بصورة شائنة ... فحش كونى ... فى الفجر قرأته عجوزتان فطلعت روحاهما فى الحال ... داريا دميتريفنا ، انا فضلا عن ذلك من الجماعة الفوضوية «الباشق الاسود» ... سنجذبك الينا ... لا ، لامحالة ... اتعرفين من هو رئيسنا ؟ مامونت دالسكى الشهير ... عبقرى ... كين الثانى ... الجسور العظيم ... لم يمض اسبوعان حتى تقع موسكو كلها فى ايدينا ... ويبدا عهد عظيم ! موسكو تحت الراية السوداء . قررنا ان نحتفل بالنصر . أتعرفين كيف ؟ نعلن عن كرنفال عام ... براميل النبيذ فى الشوارع ، وفى الساحات الموسيقى تعزفها جوقات عسكرية ... مليون ونصف متنكر . سيظهر نصفهم عراة ، وليس فى ذلك ادنى شك . وبدلا من الالعاب النارية سنفجر مخازن المدفعية فى جزيرة لوسينى . لم يشهد تاريخ العالم مثيلا كذلك .

وكان ذلك النظام السياسى الثالث الذى تعرفت عليه داشا خلال هذه الايام . والآن لم تشعر الا بالخوف . حتى انها نسيت جوعها . وانخرط جيروف بالتفاصيل بعد ان رضى بالاثر الذى خلفه .

– احقا لا تشعرين بغثيان دم حين ترين ابتذال المدينة الحديثة ؟ ان صديقى فاليت ، الرسام العبقرى – وانت تعرفينه – وضع خطة لتغيير وجه المدينة كليا ... المقصود تهديم كل شىء والبناء من جديد ، ولكننا لن نلحق فى ذلك قبل الكرنفال ...

بالطبع تقرر تهديم بعض المبانى . المتحف التاريخى ، الكريملين ، وبرج سوخاريف ، وبيت بيرتسوف ... سنضع على طول الشارع حواجز من الالواح بارتفاع البيوت مرسومة عليها تصاميم معمارية على طراز لا مثيل له وفى منتهى الحداثة ... والشجرة باوراقها الطبيعية غير مقبولة . سنصبغ الشجر بالوان مختلفة مستخدمين المرشات ... فتصورى اشجار زيزفون سوداء فى بولفار بريتشيستينسكى ، وبولفار تفيرسكوى ليلقى بشكل منحوس ... فظاعة !.. وتقرر ايضا اقامة اعمال تدنيس تمثال بوشكين على نطاق الشعب كله ... داريا دميتريفنا أتذكرين «التدنيسات العظيمة» و«مكافحة المألوف» فى شقة تليغين ؟ كانوا يهزأون بنا آنذاك .

وضحك ضحكة سريعة كالرجفة وتذكر الماضى واقترب من داشا ، ومس صدرها الناهد قليلا ، وهو يومئ .

– اتذكرين يلزافيتا كييفنا ؟ ذات العينين الشبيهتين بعينى الخروف ؟ كانت تهيم بخطيبك الى حد الجنون . وعاشرت بيسونوف . وزوجها جادوف مقاتل فوضوى بارز ... هو ومامونت دالسكى ورقتانا الرئيسيتان . كما ان انتوشكا ارنولدوف هنا ايضا ! فى عهد الحكومة الموقتة سيطر على كل الصحافة ، كان يمتلك سيارتين ويعاشر الارستقراطيات ... كانت عنده هنغارية من «فيلا روده» ذات جمال صارخ . كان ينام معها والمسدس فى يده . وقد سافر الى باريس فى تموز الماضى ، وكاد ان يعين سفيرا ... الحمار !.. لم يلحق ان يحول نقوده الى الخارج ، وهو الآن يتضور جوعا كابن كلبة ، يا داريا دميتريفنا يجب ان تجارى العهد الجديد ... دمّر انتوشكا ارنولدوف نفسه لأنه اتخذ لنفسه شقة واسعة مريحة فى شارع كيروتشتايا ، واثاثا مذهبا ، ومعدات القهوة ، ومائة زوج من الاحذية . يجب ان نحرق ونحطم ونمزق كل الخرافات ... حرية مطلقة متوحشة عذراء . هذا ما نريده ! ولن يتكرر مثل هذا العهد ... ونحن نحقق تجربة عظيمة . وكل الذين ينجرون وراء رفاهية الطبقة المتوسطة سيهلكون ... سنسحقهم ... ان الانسان هو رغبة لا حدود لها ... (وخفض صوته ، ومال على اذن داشا .) البلاشفة قذارة ... كانوا جيدين اسبوعا واحدا

فقط ، فى اكتوبر ... ثم التزموا راسا بمبدأ الدولة . روسيا كانت دائما بلدا فوضويا ، والفلاح الروسى فوضوى باصله ... البلاشفة يريدون تحويل روسيا الى معمل . هراء . لن يستطيعوا ذلك . عندنا ماخنو . وبطرس العظيم مجرد جرو امامه . ماخنو فى الجنوب ، ومامونت دالسكى وجادوف فى موسكو ... سنحرق من الجانبين . اليوم ليلا سآخذك الى مكان سترين بنفسك اى نطاق ... موافقة ؟ نذهب ؟

منذ عدة دقائق جلس شاب شاحب ذو لحية مدببة الى الطاولة المجاورة . كان يتفرس فى داشا من خلال نظارته الانفية من وراء الجريدة . صعقتها تصورات جيروف الخيالية فلم تحاول ان تحتج . وبدا لها ان هذه الافكار فوق الطبيعية كانت تتولد كالبروق فى سحب دخان السكائر ، طافت وجوه غريبة متسعة الحدقات تطبق اسنانها على السكائر ... ماذا كان فى وسعها ان تعترض ؟ يمكن ان تولول شاكية ان قلبها يرتجف امام هذه التجاريب ، وبالطبع ستضيع ولولتها فى هدير الضحك المجنون والهرجلة والتهريج .

كانت عينا ذى اللحية المدببة تتحسسانها فى مزيد من الاصرار . رات فى رباطه القرمزى جمجمة معدنية صغيرة – دبوسا . فحزرت انه هو الذى يجب ان تلتقى به . رفعت جسمها قليلا ، الا انه هز راسه هزة قصيرة مشيرا عليها بان تظل فى مكانها . قلصت داشا عينيها مفكرة . اشار الرجل بعينه الى جيروف . فهمت ، وطلبت من جيروف بان يجلب لها شيئا تاكله . عند ذاك اقترب الرجل ذو اللحية من طاولتها وقال دون ان يفتح شفتيه :

– يصحبك الله فى الطريق الميمون .

فتحت داشا حقيبتها ، وارت نصف المثلث . فضمه الى النصف الثانى ، ومزق النصفين مزقا صغيرة .

سال بسرعة :

– من اين تعرفين جيروف ؟

– منذ زمان ، فى بطرسبورغ .

– هذا يلائمنا . يجب ان يعتبروك من جماعتهم . اقبلى بكل ما يقترح عليك . وغدا ، فى مثل هذا الوقت ، تعالى الى تمثال غوغل فى بالفار بريتشيستينسكى . اين ستقضين الليلة ؟

– لا ادرى .

– هذه الليلة اقضيها اينما شئت ... اذهبى مع جيروف ...

– انا منهكة بشكل فظيع .

وامتلات عينا داشا بالدمع ، وارتعشت يداها ، الا انها نظرت الى وجهه غير الودود ، والى الدبوس ذى الجمجمة ، فغضت بصرها مذعنة .

– تذكرى : السرية التامة . ولو قلت شيئا ولو عرضا وجب التخلص منك . فان الوقت حربى ...

وشدد على كلمة «التخلص» . وشعرت داشا بان اصابع قدميها تنكمش . تقدم جيروف من الطاولة يحمل صحنين . تقدم منه الرجل ذو الدبوس ، وعوج فمه الدقيق بابتسامة ، وسمعت داشا قوله :

– فتاة حلوة . من هى ؟

– اتركها بسلام . ليست معدة لك ، يا يوركا .

وابدى جيروف له تثلمات اسنانه و كانه يهدده او يبتسم له . ووضع امام داشا خبزا اسود ونقانق وقدحا من سائل بنى ، وقال :

– اذن ، فانت فى المساء غير مشغولة ؟

– لا فرق .

اجابت داشا . وقضمت النقانق بتلذذ موجع .

اقترح جيروف عليها الذهاب الى غرفته فى فندق «لوكس» على مسافة قصيرة فى الجانب الآخر من الشارع .

– نامى قليلا واغتسلى ، وفى نحو الساعة العاشرة سآتى اليك .

وانشغل مضطربا وركض من مكان الى آخر ، فقد ظل حسب الذكريات القديمة يحتفظ بشعور الوجل فى حضور داشا بعض الشىء . كانت غرفته ذات ستائر من قماش مقصب ، وبساط وردى . وكان سريره يبعث على الريبة حتى انه ادرك ذلك بنفسه ، واقترح على داشا الاستلقاء على الأريكة بعد ان رفع عنها الجرائد والمخطوطات والكتب ، وفرش مفرشا وقطعة من الفراء الاسود نزعت من معطف

ثمين ، وارسل ضحكة وخرج . خلعت داشا حذاءها . كان حقوها ورجلاها وكل جسمها يئن تعبا . فاستلقت واستغرقت فى النوم حالا متدفئة بفراء سميك فيه رفيف خفيف من رائحة عطر وحيوان ونفتالين . ولم تسمع كيف دخل جيروف ، وانحنى ونظر اليها ولا الصوت العميق الذى صدر فى الباب من رجل ضخم حليق شبيه برومانى : «طيب ، خذها الى هناك . وساعطيك مذكرة» .

وكان المساء قد تقدم كثيرا حين تنهدت داشا واستيقظت . كان هلال اصفر فوق سطح البيت ينعكس مهشما على زجاج النافذة . وتحت الباب امتد خط من الضوء الكهربائى . وتذكرت داشا اخيرا اين هى ، ولبست جوربها على عجل ، وسوّت شعرها وثوبها وذهبت الى المغسلة . كانت الفوطة من القذارة حتى ان داشا فكرت وهى تفرج اصابعها التى كان الماء يقطر منها ، ومسحت بطرف تنورتها من الجانب الآخر .

وداهمها احساس حاد بالوحشة من كل سوء الحظ هذا ، وحنقها الاشمئزاز فودت لو تهرب من هنا الى بيتها ، الى النافذة النظيفة تطير الخطاطيف خلفها ... ادارت رأسها ونظرت الى الهلال ميتا مشوها متدليا فوق موسكو . لا ، لا ... لا مجال للعودة . الموت فى وحدة على الكرسى عند النافذة فوق جادة كامينواوستروفسكى المقفرة والاستماع الى الالواح تسمر على البيوت ... لا ... ليكن ما يكون ...

طرق الباب ، ودخل جيروف على اطراف اصابعه .

— حصلت على ترخيص . لنذهب ، يا داريا دميتريفنا .

لم تسال داشا اى ترخيص هو ، ولا الى اين تذهب . وضعت قبعتها البيتية الصنع ، وتابطت حقيبتها التى فيها الالفان من الروبلات . وخرجا . كان ضوء القمر يغمر جانبا من جادة تفيرسكوى . ولم تكن المصابيح مشتعلة . سارت دورية ببطء فى الشارع المقفر صامتة تضرب الارض باحذيتها الطويلة .

انعطف جيروف الى بولفار ستراستنوى . كانت بقع من ضوء القمر ترقد هنا على الارض غير المستوية . وكانت الظلمة الحالكة تحت اشجار الزيزفون تبعث الرهبة فى النفس . وبدا ان شخصا

قد مرق فى هذا الظلام الى الامام . توقف جيروف ، وكان فى يده مسدس .

وقف قليلا ثم صفر . فاجيب عليه من هناك . قال بصوت اعلى قليلا : «من جماعتكم» . فاجاب صوت واضح متكاسل : «مُر ، يا رفيق» .

انعطفا فى شارع ماليا دميتروفكا . فقابلهما هناك شخصان فى سترتين جلديتين عبرا الشارع بسرعة . ولكن بعد نظرة صامتة تركاهما يمران . عند مدخل نادى التجار حيث كانت تتدلى راية سوداء من الطابق الثانى فوق المدخل خرج اربعة من وراء الاعمدة وصوبوا مسدسات . تعثرت داشا . وقال جيروف غاضبا :

— ما هذا فى الواقع ، يا رفاق ؟ تخويف عن عبث . عندى ترخيص من مامونت ...

— أرنا .

فحص الاربعة الترخيص فى ضوء القمر وقد اخفوا خدودهم المرداء فى ياقاتهم المرفوعة ، وسحبوا طليلات طاقياتهم على عيونهم . وجمد وجه جيروف وكأن الحياة قد غادرته ، وارتسمت عليه ابتسامة . سال احد الاربعة بفظاظة :

— ولمن ؟

— لهذه الرفيقة ، — وامسك جيروف بيد داشا . — انها فنانة من بتروغراد ... يجب ان تكسى ... تدخل فى جماعتنا ...

— حسنا ، اذهبا ...

دخلت داشا وجيروف فى رواق مضاء بضوء باهت ، وقد وضعت رشاشة على الدرج . وجاء القومندان ، وهو طالب قصير منتفخ الخدين فى سترة من بزة طلابية ، وطربوش . قلب الترخيص طويلا وهو يقرأه . وسأل داشا وعقا :

— ماذا تحتاجين من اشياء ؟

اجاب جيروف :

— أمر مامونت بان تكسى من القدم حتى الرأس ، باحسن ما لدينا .

— ما تعنى بعبارة «أمر مامونت» ؟ .. حان الوقت ان تعرف يا رفيق انه لا توجد اوامر هنا ... ليس هنا حانوت ... (وهنا

احس القومندان بان فخذه يحكه ، فقلص عينيه بشدة ، وهرش .)
حسنا . لنذهب .
اخرج مفتاحا ، وسار الى الامام الى مشجب المعاطف السابق ، حيث يوجد الآن مستودع دار الفوضوية .

— داريا دميتريفنا ، اختاري ولا تخجلي . كل هذه الاشياء تعود للشعب ...

واشار جيروف بتشميرة عريضة من ذراعه الى مشاجب علقت عليها لفاحات من فراء السمور والقاقم والثعلب الفضي ومعاطف من فراء الارانب والقرد وعجل البحر . كما وضعت على المقاعد ، والقيت اكواما على الارض . وامتلأت حقائب مفتوحة بالفساتين والملابس الداخلية وعلب الاحذية . وبدا وكان مخازن كاملة من الاشياء الفاخرة قد جلبت الى هنا . تثاءب القومندان غير مكترث بهذه الوفرة وقد جلس على صندوق .

— داريا دميتريفنا ، خذى كل ما يروق لك . ساحملها لك . وتصعد الى الاعلى ، وهناك ستبدلين ثيابك .

ورغم كل ما يمكن ان يقال عن مشاعر داشا المعقدة ، فقد كانت قبل كل شيء امرأة . تورد خداها ، قبل اسبوع ، عندما كانت تتهافت كزنبقة الوادى قرب النافذة ، تتخيل ان الحياة قد انتهت ولا شيء تنتظره ، وربما لم تكن تغريها اية كنوز في العالم . اما الآن وقد انفتح حولها كل شيء فان ما كانت تعتبره ميتا وجامدا في نفسها عادت اليه الحركة . ودخلت في تلك الحالة المذهلة ، حيث الرغبات والآمال المتيقظة تنطلق مندفعة في الضباب المقلق للغد الآتي ، بينما الحاضر يرقد في ركام كمنزل مهجور .

ولم تتعرف على صوتها ، وادهشتها اجوبتها وتصرفاتها وهدوؤها الذى تقبلت به الفنطازيا التى تدور حولها . واحست بغريزة حفظ النفس التى ظلت غافية فيها حتى تلك اللحظة ان عليها الآن ان تنشر اشرعتها وتنطلق ملقية بالحمولة وراء حاجز سفينتها .

مدت يدها الى لفاح من السمور الرمادى .

— اعطنى هذه ، من فضلك .

نظر جيروف الى القومندان فهز هذا خديه موافقا . تناول جيروف اللفاح ، والقاه على كتفيه . انحنت داشا على حقيبة كبيرة مفتوحة — وللحظة احست بالتقزز من اشياء الآخرين هذه — وادخلت يدها حتى المرفق في كومة الملابس الداخلية .

— والحذاء ، يا داريا دميتريفنا ؟ خذى حذاء طويلا للمطر . والزينات المسائية في هذا الدولاب . ايها الرفيق القومندان اعطنى المفتاح ... الزينة بالنسبة للفنانة اداة الانتاج .

قال القومندان :

— خذا ما تشاءان ، لا يهمنى .

صعدت داشا وورائها جيروف يحمل الامتعة الى الطابق الثانى ، ودخلا غرفة صغيرة فيها مرآة حطمتها رصاصة . لمحت داشا بين الصدوع الشبيهة بنسيج العنكبوت على المرآة المغبشة امرأة منشغلة بارتداء جورب حريرى ببطء . وضعت عليها قميصا رقيقا ، وارتدت سروالا داخليا مدنتلا ، وتخطت بحذائها الجميل وابعدت جانبا ثيابها الداخلية المرفوءة . والقت فراء على كتفيها النحيلتين العاريتين ... ومن انت ، يا روحى ؟ مومس ؟ سالبة ؟ لصة ؟ .. ولكنك لطيفة جدا ... اذن ، فان كل شيء لى في المستقبل ؟ لا باس ، سندبر الامر فيما بعد على نحو ما ...

كانت القاعة الكبيرة لمطعم «متروبول» الذى اصابته قنابل في اكتوبر مغلقة لا تعمل ، ولكن الطعام والنبيذ كان يقدم في المقاصير ، لان نصف الفندق كان يحتله الاجانب ، وهم في معظمهم المان ، واولئك المضاربون المستميتون الذين استطاعوا الحصول على جواز اجنبى — ليتوانى او بولونى او فارسى . والمخمورون في المقاصير المغلقة يضجون كما في فلورنسا اثناء الطاعون . وكان يسمح لاهالى موسكو الاصليين بالدخول الى هناك بوساطة المعارف ، ومن باب خلفى ، وهؤلاء في معظمهم ممثلون واثقون من ان مسارح موسكو لن تبقى حتى نهاية الموسم ، وان الهلاك المحقق سيصيب المسارح والممثلين معا . وكان الممثلون يشربون بافراط .

كان مامونت دالسكى الممثـــــل الدرامى ،والتراجيدى روح هذه المباذل الليلية ، وكان اسمه الى عهد قريب لا يقل صدى عن اسم روسيه . كان رجلا ذا طبع وحشى جميل الطلعـــة ، مقامرا ، مجنونا شديد الطمع ، خطرا ، مهيبا ماكرا . وقد اضحى فى السنوات القليلة الاخيرة لا يمثل الا نادرا ، وفى الجولات الفنية فقط . وكان يتردد على دور القمار فى العاصمتين ، وفى الجنوب ، وفى سيبيريا . وقد رويت روايات عن خسائره الفادحة . وبدأ يشيخ . وكان يقول انه سيترك المسرح . وفى اثناء الحرب اشترك فى صفقات غامضـة فى الاسلحة . وعندما بدات الثورة ظهر فى موسكو ، واحس بوجود المسرح التراجيدى الجبار واراد ان يلعب فيه دورا رئيسيـــا فى المسرحية الجديدة على غرار «اللصوص» لشيلر .

وبدأ يتحدث بكل يقين ممثل عبقرى عن الفوضوية المقدسة ، وعن الحرية المطلقة ، وعن نسبيـــة المبادئ الخلقية وعن حق كل شخص فى كل شىء . وبذر فى موسكو الهياج فى الافكار . وعندمـــا بدات بعض جماعات الشباب مدعومـــة باشخاص محكومين تصادر منازل الاغنياء جمع هو هذه الجماعات المتفرقة من الفوضـــويين ، واستولى على نادى التجار بالقوة ، واعلنه دارا للفوضوية . ووضع السلطة السوفييتية امام حقيقة واقعة . ولم يكن قد اعلن بعـــد الحرب على السلطة السوفييتية ، ولكن خياله ، دون شك ، كان يتخطى مستودعات نادى التجار والمباذل الليليـــــة ، عندما كان يتحدث وهو واقف فى النافذة ، امام الناس المتجمعين فى فناء دار الفوضوية ، وبعد ايماءته الرومانية تتطاير على الناس فى الفنـــاء البناطيل والاحذية وقطع القماش ، وزجاجات الكونياك .

عندما دخلت داشا المقصورة فى «متروبول» مع جيروف كان اول مَنْ راته هذا الرجل بوجهه الكئيب وكانه صب من برونز ، وقد انطبعت عليه السورات والاهواء والحياة الصاخبة مثل نحات مشهور حفر عليه الغضون والتجعدات وخطوط الفـــم النامة عن الحـــزم والحنك والرقبة المحفوفة بالياقة الناعمة القذرة .

كان غطاء البيانو مرفوعا . وكان رجل حليق نحيـــل فى سترة مخمليـــة ، راسه الى الوراء يطبق اسنانـــه على سيكارة ، ويسدل رموشه على عينيه النديتين ، يعزف على البيانو لحنا جنائزيا . والى

مائدة حفلت بعدد كثير من الزجاجات الفارغـــة جلس عدد من ذوى الصيت الواسع . وكان احدهم ، وهو رجل افطس الانف اسند ذقنه البارز على راحته حتى ان وجهه الناعم قد انضغط ، يرفع صوته بغناء كنائسى ممثلا القس . اما الآخرون ، وهم محاجج له وجه كالجرة ، وممثل فكاهى عبوس متدلى الشفة ، وبطل لم يحلق منذ ثلاثة ايام له انف مدبب ، وعاشق فى منتهى السكر ، ورجل عظيـــم ذو صيت ذائع خددت جبينه اخاديد عميقـــة فى مظهر صاح كليا ، فقد كانوا ينضمون الى الغناء جماعيا عند الضرورة .

وكان الارشيدوق من كنيسة «المسيح المخلص» وهو رجل وسيم سرى الشيب فى شعره يضع نظارة ذهبية ثقيلة مهداة له من تجار موسكو يسير على البساط جيئة وذهابا ملوحا بكمى غفارتـــه الكهنوتية مرددا اللازمة . وكانت اقداح البلور تهتز من نبرة صوته القوية . كانت المقصورة مزينة الجدران بحرير داكن الحمرة ، وعلى الباب سدول من القماش المقصب وحاجز ثلاثى المصاريع .

كـــان مامونت دالسكى يقف متكئـــا على هذا الحاجز . وكان يمسك شدة من ورق اللعب . وكان يرتدى بدلة شبه عسكرية : سترة انجليزية التفصيل ، وبنطلون ركوب فى مربعات ، عجيزته من الجلد ، وحذاء طويلا اسود . عندما دخلت داشا ضحك بخبث ، وهو يسمع الحانا جنائزية .

قال الشخص الجالس الى البيانو :

– جمال صارخ . يجنن !

ارتعبت داشا وتوقفت . نظر الجميـــع اليها ما خلا دالسكى . وقال الارشيدوق :

– جمال روسى صرف .

وقال الرجل العظيم :

– تعالى اجلسى معنا ، يا آنسة .

همس جيروف :

– اجلسى ، اجلسى .

جلست داشا الى المائدة . اخذ الجالسون يقبلون يديها بعد ان تقدموا وانحنوا بمهابة ، وكانها مارى ستيوارت . وبعد ذلك استمر الغناء . وضع جيروف بعض الكفيار والمشهيات فى صحـــن

داشا ، وجعلها تشرب مشروبا حلوا محرقا . كان الجو خانقا داخنا . وبعد الشراب المطاط القت داشا فراءها ووضعت يديها العاريتين على المائدة . اقلقتها هذه النغمات الحزينة ، وكلمات الغناء القديمة . ولم تصرف بصرها عن مامونت . وكان جيروف قد حدثها عنه فى طريقهما الى هنا . ظل على وقفته الجانبية عند الحاجز ، وكان إما فى سورة من الحنق او سكران الى حد فقدان الوعى .

قال بصوت عميق ملأ ارجاء المقصورة :

– اذن ، يا سادة . لا يريد احد ؟

– لا احد . لا يريد احد ان يلعب معك ، نحن فى غاية المرح دون حاجة الى لعب . فاتركنا على حالنا ، واهدأ .

قال ذلك ذو الوجه المضغوط بصوت عالى النبرة سريع ثم اضاف :

– هيا ، ياشا ، اعزف الترتيلة السابعة .

القى ياشا الجالس الى البيانو راسه الى الوراء تماما ، ووضع اصابعه على المفاتيح مقلصا عينيه . قال مامونت :

– بلا فلوس . . . بصقة على فلوسكم . . .

– ومع ذلك لا تريد ، فلا تلح ، يا مامونت .

– اريد ان العب على طلقة . . .

بعد هذا صمت الجميع برهة . مرر البطل ذو الانف المدبب كفه على جبينه وشعره ، ونهض واخذ يزرر صداره :

– انا العب على طلقة .

امسكه الممثل الفكاهى صامتا ، ووقع عليه بجسمه الثقيل ، واجلسه فى مكانه . صاح البطل :

– انا اقسم بحياتى على ان فى يد مامونت الوغد ورقا معلّما . . . لا يهم . دعه يوزع الورق . اتركنى . . .

الا انه عجز . وقال المحاجج ذو الوجه العريض من الاسفل بلهجة ناعمة :

– لا توجد قطرة واحدة من النبيذ . مامونت ، هذه شناعة ، يا عزيزى . . .

عندئذ القى مامونت دالسكى على طاولة التلفون شدة الورق ومسدسا اتوماتيكيا كبيرا . وامتقع من شدة الغيظ وجهه الضخم المنحوت . وقال مقطعا الكلمات :

– لن يخرج احد من هنا . سنلعب ، كما اريد . . . شدة الورق هذه غير معلّمة .

واستنشق الهواء بقوة من منخرين عريضين ، وتتدلت شفته السفلى . وادرك الجميع ان اللحظة الخطرة قد حلت . مرر بصره على وجوه الجالسين الى المائدة . عزف ياشا باصبع واحدة نغم اغنية شائعة . وفجأة ارتفع حاجبا مامونت الاسودان ، ولمعت الدهشة فى عينيه العميقتى الغور . فقد وقع بصره على داشا . سرت برودة سريعة فى قلب داشا من تلك النظرة . تقدم مامونت منها بدون ترنح ، وامسك اطراف اصابعها ، ورفعها الى شفتيه الجافتين المتشققتين ومسها دون ان يقبلها :

– تقولون انه لا يوجد نبيذ . . . سيكون جاهزا . . .

دق الجرس وهو ما يزال يتمعن فى داشا . دخل الخادم التترى ، وبسط يديه : لا توجد زجاجة واحدة . شُربت الخمرة كلها ، والقبو مغلق ، والمسؤول قد خرج . عندئذ قال مامونت :

– انصرف .

وتقدم من التلفون وكان انظار الف من المتفرجين مصوبة نحوه . وادار رقما : «نعم . . . انا . . . دالسكى . . . ارسل دورية . «متروبول» . . . انا هنا . . . بسرعة . . . نعم . . . اربعة يكفى . . .»

ووضع السماعة ببطء . واتكأ بكل جسمه على الحائط ، وطوى يديه على صدره . مر ما لا يزيد عن خمسة عشر دقيقة . عزف ياشا على البيانو الحانا من سكريابن بخفوت . ودار راس داشا من هذه النغمات الاليفة الآتية من الماضى . واختفى الزمن . وارتفع القماش المقصب الفضى على صدر داشا وانخفض وتدفق الدم الى اذنيها . همس جيروف ، ولكنها لم تسمع .

كانت منفعلة تشعر بسعادة التحرر ، وخفة الشباب . وخيل اليها انها قد طارت مثل نفاخة انفلتت من عربة اطفال ، اعلى فاعلى بشكل يدير الرأس . . .

مسد الرجل العظيم ذراعها العارية . وتمتم بابوة :

– لا تنظرى اليه بهذه الرقة ، يا عزيزتى . . . ستعمى عيناك . . . فى مامونت شىء شيطانى دون شك . . .

فى تلك اللحظة انفتحت فجاة دفتا الباب ، وظهرت وراء الحاجز اربعة رؤوس فى كيبيهات ، واربعة اكمام جلدية تضغط على مقابض قنابل يدوية . وهتف اربعة من الفوضويين بتهديد :

– لا تتحركوا من اماكنكم ! ارفعوا ايديكم !

قال دالسكى بهدوء :

– دعوهم . كل شىء على ما يرام . شكرا ، يا رفاق .

وتقدم منهم ، ورفع جسمه من فوق الحاجز وراح يشرح لهم شيئا ما همسا . اوماوا بكيبيهاتهم ، وانصرفوا . وبعد دقيقة ترددت اصوات منفردة ، وصيحة مكتومة . وهز الجدران انفجار اصم الرنين هزا خفيفا . قال مامونت :

– هؤلاء الجراء لا يستطيعون ان يؤدوا امرا دون اثارة ضجة .

ودق الجرس ، وفى الحال دخل المقصورة الخادم شاحب الوجه واسنانه تصطك . فامره مامونت :

– ارفع كل شىء . وضع اقداحا نظيفة للنبيذ . ياشا ، كفاك تعذيبا لأعصابى . اعزف شيئا حيا .

وبالفعل ، ما ان فرش الخادم مفرشا نظيفا على المائدة حتى دخل الفوضويون ثانية ومعهم عدد كبير من الزجاجات . وضعوا على البساط زجاجات الكونياك والويسكى والليكور والشمبانيا ، واختفوا صامتين ايضا . ترددت حول المائدة هتافات الدهشة والانشراح . واوضح مامونت الأمر قائلا :

– امرت بان يصادر ٥٠ بالمائة فقط من الخمر الموجود فى الغرف . وان يترك النصف الآخر الى اصحابه . يمكن ان ترتاح ضمائركم . فكل شىء على ما يرام .

عزف ياشا لحنا احتفاليا . وتطايرت سدادات الشمبانيا . جلس مامونت الى جانب داشا . بدا وجهه المنار بمصباح الطاولة اكثر عظمة وشبها بوجه منحوت . سال :

– اليوم رايتك فى «لوكس» . كنت نائمة . . . من انت ؟

اجابت وهى تضحك من دوار فى راسها :

– لا شىء . . . نفاخة . . .

وضع يده الكبيرة الحارة على كتفها العارية ، واخذ يحدق فى عينيها . ولم تهتم داشا . لم تشعر الا بالدفء تحت ثقل اليد على كتفها الباردة . رفعت قدح الشمبانيا من ساقه الدقيقة ، وشربت حتى الثمالة . سالها :

– لست لاحد ؟

– لست .

عندئذ سرّ فى اذنها بنبرة تراجيدية :

– عيشى ، يا طفلتى ، بكل جوارحك . . . من حسن حظك انك التقيت بى . . . لا تخافى ، لن اشوه شبابك بالحب . . . الاحرار لا يحبون ولا يطلبون حبا . . . عطيل نار موقدة من القرون الوسطى ، محكمة تفتيش ، سحنة شيطانية . . . روميو وجيوليت . . . اوه ، انا اعرف انك تشتاقين اليهما سرا . . . ذلك هراء عتيق . . . نحن نهدم كل شىء من الاعلى الى الاسفل . . . نحن سنحرق جميع الكتب ، وسنهدم المتاحف . . . يجب ان ينسى الانسان القرون الماضية . . . الحرية فى شىء واحد : الفوضوية المقدسة . . . حريق الاهواء الهائل . . . لا ! لا تنتظرى الحب ولا السلام ، يا حسناء . . . انا احررك . . . احطم عنك اغلال البكارة . . . اعطى لك كل ما سيخطر على ذهنك فى الفترة ما بين عناق وعناق . . . اطلبى . . . اطلبى الآن . . . ربما سيفوت الاوان غدا .

ومن خلال هذيان الكلمات هذا كانت داشا تحس بكل بشرتها فوران الهوى الثقيل الى جانبها . واستولى عليها الذعر كما يحدث فى الحلم ، حين لا تقوى على الحركة ، ومن ظلمة الحلم تتقدم عينا وحش ملتهبتان . ليلقيها ارضا ، ويطأها ، ويسحقها . . . وكان افظع من ذلك ان رغائب غريبة لاذعة خانقة كانت تتولد فى داخلها للاستجابة له . . . واحست بكل كيانها كامراة . . . ولعلها كانت فى تلك اللحظة مضطربة وجميلة حتى ان الرجل العظيم مال نحوها ، وقال بحسد وهو يقرع كاسها :

– مامونت ، انت تعذب الطفلة . . .

وثب دالسكى ، وكأنما اصيب بطلقة ، وضرب المائدة . قفزت الاقداح وسقطت :

– سأرمى كل مَنْ يمس هذه المرأة !

واندفع الى طاولة التلفون ، حيث كان المسدس . ونهض جميع من كانوا الى المائدة ، منحين المقاعد . واندس ياشا تحت البيانو . عندئذ تعلقت داشا بيد مامونت الحاملة للمسدس ، دون ان تعرف كيف حدث هذا . وتوسلت اليه بعينيها . امسك ظهرها النحيل الى الاسفل من دفة كتفها ، ورفعها ، واطبق فمه على فمها ماسا اسنانها باسنانه . تأوهت داشا . وفى تلك اللحظة دق التلفون . ترك مامونت داشا تجلس على المقعد (اغلقت عينيها بيديها) وخطف سماعة التلفون :

– نعم . . . ماذا تريد ؟ انا مشغول . . . نعم . . . اين ؟ فى شارع مياسنيتسكايا ، جواهر ؟ ثمينة ؟ سأكون بعد عشر دقائق . . .

دس المسدس فى الجيب الخلفى ، وتقدم من داشا ، وطوق وجهها بيديه ، وقبلها عدة قبلات نهمة ، وخرج بعد ان اشار بيده مودعا كالرومانى .

قضت داشا بقية الليل فى «لوكس» . ونامت كالميتة دون ان تخلع الفستان من القماش الفضى المقصّب . (نام جيروف فى الحمام خوفا من مامونت .) ثم كانت تجلس حزينة حتى منتصف النهار قرب النافذة لا تتحدث مع جيروف ، او ترد على اسئلته . وفى نحو الساعة الرابعة خرجت ، وانتظرت حتى الساعة الخامسة فى بولفار بريتشيستنسكى ، فى الساحة عند تمثال غوغل الطويل الانف ، حيث كان فى الاسفل اطفال نحفاء يعملون بهدوء فطائر من التراب والرمل .

كانت داشا قد عادت ترتدى ثوبها القديم وقبعتها المصنوعة بيتيا . كانت الشمس تدفئ ظهرها ، الشمس المطلة على حياة بائسة . كانت للاطفال وجوه صغيرة شائخة من الجوع . والهدوء

يسود ما حولها والخواء . ما من كركبة لعجلات ، ولا اصوات عالية . فان العجلات كلها قد ذهبت الى الحرب ، والسابلة صامتون . وكان غوغل فى مقعده الغرانيتى ينحنى تحت ثقل معطفه المبقع بذرق العصافير . مر رجلان ملتحيان دون ان يلحظا داشا : نظر احدهما الى الارض ، والآخر الى الاشجار . وترامت نتف من حديثهما :

– اندحار تام . . . فظيع . . . ما العمل الآن ؟

– ومع ذلك فقد احتلت سامارا ، واحتلت اوفا . . .

– لا اصدق الآن بأى شىء . . . لن ينقضى هذا الشتاء ونحن احياء . . .

– ومع ذلك فدنيكين يتصرف فى الدون . . .

– لا اصدق ، لا شىء ينقذ . . . هلكت بابل ، وهلكت روما . . . ونحن ايضا سنهلك . . .

– ومع ذلك لم يعتقلوا سافينكوف . ولم يعتقلوا تشيرنوف . . .

– لا اهمية لذلك كله . . . كانت روسيا ، والآن لا وجود لها . . .

ومرت ايضا تلك المرأة الشائبة التى اخرجت من تحت شالها بالأمس ، وهى خائفة ، مؤلفات روزانوف . اشاحت داشا بوجهها عنها . اقترب من مسطبتها خلسة شاب يضع دبوس جمجمة . تلفت فيما حوله ، وعدّل نظارته الانفية ، وجلس الى جانب داشا :

– قضيت الليلة فى «متروبول» ؟

انزلت داشا رأسها ، وردت محركة شفتيها بلا صوت : نعم .

– ممتاز . وجدت لك غرفة . انتقلى اليها مساء . لا تقولى لجيروف كلمة واحدة . والآن لندخل فى الموضوع : هل تعرفين لينين بالنظر ؟

– لا .

اخرج عدة صور فوتوغرافية ، ودسها فى حقيبة داشا . ولبث جالسا يمسك بشعر لحيته ويعضه . وامسك يدى داشا المستلقيتين على ركبتيها بلا حياة ، وهزهما :

– المسالة هى كالآتى . البلشفية هى لينين . هل تفهمين ؟ ونحن نستطيع ان ندحر الجيش الاحمر ، ولكن لن ننتصر ما دام لينين فى الكريملين . مفهوم ؟ انه نظرى ، انه قوة ارادية ، واعظم خطر على العالم كله ، وليس علينا فقط . . . فكرى واجيبى بحزم : موافقة انت ام لا ؟

– اقتله ؟

سالت داشا وهى تنظر الى طفل عارى البطن يترنح معوج الساقين . تلوى وجه الشاب ، ونظر الى اليمين ، وقلص عينيه ناظرا الى الاطفال ، وعاد يقضم شعر لحيته .

– لا احد يقول ذلك ... واذا كنت تفكرين به فلا حاجة الى ان تنطقى به بصوت عال . . . لقد قبلناك عضوا فى منظمتنا . . . امن المعقول انك لم تفهمى ما كان يقوله سافينكوف ؟

– انه لم يتحدث معى . . (ابتسم الشاب بسخرية .) آه ، يعنى ، ذو المنديل كان . . .

– خفضى صوتك ... نعم ، الذى تحدث معك هو بوريس فيكتوروفيتش ... لقد وضعت فيك ثقة هائلة ... نحن بحاجة الى اناس جدد . فقد حدثت اعتقالات كبيرة . انت تعرفين بالطبع ان خطة التعبئة فى قازان فشلت ... وينقل عمل المركز الى مكان آخر ... ولكننا سنترك المنظمة هنا ... ومهمتك ان تراقبى خطب لينين ، وتحضرى اجتماعات عامة ، وترددى على المصانع ... ولن تكونى وحيدة فى العمل ... سيخبرونك بتنقلاته من الكريملين ، وبالاماكن التى يتوقع ان يلقى فيها خطبه ... واذا تعرفت على شيوعيين اطلبى الدخول الى الحزب . فان ذلك سيكون الافضل . تابعى الجرائد ، واقرئى المنشورات ... والتوجيهات الاخرى ستحصلين عليها غدا فى الصباح ، فى هذا المكان . . .

ثم اعطاها العنوان السرى ، وكلمة السر ، وقدم لها مفتاح الحجرة . وسار متجها نحو شارع اربات . اخرجت داشا الصور من الحقيبة ، واطالت النظر فيها . ولكن حين بدأ يتراءى لها – بدلا من هذا الوجه – الوجه الآخر الذى خرج من وراء الستار القرمزى

فى الليلة الماضية ، اغلقت الحقيبة بشدة ، وذهبت ايضا متجهمة مزمومة الشفتين . حاول الطفل الصغير ذو الساقين المعوجتين ان يلحقها ، الا انه وقع بجسمه الرخو على الرمل ، وبكى بحدة .

كانت حجرة داشا تطل على الفناء فى منزل خرب فى شارع سيفتسيف فراجيك . والظاهر ان البيت كان مهجورا . طرقت داشا باب المدخل الخلفى وقتا طويلا حتى استقبلتها امرأة عجوز قصيرة قذرة الثياب لها جفنان مقلوبان تبدو من هيئتها انها مربية تعيش فى بيت مخدوميها . ظلت وقتا طويلا غير فاهمة شيئا ثم سمحت لداشا بالدخول اخيرا ، وقادتها الى حجرتها ، واخذت تتحدث حديثا غير مفهوم .

– طار الصقور متفرقين : يورى يوريتش وميخائيل يوريتش وفاسيلى يوريتش . اما فاسينكا * فقد بلغ السادسة عشرة فى عيد القديس توماس ... اخذت اصلى لسكينة روحهم ...

رفضت داشا ان تشرب الشاى ، وخلعت ملابسها ، ودخلت تحت اللحاف ، وفى الظلام ذرفت الدمع غزيرا وهى تسد فمها بالوسادة .

وفى صباح اليوم التالى تلقت عند تمثال غوغل تعليمات وامرا بالحضور فى مصنع فى الغد . وفكرت بالعودة الى بيتها ، الا انها عدلت عن ذلك وذهبت الى مقهى «بوم» ، حيث وجدت جيروف وظل ملتصقا بها يسالها اين اختفت ، ولماذا انصرفت دون ان تاخذ اشياءها . «انا انتظر من مامونت نداء تلفونيا فماذا اجيبه عنك ؟» – اشاحت داشا بوجهها لئلا يرى خديها المحمرين ... وفكرت مع نفسها وهى تحس بانها تكذب : «على كل حال تقضى التعليمات بان اتابع صحبتى لهم ...»

قالت غاضبة :

– سآتى لأخذ الاشياء . وهناك سنرى .

وعادت الى بيتها تحمل لفة فيها لفاع الفرو الثمين والملابس الداخلية وفستان الامس . وفكت اللفة فى حجرتها ، والقتها على

---

* صيغة تدليل لاسم فاسيلى . – **المترجم** .

السرير ، ونظرت اليها فتملكتها رعدة حتى ان اسنانها اصطكت ، واحست من جديد بثقل يده على كتفهـا وببرودة اسنانـــــه . . . وركعت داشا امام السرير ، واخفت وجهها فى الفراء المعطر . وظلت تكرر مذهولة : «اى شىء هذا ، اى شىء هذا ؟» . . .

وفى الصباح لبست حسب ما اوصيت به : فستانا داكن اللون من القماش الرخيص جلبه اليها الشاب ذو الدبوس ، وشدت شعرها بمنديل على طريقة البروليتاريات (وكان عليها ان تتظاهر بانها خادمة سابقة فى منزل احد الاثرياء اغتصبها سيدها) ، وركبت الترام الى المصنع .

لم يكن معها ترخيص . فغمز لها الحارس العجوز عند الباب قائلا : «ذاهبة الى الاجتماع ، يا فتاة ؟ ادخلى المبنى الرئيسى» . سارت على رصيف من الالواح الخشبيـة المتآكلـة عبر اكوام من الحديد الصدئ ونفاية الصهر ، وعبر نوافذ ضخمة متحطمة . وكان المكان حولها خاليـــا ، والمداخن ترسل الدخان يهدوء فى السماء الصافية .

اشاروا لها الى باب ملطخ فى جدار . فدخلت الى قاعة طويلة آجرية . وكان الضوء الكئيب ينفذ اليها من خلال سقف من الزجاج المسخم . وكان كل شىء اجرد عاريا . وكانت سلاسل الرافعـــات تتدلى من المنصات ، والى الاسفل امتدت محاور التحويلات ، وتدلت احزمة النقل على بكراتها بلا حراك . واندهشت عينها غير المجربة لمرأى مساند الآلات السوداء والاشكال الواطئة والطويلة والمتباعدة الاطراف لآلات السحج والتثقيب والتقوير والفريزة والمخـــارط ، والاقراص الحديدية لمكائن الاحتكاك . ولمحت داشا فى شبه الظلمة وراء طاق عريض مطرقة بخارية ضخمة .

فى هذه الورشة كانت تصنع الآلات والاجهزة التى كانت تملأ الحياة وراء جدران المصنع الكالحة بالضوء والدفء والحركة والمعنى والترف . هنا كانت رائحة البرايات الحديدية وزيت المكائن والتراب وتبغ الماخوركا . كان جمهور غفير من الناس يقف امام منصة من الالواح الخشبية ، وكان الكثيرون جالسين على مساند المخارط ، وعلى افاريز النوافذ العالية .

شقت داشا طريقها اقرب الى المنصة . التفت شاب ضخم ،

وكشف ابتسامته العريضة عن اسنانـه البيضاء فى وجــه ملطخ بالزيت ، واشار براسه الى نضُد ومد يده . صعدت داشـا الى النضد عند نافذة . وحولها عدة آلاف من الرؤوس – وجوه عابسة وجباه متغضنة ، وافواه مطبقة . كانت ترى كل يوم هذه الوجوه فى الشوارع وعربات الترام – وجوه روسية اعتيادية متعبة بنظرتها الصارمة . ذات مرة – وكان ذلك قبل الحرب – واثناء نزهــة يوم الاحد حوّل اثنان من المحامين كانا بصحبتها الحديث الى هذه الوجوه بالذات : «خذى جمهور باريس على سبيل المثال يا داريا دميترييفنا . انه مرح طيب القلب يطفح حبورا . . . اما عندنا فكل واحد يبدو جهم الاسارير . انظرى الى هذين العاملين السائرين . لو شئت لذهبت اليهما ، وقلت لهمـــا نكتة . . . انهمـــا سيتكدران ولا يفهمان . . . الشعب الروسى اخرق ثقيل الطبع . . .» والآن كان هؤلاء الذين لا يحبون النكتة يقفون قلقين كئيبين مصممين مشدودين . انها نفس تلك الوجوه ، ولكنهـــا قد عتمت من الجوع ، نفس تلك العيون ، ولكن نظرتها ملتهبة نافدة الصبر .

نسيت داشا ما جاءت من اجله . فان انطباعات الحياة التى انقذفت اليها من النافذة الخالية فى شارع كراسنيه زورى قد حملتها فى امواجهـا مثل طائر عصفت به العاصفـــة . واستسلمت لهذه الانطباعات بكل اخلاصها الكلى . لم تكن قط امرأة حمقاء ، ولكنها مثل الكثيرات قد تركت نفسها لتجربتها الصغيرة لا غير . وكان فيها الظمأ الى الحقيقـــة ، الحقيقة الخاصة ، الحقيقة النسائية ، الحقيقة الانسانية .

تكلم الخطيب عن الوضع فى الجبهات . وكان فى خطابه القليل ممـــا يبعث على التشجيع . ان حصار القمح قد اشتد : قطـــع التشيكوسلوفاكيون قمح سيبيريـــا ، والاتمان كراسنوف قمح الدون . والالمان يفتكون دون رحمة بانصار اوكرانيا . وكان اسطول المتدخلين يهدد كرونشتادت وارخانغيلسك . «ولكن الثورة يجب ان تنتصر !» والقى الخطيب بالشعارات ، ودقها بقبضته فى الهواء ، وامسك المحفظة ، ونزل عن المنصة . وصفقوا له ، الا ان التصفيق كان متراخيا ، فان الامور لـــم تكن تستحق التصفيق . واطرقت الرؤوس ، واختفت العيون تحت الحواجب .

التقت عينا داشا بعيني الشاب الكبير الاسنان وابتسم لها ثانية بمرح :

– تلك هي المصيبة ، يا آنسة . يريدون ان يهلكونا جوعا كالفئران . . . ماذا ستفعلين ؟ . .

سالت داشا :

– وهل خفت ؟

– انا ؟ خفت خوفا شديدا (اخذ الناس يسكتونه بالهسيس : «اهدأ ، يا شيطان !») وانت ما اسمك ؟

نظرت داشا اليه – الصدر العضلي والقميص الاسود المفتوح ، والعنق الغليظ ، والوجه المرح ، والابتسامة ، والخصلات الجعداء المبللة بالعرق ، والعينين المستديرتين الشغوفتين بالنساء وكله ملطخ بالزيت . . .

قالت داشا :

– يا لك ! ما لك تكشر عن اسنانك ؟

– القتني امي من المسطبة وانا طفل . حسنا ، تعالى معنا الى الجبهة بعد غد . هــا ؟ ستهلكين حتما هنـا في موسكو . . . سنخرج ومعنا اكورديون ، يا حلوة . . .

غطت على كلماته ضجة التصفيق . كان على المنصة خطيب جديد ، وهو رجل ربع القامة في سترة رمادية وصدار مجعد بتجاعيد افقية . احنى جمجمته الصلعاء العجراء وقلب اوراقه . وقال بصوت ألثغ قليلا : «ايها الرفاق !» – ورات داشا وجهه المهموم وعينيه المتقلصتين وكأنهما من ضوء الشمس . كانت يداه مستقرتين على الطاولة ، على الاوراق . وعندما قال ان موضوع اليوم سيكون الازمة الشديدة المخيمة على اوربا كلها ، وعلى روسيا بشكل اصعب ، سيكون الموضوع عن المجاعة حبس ثلاثة آلاف شخص انفاسهـم تحت السقف المسخم .

بدأ باراء عامة ، وتحدث بصوت متسق ساعيا الى ايجاد تجاوب مع المستمعين . وابتعد عن المنضدة غير مرة وعاد اليها . وتحدث عن الحرب العالمية التي لا تستطيع ولا تريد ان تنهيها جماعتان من الوحوش اطبقت احداهمـا على عنق الأخرى ، وتكلم عن المضاربة

الجنونية على المجاعة ، وعن ان الحرب لا يمكن ان تنهيها الا الثورة البروليتارية . . .

وعرج على الكلام عن وجود طريقتين لمكافحة المجاعة : هناك التجارة الحرة التي تجلب الثراء الفاحش للمضاربين ، وهناك احتكارية الدولة . وتراجع جانبــا ثلاث خطوات عن المنضدة ، وانحنى نحو المستمعين ، ووضع ابهامي يديه وراء صداره من الجانبين ، وبرز بيديه الكبيرتين وراسه العريض الجبين الى الامام راسا مظهرا سبابة ملطخة بالحبر :

– . . . لقد وقفنا ، وسنقف يدا بيد مع الطبقة التي ناهضنا بها الحرب : مع التي اطحنا بها البرجوازية ، مع التي تتحمل كل ثقل الازمة الراهنــة . يجب ان نقف الى جانب احتكار الحبوب حتى النهاية . . . (عند هذه الكلمات صدرت من الشاب ذو الاسنان الكبيرة نحنحة تاييد .) امامنا مهمة ضرورة الانتصار على المجاعة ، او على الاقل ، تخفيف وطأتها حتى المحصول الجديد ، والدفاع عن احتكار الحبوب ، الدفاع عن حق الدولة السوفييتية ، الدفاع عن حق الدولة البروليتارية . يجب ان نجمع كل فائض الحبوب ونعمل على ان تنقل كل الاحتياطات الى المناطق التي تحتاجها ، وتوزيعهـا بصورة صحيحة . ان هذه المهمة الاساسية هي الحفاظ على المجتمع الانساني ، والعمل الجسيم ، في الوقت ذاته ، وذلك لن يتـم الا بطريق واحد هو النهوض بالعمل على نحو مشترك مشدد . . .

صدرت من شخص آهة مفاجئة صماء في السكون الشامل ، آهة انسان جوبهت بهذا الصعود الجليدي الذي كان يقودهم اليه هذا الرجل ذو السترة الرمادية . كانت جبهته تطل على المستمعين ومن تحت تقوس الحاجبين تحدق عيناه النافذتان بلا رحمة .

– . . . لقد وقفنا وجهـا لوجه امام تحقيق مهمة ثوريــة اشتراكية ، وجوبهنا بمصاعب خارقة . انها عهد كامل من اقسى حرب اهلية . . . ونحن لن ننتصر على المجاعة وعلى اعداء الثورة الذين يستغلون هذه المجاعة الا بتحطيم الثورة المضادة ومواصلة السير على السياسة الاشتراكيــة في قضية المجاعة ، في مكافحة المجاعة . . .

وارتفعت يده من وراء الصدار ، وضربت الهواء وكأنها تقضى على عدو غير مرئى ، وتدلت فوق القاعة :

– ... عندما يتحدث العمال الذين بلبلتهم شعارات المضاربين عن بيع الحبوب الحر ، وعن استيراد وسائل الشحن نرد عليهم قائلين : ان ذلك يعنى السير فى ركاب الكولاك ... ولن نسير فى هذا الدرب ... سنعتمد على الكادحين الذين انتصرنا بهم فى اكتوبر ، وسنسعى الى تحقيق قرارنا بتطبيق الضبط البروليتارى بالذات بين فئات الشعب العامل . ان امامنا مهمة تاريخية ، وسنحققها ... والمراسيم الاخيرة عالجت قضية الحبوب ، اكثر قضايا الحياة جذرية . وكلها تتضمن ثلاثة افكار توجيهية ؛ الاولى : فكرة المركزية او توحيد الجميع فى عمل مشترك واحد تحت قيادة المركز ... نعم ان هناك من يبدى لنا ان احتكار الحبوب يخرق فى كل خطوة بواسطة الذين يشترون بالجملة والمضاربين . وكثيرا ما نسمع من المثقفين : ولكن المشترين بالجملة يقدمون لهم العون ، ويطعمونهم جميعا ... نعم ، ولكن المشترين بالجملة يطعمون على **طريقة الكولاك** ، وهم يتصرفون تماما بالطريقة التى تعزز وتقيم **وترسخ الى الأبد** سلطة الكولاك ...

وباشارة من يده قطع ما لن يحدث بعد الآن .

– ... شعارنا الثانى توحيد العمال . انهم هم الذين سيخرجون روسيا من الوضع اليائس والصعب للغاية . يجب تنظيم فصائل العمال ، تنظيم الجياع من الاقضية الجائعة غير الزراعية ؛ اننا ندعوهم الى مساعدتنا وتتوجه مفوضيتنا للتموين اليهم . اننا نقول لهم : **«الى الزحف الصليبى فى سبيل الحبوب»** .

ارتفع التصفيق بعنف شديد . ورأت داشا كيف تراجع الخطيب بعد ان حشر يديه فى جيبيه ، ورفع كتفيه : وظهرت بقع ملتهبة على وجنتيه ، وارتجف جفناه ، وكان جبينه نديا .

– ... اننا نقيم دكتاتورية ... اننا نستعمل العنف ازاء المستثمرين ...

وغطى التصفيق على هذه الكلمات . لوّح بيديه ليسكتهم ... وفى الصمت استمر :

– ... «يا ممثلى الفقراء ، اتحدوا» – ذلك شعارنا الثالث . ان امامنا مهمة تاريخية : يجب ان نزود بالوعى الطبقى الطبقة التاريخية الجديدة ... فى جميع العالم تتحد فصائل عمال المدن وعمال الصناعة حتى آخر رجل . ولكن لم تجر حتى الآن تقريبا محاولات نظامية متفانية نزيهة لتوحيد الذين يعيشون فى القرى ، فى الانتاج الزراعى الصغير ، فى الانحاء النائية ، فى الجهالة وقد بلدتهم ظروف الحياة كلها . هنا تواجهنا مهمة ان ندمج فى هدف واحد ليس فقط الكفاح ضد المجاعة ، بل والكفاح فى سبيل كلية نظام الاشتراكية العميق والمهم . هنا امامنا معركة تستحق ان نهبها كل القوى وان نبذل كل الجهود ، لأن هذه المعركة فى سبيل الاشتراكية ، لأن هذه المعركة فى سبيل النظام الاخير للشغيلة والمستثمَرين .

ومسح جبينه بكفه سريعا :

– ... على مسافة غير بعيدة عن موسكو ، وفى محافظات متلاصقة هى كورسك واوريل وتامبوف ما يزال لدينا الآن ، حسب تقدير الاخصائيين الحذرين ، ما يصل الى عشرة ملايين بود من الحبوب الزائدة . فدعونا ، ايها الرفاق ، ان نتضافر بالجهود المشتركة . فان الجهود المشتركة وحدها ، وتوحيد جميع الذين يعانون اكثر من غيرهم فى المدن والاقضية الجائعة هما الامران اللذان يساعداننا ، وذلك هو الطريق الذى تدعوكم اليه السلطة السوفييتية : توحيد العمال ، توحيد الفقراء وفصائلهم المتقدمة لبث الدعوة فى الاقاليم ، من اجل الكفاح فى سبيل الحبوب وضد الكولاك ...

وصار يمسح جبينه اكثر فاكثر ، وزايل الرنين صوته ، فقد قال كل ما اراد ان يقوله . تناول ورقة من المنضدة ، ونظر فيها ، وجمع بقية الاوراق :

– وهكذا ، يا رفاق ، فاننا اذا استوعبنا كل ذلك ، وفعلنا كل ذلك فان النصر حليفنا بالتاكيد .

وفجاة اضاءت وجهه ابتسامة صافية طيبة . وفهم الجميع انه منهم ، رجلهم ! فهتفوا ، وصفقوا ، وضربوا الارض باقدامهم . نزل

من المنصة راكضا ضاما راسه بين كتفيه . وهتف الشاب الكبير الاسنان بالقرب من داشا بصوت كخوار الثور :

– عاش ايليتش !

كل ما كان فى وسع داشا ان تقوله هو انها رات وسمعت «شيئا آخر» . . . حين عادت من الاجتماع جلست على السرير فى حجرتها ، ونظرت بعينين متسعتين الى زخرفة ورق الجدران . وكانت على المخدة مذكرة من جيروف : «مامونت ينتظرك فى «متروبول» فى الساعة الحادية عشرة» . وعلى الارض عند الباب مذكرة اخرى : احضرى فى الساعة السادسة عند تمثال غوغل . . .»

اولا ان هذا «الشيء الآخر» كان خلقيا بشكل صارم ، يعنى انه سام . . . تحدث عن الحبوب . من قبل كانت تعرف ان الخبز يمكن ان يشترى ويُبادل . وسعره معروف : البود الواحد من الطحين ببنطلون غير مرقع . ولكن تبين ان مثل هذا الخبز ترفضه الثورة بحنق . فانه خبز قذر . الموت افضل من اكل مثل هذا الخبز . واليوم رفض ثلاثة آلاف جائع الخبز القذر .

رفضوه باسم . . . (وهنا اختلط كل شيء فى راس داشا البائس من جديد .) باسم المهانين والمضطهَدين . . . او كيف قال ؟ ان نهب كل القوى ، ان نبذل كل الجهود . ان نهب الحياة فى سبيل الشغيلة والمستثمَرين . . . وهذا هو السبب فى صرامتهم التراجيدية . . .

كان كوليتشيك قد قال لها : من جميع جهات العالم تتهيأ الايدى للامتداد بالمساعدة ، بالحبوب . . . فقط على شرط ان يُقضى على النظام السوفييتى . . . اقضوا عليه وسيكون الخبز . . . باسم اى شيء ؟ باسم انقاذ روسيا . ولكن ممن تنقذ ؟ تنقذ من انفسنا . . . ولكنهم لا يريدون ان تُنقذ «بهذا الشكل» . وقد رأت ذلك بنفسها . . .

اوه ، يا لراس داشا البائس ! انت دخلت الى السياسة فى وقت متاخر ، يا داشا . قالت لنفسها : «انتظرى ، انتظرى» . وضعت يديها وراء ظهرها ، وسارت فى الحجرة ناظرة الى قدميها .

«اى شيء يمكن ان يكون اسمى من ان يهب الانسان حياته للمهانين والمضطهَدين ؟ . . بينما يقول كوليتشيك ان البلاشفة يودون بروسيا ، والجميع يقولون ذلك . . .» واغمضت داشا عينيها محاولة ان تتصور روسيا التى يجب ان تحبه اكثر من نفسها . تذكرت لوحة سيروف : حصانان على منحدر رابية ، ووشاح سحابة على الشفق ، وسقف اشعث من القش . . . «لا ، ذلك عند سيروف . . .» ولاح خلف جفنيها المغمضين الفتى المكشر الكبير الاسنان مرحا وموحشا . . . مرة اخرى ذرعت داشا حجرتها . . . «ما هى روسيا اذن ؟ لماذا يجذبها الناس الى جهات شتى ؟ انا حمقاء ، لا افهم شيئا . . . آه ، يا آلهى !» واخذت داشا تنقر صدرها باصابعها المضمومة ، ولكن ذلك ايضا لم يسعفها . . . «هل اذهب الى لينين لأساله ؟ أوه ، يا للشيطان ، انا من معسكر آخر . . .»

وكل هذه التناقضات الرهيبة ، وبلبلة النفس جعلتها تضع قبعتها على عينيها فى نحو الساعة السادسة ، وتتجه الى تمثال غوغل . وما هى لحظة حتى ابتعد الرجل ذو الدبوس عن شجرة :

– تأخرت ثلاث دقائق . . . كيف ؟ هل كنت هناك ؟ استمعت الى لينين ؟ حدثينى خلاصة . . . كيف وصل ، ومن كان بصحبته ، وهل كانت المنصة محروسة ؟

صمتت داشا قليلا لتستجمع افكارها :

– قل لى : باسم اى شيء يريدون قتله ؟

– هكذا ؟! من اين اخذت هذا ؟ لا احد ينوى ذلك . . . اذن ، اذن . . . يعنى انه اثر فيك ؟ بالطبع . . . لهذا السبب هو خطير .

– ولكنه قال اشياء عادلة .

مد رقبته ، وابتسم ابتسامة خبيثة ندية فى عينى داشا ، وسأل بتملق :

– ربما من الافضل ان تتركى ذاك ؟

تنحت داشا . ولكن رقبته تمطت وكانها من مطاط ، وتراقص اللمعان على نظارته الانفية نافذا الى حدقتى داشا . فهمست :

– انا لا اعرف شيئا . . . لم اعد افهم شيئا . . . يجب ان اكون مقتنعة ، يجب ان اقتنع .

هس الرجل ذو الدبوس صافرا بصوته قائلا :

– لينين عميل القيادة العامة الالمانية .

ثم قضى زهاء نصف ساعة ليشرح لداشا خطة الالمان الجهنمية : انهم يرسلون البلاشفة مقابل مبالغ طائلة فى عربات مختومة ، والبلاشفة يقوضون الجيش ، ويغررون بالعمال ، ويقضون على الصناعة الوطنية والزراعة ... وبعد شهر او آخر سيحتل الالمان روسيا دون قتال .

– ان البلاشفة الآن يؤججون الحرب الاهلية ، ويصرخون معلنين ان هناك حصارا على الحبوب ، وفى الوقت ذاته يقتلون رميا بالرصاص المشترين بالجملة – منقذينا ... انهم يخططون المجاعة عن وعى ... لقد رأيتِ اليوم كيف راح عدة آلاف احمق يثبتون عيونهم على فم لينين وهو يتكلم ... ذلك شىء يمزق النفس ... انه يخدع الجماهير ، الملايين ، الشعب كله ... انه فى المفهوم المادى «محرض كبير» ... ومن الناحية الاخرى ... (ومال الى اذن داشا ، وهمس بنفثة واحدة) الدجال ! هل تتذكرين التنبؤات ؟ التواريخ تتطابق . الشمال يشن الحرب على الجنوب . وتظهر فرسان الموت من الحديد ، وهى الدبابات ... وتسقط فى ينابيع المياه نجمة الشر . انها نجمة البلاشفة الخماسية الاطراف ... وهو يتكلم للناس كما يتكلم المسيح ، ولكن كل شىء على الضد ... واليوم حاول ان يغويك ، ولكننا لن نتخلى عنك ... سأنقلك الى عمل آخر .

وبقى السؤال الثالث غير مجاب . (عادت داشا الى حجرتها ، واستلقت على الفراش ، وغطت عينيها بمرفقها .) . وفجأة قرفت من التفكير ... «هل انا شخت ، وبلغت المائة عام ؟ وهل انا قبيحة الوجه ؟ سأطلق لحريتى العنان ... لأذهب الى «متروبول» اذا اردت ... ولمن اخفى كل ما لا يريد ان يخفى واختنق فى صدر صياح السعادة ؟ ولمن اصك ركبتى الى حد العذاب ؟ واية مداعبات اتوقع ؟ حمقاء ، حمقاء ، جبانة ... افتحى نفسك ، اندفعى ... لا شىء يهم ، فليذهب الحب الى الشيطان ، وانت الى الجحيم ..»

لقد كانت تعرف انها ذاهبة الى «متروبول» . واذا كانت مترددة ، فلأن وقت ذهابها لم يحن بعد – كان الظلام قد بدأ يخيم – وتلك الساعة السامة لتدفق الافكار . فى البيت دقت الساعة التاسعة

ببطء مثل ساعة برج . ووثبت داشا من السرير بسرعة ... «لا اريد ان اقلق هذا القلق المهين !..»

خلعت ملابسها على عجل ، وركضت بقميصها الداخلى الى الحمام ، حيث تراكم حطب وصناديق واشياء اخرى . ووقفت تحت الدش . وسقط الرشاش البارد على ظهرها . وشهقت انفاسها من البرد . وعادت الى حجرتها مبللة واخذت المفرش من السرير ، ونشفت نفسها واسنانها تصطك .

وحتى فى تلك اللحظة لم تستقر على قرار : كانت تنظر تارة الى الثوب القديم المرمى على ارض الحجرة مباشرة ، وتارة الى الفستان الملقى على ظهر الكرسى . وادركت مرة اخرى ان ذلك جبن ، مجرد تأجيل . وعندئذ اخذت ترتدى ملابسها . ولم تكن فى الحجرة مرآة ، والحمد لله ! القت اللفاح الفرائى على كتفيها ، وخرجت الى الشارع كاللصة . كان الظلام قد اشتد . سارت خلال البولفارات . كان الرجال يلاحقونها بعيونهم مندهشين ، ومعها ملاحظاتهم غير المشجعة البتة . ومن وراء شجرة تقدم اثنان فى معطفين من معاطف الجنود وهما يترنحان ، وهتفا : «طفيلية ، انتظرى ، الى اين ذاهبة ؟»

توقفت داشا عند ساحة نيكيتسكايا وانفاسها متقطعة وقلبها يوخزها . مرت عربة ترام مضاءة تجر اخرى وراءها وهى تقرع جرسها بحدة . وكان الناس يتعلقون على الدرجات . كان احد الركاب يمسك الدرابزين النحاسية باليد اليمنى ، وحقيبة مسطحة من جلد التمساح باليد اليسرى ، وحين مر بها ادار وجهه الحليق القوى نحوها . لقد كان ذلك مامونت . اهتّ داشا ، وركضت للحاق بالترام . ورآها ، ارتفعت الحقيبة فى يده ارتفاعا راعصا . فك يده الاخرى من الدرابزين وقفز والترام سائر فى اقصى سرعته ، فاذا به يترنح ويسقط على ظهره محاولا ان يتشبث بالهواء وارتفع نعل حذائه الضخم لحظة ، ثم اختفى جذعه تحت العربة الثانية ، وسقطت الحقيبة عند قدمى داشا . ورأت داشا ركبتيه ترتفعان مرتعصتين ، وسمعت صوت عظام تتهشم ، وارتطام حذاء على البلاط . صرّت فرامل الترام ، وتناثر الناس من العربة .

غطى على عينيها غشاء اسود ، ولا الطريق ناعما كالكفن ، وسقطت داشا على الارض وذراعاها وخدها على الحقيبة ، وفقدت الوعى .

٩

بدأ تحول جيش المتطوعين الى الهجوم ، وهو ما سمى بـ«حملة كوبان الثانية» بعملية ضد محطة تورغوفايا . كان الاستيلاء على هذا الملتقى للخطوط الحديدية مهمــا للغاية ، لأنه يقطع شمال القفقاس كله عن روسيا . فى العاشر من حزيران زحف هذا الجيش المؤلف من تسعة آلاف رجل من المشاة والخيالـــة بقيادة دنيكين العامة لتطويق محطة تورغوفايا باربعة طوابير .

كان دنيكين فى طابور دروزدوفسكى . وكان التوتر فى غاية الشدة . فقد كان الجميع يدركون ان نتيجة المعركة الاولى تقرر مصير الجيش . انطلق طابور دروزدوفسكى المحتمى بنيران مدفعه الوحيد المشحون بقذائف شظايا يحاول عبور نهر يغورليك سباحـة تحت قصف مدفعية الطرف الآخر . كان النقيب توركول آمر الفوج فى الصف الأول يتخبط فى الماء كالكرة شارقا بالماء ولاعنا . دافع الحمر باستماتة ، ولكنهم لقلة مهارتهـــم جعلوا العدو المجرب يطوقهم . اكتسحت المواقع الاماميـــة من قبل طابور بوروفسكى جنوبا ، ومن قبل خيالة ارديلى شرقـا . تركت وحدات الحمر التى اختلط بعضها ببعض وطوابير العربات الضخمة محطة تورغوفايا ، واخذت تنسحب شمالا . ولكن هنــا ايضـا سدّ طريقهم طابور ماركوف من ناحية شابلييفكا . وصار انتصار المتطوعين كاملا . وطوف قوزاق ارديلى بالسرايا فى ارجاء السهب يطعنون الهاربين ، آخذين الاسرى وعربات المتاع .

وهبط الظلام . وهدأت المعركـــة . وضع دنيكين يديـــه السميكتين وراء ظهره ، وراح يذرع رصيف المحطة احمر جهما . وكان طلاب المدارس العسكريـــة فى ضحك ومزاح – شأن الذين خرجوا سالمين من خطر مميت – يحملون اكياس الرمل ويضعونها على العربات المكشوفة ، وينصبون الرشاشات على قطـار مصفح

تصفيحا ارتجاليا . ومن حين لآخر كانت قذيفة مدفـــع تهز الهواء منطلقة من قطار مصفح للحمر يقع شمالا وراء شابلييفكا . وكانت آخر قذيفة منطلقة من هناك قد سقطت بالقرب من جسر على نهر مانيتش ، حيث كان الجنرال ماركوف يمتطى حصانا رماديا . انه لم ينم ولم يذق الطعام ولم يدخن منذ يومين ، وكان منزعجـا من ان احتلال شابلييفكا لم يجر كما كان يريد . وظهر ان المحطة كانت تحتلها فصيلة قوية للحمر مع مدفعية وقطارات مصفحة . وقد حارب طابور الجنرال الذى التف حول المحطة يوم امس ، الحادى عشر من الشهر ، واليوم كله بعناد ودون ان يحقق نجاحا . فان التوفيق السريع قد خانه فى هذه المرة . وكانت الخسائر فادحة . ولم يتراجع البلاشفة الذين كانوا يحتلون شابلييفكا الا فى المساء ، وبسبب الوضع العام على ما يبدو .

انحنى قليلا على سرجه ، وراح يتمعن فى المعالم المبهمة لبعض الجثث المتجمدة فى الاوضاع التى لحقهم الموت فيها . كانت تلك جثث ضباطه ، وكل واحد منهم كان يعادل فى المعركة فصيلـــة كاملة . ان ذلك لمنتهى الحماقة ، ان يُقتل ويُجرح مئات من احسن مقاتليه بسبب من تراخى فكره .

سمع أنينا وزفرات مخرخشة كانها تصدر من انسان يستيقظ من كابوس ، نوعــا من الفحيح . ونهض ضابط من الخندق قرب الجسر ، ثم وقع على بطنه على المتراس . توجع وتثبت فى الارض ورفع رجله بصعوبة ، وخرج ، وتفرس فى نجمة كبيرة صافية ، فى الشفق المنطفئ . ادار راسه الحليق ، وأنّ ، وسار متعثرا ، فوقع بصره على الجنرال ماركوف . رفع يده بالتحية ثم انتزعها :

– يا صاحب السيادة ، اصابتنى صدمة .

– ارى ذلك .

– اصبت برصاصة فى ظهرى .

– عبثا . . .

– انا مصدوم من الظهر فى الراس من مسدس مصوب نحوى من مسافة قريبة . . . حاول قتل المتطوع فالريان اونولى . . .

سأل ماركوف بحدة : ما اسمك ؟

– المقدم روتشين . . .

وفى تلك اللحظة ، وللمرة الاخيرة انطلق المدفع ذو البوصات الست من القطار المصفح للحمر المتراجع الى الشمال . واندفعت القذيفة بزئير فوق السهب الداكن . وتنّر حصان الجنرال الرمادى اذنيه مستثارا ، وبدأ يقعو على وركه . هوت القذيفة من السماء ، وانفجرت على بعد خمس خطوات من ماركوف .

وحين انقشع الغبار والدخان ، رأى فاديم بتروفيتش روتشين الذى قذفه الانفجار الحصان الرمادى منطرحا على الارض وقوائمه تضرب الهواء ، والى جانبه انطرح جسد صغير هامد . رفع روتشين جسمه قليلا وصرخ :

– يا اسعاف ! قُتل الجنرال ماركوف !

بعد ان احتل جيش المتطوعين محطة تورغوفايا تحول شمالا الى محطة فيليكوكنياجيسكايا بهدف مزدوج : مساعدة الاتمان كراسنوف فى تطهير دائرة سالسك من البلاشفة ، وتامين مؤخرته من جانب تسارتسين بشكل اضمن . احتل جيش المتطوعين محطة فيليكوكنياجيسكايا دون خسائر كبيرة ، الا انه لم يستطع توسيع هذا النجاح ، لأن فصيلة من خيالة الحمر تحت قيادة بوديونى اجتاحت فى معركة ليلية وحدات ارديلى القوزاقية واصابتها بضربة قوية ، ولم تمكنها من عبور نهر مانيتش .

وكاد قطار المتطوعين المصفح الاول ان يُسحق بالقرب من المحطة . فقد لاحظ الراكبون فيه قاطرة تسير رافعة علما ابيض فظنوا انها تستسلم ، فكفوا عن اطلاق النار . الا ان القاطرة ، اندفعت دون ان تخفض سرعتها مطلقة صفيرها بلا انقطاع . وفى اللحظة الاخيرة فقط قرر مَنْ فى القطار المصفح ان يطلقوا عليها بعض الطلقات النارية من مسافة قريبة . ولكن الاصطدام قد وقع ، وتحطمت عربة مسطحة ، وانقلبت القاطرة . وكان النفط قد سكب عليها وعلقت عليها القنابل . ولبضع دقائق توجهت كل انظار المقاتلين الى هذه اللقطة من فلم امريكى .

سلم دنيكين المنطقة الى قيادة الدون ، واوكل امر القضاء على البلاشفة المحليين الى فصائل قوزاق القرى ، واستدار ثانية

جنوبا للاستيلاء على محطة مهمة هى تيخوريتسكايا التى تربط الدون بكوبان ، والبحر الاسود بقزوين . سار للقاء اخطار جسيمة وكانت فى طريقه قريتان كبيرتان من قرى الاغراب هما بيستشانوكوبسكويه وبيلايا غلينا ، وكلتاهما كانت بؤرة للبلاشفة . وقد عززتا بشكل سريع . وكان جيش كالنين يتخندق بسرعة محمومة قرب تيخوريتسكايا . وكان جيش سوروكين يفيق فى ذلك الوقت ، من حالة الذعر ويبدأ بالضغط من الغرب . بينما اعادت وحدات الحمر التى تحطمت عند مانيتش تشكيلاتها ، وتحولت من المؤخرة الى الهجوم . وتدفقت مفارز المتطوعين من قرى كثيرة .

وكان فى وسع دنيكين ان يعتمد على شىء واحد : انعدام التنسيق فى عمليات الطرف الآخر . ولكن ذلك ايضا يمكن ان يتغير فى كل لحظة . ولهذا عمد الى العجلة . وكان فى بعض الاماكن يقوم هو نفسه بانهاض القوات التى كانت مسترخية فى اعياء تام . كان المشاة ينقلون فى عربات . وكان القطار المصفح المرتجل نفسه يسير فى مقدمة الجيش .

وبالقرب من قرية بيستشانوكوبسكويه حارب الاهالى كلهم الى جانب الجيش الاحمر . ولم يكن جيش المتطوعين قد رأى مثيلا لتلك الضراوة من قبل . وكان السهب يهتز من القصف من الصباح حتى الليل . واخرج فوجا بوروفسكى ودروزدوفسكى مرتين من القرية . ولم يهجر الحمر القرية حتى آخر انسان الا بعد ان رأوا انفسهم محاصرين من جميع الجهات غير عارفين بقوى العدو ومعداته . والآن تحولت جميع الوحدات وجميع الفصائل وحشود اللاجئين الى بيلايا غلينا .

وفى هذه القرية كانت فى وسط عشرة آلاف متطوع شعبى فرقة دميترى شيليست الحديدية . ودعى جميع الراشدين الى حمل السلاح . وعززت المشارف ، وظهر التنظيم والفهم التكتيكى لاول مرة . وفى الاجتماعات العامة نودى بالنصر او الموت .

ولم ينفع ذلك . فقد كان العدو عليما جابه الشجاعة والاستماتة بالعلم ، وحسب الحساب لكل صغيرة ، وسار وكانه

على رقعة شطرنج ، مباغتا المؤخرة دائما . حقا ان بداية هجوم البيض لم تكن موفقة . فان العقيد جبراك الذى كان يقود فوج دروزدوفسكى قاد رجاله فى الظلام الى الضيعة التى تقف عندها صفوف الحمر الامامية ، فجوبه بنيران مباشرة ولكنه هجم ووقع صريعا . وتراجع رجال دروزدوفسكى وانطرحوا على الارض . ولكن فى نحو الساعة التاسعة صباحا شق كوتيبوف طريقه الى بيلايا غلينا من الجنوب ومعه رجال كورنيلوف وفوج دروزدوفسكى للخيالة وسيارة مصفحة . وتقدم بوروفسكى من ناحية المحطة المستولى عليها . وبدات معركة فى الشوارع . واحس الحمر انهم محاصرون فاضطربت صفوفهم . واخترقت المصفحة حشودهم . واشتعلت النار فى سقوف القش . وانطلقت الابقار والخيول وسط النار والطلقات والصياح .

وتراجعت فرقة شيليست الحديدية عبر الطريق الوحيد الذى بقى مفتوحا . كان دنيكين واقفا على فرسه عند كشك السكة الحديدية . كان يصرخ غاضبا واضعا كفيه حول فمه ليقطعوا الطريق على المتقهقرين . ووراء فلول الفرقة الحديدية خرج الانصار والاهالى جميعا . وانطلقت خيالة ارديلى للحاق بالهاربين . كما ان حراس القائد العام لم يكبحوا جماحهم فسلوا سيوفهم وعدوا لطعانهم . وتقلب ضباط الاركان على سروجهم ، وجروا على خيولهم وكانهم فى طراد الوحوش قاطعين الرؤوس والظهور . وبقى دنيكين وحده . خلع قبعته وراح يهوى بها وجهه المنفعل . ان هذا النصر كشف الطريق امامه الى تيخوريتسكايا ويكاترينودار .

فى الغسق سمعت طلقات قصيرة فى القرية ، فى افنية البيوت . انهم رجال دروزدوفسكى ينتقمون لمقتل جبراك باعدام اسرى الجيش الاحمر رميا بالرصاص . كان دنيكين يحتسى الشاى فى كوخ مملوء بالذباب . وكان رغم احتباس الهواء فى الليل يرتدى سترته السميكة ذات الكتافتين العريضتين ، المزررة حتى الرقبة . وكان عند كل طلقة يلتفت نحو النافذة المحطمة ، ويمرر منديله المدعوك على جبينه وعلى جانبى انفه .

قال لمرافقه :

– فاسيلى فاسيليفيتش ، يا عزيزى ، اطلب الى دروزدوفسكى ان ياتى الىّ . لا يجوز ذلك ، على اية حال .

صفق المرافق بمهمازيه ورفع يده بالتحية وخفضها واستدار وخرج . اخذ دنيكين يصب الماء من السماور الى ابريق الشاى . صدرت الطلقة الجديدة على مقربة شديدة حتى ان الزجاج اهتز . ثم رنّ صوت فى الظلام . فاض الماء المغلى عبر الحافة مع قطع من الشاى . غطى انتون ايفانوفيتش الابريق ، وهمس : «اى ، اى ، اى !» فتح الباب بحدة ، ودخل رجل فى الثلاثين من العمر شديد الشحوب عليه سترة مدعوكة ذات كتافيتين ناعمتين مدعوكتين ايضا من كتافيات الجنرالات . انعكس ضوء مصباح الكيروسين على عدستى نظارته الانفية انعكاسا باهتا . كان ذقنه المربع غير الحليق ناتىء الشعر ، ووجنتاه الغائرتان ترتجفان . توقف الرجل عند الباب . نهض دنيكين من المسطبة ثقيلا ، ومد له يده .

– تفضل اجلس ، يا ميخائيل غريغوريفيتش . لعلك تريد شايا ؟

– شكرا جزيلا ، ليس لدىّ وقت .

كان ذلك دروزدوفسكى الذى رقى الى جنرال قبل فترة قصيرة . كان يعرف لماذا استدعاه القائد العام فكان ، على عادته حين يتوقع التانيب ، يكبح غيظه بصعوبة . احنى راسه ، ونظر الى جانب .

– ميخائيل غريغوريفيتش ، اريد ان اتحدث اليك بشان هذه الاعدامات ، يا عزيزى . . .

– ليست لدى قدرة على امساك ضباطى – قال ذلك بصوت عال بدرجة مزعجة تقرب من نوبة الهستيريا ، وقد ازداد شحوب وجهه . – ان فخامتكم يعرف ان البلاشفة عذبوا العقيد جبراك تعذيبا وحشيا . . . الضباط الخمسة والثلاثون . . . الذين جلبتهم من رومانيا . . . عذبوا وشوهوا . . . البلاشفة يقتلون ويعذبون الجميع . . . نعم ، الجميع . . . (تقطع صوته ولهثت انفاسه .) لا استطيع ان امسكهم . . . انا ارفض . . . اذا كنت تعتبرنى

غير صالح فيمكنك ان تتسلـــم استقالتى ، بحق الرب . سأتشرف بان اكون جنديا .

قال دنيكين :

– اى ، اى ، اى ، ميخائيـل غريغوريفيتش ، لا يصح ان تضطرب على هذا النحو . . . لا علاقة هنا باستقالتك . . . افهمنى ، يا ميخائيل غريغوريفيتش : اننا برمى الاسرى نزيد بانفسنا مقاومة العدو . . . وستنتشر الاشاعـة عن هذا الرمى فى كل مكان . فلماذا نلحق الاذى بجيشنا بايدينـا ؟ هل انت موافق معى ؟ أليس هذا حقا ؟ (لزم دروزدوفسكى الصمت .) انقل ذلك لضباطك لكيلا تتكرر مثل هذه الوقائع .

– سمعا !

واستدار دروزدوفسكى ، وصفق الباب وراءه .

ظل دنيكين يهز راســه طويلا مفكرا على قدح من الشـــاى . وصدرت الطلقة الاخيرة من بعيد ، وهدأ الليل .

كانت العملية ضد تيخوريتسكايـا ضمن خطة اتخاذ الجيش مواقعه على جبهة طولها ستون فرسخا . وكان من الضرورى مقدمـا تنظيف رقعة من الفصائل المتفرقة والانصار . وقد عهد ذلك الى الجنرال الشاب بوروفسكى . فاستطـاع فى يومين من المعارك ان يقطع مائة فرسخ ، ويحتل عددا من القرى . وكان ذلك فى تاريخ الحرب الاهلية أول ما سمى بـ«الغارة» على مؤخرات العدو .

وانتشر جيش المتطوعين على الرقعة المطهرة من الحمر . وفى الثلاثين من حزيـران اصدر دنيكين امرا قصيرا : «ان تحتل محطة تيخوريتسكايا غدا فى الاول من تموز ، بعد تحطيـم العدو المتمركز فى منطقة تيرنوفسكايا – تيخوريتسكايـــا . .» وفى الليل تحركت الطوابير ضامة تيخوريتسكايا فى كماشة عريضة . واخذ البلاشفة بعد مناوشات قصيرة يتراجعون الى مواقع معززة .

فى هذه المرة لم تكن تلك المقاومة المستميتة التى ابديت قبل اسبوع من الزمن . فان سقوط بيلايا غلينا اثارت اضطرابا . اوقف هجوم سوروكين . والآلاف من الضحايـــا الذين صرعوا فى

المعركة الدامية لم يأتوا بجدوى . وتقدم العدو بدقة الآلة . وضخمت المخيلة قوى جيش المتطوعين اضعافا مضاعفة . وقيل ان الضباط يفدون الى دنيكين من كل انحاء روسيا كالسحب ، وانهم لا يرحمون باحد ، وانهم ما ان يطهروا منطقة حتى يأتى اليها الالمان . وكان كالنين الذى يقود تشكيلة تيخوريتسكايا قابعا فى قطاره فى محطة تيخوريتسكايا كالمشلول . وعندما راى جحافـل الدنيكيين يزحفون من الجهات الاربع تثبط عزمه ، وأمر بالتراجع .

هدأت المعركة فى نحو الساعة التاسعة صباحا . وتراجع الحمر الى نصف دائرة معزز . اوصد كالنين باب مقصورته ، واستلقى وغفا معتقدا ان معركة اخرى لن تحدث اليوم ، بينما استمر جيش المتطوعين فى تعميق تطويقهم للعدو متقدمين فى حقول القمح النامى الكثيف . وفى منتصف النهار اتصل جناحاهم بالاطراف ، وخرجوا الى المؤخرة من الجنوب . هجم فوج كورنيلوف على المحطة ، واستولى عليهـا دون خسائر . واختفى عمـــال السكة الحديدية . واختفى كالنين ، وبقيت قبعته وحذاؤه فى المقصورة . وفى مقصورة مجاورة عثر على رئيس هيئة اركانه ، رئيس هيئة الاركان العامة ، المقدم زفيريف المصدوع الجمجمة . كما وجدت زوجته مطروحة على الفراش ورأسها مغطى فى شالها ، وصدرها مصاب بطلقة ، ولكنها ما تزال تتنفس .

وبعد ذلك لم يبق لطوابير المتطوعين غير الاطباق على الجيش الاحمر الذى فقد قيادته ، وقطع عن القاعدة والطرق . وحتى المساء ظلوا يضربونه بالمدافع والرشاشات . وماج الناس واضطربوا ، والزوبعة الرصاصية تلذع وجوههـم وظهورهم . ونهض الرجال الذين فقدوا صوابهم من الخنـادق ، وهجموا بالحراب ، والموت يترصدهم فى كل مكان . وعند المساء سد كوتيبوف الطريق الوحيد الذى بقى مفتوحا باتجاه الشمال ، وفتكوا بالنار والسلاح الابيض بجماعات الحمر المتجهـــة الى سدة الخط الحديدى . وعند هبوط الظلام اختلط كل شىء فى حقل القمح الكثيف – البيض والحمر . كان الامراء يتراكضون بين سنابـل القمح كطيور السلوى ، ويجمعون الضباط ، ويشتبكون فى معركة بعد اخرى . فى احد الاماكن رفعوا المناديل على الحراب من الخنادق . وهرع كوتيبوف وضباط فقوبلوا

بالرصاص وبعاصفة من الشتائم البذيئة فى منتهى الضراوة . انطلق منحنيا على رقبة حصانه . وكان أمر قائد الجيش العام يقضى بعدم رمى الاسرى ، ولكن احدا لم يامر باخذهم اسرى .

فى الصباح طاف دنيكين فى ساحة المعركة ببطء . كان القمح ، على امتداد البصر ، مسحوقا ومائلا بسنابله ارضا و متناثرا . وكانت بواشق الجيف تطوف فى السماء اللازوردية . نظر دنيكين الى خطوط الخنادق المتلوية عبر الحقول – خلال الروابى القديمة والمنخفضات – تبرز منهـــا الاذرع والارجل والرؤوس الميتة ، والجثث مرميـة كالزكائب . وكـان فى مزاج شاعرى رائق ، التفت نصف التفاتة ليقترب المرافق منه ، وقال مفكرا :

– ولكن هؤلاء جميعا روس . فظيع . لا اشعر بتمام الفرح بانتصارنا يا فاسيلى فاسيليفيتش . . .

كان النصر تاما . دحر جيش كالنين المؤلف من ثلاثين الف رجل وهلك وشُتت . ولم يستطع الخروج الى يكاترينودار غير سبعة من القطارات العسكريـــة للحمر . وقطع جيش سوروكين . وفصلت تشكيلتان منفردتان لقوات الحمر كليا : التشكيلـــة الشرقية فى منطقة ارمافير وجيش تامان على ساحـل البحر الاسود . وحصل جيش دنيكين على غنائم هائلة : ثلاثة قطارات مصفحة ، ومدرعات ، وخمسين مدفعـــــا ، وطائرة وعربات من البنادق والرشاشات والقذائف ، ومجموعة كبيرة من مختلف الاشياء .

وكان اثر النصر مذهلا . أمر الاتمان كراسنوف باقامة صلاة الشكر فى كتدرائية نوفوتشيركاسك ، والقى خطبه امام القوات ليس باسوأ من صديقه الامبراطور غليوم . فقد دنيكين ربع جيشه خلال ثلاثة اسابيع ، ومع ذلك ففى الايام الاولى من شهر تموز تضاعف جيشه : فقد جاء اليه سيل موصول من المتطوعين مـــن اوكرانيا ونوفوروسيا وروسيا الوسطـــى ، ولأول مرة بدأت تتشكل وحدات من اسرى الجيش الاحمر .

بعد استراحة يومين قسم دنيكين جيشه الى ثلاثة طوابير وقام بهجوم واسع على ثلاث جبهات : الى الغرب ضد سوروكين ، والى الشرق ضد تشكيلة ارمافير ، والى الجنوب ضد بقايا جيش كالنين التى تدافع عن مشارف يكاترينودار . وكانت المهمة تطهير كل المؤخرة

قبل الهجوم على يكاترينودار . ودُرِس كل شىء وخطط وفـــق قوانين اعلى فن عسكرى . الا ان دنيكين لم يحسب حسابـــا لظرف واحد هام : انه لم يكن يتصدى لجيش معاد فى وسعه ان يقيم ويزن قواه ووسائله ، بل لشعب مسلح ، لقوى غير مفهومة لديه . ولم يقدر ان فى هذا الجيش الشعبى تنمو ، مـــع انتصارات جيش المتطوعين ، الكراهية وروح الاجماع ، وان زمن الاجتماعات العاصفة الذى كان يطرد فيه أمراء الوحدات غير المرغوب فيهم ، ويتقرر الهجوم باغلبية الاصوات قد ولى ، وحل محله ضبط جديد للحرب الاهلية ما يزال فجا ، ولكنه يتعزز مع كل يوم .

كان كل شىء يُنبئ بنصر عاجل سهل . ابلغ رجال الاستطلاع عن حركة قوات سوروكين المذعورة باتجـــــاه يكاترينودار وراء كوبان . الا ان ذلك لم يكن صحيحا تماما . كان رجال الاستطلاع على خطأ . فقد فر وراء كوبان الهاربون من الجيش وفصائـــــل صغيرة ، وسارت قوافـــل اللاجئين . اما تشكيلـــة سوروكين المؤلفـة من ثلاثين الف رجـــل فقد تنظفت من غير القادرين على القتـــال ، ورصت صفوفهـــا وازدادت ضراوة . وتركت جبهـــة باتايسك ضد الالمـــان . وانتظر الحمر لقاء جيش دنيكين وجهـــا لوجه فى ارض مكشوفـــة . فاذا بجيش المتطوعين الذى اسكرته الانتصـــارات وقَرُب من الهدف كان يهلك عن بكرة ابيـــه فى معركة دامية مع قوات سوروكين دوهـــم بها سريعا واستمرت عشرة ايام .

اجاب سوروكين عن سؤال اللجنة التنفيذية المركزية لمنطقة كوبان-البحر الاسود بعجرفة نابليونية : «لا حاجة بى الى محرضين . اعمال قطاع الطرق الدنيكينيين تنطق لصالحى . وشجاعـــة قواتى التاريخية تحطم كل حواجز الثورة المضـــادة» . اوقف سوروكين الذعر فى قواتـــــه فى الايـــــام الاولى من هجوم دنيكين ، وبدا وكأنه افاق من سبات السكر . وانطلق ليل نهار فى طوال الجبهة ، فى قطار ، فى عربة ترولى ، على فرس . واستعرض القوات ، ورمى بالرصاص ، بيده ، اثنين من امراء الوحدات على الملأ بسبـــب موقفهما المتهاون من اللحظة الراهنة ، ووقف على ركابيه ، وتحدث

بكلمات بذيئة عن اعداء الشعب ، طفحت مع الزبد من شفتيه المعوجتين حتى ان رجال الجيش الاحمر قاطعوه بخوار كخوار جواميس اثارتها سحابة من ذباب الماشية . ونشط عمل المحاكم العسكرية والشُعَب الخاصة ، وادخل عقوبة الموت على اهمال البندقية ، واصدر اوامر للجيش تقول : «ايها المقاتلون ! ان شغيلة العالم كله ينظرون اليكم بأمل ، وهم يقدمون لكم شكرهم العظيم . فانتم تذهبون للقيا فجر التاريخ الدامي بعيون مفتوحة وصدور قوية . ان الطفيليين ، والحشرات الزاحفة ، لصوص دنيكين ، وكل السفلة المعادين للثورة ، يجب ان يكتسحوا بالنار والرصاص . السلام للشغيلة ، والموت للمستثمرين . عاشت الثورة العالمية !»

وكان هو الذى يكتب هذه الاوامر فى حالة الانفعال . وكانت تتلى على السرايا . وكان فلاحو اوكرانيا ، وعمال مناجم الدون ، والمقاتلون فى جيش القفقاس ، والاغراب والقوزاق – كل هذا الخليط المهلهل الصاخب الطليق العنان – يسمعون هذه الكلمات الفخمة كالمسحورين .

ووضع بيلياكوف رئيس الاركان ، وهو عسكرى ذكى مجرب ، خطة للهجوم ، والاصح ان يشق الجيش كله ، بآلافه الثلاثين ، الحصار ، ويخرج الى ما وراء كوبان . ذلك ، على الاقل ، ما كان يراه رئيس الاركان الذى لم يكن له اى امل فى نزال ناجح مع دنيكين . وعُينت منطقة محطة كورينيفسكايا (ما بين تيخوريتسكايا ويكاترينودار) لتكون نقطة الاقتحام . وبعد احتلال كورينيفسكايا لن يكون من الصعب مجابهة طابورى دروزدوفسكى وكازانوفيتش المقطوعين جنوبا من القوات الرئيسية ، والانعطاف الى يكاترينودار ، اما بقية الامر فعلى المصادفة . . . على هذا النحو فكر رئيس الاركان . كان وضعه حرجا للغاية . كان بكل كيانه ، وفى نومه ويقظته ، يكره الحمر الا ان النصيب اللعين ربطه بالبلاشفة . وكان وقوعه فى يدى دنيكين – الذى كان ينظر بيلياكوف اليه باعجاب حسود مثير – يعنى الموت ! كما ان ارتياب سوروكين فى قلة حماسه الثورى وكرهه لدنيكين يعنى الموت ايضا ! وكان امله الوحيد هو طموح سوروكين الشديد ، ولو انه

امل خيالى ، مثل كل احداث ذلك الزمن . ولكن من الممكن التعويل على ذلك : دفع سوروكين الى الدكتاتورية بكل الامكانيات . ثم انتظار ما يخبئ القدر ! .

وعلى اية حال فقد استعد للهجوم بكل نشاط : تدفقت على محطة تيماشيفسكايا احتياطات الذخيرة وعلف الماشية ، وانزلت القذائف ، ومضت طوابير ضخمة من العربات فى السهب . واتخذ الجيش مواقعه فى منطقة تيماشيفسكايا فى الجنوب الشرقى لكى يهاجم محطة كورينيفسكايا ، ومحطة اخرى الى الشمال منها هى فيسيلكى فى آن واحد .

فى فجر الخامس عشر من تموز فتحت مدافع الحمر للميدان نارا حامية على كورينيفسكايا ، وبعد ساعة انطلق مئات الفرسان على الحاضرة والمحطة فى موجة اثر موجة . واعملوا الطعن فى البيض بسيوف صافرة ، وداسوهم بالخيول ، ولم ياخذوا اسرى الا اولئك الذين القوا بنادقهم قبل ان يقتربوا منهم . وسارت وحدات المشاة طوال الليل واخذت يتخندقون فى كورينيفسكايا على الفور ، لا فى نصف دائرة ، كما حصل فى بيلايا غلينا ، بل فى حلقة بيضوية كاملة .

نهضت الشمس البيضاء فى نقاب من الغبار والحر . وكان السهب كله يموج بالحركة : الفرسان يعدون على افراسهم ، وافواج المشاة تدب ، وعجلات البطاريات تقرقع ، وتردد سباب ، وضربات ، وطلقات ، وصهيل خيول ، وصيحات مبحوحة بالأوامر . وامتدت طوابير العربات حتى الافق . وكان النهار حارا كالفرن . وفى منتصف الطريق ترك سوروكين ضباط اركانه ، وانطلق على فرس مبيض من الرغوة وطاف بين قواته . ومنه اندفع المراسلون والنوبجية مثل كلاب الصيد ينقلون اوامره الى الوحدات .

كان قد فقد قبعته اثناء العدو ، ورمى سترته الجركسية عنه . فكان فى قميص حريرى قرمزى طوى ردنيه الى اعلى من مرفقيه ، وسروال ركوب ازرق شد بحزام جلدى مزين بقطع معدنية شدا محكما . وكان وجهه المسود من العرق والغبار يُرى فى كل مكان

باسنانه المكشرة . وكان قد غير ثلاثة خيول ، انه تفقد مواقع البطاريات والخنادق حيث وحدات المشاة تتخندق فى الارض السوداء كالمناجذ ، وانطلق فى السهب الى نقاط المراقبة ، وعدا الى طوابير العربات التى بدأت تصل وتفرغ حمولتها من القذائف ، ودعا امراء الوحدات اليه باشارة من مقرعته ، واصغى الى تقاريرهم منحنيا على سرجه ملتهبا رهيبا ذا عينين مجنونتين . كان مثل قائد فرقة موسيقية ضخمة يشد على اوتار موسيقى معركة مقبلة . ترك عند المحطة حصانه اللاهث ، وهرع الى قسم البرقيات ، وضرب برجله جثة مطروحة عند العتبة مشجوجة الجمجمة ، جثة ضابط ابيض ذى كتافيتين ، وخامره ، وهو يقرأ الشريط الخارج من الجهاز بسرعة ، الاحساس بانفعال عارم مسكر : هجرت قوات دروزدوفسكى وكازانوفيتش محطة دينسكايا جنوبا ، واقتربت بسرعة لتشتبك فى معركة .

كان رجال دروزدوفسكى يركبون العربات . مئات العربات ظلت طوال النهار تنطلق فى السهب فى سحب من الغبار الحار . اما رجال ماركوف الذين اصبحوا تحت قيادة الجنرال كازانوفيتش فقد نقلوا مع مدفعيتهم فى قطارات ، فسبقوهم ، وفى فجر السادس عشر نزلوا من العربات واندفعوا راسا يهاجمون كورينيفسكايا .

كان الجنرال كازانوفيتش واقفا على هيكل بئر قرب كشك السكة الحديدية يراقب بهدوء الحركات المقتدرة لصفوف الضباط تزحف دون ان تطلق نارا . لاح استغراق هازىء على وجهه الدقيق الرشيق بشاربيه الطويلين الذى وخطه الشيب ولحيته المشذبة (مثل لحية الامبراطور السابق) واطلت ابتسامة باردة انثوية الهوى من عينيه الجميلتين . وكان شديد الثقة بنتيجة المعركة حتى انه لم يرد ان ينتظر فرقة دروزدوفسكى لحظة واحدة . كان يتنافس على المجد مع دروزدوفسكى المصاب بمرض الغرور ، والحذر ، والبطىء الحركة مما يلحق غالبا الضرر بالأمر . كان يحب الحرب بنطاقها الواسع ، وبموسيقى المعركة ، ومجد الانتصارات الذائع .

خرج قرص الشمس الهائل من وراء الروابى البعيدة ، وكانت فيه ضراوة تموز . وكان نور الشمس يبهر عيون البلاشفة . لعلعت الرشاشات ، ومزقت الطلقات السكون الملتهب . وكان من الممكن

رؤية صفوف العدو الكثيفة تخرج من الخنادق . جرى رجال فرقة ماركوف الى الامام ، لم يحن احدهم راسه امام الرصاص . ومن الجانب الآخر زحفت للقائهم آلاف عديدة من الشخوص الصغيرة . رفع كازانوفيتش المنظار الى عينيه . غريب !

امر جندى التلفون الجالس عند البئر :

– ثلاث قنابل شرابنيل على الرفاق !

فتحت النار بطاريتان مختفيتان وراء سدة السك الحديدى . انفجرت على ارتفاع واطىء فوق صفوف العدو نفثات الشرابنيل القطنية . وتفرقت الشخوص ، ثم ضمت صفوفها وتابعت هجومها . الآن صار الميدان كله يهتز من الطلقات . واخيرا زارت مدافع البلاشفة . وابتسم كازانوفيتش فى دهشة ، وارتعشت ذراعه الضيقة الحاملة للمنظار . استلقى رجال ماركوف ، وتخندقوا بسرعة . وشحبت بشرة وجهه المسفوعة . وثب من هيكل البئر ، وجلس مقرفصا منكبا على جهاز التلفون ، وطلب الجنرال تيمانوفسكى . وصاح فى السماعة :

– الصفوف منبطحة . اخرق جناح العدو الايسر ، مهما كلف الأمر . . . كل ثانية من الوقت ثمينة .

وفى الحال ظهر رجال ماركوف – احتياطات تيمانوفسكى – من وراء السدة ، ونزلوا المنحدر وتراكضوا جماعات وصفا وراء صف ، مصممين منفعلين ، واختفوا فى القمح العالى المتساقط الحبوب . ركض تيمانوفسكى وراء الصفوف بعد ان امسك بسيفه . كان شابا متورد الوجنتين ، ضاحك السن دائما فى قميص كتانى قذر عليه كتافيتان سوداوان من كتافيات الجنرالات ، وقد سرح طاقيته العالية الى الوراء . وجرى شىء غير مفهوم : كان البلاشفة قد تغيّروا برجال آخرين ، وانقضت كل اللحظات التى كان يجب ان يجفلوا فيها بالتاكيد . الآن امتلأ السهب كله بشخوصهم الزاحفة . كانت رشاشات المتطوعين تضرب بجنون ، فكانت موجات جديدة تحل مكان الصرعى .

كانت سرايا تيمانوفسكى تركض واحدة وراء الاخرى ، وحرابها منكسة الى الارض ، فى نهاية حقل القمح . . . شد كازانوفيتش قامته كالوتر ، على هيكل البئر . وكان يرى فى مجال

الرؤيا الضيق فى المنظار اقفية رجال ماركوف الضارية . ما اشد الجهد ! ويتساقطون ويتساقطون ! وحوّل منظاره الى الراكضين ، وفجأة رأى افواهـا فاغرة ، ووجوها عريضـة ، وقبعات بحـارة ، وصدورا برنزية عارية . . . بحارة بلاشفة . . . وفجأة اختلط كل شىء ، وتكور فى زحام واحد . انه قتال فى الحراب . وجمـدت الابتسامة السقيمة على شفتى كازانوفيتش الرشيقتين . . . لم يصمد رجال ماركوف . تراكضت بقية السرية الاولى الى حقل القمـح ، واستلقت . وتراجعت السرية الثانية وانطرحت ارضا .

عندئذ وثب من هيكل البئر ، وركض خفيفا الى الحقل . ورآه الرجال . واستطاع ان ينهض الصفوف صائحا : «عيب ، يا سادة ، عيب !» ودفعهم فى هجوم بالحراب ، الا ان النار كانت من الشدة بحيث ان الرجال راحوا يتساقطون بكثرة ، وانطرحت الصفوف من جديد . . . أيمكن ان تكون هذه معركة خاسرة ؟

فى نحو الساعة التاسعة صباحا تردد من الغرب قصف مدافـع دروزدوفسكى . وظهرت فى السهب مصفحة كالسلحفاة الرماديـة تترنح فى سيرها . شرع رجال دروزدوفسكى بالهجوم بشكل نظامى ودون عجالة . ونهض رجال كازانوفيتش للمرة الثالثة . والآن كان المتطوعون يتقدمون فى جبهة عريضة ، على شكل هلال . ان البلاشفة لا يمكن ان يتحملوا هذه الضربة .

ظهر فارس بين خنادق البلاشفة . عدا بجنون ملوحا بنصل لامع . وصعد رابية ، وكبح حصانه . كان الفارس يرتدى قميصا قرمزيـــا مطوى الكمين ، ورأسه ملقى الى الوراء . صرخ ، ولوح بالسيف مرة اخرى . فاذا بسيل من الخيالة يتصدى لصفـــوف دروزدوفسكى المهاجمة . كانت خيولهم الصغيرة الهائجـــة تكاد تنطبق على الارض . وتوقف اطلاق النار . ومن بعيد كان يُسمع صفير السيوف ، والعويل ، ووقع الحوافر . اندفـع الفارس ذو القميص القرمزى من الرابية ، واطلق العنان لفرسه ، وانطلـق باقصى السرعة فى المقدمة . ارتفعت سحابة سوداء من الغبار مغطية ساحة المعركة . ولم يصمد رجال دروزدوفسكى وماركوف لضربة الخيالة ، وتراكضوا هاربين . وتوقفـــوا وتخندقـــوا وراء نهير كيربيل .

ضمد ايفان ايليتش تليغين رأسه بشاش من محفظة الاسعاف الخاصة به ، وهو يقلص عينيه ويرتجف من الألم .

كان خدشا خفيفا ، والعظام لم تصب ، ولكنه كان يحس بألم شديد ، وكان لولبا يدور فى جمجمتـــه كلهـــا . وكان قد وهن من الجهد حتى انه ظل راقدا على ظهره فى حقل القمح وقتا طويلا بعـد التضميد .

وكان غريبا ان يسمع صرير الجنادب الوادع وكان شيئا لم يحدث . انتهى الصراع الدامى والصيحات وهدير المعركة الحديدى بهذه الجنادب المختفية فى شقوق الارض ، والنجوم الكبيرة فى ليل الجنوب ، وبعض السنابل المتدلية بلا حراك ما بين عينيه والسماء . وقبل وقت كان احد الجرحى يئن على مسافة قريبة ، والآن قـد همد .

السكون شىء رائع . خف الألم اللاذع فى راسه وبدا وكان هدوء الالم مبعثه عظمة الليل المهيبة هذه . ولمعت فى ذاكرته صور ساطعة من اليوم الذى تمزق وتكور مختلطا بقصف المدافـــع ، وصيحات الافواه المفتوحة بوحشية ، ونوبات الكراهية ، حين تركض فلا ترى غير الحراب الحادة والوجه الشاحب للرجل الذى يصوب النار عليك . الا ان الذكريات نفذت فى ذهنه بألم ، وحزت جمجمته حتى انه توجع ، وحاول ان يفكر فى شىء آخر . . .

فى اى شىء كان من الممكن ان يفكر ؟ امـــا فى هذه النُتف الرهيبـــة لحدث طويل لا تستوعبـه المخيلـة – الثورة والحرب – واما فى حلم عن السعادة بعيد مغلق دونه ، حلم عن داشا ! واخـذ يفكر فيها (فى الواقع لم يكف قط عن التفكير فيها) يفكر فى انهـــا مهملة وحيدة ، غير مجربـــة ، وعديمة المقدرة ، وخيالية . . . عينان غاضبتان ، اما القلب ، فمثل قلب الطائر ، مذعور ، خافق . طفلة ، طفلة . . .

قبض ايفان ايليتش بيده المرميـة على حفنـة تراب حـار ، وعصرها . واسبل جفنيـــه . افترقت معه واثقـــة من انه الفراق النهائى . حمقاء . . . لا احد تفزعه عيناك الغاضبتان . . . ولا احد سيخلص فى حبه لك اكثر منى ، حمقاء . . . تقاسين مساءات مريرة لا تنسى . . .

تحدرت الدموع من خلال رموش ايفان ايليتش – فان الجرح قد اوهنه . اخذ جندب يصرصر قرب اذنه . وبدا الحقل المدمى المداس فضيا من ضوء النجوم . وغطى الليل على كل شيء بجنحه . . . رفع ايفان ايليتش جسمه ، وقعد محتضنا ركبتيه . كل شيء كان كالحلم ، كما فى الطفولة . واشفق القلب ، وبكى . . . نهض ، وسار محاولا الا تهز خطواته راسه .

كانت كورينيفسكايا على بعد فرسخ من هنا . هناك نيران منفردة . وعلى مسافة اقرب ، فى الوهدة ، كان لسان من اللهب يتراقص فوق الارض بلا دخان . واحس ايفان ايليتش بالعطش والجوع ، فتحول باتجاه النار .

فى كل الحقل كانت شخوص سوداء تسير الى هناك . منهم الجريح جرحا خفيفا ، ومنهم الضائع من وحدة ممزقة ، ومنهم من يسحب اسيرا . وتنادوا ، وتردد سباب مبحوح ، قهقهة قوية . . . وعند النار التى تحترق فيها عوارض خشبية استلقى رجال كشيرون .

وشم ايفان ايليتش رائحة خبز . كان جميع هؤلاء الذين غطاهم الغبار يمضغون الخبز . كانت بالقرب من النار عربة فيها خبز وبرميل صغير تغرف منه الماء امراة نحيلة بادية الاعياء تشد راسها بمنديل ابيض .

ارتوى ايفان ايليتش ، وحصل على قطعة من الخبز ، واتكا على العربة . واكل ناظرا الى النجوم . كان الناس عند النار قد هداوا ، واستغرق الكثيرون منهم فى نوم . اما اولئك الذين كانوا ياتون من الحقل فما زال الغضب يعتمل فى نفوسهم . كانوا يشتمون ويتوعدون فى الظلام ، ولو ان احدا لم يصغ اليهم . كانت الممرضة توزع الماء وقطعا من الخبز .

سحب شخص ذو لحية سوداء عار حتى الحزام اسيرا ، وطرحه عند النار .

– هذا هو ابن الكلب ، الطفيلى . . . استجوبوه ، يا اصحاب . . .

وضرب الرجل المطروح بحذائه ، وابتعد ساحبا بنطلونه ، وصدره المنخفض يعلو ويهبط . عرف ايفان ايليتش

انه تشيرتوغونوف . فاستدار . هرع بعض الاشخاص الى الاسير المطروح ، وانحنوا عليه .

– من المتطوعين . . . (نزعوا عنه كتافيتيه ، والقوهما فى النار .)

– انه صبى صغير ، ولكنه حقود !

– جاء ليحارب فى سبيل اموال آبائه . . . يبدو انه من الاغنياء . . .

– عيناه تلمعان ، الوغد . . .

– لماذا ننظر اليه ؟ دعونى . . .

– انتظر ، ربما عنده اوراق . لنأخذه الى مقر الاركان . . .

– خذوه الى الاركان . . .

صاح تشيرتوغونوف مندفعا :

– لا ! كان طريحا مجروحا . تقدمت منه ، – انظروا الى حذائه – فاذا به يطلق النار علىّ مرتين . لن اعطيه لأحد .

وصرخ بالاسير صرخة اكثر وحشية :

– اخلع الحذاء !

نظر ايفان ايليتش بطرف عينه مرة اخرى . كان راس الاسير الصبوى الحليق المدور يلمع فى ضوء النار . وكانت اسنانه مكشرة ، وحدقتا عينيه الكبيرتين تروحان وتجيئان ، وتغضن انفه الصغير غضونا كثيرة . كان يبدو انه فقد صوابه كليا . . . وثب ناهضا بحركة حادة . وكانت يده اليسرى تتدلى بلا حياة فى كمه المشقوق المدمى . وصدر صفير خفيف من بين اسنانه ، بل ومدّ عنقه . . . تراجع تشيرتوغونوف امام هذه الصورة الحية الرهيبة من الكراهية . . .

ارتفع من بين الجمع صوت كثيف :

– أها ! انا اعرفه . كنت اشتغل فى معمل ابيه للتبغ . ان اباه اونولى صاحب معمل فى روستوف . . .

ارتفعت اصوات :

– نعرف ، نعرف .

احنى فاليريان اونولى جبينه ، وهز راسه ، وصرخ ببحة نافذة :

– وضعاء سفلة ، اوغاد حمر ! ساصفعكم على ابوازكم ! الم نقتل ونشنق منكم الكفاية ، يا كلاب ؟ أهذا قليل ؟ سنشنقكم جميعا ، يا اوغاد اوباش . . .

وفقد وعيه ، وامسك تشيرتوغونوف من لحيته الكثة ، واخذ يضربه على بطنه العارى بحذائه . . .

ابتعد ايفان ايليتش عن العربة فى الحال . صدرت الاصوات متوعدة ، وقطعت صرخة حادة الغيظ المتصاعد . ارتفع فوق الجمع جسم فاليريان اونولى مبسوط الذراعين رافسا ، وطار فى الهواء وسقط . . . وارتفع عمود من الشرر عاليا فوق النار . . .

فى السهب الذى مسه البرد قبيل الصباح ترددت طلقات متوانية ، وكانها وقع سياط ، وسرى هدير المدافع مهيبا . ذلك طابورا دروزدوفسكى وبوروفسكى عادا الى الهجوم مرة اخرى من وراء نهير كيربيلى ، ليحولا التوفيق الى جانبهما بجهد مستميت .

فى تلك الليلة تلقى القائد سوروكين امرا من يكاترينودار من اللجنة التنفيذية المركزية المجتمعة بلا انقطاع بان يكون قائدا عاما لجميع القوات الحمراء فى شمال القفقاس .

وقد ابلغه بذلك رئيس الاركان بيلياكوف الذى اندفع الى عربة القائد العام للجيش ومعه الشريط البرقى ، والقى رجلى القائد من على التخت وقرأ الأمر على ضوء قداحة بنزين . لم يكن سوروكين قادرا على ان ينتزع نفسه من النوم ، فرمش بعينيه ، وسقط على الوسادة الحارة . اخذ بيلياكوف يهزه من كتفيه :

– أصحُ ، يا صاحب الفخامة ، الرفيق القائد العام الاعلى . . . سيد القفقاس . هل فهمت ؟ قيصر وإله . فهمت ؟

عندئذ فهم سوروكين اهمية النبأ الهائلة برمتها ، مصيره المذهل كله ، المطبوع بنقاط وشرطات فى الشريط الورقى الضيق الملتوى فى اصابع رئيس الاركان . عدّل بنطاله بسرعة ، والقى عليه سترته الجركسية ، وشد غلاف مسدسه ، وسيفه .

– اعلن الأمر على الجيش فورا . وهيىء لى الفرس . . .

فى الفجر ، وبعد ان اعاد ايفان ايليتش تضميد رأسه سار بين العربات باحثا عن مقر فوجه . وفى تلك اللحظة انطلق فى الشارع من جانب المحطة رهط من الخيالة ونهايات قلانسهم القوزاقية ترفرف فى الريح ، كان البواق فى المقدمة وخلفه اثنان : سوروكين يهز مقود حصانه الطويل العرف ، وقوزاقى يحمل شارة القائد الاعلى على رمح . واندفع الفرسان باتجاه الطلقات ملتفين بالغبار مثل اشباح ليلية .

ومن العربات المبللة بالندى ارتفعت رؤوس ناعسة ، وظهرت لحى ، وصدرت اصوات مبحوحة . ولكز البوّاق العادى فرسه بعيدا فى السهب بوّق معلنا ان القائد العام الاعلى قريب ، انه هنا ، فى المعركة ، تحت الرصاص . . . وصدح البوق : «تا – تا – تا ، سنندحر العدو ، قُدُما الى النصر والمجد . . . البطل لا يعرف الموت : بل المجد الخالد . . . تا – تا – تا . . .»

وجد ايفان ايليتش الضابط غيمزا فى كوخ طينى محطم النوافذ . ولا احد غيره من ضباط الاركان . كان غيمزا يجلس محدودبا على مسطبة ضخما كئيبا ويده الحاملة لملعقة خشبية تتدلى بين ركبتيه المنفرجتين . وعلى المنضدة طاسة من حساء الكرنب الى جانب حقيبة مكتنزة – كل جهاز رئيس الشعبة الخاصة .

كان غيمزا يهوم ناعسا . لم يتحرك بل ادار عينيه نحو ايفان ايليتش :

– جريح ؟

– بسيط . . . مجرد خدش . ظللت نصف الليل راقدا فى حقل القمح . . . فقدت جماعتى . . . اية شربكة هذه . . . اين الفوج ؟

قال غيمزا :

– اجلس . هل تريد ان تاكل ؟

ورفع يده بصعوبة ، وقدم الملعقة . هجم ايفان ايليتش على طاسة الحساء نصف البارد ، بل اشفع ذلك بانين الجوع . اكل برهة وهو صامت .

– حارب رفاقنا يوم امس بشكل جيد ، يا رفيق غيمزا حتى لم تكن ثمة حاجة الى انهاضهم . هاجموا بالحراب على بعد ثلثمائة او اربعمائة خطوة .

قال غيمزا :

– كفى اكلا . – وضع تليغين الملعقة . – هل سمعت بالأمر الذى اذيع فى الجيش ؟

– لا .

– عين سوروكين قائدا عاما اعلى . مفهوم ؟

– وماذا فى ذلك ؟ شىء جيد ... هل رأيته يوم امس ؟ اطلق العنان لحصانه فى صميم النار . القميص القرمزى ، وهو على مرأى من كل الناس . والمقاتلون ما ان يروه حتى يهتفوا له : «هورا» . لو لا هو يوم امس لما عرفت ماذا ... دهشنا كثيرا يوم امس : كان كقيصر .

قال غيمزا :

– نعم ، انه قيصر . من المؤسف اننى لا استطيع ان ارميه .

انزل تليغين الملعقة :

– هل انت ... تهزل ؟

– لا ، لا اهزل . على كل حال انت لا تفقه فى هذه الأمور – ونظر الى ايفان ايليتش نظرة ثقيلة لا ترمش – ولكن ، الا تثق بى ؟ (نظر تليغين فى عينيه بهدوء .) حسنا ، اريد ان اعهد اليك بمهمة صعبة ، يا رفيق تليغين ... اظن انك انسب شخص ... يجب ان تسافر الى الفولغا .

– سامع .

– ساكتب كل التفويضات اللازمة . اعطيك رسالة الى رئيس المجلس العسكرى . واذا كنت لا تنجح ، ولا تسلمها فمن الافضل ان تنتقل الى البيض . لا تعد الى هنا . مفهوم ؟

– حسنا .

– لا تسلم نفسك حيا . احرص على الرسالة اكثر من حرصك على حياتك . واذا وقعت فى ايدى الاستخبارات افعل كل ما تستطيع فعله ، ابتلع الرسالة ... فهمت ؟ – تحرك غيمزا وضرب الطاولة بجمع يده حتى ان الطاسة قفزت . لعلمك سيكون فى الرسالة ما يلى : الجيش يؤمن بسوروكين . وسوروكين الآن بطل ، والجيش يذهب وراءه الى حيث يشاء ... وانا اطلب ان يرمى سوروكين

بالرصاص ... على الفور قبل ان يأخذ بزمام الثورة . هل استوعبت ذلك ؟ ان هذه الكلمات هى موتك ، يا تليغين ... فهمت ؟

وصمت . دبت ذبابات على جبينه .

قال تليغين :

– حسنا ، سيكون ذلك .

– اذن ، فسافر ، ايها العزيز ... لا اعرف اى طريق يجب ان تسلك . الطريق عبر سفياتوى كريست ، الى استراخان طويل ... الافضل لك ان تتسل على طول الدون الى تسارتسين ... وبالمناسبة يمكنك ان تستطلع الوضع عند البيض ، فى المؤخرة ... دبر لنفسك كتافيتى ضابط ، وتبختر ... ماذا تريد : كتافيتا نقيب ام مقدم ؟

وضحك ، ووضع يده على ركبة تليغين ، وربّت عليه كالطفل :

– نم ساعة او ساعتين ، اما انا فساكتب الرسالة .

١٠

اخيرا حصل فاديم بتروفيتش روتشين على اجازة لمدة ثلاثة اسابيع . كان تعبا للغاية ، مريضا تمزقه التناقضات ، يخدم فى ذلك الوقت فى حامية المتطوعين فى محطة فيليكوكنياجيسكايا . لم تكن هناك معارك كبيرة ، فان جميع قوات الحمر قد انسحبت جنوبا لتقاتل قوات دنيكين الرئيسية . وهنا ، فى القرى الواقعة على نهرى مانيتش وسال وقعت قلاقل ، الا ان فصائل التنكيل القوزاقية للاتمان كراسنوف هدأت العقول الثائرة بيد ماهرة : تارة بالاقناع ، وتارة بالجلد ، وتارة بالشنق .

تهرب فاديم بتروفيتش من الاشتراك فى التنكيل متعللا بالصدمة التى اصيب بها . وكان يتفادى حسب الامكان الذهاب الى مقاصف الضباط التى كانت تقام احتفالا بانتصارات دنيكين . والغريب ان جميع رجال الحامية كانوا ، كما كانوا فى الجيش المحارب ، ينظرون الى روتشين بحذر ، وبعداء خفى .

كان ثمة شخص قد اشاع اشاعة عن «صبغته الحمراء» فلصق هذا النعت به .

فى الخنادق بالقرب من شابلييفكا صوب المتطوع اونولى النار عليه . كانت روتشين يتذكر تلك اللحظة بوضوح : هدير قذيفة من القطار المصفح ، صياح آمر السرية : «استلقاء !» وانفجار. ثم طلقة متاخرة من مسدس ، ضربة كضربة عصا على القفا ، وعينا اونولى تطفحان بفرح ضار .

رجل واحد كان يمكن ان يصدق بكلمة الشرف التى يقولها روتشين ، وهو الجنرال ماركوف . الا انه قد قُتل . وقرر فاديم بتروفيتش الا يثير مرة اخرى هذا الامر المشكوك فيه فى اتهام الصبى .

وكان يعذبه التفكير فى مصدر كل هذه الكراهية له . الم يكن واضحا حقا انه مخلص ، وانه نزيه ، وان افعاله تسترشد بفكرة واحدة فقط ، هى عظمة روسيا ؟ انه لم يأت الى هذه السهوب الرهيبة من اجل رتبة جنرال . . .

كانت تنقص روتشين الرؤية الصافية الصلبة للاشياء . كان فكره يلون العالم والاحداث بالشكل الذى كان يراه بنفسه افضل واكثر اهمية . وكان يصرف النظر عما لا يروق له ، ويتغاضى عن المزعج من الاشياء . وكان يتصور العالم نظاما كاملا . وكان مبعث ذلك فى اكبر الظن روح الارستقراطية الغريزية ، والكثير من اجيال ملاك الارض المتنعمين . فان تلك السلالة المنقرضة كانت تضع الهناء الذاتى الوادع فوق كل اعتبار ، وتفرضه على كل شىء ، وعلى كل طرف . لا يهم اذا سيط فلاح فى اسطبل ، فانه سيصيح قليلا ، وبعد العصا سيندم ، وسيكون ذلك افضل له ، للنادم ولناشد السلام . ولا بأس لو تبطل السندات ، وتباع الضيعة بالمزاد العلنى . يمكن ان يعيش الانسان فى جناح ، فى اجمات الارقطيون وعنب الثعلب ، بدون مآدب صاخبة ، فان ذلك اهدأ للنفس عند الشيخوخة ، فى اغلب الظن . . . ولم يستطع القدر بكل جهده ان يقلق مالك الارض الطيب المزاج . ونشأت عنده نظرة ناعمة خاصة : ان لا يرى فى اى شىء غير الرائع والسامى !

كان لدى فاديم بتروفيتش ايضا هذا الافتقار الى النظرة

الانتقادية للاشخاص والافعال . (حقا ان احداث السنوات الاخيرة قد اصابت رومانسيته بضربات شديدة ، او بالاحرى لم يبق منها الا مزق .) وصار عليه الآن ان يقلص عينيه باستمرار . ولهذا السبب اضحى يتجنب نادى الضباط ، مثلا .

ان هؤلاء الناس – حفنة من الضباط وطلاب المدارس العسكرية – كان يجب ان يرتدوا ، حسب فهمه ، ملابس بيضا كالصليبيين : فقد شهروا السيف على الغوغاء المتمردة ، على القادة السود – خدم واتباع المسيح الدجال او الالمان – الشيطان يعرف لمَن . (بهذه الشحنة من الافكار خرج روتشين الى منطقة الدون .)

ولكن كان من النابى ان يسمع فى مقاصف الضباط ثناء صاخبا على رنين الاقداح ، إطراءات على الشجاعة فى قتل الاخ لاخيه . ان هذه الوجوه الشابة والانيقة فى وقت سابق لـ«الصليبيين» قد شوهها الظمأ الى القتل ، الى التنكيل ، الى الانتقام . ها هم يقفون وبايديهم اقداح من الكحول المركزة ينشدون لحن الموت لمن كان اوضع الناس ، لمن قد رمى بالرصاص ، واحرق ، وبدد مع الريح ، مثل دميترى الدعى . ولو جمع كل الدم المراق بارادته العاجزة لأغرقه الشعب حيا فى تلك البحيرة العميقة من الدم . . .

وبدا لحن الموت هذا (وروتشين يقلص عينيه على ذلك بالذات) الفكرة الوحيدة لدى زملائه . . . تطهير روسيا من البلاشفة ، الوصول الى موسكو ، رنين الاجراس . . . دخول دنيكين الكريملين على فرس ابيض . . . كل ذلك مفهوم . ولكن ماذا بعد ؟ الشىء الرئيسى ؟ وكان حتى الحديث عن الجمعية التأسيسية امام الضباط يعتبر غير لائق . يعنى مرحبا بالموت ؟

ما الذى جذب هؤلاء الناس الى القتال والموت ؟ وقلص روتشين عينيه . . . لم تعد البطولة تعريض الصدور للرصاص ، واحتساء الكحول فى عربات القطار المدفأة . فقد اضحى ذلك قديما باليا . هذا يمارسه الشجعان والجبناء على حد سواء . واصبح مألوفا التغلب على خوف الموت ، فقد صارت الحياة رخيصة .

كانت البطولة هى التخلى عن النفس باسم المعتقد والحقيقة . ولكن هنا ايضا تتقلص العين اعتراضا ، تتقلص بلا نهاية . . . باى حقيقة يؤمن زملاؤه فى الفوج ؟ باى حقيقة آمن هو نفسه ؟ فى تاريخ

روسيا التراجيدى العظيم ؟ ولكن ذلك كان واقعا وليس حقيقة . الحقيقة فى الحركة ، فى الحياة ، ليست فى تقليب صفحات كتاب مترب ، بل فى ما يجرى نحو المستقبل .

باسم اى حقيقة (اذا استثنينا رنين اجراس موسكو ، والفرس الابيض ، والازهار على الحراب وغيرها) ينبغى قتل الفلاحين الروس ؟ ان هذا السؤال بدأ يتسرب الى وعى فاديم بتروفيتش ، ويرتعش مثل ارتعاش الماء من القاء حجر . ومن هنا بدأ انشطاره المعذب . كان غريبا بين زملائه ، «صبغة حمراء» ، «بلشفيا تقريبا» .

وظل حديثة الاخير مع كاتيا يلح عليه اكثر فاكثر ، ويدفع الدم الى اذنيه خجلا . عصرت يديها ، وتقطعت انفاسها انفعالا ، وكانما رات احجارا تتساقط فى هاوية من تحت قدمى فاديم بتروفيتش . «يجب ان تفعل شيئا آخر تماما ، يا فاديم ، فاديم !!»

وكان ما يزال غير متهيئ لأن يقر لنفسه ان كاتيا كانت على حق كما يبدو ، وانه قد ضل ضلالا ميئوسا منه ، وانه كلما تمادى فى الأمر قل فهمه للسر فى تنامى قوة «الغوغاء المتمردة» بسرعة كابوسية ، وان من الحماقة الفظيعة القول فى حميا الغيظ بان البلاشفة يخدعون الشعب ، لأنه لم يُعرف بعد هل البلاشفة هم الذين دعوا الى الثورة ، ام الشعب هو الذى دعا البلاشفة ، وانه الآن لا يتهم احدا غير نفسه .

كانت كاتيا على حق فى كل شيء . حملت من الحياة القديمة الى هذه الاوقات العصيبة القلقة حماية واحدة ، كنزا واحدا–الحب والحنان . وتذكر كيف سارت فى شوارع روستوف وعلى راسها منديل ، وفى يدها صرة هى رفيقة حياته الوديعة ... حبيبة ، حبيبة ... ان يضع راسه على ركبتيها ، ويضم الى وجهه يديها الرقيقتين ، ويقول فقط : «كاتيا ، انا منهوك ...» ولكن العزة السخيفة قيدت فاديم بتروفيتش . كانت قامته النحيلة تظهر فى شارع القرية المترب ، فى الصف ، فى نادى الضباط ، وكانه قد شد فى حشد حديدى ، وقد اشتعل الشيب فى راسه المرفوع باباء ... وكانوا يقولون عنه : «يا رب ، يرفع انفه ، يتصور نفسه من حراس الامبراطور ، وهو وغد من المشاة ...»

وكان قد ارسل لكاتيا رسالتين قصيرتين ، ولكنه لم يتلق جوابا . عندئذ قرر ان يكتب الى المقدم تيتكين . الا انه حصل على الاجازة فى ذلك الوقت ، فسافر فى الحال الى روستوف .

استاجر عربة الحصان من المحطة عند الظهر . كانت المدينة قد تغيرت تغيرا لا تعرف به . كان شارع سادوفايا نظيفا جدا ، والاشجار مشذبة ، والنساء انيقات ، وكلهن فى ملابس بيضاء يتنزهن فى الجانب الظليل ، وينعكسن على واجهات المخازن الزجاجية اللامعة .

تلفت روتشين وهو فى العربة يبحث بعينيه عن كاتيا . ما هذا ؟ كان النساء خارجات من حلم منسى ، فى قبعات عليها ريش على الطراز القديم ، وقبعات بناما ، ولفاحات بيضاء ... اقدامهن البيضاء تضرب الاسفلت الذى يغسله بوابون جهماء ، وما من لطخة دم على تلك الجوارب البيضاء . من اجل كل هذا تعسكر الوحدة فى فيليكوكنياجيسكايا ! من اجل هذا يصارع دنيكين الجحافل الحمر منذ اربعة اسابيع ! تلك هى الحقيقة البسيطة «كرائعة النهار» ، حقيقة الحرب البيضاء !

وابتسم روتشين ابتسامة مرة . فى مفارق الطرق كان الالمان يقفون فى بزاتهم المالوفة الخضراء الرمادية الى حد الغثيان ، وفى قبعاتهم القشيبة ، وكانهم فى بيوتهم ! واذا باحدهم يرفع النظارة الاحادية الزجاجة من عينه ، ويقبل يد حسناء فارهة فى لباس ابيض ...

–يا حوذى ، اسرع !

كان المقدم تيتكين واقفا عند باب بيته . واقتربت عربة فاديم بتروفيتش فقفز منها ، وراى تيتكين يتراجع وعيناه تتدوران ، وتتبحلقان . ارتفعت يده السمينة ، ولوحت لروتشين ، وكانما يبعده .

– مرحبا ، يا مقدم ... أحقا انك لم تعرفنى ؟ انا ... بحق الرب ، كيف كاتيا ؟ فى صحة ؟ لماذا لا ...

هتف تيتكين بصوت نسوى :

– يا للسماء ، انت حى ؟ يا عزيزى ، فاديم بتروفيتش ! واندفع على روتشين ، واحتضنه ، وبلل خده بالدمع .

– ما الذى حصل ؟ اخبرنى بكل شىء ، يا مقدم ...

– قلبها اعلمها انك حى ... والمسكينة يكاترينا دميترييفنا ، كم قاست !

واخذ تيتكين يروى له بشكل مشوش كيف انها ذهبت الى اونولى ، وانه ، لسبب غير معروف ، اكد لها ان روتشين قد قُتِل . وتحدث عن شقاء كاتيا ، ورحيلها .

فقال روتشين بلهجة حازمة ناظرا الى الارض :

– اذن ... اين رحلت يكاترينا دميترييفنا ؟

بسط تيتكين ذراعيه ، وعبر وجهه الطيب عن رغبة حارة فى المساعدة .

– اتذكر . انها قالت لى انها مسافرة الى يكاترينوسلاف ... بل اتصور انها كانت تريد ان تعمل فى محل للحلويات ... من اليأس ان تلجأ الى محل الحلويات ... انتظرت ان تكتب ، ولكن لم تكتب سطرا واحدا ، وكانها غطست فى الماء ...

رفض روتشين الدعوة لاحتساء قدح من الشاى ، وعاد الى المحطة راسا . كان قطار يكاترينوسلاف يغادر فى المساء . ذهب روتشين الى صالة انتظار الدرجة الاولى ، وجلس على اريكة بلوطية عارية ، واستند على كوعه ، وغطى عينيه فى كفه . وبقى ساعات طويلة بلا حراك ...

زفر شخص زفرة تفريغ ، وجلس الى جانب فاديم بتروفيتش وقتا طويلا ، كما يبدو . وقبل ذلك جلس كثيرون . كانوا يجلسون قليلا ثم ينصرفون . اما هذا فقد بدأ يهز رجله وفخذه بشكل جعل الاريكة كلها تهتز . ولم ينصرف ، ولم يكف عن الاهتزاز . قال روتشين دون ان يرفع يده عن عينيه :

– اسمع ، الا تستطيع ان تكف عن هز رجلك ؟ ..

اجاب الرجل باستعداد :

– اعذرنى ، عادة سيئة . – وجلس بعد ذلك ساكنا .

اذهل صوته فاديم بتروفيتش : صوت مألوف جدا ، له صلة بشىء بعيد ، بذكرى طيبة . افرج روتشين اصابعه دون ان يرفع يده عن عينيه ، ونظر الى جاره بعين واحدة . لقد كان ذلك تليغين . كان قد مد رجليه المحتذيتين حذاء طويلا قذرا ، ووضع ذراعيه على بطنه ، وراح يهوم ملقيا قفاه على متكأ الاريكة العالى . كان يرتدى سترة ضيقة تضغط على الابطين ، وكتافيتى مقدم جديدتين . وقد جمدت على وجهه النحيل الحليق الملوح ابتسامة رجل يستريح بعد تعب مضن ...

كان اقرب انسان الى روتشين بعد كاتيا ، اخا وصديقا عزيزا . كان يشع منه نور سحر الشقيقتين : داشا وكاتيا ... ومن الذهول كاد فاديم بتروفيتش ان يهتف ، كاد ينقض على ايفان ايليتش . الا ان تليغين لم يفتح عينيه ، ولم يتململ . ومرت ثانية . وادرك ان امامه عدوا . وكان فاديم بتروفيتش قد عرف منذ نهاية ايار ان تليغين فى الجيش الاحمر ، وقد انضم اليه بمحض ارادته ، ويعتبرونه ضابطا ممتازا . وكان متنكرا على ما يبدو ، ربما فى ملابس ضابط قتله بيده ، فى رتبة مقدم (بينما لم يكن الا نقيبا فى الجيش القيصرى) ... واحس روتشين باشمئزاز مباغت لزج ، من ذلك الذى ينتهى لديه فى العادة بنوبة من الكراهية الحادة : لا يمكن ان يكون تليغين هنا غير جاسوس ...

كان يجب الاسراع بابلاغ القومندان . ولو كان ذلك قبل شهرين لما تردد روتشين لحظة واحدة . الا انه التصق بالاريكة ، ولم يجد فى نفسه القوة . ثم ان الاشمئزاز بدا وكانه ينزاح عنه ... ايفان ايليتش ضابط احمر ، وها هو الآن الى جانبه ، كما كان من قبل تعبا طيبا ... لم يقدم على ذلك من اجل المال ، ولا من اجل ترقية . ذلك هراء ! انه وهو الرجل الرصين الرابط الجاش اقدم على ذلك لأنه اعتبر ذلك قضية عادلة ... «شأنه شأنى ... اشى به ليكون زوج داشا ، واخو كاتيا واخى انا ، بعد ساعة ، مطروحا على كومة من القاذورات عند سياج ، بلا حذاء ...»

واطبق الذعر على خناق روتشين ، فانكمش بكل كيانه ...

ما العمل ؟ انهض ، وانصرف ؟ ولكن ربما يعرفه تليغين ، ويصاب بالذهول ، ويهتف . كيف ينقذه ؟

جلس روتشين وايفان ايليتش جنبا الى جنب على الاريكة البلوطية ساكتين وكانهما نائمان . وكانت المحطة خالية فى تلك الساعة . اغلق الحارس الابواب المؤدية الى الارصفة . عند ذاك تكلم تليغين دون ان يفتح عينيه :

– شكرا ، فاديم . . .

ارتجفت يد روتشين بشدة . نهض ايفان ايليتش بخفة ، وسار نحو المخرج الى الساحة بمشية هادئة دون ان يلتفت . وبعد دقيقة اندفع روتشين فى اثره . دار حول ساحة المحطة ، حيث كان الباعة المسودو البشرة يهومون عند بسطاتهم تحت حزم السمك المدخن ، فى الشمس البيضاء التى اذابت اسفلت الشارع . . . كانت الاوراق محترقة على الاشجار ، والهواء كله يلتهب مفعما بغبار المدينة .

«لو اعانقه ، فقط اعانقه» وطافت امام عينى روتشين دوائر حمراء من الحر . واختفى تليغين وكان الارض قد غيبته .

فى الساعة التى انطفأ فيها شفق السهب ، وغفا روتشين على تخت العربة العلوى فى نومة هادئة على دمدمة عجلات القطار كانت تلك المراة التى يبحث عنها ، زوجته كاتيا التى كانت تهفو اليها روحه المعذبة المريضة من الدم والكراهية ، قد سارت فى السهب فى عربة . كان كتفاها ملفوفتين فى شال . والى جانبها جلست الحسناء ماتريونا كراسيلنيكوفا . صلصل حديد العربة . ونخرت خيول . وكان عدد كبير من العربات يمتد فى السهب من الامام ومن الخلف ، تحت جنح الظلام لليلة منجمة .

كان الكسى كراسيلنيكوف قد اطلق العنان ، وجلس على مقدمة العربة ، وسيميون يحط على جنب العربة ، واوراق الارقطيون والبرسيم تضرب فى حذائه . كانت فى الجو رائحة خيول وافسنتين . وكانت كاتيا تفكر فى شبه اغفاءة . وكانت الريح تبرد كتفيها . والسهب بلا نهاية ، والطرق بلا نهاية . وعلى مر القرون كانت تسير

الخيول وتصرف العجلات ، والآن تعاود سيرها مثل ظلال مضارب الرحل القدامى . . .

السعادة ، السعادة حنين مستديم ، منطقة السهوب ، ساحل لازوردى ، امواج لطيفة ، سلام ، رخاء .

حدقت ماتريونا فى وجه كاتيا ، وابتسمت . وكركبة الحوافر من جديد ، كان الجيش يخرج من الحصار . امر الاتمان ماخنو بالسير بهدوء . وهبطت كتفا الكسى الثقيلتان ، يبدو ان النعاس قد غلبه . قال سيميون بصوت خافض :

– لا اريد التخلص منكم . . . فلماذا ترددون : سيميون ، سيميون . . . (تنهدت ماتريونا تنهيدة قصيرة ، واستدارت ، وحدقت فى السهب .) لقد قلت لالكسى منذ الربيع : ليس العزيز عليّ هو شريط البحارة ، بل القضية هى العزيزة . . . (صمت الكسى .) لمن الاسطول الآن ؟ لنا ، نحن الفلاحين . فماذا يحدث لو تفرقنا عنه جميعا ؟ اننا نكافح من اجل قضية واحدة . انتم هنا ، ونحن هناك . . .

سالت ماتريونا :

– وماذا يكتبون لك ؟

– يكتبون : من الضرورى العودة الى المدمرة ، والا فساعتبر هاربا ، خارجا على قانون الثورة . . .

هزت ماتريونا كتفها . كانت تتضرم غيظا . ولكنها ضبطت نفسها ، ولم تجب بشيء . وبعد فترة من الوقت رفع الكسى جذعه على مقدمة العربة ، وتسمّع ، واشار الى الظلام بسوطه :

– قطار يكاترينوسلاف السريع . . .

نظرت كاتيا ، ولكنها لم تر القطار الذى كان يحمل فاديم بتروفيتش نائما على تخت علوى فى احدى المقاصير ولم تسمع غير صفير ممدود بعيد ، فأثار فى نفسها حزنا حادا . . .

اتجه فاديم بتروفيتش من المحطة الى محل الحلويات رأسا مستفسرا عن كاتيا . دخل فى المقاهى الحارة التى يملأ الذباب نوافذها المتربة ، والشاش الذى يغطى الحلويات . وقرأ اللافتات

البفتية : «فرساى» ، ألدورادو» ، «الركن المريح» . ومن ابواب هذه المطاعم الصغيرة المشبوهة نظر اليه رجال سمر الوجوه مشوربون بعيون جاحظة مثل بياض البيضة مستعدون ، عند الحاجة ، ان يصنعوا كبابا من اى شيء كان . وقد استفسر هنا ايضا . ثم اخذ يطوف على كل المخازن واحدا واحدا .

كانت الشمس تلذع بلا هوادة . وكان عدد غفير من اخلاط الناس يضج ويزدحم فى الممرات المعرشة الثنائية تحت اشجار الدردار فى جادة يكترينينسكى . ودقت عربات ترام صغيرة مهلهلة اجراسها . قبل الحرب بدأت تقام هنا العاصمة الجديدة لجنوب اوكرانيا . واوقفت الحرب نموها . والآن ، والمدينة تحت حكم الهيتمان وحماية الالمان انتعشت من جديد ، ولكن بطريقة مختلفة : فبدلا من الدوائر والبنوك والمستودعات التجارية فتحت دور القمار ، وحوانيت المبادلة ، ومحلات الكباب وشراب الليمون. وحل محل صخب العمل والحركة التجارية اللغب الهستيرى لباعة العملة الاجنبية المتراكضين بوجوه غير حليقة ، والقبعات منحدرة على اقفيتهم متنقلين فى المقاهى ومفارق الشوارع ، وصيحات عدد هائل من ملمعى الأحذية ، وباعة صبغ الاحذية-الصناعة الوحيدة فى ذلك العهد-ومضايقات المشردين الخبثاء ، وعويل الفرق الموسيقية من «الاركان المريحة» ، والازدحام الارعن للجمهور العاطل الذى كان يعيش على بيع وشراء النقود المزيفة ، والبضائع غير الموجودة .

جلس فاديم بتروفيتش على مسطبة تحت شجرة اقاسيا يائسا من البحث اللامجدى مصعوقا معذبا ، يمر به جمهور الناس : نسوة انيقات وغريبات فى ملابس مصنوعة من الستائر ، وفى ازياء قومية اوكرانية ، نساء ذوات عيون مخططة ندية من الحر ، على خدودهن المبودرة خطوط من العرق ، ومضاربون مضطربون يشقون طريقهم ، كالمجاذيب ، باذرع ممدودة خلال هذه الجمهرة من النساء ، وموظفون هيتمانيون منتفخون ببلاهة يشدون على قبعاتهم اشارة ثلاثية الشعب ، وافكارهم مشغولة بالصفقات المالية ونهب املاك الدولة ، وقوزاق هيتمانيون ضخام عراض الاكتاف لهم رقاب الثيران ، وغايداماكيون مشوربون عليهم قبعات ضخمة قرمزية

القمة ، وقفاطين بلون السماء الزرقاء ، وسراويل عجيبة فضفاضة ظل المعلمون الاوكرانيون الاستقلاليون والرومانسيون الغاليسيون يحنون الى لبسها قرنين من الزمن . وسار فى الزحام ضباط المان محصنون ينظرون فوق الرؤوس بابتسامة استخفاف ...

نظر روتشين واعتمل الغيظ فى قلبه . «لو يُصب كيروسين على هذه السفالة وتُحرق ...» شرب فى كشك مكشوف قدحا من عصير الفواكه ، وسار مرة اخرى من باب الى باب . الآن فقط اخذ يدرك لا جدوى هذا البحث . ان كاتيا فى مكان ما ، هنا ، فى هذا الزحام نصف المجنون ، وحيدة ، بلا نقود ، قليلة الخبرة ، وجلة ، هدتها المصيبة (وتذكر فى ذعر حاد ومرة بعد اخرى قارورة السم التى كانت تحملها فى شقة موسكو) ... تمسها الايدى اللزجة لباعة العملة والقوادين ، واصحاب المطاعم ، وتتفرسها العيون الخبيثة ...

وضاقت انفاسه ... سار فى الزحام مباعدا بين مرفقيه غير راد على الصيحات ولا على السباب . وفى المساء استاجر غرفة فى فندق بثمن باهظ ، وهى عبارة عن خص معتم لم يكن يسع الا لسرير حديدى عليه فراش مهلهل . وخلع حذاءه ، واستلقى ، وبكى صامتا بلا دموع ضاما راسه الاشيب بين يديه .

عبر تليغين حدود منطقة الدون مشيا ، واخفى كتافيتى المقدم فى كيس متاعه ، واستقل القطار الى تساريتسين ، ومنها ركب باخرة ضخمة مكتظة من سطحها الاعلى حتى قعرها بالفلاحين والجنود والمقاتلين والهاربين من وحداتهم ، واللاجئين . وفى ساراتوف اظهر وثائقه الى اللجنة الثورية ، وركب باخرة الجر الى سيزران ، حيث كانت الجبهة التشيكوسلوفاكية .

كانت الفولغا مقفرة ، كما فى الازمنة شبه الاسطورية ، حين وصل فرسان جينكيز خان الى شاطئها الرملى ليرووا خيولهم من نهر «را» العظيم . سار النهر العريض الصقيل بين الشطئان الرملية العالية ومروج الفيضان ، التى نما فيها الصفصاف . وكانت القرى القليلة مهجورة . والى الشرق امتدت سهوب منبسطة ، فى موجات

الحر ، فى السراب . ومرت انعكاسات السحب على الماء عائمة ببطء . ودواليب الباخرة وحدها كانت تضرب الماء اللازوردى فى السكون بهمة .

كان ايفان ايليتش يرقد على سطح السفينة الحار تحت برج القبطان . كان حافيا وفى قميص قطنى غير محزم ، وقد نما شعر اشقر على خديه . كان يتمتع ، كالقط فى الشمس ، بالسكون والرائحة الرطبة لزهور المستنقعات ، ورائحة عشب السهب الجافة الآتية من الشطئان الواطئة ، ودفقات النور اللانهائية . لقد كان ذلك ذروة الراحة .

كانت الباخرة تحمل السلاح والذخيرة لانصار الاقضية السهبية . وكان جنود الجيش الاحمر الذين يصاحبون الحمولة مسترخين من الهواء الطلق ، بعضهم نائم ، والبعض قد نال قسطه من النوم فراح يغنى الاغانى ناظرا الى الرحاب المائية . وكان آمر الفصيلة الرفيق خفيدين ، وهو من بحارة البحر الاسود ، يؤنب الجنود عدة مرات يوميا على انعدام الوعى ، فكانوا يجلسون ويستلقون بالقرب منه واضعين خدودهم على ايديهم .

كان يقول لهم بصوت مبحوح :

– يجب ان تفهموا يا اخوان ، اننا لا نقاتل دنيكين ، ولا نقاتل الاتمان كراسنوف ، ولا نقاتل التشيكيين ، بل نقاتل البرجوازية الدموية كلها فى نصفى الكرة الارضية ... يجب ان نضرب البرجوازى فى العالم كله ضربة مميتة ، قبل ان يجمع قواه كليا ... نحن ، الروس (وقد نطق بهذه الكلمة فى وضوح وتضخيم) موضع عطف اشقائنا الحميمين ، بروليتاريى جميع الاقطار ... وهم ينتظرون منا شيئا واحدا : ان نقضى على الطفيليين عندنا ، ونهب لمساعدتهم فى النضال الطبقى ... هذا مفهوم بدون كلام ، يا اخوان . لا يوجد من هو اشجع من الجندى الروسى فى العالم ، اذا استثنينا بحار الاسطول الاحمر ، ولهذا فان امامنا جميع الفرص . مفهوم يا ارباب الحسن ؟ انا اتحدث بديهيات ، اليوم تخوض معارك قرب سامارا ، وبعد مدة غير طويلة ستخوض معارك فى جميع القارات ...

اصغى الجنود وابصارهم معلقة على فمه . وابدى احدهم ملاحظة بهدوء :

– نعم ... اختلط الحابل بالنابل ... فى العالم كله !

الى اليسار بدت جبال خفالين زرقاء . نظر الرفيق خفيدين فى المنظار . وبدت بلدة خفالينسك المسترخية الناعسة اكثر وضوحا من وراء كتل الاشجار . وكان على الباخرة ان تتزود بالنفط منها .

وقف القبطان الاشيب عند مدير الدفة . تفرع النهر الى ثلاثة فروع ملتويا حول جزيرات الصفصاف الغرينية وكان مجرى الملاحة صعبا . تقدم خفيدين من القبطان :

– لا يُرى شخص واحد فى البلدة . ما الخبر ؟

قال القبطان :

– يجب التزود بالنفط حتما ، ومهما كلف الأمر .

– ارس ، اذا كان ذلك ضروريا .

وحين اقتربت الباخرة من جزيرة كادت اغصان القصب تمس اغلفة الدواليب فاخذت تصفر وتستدير . وفى تلك الآونة ارتفعت اصوات حادة من الصفصاف الكثيف فى الجزيرة :

– قف ! قف ! الى اين سائر ؟

سحب خفيدين المسدس من قرابه . وتراجع الملاحون من حاجز الباخرة . وماج الماء تحت دواليب الباخرة .

وارتفعت اصوات :

– قف ، قف !

وخشخش الصفصاف ، واندفع بعض الناس الى الشاطىء ، وظهرت وجوه حمراء منفعلة ، واذرع ملوحة مشيرة الى البلدة . وكان من المتعذر فهم اى شىء من الضجيج . وامطر خفيدين الجميع بوابل من شتائم البحارة . ولكن كل شىء اتضح بدون حاجة الى ذلك . تصاعدت ادخنة من الرصيف فى البلدة ، وانطلقت رصاصات على النهر . لقد كان الحرس الابيض يحتل خفالينسك . وتبين ان الناس فى الجزيرة هم بقية الحامية الهاربة ، وجزء منهم من انصار المنطقة . كان بعضهم مسلحا ، ولكن لم تكن لديهم ذخيرة .

انطلق الجنود الحمر الى المقاصير لجلب البنادق ، واحتل خفيدين نفسه مكان القبطان ، وراح يشتم فى عرض النهر كلـه بشتائم جعلت الناس فى الجزيرة يهدأون فى الحـال . وظهرت البسمات على الوجوه . وبسورة الحماس اراد خفيدين ان يهاجم البلدة من الباخرة هجوما مباشرا وفى الحال . الا ان ايفان ايليتش اوقفه . واثبت لـه فى نقاش قصير بأن من غير الممكن القيام بـالهجوم دون اعداد ، وان من الضرورى ان تصاحبـه حركة التفافية ، وان خفيدين لا يعرف قوة العدو ، فقد تكون لديـه مدفعية .

كزّ خفيدين على اسنانه ، الا انه وافق . تحركت السفينة حركة خلفية مع تيار النهر تحت الرصاص ، واقترب من الناحية الغربية من الجزيرة ، حيث البلدة محجوبة بغابة . ورست هناك . تناثر الناس من الجزيرة على الشاطئ الرملى . وكانوا حوالى خمسين شخصا مهلهلين شعثا .

وصاحوا :

– اسمعوا ما نقول لكم ، يا شياطين .

– زاخاركين قادم لنجدتنا مع انصار بوغاتشيفسك .

– منذ ثلاثة ايام بعثنا اليه رسولا .

وذكروا ان البرجوازيين فى البلدة استولوا بهجوم مسلح مباغت على مقر السوفييت والتلغراف والبريد . ووضع الضباط كتافياتهم ، وهجموا على الترسانة ، واخذوا الرشاشات . وتسلح طلاب المدارس والتجار والموظفون ، بل وان شماس الكنيسة خرج الى الشارع ببندقية صيد . ولم يكن احد يتوقع هذا الانقلاب، فلم يلحقوا فى اخذ بنادقهم .

– تفرق امراء وحداتنا . خانونا . . .

– نحن نركض كالخراف .

فلم يكن من خفيدين الا ان قال :

– آه ، يا لكم ، يا جنود البر . . .

عقد الجميع على الشاطئ اجتماعا عسكريا مشتركا . وانتخب تليغين سكرتيرا . وطرحوا هذا السؤال : هل يسترجعون خفالينسك من البرجوازيين ام لا ؟ وقرروا استرجاعها . ثم السؤال

الثانى : هل ينتظرون انصار بوغاتشيفسك ام يستولون على البلدة بقواهم ؟ وجرى نقاش حول ذلك . بعضهم صار يصرخ : يجب الانتظار لأن لدى انصار بوغاتشيفسك مدفعا ، والآخرون قالوا ان الانتظار غير ممكن ، لأن سفنا للبيض ستأتى من سامارا بين لحظة واخرى . وضجر خفيدين من النقاش ، وهز ذراعه ضيقا .

– كفى كلاما ، يا رفاق . نقرر بالاجماع ان تكون خفالينسك بايدينا فى المساء . سجل المحضر ، يا رفيق تليغين .

فى تلك الآونة ظهر فرسان على المرتفع فى الضفة اليسرى . فى البداية لاح اثنان ، ثم اربعة ، ولما رأوا الباخرة انطلقوا عائدين . ثم تغطت الضفة كلها بالفرسان حالا ، ولمعت فى الشمس سناك عريضة مصنوعة من المناجل . وبدأ اهل خفالينسك يصرخون :

– آى . . . من انتم ؟

ردوا عليهم من الضفة الاخرى :

– فصيلة زاخاركين ، من جيش بوغاتشيفسك للفلاحين . . .

تناول خفيدين الميكروفون ، وصاح موترا عروق رقبته :

– يا اخوان ، جئناكم باسلحة . انزلوا الى الجزيرة . . . سنستولى على خفالينسك . . .

صاحوا من هناك :

– حسنا . . . عندنا مدفع . . . اجلبوا الباخرة الى هنا . . .

كان الفرسان على الشاطئ احدى فصائل جيش الانصار للفلاحين ، الذى كان يقاتل فى سهوب سامارا ضد النواحى التى اعترفت بسلطة حكومة سامارا المؤقتة .

وقد تكون هذا الجيش بعد احتلال التشيكوسلوفاكيين لسامارا مباشرة . وكانت مدينة بوغاتشيفسك – التى كانت من قبل تسمى نيقولايفسك – مركزا لتشكيله . وقد اجتمع هناك جميع ذوى الرؤوس الحارة الذين كانوا يحبون ركوب الخيل ، وجميع الذين حصرهم مشترى الارض الشهير شيخوبالوف الى رقعة

ضيقة من الارض ، وكل الذين يتنافسون على الارض مع قوزاق الاورال الاغنياء ، وكل الذين طفحت نفوسهم التى ولدت فى السهوب الشاسعة ، حيث تتماوج سنابل القمح طليقة ، والفلاح يسير وراء المحراث الثقيل يحث الثيران البطيئة .

كان العدو يظهر فى كل مكان مثل سراب السهب . وكانت الاجتماعات تعقد فى القرى ، والفلاحون الاغنياء ، وضباط الصف فى الجيش القيصرى والمحرضون المتنكرون القادمون من سامارا يصرخون انه لا يوجد قانون يجيز للفلاح الفقير ، والعامل الزراعى، والمتشرد الذى لا ارض له ان يحكم الناحيـــة ، وينتزع الارض والحبوب من الفلاحين الموسرين . وكان الاجتماع يقرر ارســـال الرسل الى القرى المجاورة لحفر الخنادق والتخندق فيها . وكانت ناحية كاملة تنهض فى الحال ، ويخرج اهلهـــا السلاح من اماكن سريـــة ، ويشقون اخـاديد بالمحراث للحدود ، ويحفرون خنـادق لعشرات الفراسخ .

وفى بعض المناطق كانوايعلنون جمهورية تابعة لحكومة سامارا . وتعهد حراسة المنطقة الى الفرسان ، ويجند المشاة فى حالة هجوم الحمر فقط . وكان الفرســـــان يتسلحون بالمناجل التى تربط مقابضها بالعصى الطويلة . وكانت الجيوش الكولاكية هذه رهيبة . كانت تظهر بصورة مفاجئة من اغبشاش السهب وتهجم فى سحب الغبـار على صفوف الجنود الحمر ورشاشاتهـم . وكانوا يقاتلون الاهالى : الاخ اخاه ، والاب ابنه ، والعراب عرابه ، ولهذا كانوا يقاتلـــون بـلا شفقـــة ولا خـوف . وبعـد ان يحطمـوا الحمـر يتسلح الفرسان بالرشاشـات والبنادق ، ولكنهـم لا يتخلون عن المناجل .

لم تبق مدونات ولا ارشيفات عسكريـــة من هذه الحرب الفلاحية الكبيرة فى سهوب ســـامارا التى ما تزال تتذكر حملات ايميليان بوغاتشيوف . الا اذا جلس اب وابن فى عيد دينى ومعهما جردل من النبيذ يتناقشان عن المعـارك السابقـة واحدهمـا يؤنب الآخر عن الاخطاء الاستراتيجية . فيقول الاب :

– هل تذكر ، يا ياشكا ، كيف اخذتم تضربوننا بالمدفع قـرب كولديبـان ؟ فـاقول لنفسى : انـه بالتـأكيد ابنى يـاشكا

هذا ، ابن كلبـة . . . لـم اقطـع اذنيـه فى حينهـا . . . واوقعنـا فى قلوبكـم الرعب . . . من حسن حظك انك لم تقع فى يدى فى ذلك الحين . . .

– هذا تبجح . . نحن الذين انتصرنا . . .

– لا باس . ستسنح فرصة ، وسنختلف من جديد .

– وليكن ، سنختلف . . . كنت كولاكا وبقيت على وجهـــة نظرك الدموية .

– لنشرب ، يا بنى !

– لنشرب ، يا ابتِ !

اقتربت الباخرة من الضفة اليسرى . وأ'لقى الممشى الخشبى، وصعد الى السفينة زاخاركين آمر فصيلة بوغاتشيفسك . وهو شخص ذو انف معكوف مثل منقار النسر . وكان شديد القوة كثير العضل حتى ان الالواح قرقعت تحت قدميه . وكانت السترة الناحلة التى يرتديها مفتوحـــة تحت الابطين ، والسيف المعكوف يضرب حذاءه العالى . وكان اشقاؤه الكبار ، وهم فلاحون من ناحية اوتيف قواد فرق .

وصعد وراءه ستة من الانصار – هيئة الآمريـة – فى ملابس مثيرة الدهشـــة غير اعتياديـة : قمصـان ناحلـة اللون ، مغبرة ، مقطرنة ، ومفتوحة الياقات ، بعضهم فى احذية لبادية شكلت عليها مهاميز ، وبعضهم فى احذية ليفية . وكانوا مسلحين باسلحة شتى : اشرطة رشاشات ، قنابل يدوية فى احزمتهم ، حراب المانيـــــة عريضة ، بنادق مقطوعة .

التقى زاخاركين وخفيدين على برج القبطان ، وتصافحـــــا مصافحة قوية . وقدمت السكائر . عرض خفيدين الموقف العسكرى باختصار . قال زاخاركين :

– انا اعرف من يصطاد فى الماء العكر فى خفالينسك . انه كوكوشكين ، رئيس الادارة المحلية الذاتية . . . اود ان امسكه حيا .

قال خفيدين :

– والمدفع ؟ هل هو فى حالة جيدة ؟

– يشتغل ، ولكن على العيـان ، بلا جهـاز تسديد . نسدد

من خلال الماسورة . ومع ذلك فهو يقصف . اذا اطلق هدّم برج جرس او مضخة ماء كليا !

– حسنا . وما رايك ، يا رفيق زاخاركين ، بالانزال وحركة الالتفاف ؟

– نلقى بالخيالة الى الضفة الاخرى . هل تستطيع الباخرة ان تحمل مائة مقاتل ؟

– ببساطة ، على مرتين .

– اذن ، فالأمر مضبوط . عندما يحل الظلام تنزل الخيالة فى مكان فى اعلى البلدة . وننصب المدفع على السفينـــة . ونبدا الهجوم عند الفجر .

عهد خفيدين الى ايفان ايليتش قيادة جنود الانزال من المشاة الذين اوكل اليهم مهاجمة الارصفة من الامام . وفى الغسق سارت الباخرة بحذر وبدون ضوء الى الفرع الجانبى من الفولغا بمحاذاة جزيرة . وفى السكون لم يكن يسمع غير صوت الملاح الذى يقيس عمق الماء .

وفى اثر الباخرة سارت فصيلة بوغاتشيفسك على الشاطئ . وزعت الاسلحة على رجال خفالينسك ، فاستلقوا على الرمل . سار تليغين بحذاء حافة الماء ، متاكدا بنفسه من ان احدا لا يدخن او يشعل نارا . وكانت طرطشة الماء على الرمل خفيفة لا تكاد تسمع . وفى الجو رائحة زهور المستنقعات ، وطنين بعوض . وران الهدوء على الرجال المستلقين على الرمل .

امسى الليـل اكثـر ظلامـا ونعومـة ، وتنـاثرت النجوم فى السماء . وتصاعدت من الشاطئ السهبى رائحة الافسنتين الجافة ، وشَدَت طيور السلوى . وظل ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الماء مغالبا النعاس .

وحين اخذ الليل يتجاوز نصفه ، فقدت السماء ظلامهـــا المخملى ، ومن بعيد ، ووراء النهر ترامى صـــوت ديك الفجر ، ودمدمت دواليب على الماء المغشى بنقاب خفيف من الضباب . ودنت الباخرة . عاين ايفان ايليتش قرص مسدسه ، واحكم شد حزامه على بنطلونه ، وسار بين النائمين ، مطبطبا على ارجلهم بعصـــا صغيرة وقائلا :

– رفاق ، استيقظوا .

نهض الرجال مسرعين مهتاجين ، مرتجفين من رطوبة الهواء والنعاس عالق باجفانهم ، فلم يدركوا فى الحـــال ما عليهم ان يفعلوا ... ذهب الكثيرون منهم ليشربوا الماء من النهر منزلين رؤوسهم فيه . اصدر تليغين اوامره بصوت خفيض . وكان يجب ايجاد تغطية ، فاخذ المقاتلون يخلعون ثيابهم ، ويعبئونها رملا ، ويصفونها على طول جانب الباخرة . وعملوا صامتين ، فلم يكن فى الامر مزاح .

بدات الدنيا تتنور . وانتهت الاستعدادات ، ونصب مدفع جبلى صغير صدئ فى مقدمـــة الباخرة . وصعد على ظهر الباخرة خمســـون من المقاتلين ، واستلقوا وراء زكائب الرمل . ووقف خفيدين على الدفة :

– السير قدما فى اقصى سرعة !

ماج الماء تحت الدواليب . ودارت الباخرة بسرعـــة حول الجزيرة ، واتجهت نحو البلدة فى المجرى الرئيسى . لاحت انوار صغيرة صفراء هناك . وفى الخلف برز خط جبال مغبش تحت جنح الليل . والآن صارت اصوات ديكة الفجر تصل اعلى من ذى قبل .

وقف ايفان ايليتش بالقرب من المدفع . وكان لا يستطيع ان يتصـــور انهم بعد قليل سيتوجب عليهم اطلاق النار فى هذا السكون المسترخى . قـال احد اهالى خفالينسـك بصوت رقيق ، وهو رجل وديع يشبه قندلفت ميال لصيد السمك ، تطوع لأن يكون مسددا :

– يا عزيزى الرفيق الآمر ، ماذا لو نســـدد على البريد مباشرة ؟ بدقة تامة ... انظر ، هناك ضوءان اصفران ...

صاح خفيدين فى الميكروفون :

– التسديد على البريد ! تهيأ ! المدفع ! على العيان !

قرفص المدفعى ، ونظر عبر ماسورة المدفع ، ووجههـا نحو الضوئين . ووضع قذيفة . واستدار نحو تليغين :

– ايها الرفيق العزيز ، تنح قليلا ، فمن الممكن ان ينفجر هذا المدفع ...

هتف خفيدين :

– نار !

انطلق المدفع الى الوراء وصدرت منه قرقعة ونور ساطع . ومر الهدير على الماء ، وتردد الصدى فى الجبال . توهج انفجار بالقرب من الضوئين الاصفرين ، وتردد صدى آخر فى الجبال .

صاح خفيدين وهو يدير الدفة :

– نار ، نار ! من الجانب الايسر نار سريعة ! طلقات ، طلقات على الاوغاد !

وطبطب بقدميه ، واحتد ، وزعق بكلمات شنعاء . وانطلقت من جانب الباخرة طلقة اعتباطية . اقترب شاطئ خفالينسك بسرعة . عبأ المدفعى بعناية ، واطلق من جديد . وكانت ترى الشظايا تتطاير من زريبة . وبدت بوضوح الآن معالم البيوت الخشبية ، والحدائق وابراج الاجراس .

وفى الاسفل عند الارصفة اخذت تومض ومضات نار من بنادق . وفجأة صدر الصوت الذى كان تليغين يخشاه : لعلع رشاش بسرعة ووضوح . انطبقت اصابع رجليه كالعادة ، وكان شرايين جسده كله قد تقلصت . قرفص تليغين عند المدفع ، مشيرا للمدفعى الى مبنى طويل على منحدر .

– حاول ان تسدد على ذلك الطرف الذى فيه اجمات ...

قال المدفعى :

– آه ، هذا البيت جيد . ولكن لا باس .

وانطلق المدفع للمرة الثالثة . وسكت الرشاش لحظة ، ثم انطلق فى مكان آخر الى الاعلى من مكانه الاول . استدارت الباخرة دورة حادة ، واندفعت بسرعة نحو الرصيف . وضرب الرصاص فى الاعلى – على المدخنة والصارية .

صاح خفيدين :

– لا تنتظروا الوصول الى الرصيف ، اقفزوا . هورا ، يا فتيان !

صرف وقرقع حاجز الرصيف . قفز تليغين اولا ، واستدار نحو رجال خفالينسك الذين كانوا يزحفون عبر الحواجز .

– ورائى ! هورا !

ركض على الالواح الى الشاطىء . وتبعه الرجال هاتفين .

واطلقوا النار ، وركضوا ، وتعثروا . كان الشاطىء خاليا . لاح وكان بعض الاشخاص يندفعون الى بساتين كثيفة الاشجار . وانطلقت رصاصات من فوق بعض السطوح . وعلى مسافة بعيدة جدا على التلال لعلع رشاش على فترات متقطعة ، ثم صمت ، وبعد ذلك اطلق نيرانه مرة او مرتين . ان العدو لم يشتبك فى المعركة .

وجد تليغين نفسه فى ساحة متعرجة . جمع الرجال متلفتا لاهث الانفاس . كان باطنا قدميه الحافيتين يلذعانه ، فلا بد انه قد جلطهما فى حجر . وكان فى الجو رائحة غبار . وكانت البيوت الخشبية مغلقة الصفاقات . وما من حركة حتى فى اوراق الليلق والاقاسيا . وفى احد الاركان بيت من طابقين له برج من طراز ريفى نشرت على حبل فى شرفته اربعة ازواج من السراويل الداخلية . فكر تليغين مع نفسه : «ستسرق» . كانت البلدة تبدو غاطة فى نوم عميق . والقتال والتراكض والصياح مجرد احلام .

سال تليغين عن مركز البريد والتلغراف ومحطة الماء ، وارسل الى كل منها فصيلا من عشرة رجال . سار المقاتلون ، متوترى الاعصاب متوثبين الى الوراء يرفعون بنادقهم عند كل خشخشة . ولم يكتشف العدو فى اى مكان . بدات الزرازير تصدح ، والحمامات تطير من فوق السطوح .

احتل تليغين بفصيلته مقر سوفييت البلدة ، وهو مبنى آجرى ذو اعمدة مقشرة . كانت الابواب مفتوحة ، والسلاح مكوما فى الرواق . خرج تليغين الى الشرفة . فراى تحته حدائق كثيفة ، وسقوفا لم تُطْلَ منذ زمان ، وشوارع ترابية ضيقة مقفرة . سكون ريفى . وفجاة تردد من بعيد ناقوس خطر . ارتفع فوق البلدة صوت ناقوس مُكرب سريع رنان . ومن المكان الذى انطلق منه الصراخ النحاسى للنجدة بدأ اطلاق نار سريع ، وانفجارات قنابل يدوية ، وصيحات ، وكركبة خيول ثقيلة ، وعويل . انهم جنود زاخاركين للانزال كانوا يسدون الطريق على العدو المتقهقر الى الجبال . ثم مر فرسان فى شارع جانبى يضربون الارض بنعال خيولهم المعدنية . وعاد السكون الى كل شىء من جديد .

نزل ايفان ايليتش نحو الباخرة على مهل ، وابلغ بان البلدة قد احتلت . واستمع خفيدين الى البلاغ ثم قال :

– السلطة السوفييتية اعيدت . وليس لنا ما نفعله هنا بعد الآن . يجب ان نواصل السير – وربت بمودة على ظهر القبطان العجوز الذى كان كالميت من الخوف وقال : – وانت ايضا شممت رائحة البارود . هكذا ، يـا أخ . . . انقل اليك القيادة ، فتسلم الخفارة .

نام تليغين حتى المساء تحت دمدمة المحرك وخرير الماء . نشر الغروب شفقه الاحمر الشفاف على النهر . وغنت اصوات مختلفة خافتة فى مؤخرة السفينة انداحت فى الرحاب المقفرة . كان الجمال العقيم للأفول المسائى يخيم على الشاطىء فى النهر ، ويفيض فى العين والقلب .

هتف خفيدين :

– ما هذه الكآبة ، يا اخوان ؟ غنوا اغنية مرحة .

وكان قد نال قسطـه من النوم ايضا ، وشرب قدحـا من الكحول ، وصار يتمشى الآن على السطح الاعلى رافعـا بنطاله الى فوق .

– لو نستولى على سيزران ايضا ! ماذا تقول ، يـا رفيق تليغين ؟ كنا سندهش الجميع لو فعلنا ذلك . . .

وافرج عن اسنان بيض مقهقهـا . وكان لا يهاب الاخطـار ، ولا يعبأ بكآبة الغروب على الفولغا ، او برصاصـة قاتلـة تنتظره فى مكان ما ، فى معركة او من وراء منعطف . . . الظمـا الى الحياة والقوة الحامية كانا يفوران فيه . وكانت الواح السطح تهتز تحت عقبيه الحافيين :

– انتظر قليلا وسنستولى على سيزران وسامارا ، وستكون الفولغا لنا .

وتغشى الغروب بنقاب رمادى . وسارت الباخرة بدون ضوء . غطى المساء على الشطئان فتوارت . لم يعرف خفيدين كيف يصرف قوته ففرض على ايفان ايليتش ان يلعب الورق .

– اذا لا تريد ان تلعب بفلوس ، فلنلعب على ضربة على الأنف . . . فقط ان تكون الضربة معتبرة .

جلسا فى مقصورة القبطان يلعبان الورق على ضربة على الأنف . واحتد خفيدين ، وصـار يرفـع الرهـان حتى وصل الى ثلاث مائـة

ضربة على الانف ، ومن شدة الاستثارة كاد يغش فى اللعب ، الا ان ايفان ايليتش كان حاد البصر : «لا ، يـا اخ ، انت لا تلعب مع حمقى» وربح . جلس تليغين على مقعد جلسة مريحة ، وبدأ يضرب خصمه باوراق متسخة . حتى صار انف خفيدين احمر كالبنجر فى الحال .

– اين تعلمت ذلك ؟

– تعلمته فى الاسر عند الالمان . لا تدير بوزك . مائتان وسبعة وتسعون .

– اسمع . . . لا تضرب اشد من ذلك . . . والا . . .

– تكذب . . . فى الضربات الثلاث الاخيرة يمكن بشدة .

– اذن ، اضرب ، يا وغد .

الا ان تليغين لـم يلحق ان يضرب . دخل القبطـان الى المقصورة ، وفكه يرتجف ، وقبعته فى يده ، وقطرات العرق تقطر من صلعته الرمادية .

قال فى يأس :

– افعلوا ما تشاؤون ايها السادة الرفاق ، فانا مستعد لكل شىء . . . لن انقلكم ابعد من ذلك . . انه موت محتم . . .

القى خفيدين وتليغين الورق ، وخرجا الى سطح الباخرة . فى الضفـة اليسرى الى الامام كانت انوار سيزران الكهربائية تشتعل متوقدة كالنجوم . وكانت سفينة ديزل ضخمة شديدة الاضاءة تسير ببطء بمحاذاة الشاطىء . وكانت العين المجردة تستطيع ان ترى على مؤخرتها علما ضخما هو علم القديس اندريه الابيض ، ومعالم مدافع مثيـرة ، وشخوص ضباط يتمشون على ظهر السفينة . . .

همس خفيدين :

– لا استطيع ان اتراجع ، يا رفاق . يجب المرور ، مهما كلف الأمر . علينـا ان نسير حتى باتروكى ، وهناك نقف ونفرغ حمولتنا . . .

وأمر بان ينزل جميـع البحارة الى اسفل الباخرة ويتاهب للقتال . ورفع على الصارية العلم الثلاثى الالوان . واضيئت الانوار المميزة . واخيرا لاحظ من فى السفينـة باخرة الجر . وصدرت

صفارات قصيرة تؤمرها بتخفيض السرعة . وارتفع صوت غليظ من الميكروفون هناك :

– لمن السفينة ؟ الى اين ذاهبة ؟

اجاب خفيدين :

– باخرة الجر «التاجر كالاشنيكوف» متجهة الى سامارا .

– لماذا تاخرتم فى اضاءة الانوار ؟

– خوفا من البلاشفة . – وانزل خفيدين الميكروفون ، وقال لتليغين بصوت خفيض : – لو كان لدىّ لغـم الآن . . . ارسلت فى طلبها من استراخان : ابعثوا الغاما . . . انهم قليلو الاكتراث من السوفييتيين . . .

بعد صمت اجابوا من السفينة :

– سيروا الى غايتكم .

لبس القبطان قبعتـه بيد مرتجفة . وكشر خفيدين وقلص عينيه ناظرا الى انوار السفينة . ثم بصق ، وذهب الى المقصورة ، حيث كسر اعواد ثقاب وهو يريد اشعال سيكارة .

صاح على تليغين :

– تعال ، واكمل ضرباتك ، يا عفريت !

وبعد ساعـــة صارت سيزران الى الخلف ، انزل تليغين فى قارب الباخرة بالقرب من باتراكى . وفى محطة باتراكى استقل قطار الساعة الثانية عشرة ، وفى الساعة الخامسة بعد الظهر نزل من محطة سامارا متجها الى شقة الدكتور بولافين . وقد عاد الى بزته المجعدة الممزقة بكتافيتى مقدم . سار يضرب على حذائه بنفس العصا التى ايقظ بها الانصار ليلا قرب خفالينسك ، ويقرأ فى طريقه بفضول شديد اعلانات المسارح ، والنداءات والاعلانات ، كشىء لم يره منذ زمان . وكانت كلها مكتوبة بلغتين : الروسية والتشيكية . . .

نهض دميترى ستيبانوفيتش بولافين رافعـا قدحا من شراب الليمون فى يده ، واخرج فوطة من صداره ، وحرك شفتيـه وقارا ، وبدأ كلامه بصوت معتبر عميق اتخذه فى المدة الاخيرة لمنصب نائب الوزير :

– ايها السادة ، اسمحوا لى ايضا . . .

كانت المادبة مقامة تكريما لممثلى المدينة بمناسبة المسيرة المظفرة لجيش الجمعية التاسيسية نحو الشمال . وكانت سيمبيرسك وقازان قد احتلتا . وتبين ان البلاشفة فقدوا حوض الفولغا الاوسط نهائيا . وبالقرب من ميليكس كانت فلول جيش الخيالة الاحمر ، وعددها ثلاثة آلاف وخمسمائة ، تستميت لتنفذ من الحصار . وفى قازان التى احتلهـــا التشيكيون بهجوم مباغت أُستولى على اربعة وعشرين الف بود من الذهب تبلغ قيمتهـا اكثر من ٦٠٠ مليون روبل – اى اكثر من نصف احتياطى الدولة من الذهب . وكانت هذه الحقيقة جسيمة وبعيدة جدا عن التصديق ، حتى ان العقول ما تزال غير مستوعبة كل عواقبها غير المحدودة .

كان الذهب فى طريقه الى سامارا . ولم يكن احد قد ادعى حقا فى ملكيته بعد ، الا ان التشيكيين قرروا ظاهريا تسليمه الى لجنة سامار لاعضاء الجمعية التاسيسية . كان لتجار سامارا رأيهم الخاص فى مصير هذا الذهب ، ولكنهم لم يعلنوه . وكانت المشاعر نحو التشيكيين المنتصرين قد وصلت الى ذروة الحماس .

كانت المادبة حافلة كثيرة الحضور والحركة . وكان الكابتن تشيتشيك قائد الجيش التشيكى وبطل الاحداث محاطا بباقة ضاحكة من سيدات مجتمع سامـــارا ، ومن بينهن كواكب مثل ارجانوفـــا وكورلينا وشيخوبالوفا ، مالكات الطواحين ذات الطوابق الخمسة وصوامع الحبوب وشركات البواخر ، واقضية كاملة من الاراضى السوداء الخصبة . سيدات متالقات باللآلىء بحجم البندق وفساتين ان لم تكن على الموضة كليا ، فانهـــا فى حينها قد استوردت من باريس وفينا . وكان تشيتشيك ، مثل كل الابطال ، بسيطا بشكل اخّاذ ومؤدبا . حقا ان جسمه البدين يستشعر شيئا من الحرارة ، والياقة الضيقة لسترته الحسنة الفصال منغرزة فى رقبته الحمراء ، الا ان وجهه الفتى المفعم بالدم بشاربيه الاصهبين القصيرين وعينيه اللامعتين كان يبدو وكانه يطلب قبلة تطبع على كلا خديه المتوردين . وكانت الابتسامة الساحرة لا تزايل شفتيه ، وكانما قد انكر على نفسه اى مجد ، وكان مجتمع السيدات امتع له بالف مرة من هدير

اهمية نقطة التحول لم يحسب لها الحساب الكافى ... وانا اقصد بذلك الستمائة مليون روبل ذهبى الموجودة الآن فى ايدينا ... (وقف شعر شاربى مسيو جانو ، وهتف : «برافو !» راجا القدح فى يده . وتوهجت عينا بيكولومينى كعينى الشيطان .) لقد انتزعت من البلاشفة الحمة الذهبية ، ايها السادة ... وهم ما يزالون قادرين على اللدغ ، ولكن ليس لدغا مميتا . فى امكانهم ان يهددوا ولكنهم لا يخيفون اكثر مما يخيف المتسول الذى يلوح بعكازته ... ولا ذهب عندهم الآن . لا شىء غير آلة طباعة ...

فتح بريكين التاجر من اومسك فمه فجأة وضحك من هذه الكلمات ضحكا عاليا ، وهو يمسح رقبته بفوطة متمتما : «آه ، قضايا ، قضايا ، يا ربى !»

وتابع الدكتور بولافين قوله ، وقد رن صوته رصينا واثقا ، وهو أمر لم يكن من قبل :

— ايها السادة الممثلون الاجانب ، ايها السادة الحلفاء ... الصداقة صداقة والفلوس فلوس ... بالامس كنا بالنسبة لكم منظمة اوبرا كوميدية تقريبا ، تشكيلا موقتا ، مثل كدمة لا بد ان تخلفها ضربة ... (تعبس تشيتشيك ، وابدى مسيو جانو وبيكولومينى علامة استياء ... وتبسم دميترى ستيبانوفيتش ابتسامة ماكرة .) اليوم يعرف العالم كله اننا حكومة وطيدة . نحن حراس رصيد الدولة من الذهب ... الآن نستطيع ان نتفق ، ايها السادة الممثلون الاجانب ... (ونقر المائدة بانامله بغضب .) انا الآن اتكلم كفرد بين افراد فى دائرة ضيقة من الاصدقاء . ولكننى ارى مقدما كل جدية الافكار التى انطق بها ... انا اتشوق تحرك البواخر بالاسلحة والانسجة الى الموانىء الروسية ... ونهوض الجيوش البيضاء الجبارة ، وسيف العقاب الصارم ينزل على عصابة قطاع الطرق الذين يعيثون فى روسيا . وستمائة مليون تكفى لذلك ... ايها السادة الممثلون الاجانب ! نرجو تقديم العون الواسع السخى للممثلين الشرعيين للشعب الروسى !

ومس القدح بشفتيه وجلس مقطب الحاجب ناشجا بانفه . وصفق الجالسون حول المائدة تصفيقا حارا . وهتف التاجر بريكين :

— شكرا ، يا اخ ... هذا صحيح ، يا اخ ، هذا يتفق وافكارنا : الحياة بلا اشتراكية ...

نهض تشيتشيك ، ورفع حزامه على بطنه بحركة قصيرة :

— سأتكلم باختصار ... لقد قدمنا ونقدم حياتنا فى سبيل سعادة الروس ، اخواننا بالدم ... عاشت روسيا عظيمة جبارة ، هورا !

وهدرت المائدة كلها بعاصفة من التصفيق . وصفقت ايدى النساء بحرارة وسط الزهور . ونهض مسيو جانو . وكان رأسه مدفوعا الى الوراء بعظمة ، وقد اضفى شارباه الكتان نوعا من الرجولة على وجهه ، وقال :

— ايها السيدات والسادة ! كنا نعرف جميعا ان الجيش الروسى النبيل الحالم بمجد آبائه مخدوع بعصابة البلاشفة بشكل خبيث . وقد بثوا فيه الافكار المناهضة للطبيعة ، والغرائز الهمجية ، ولم يعد الجيش جيشا . ايها السيدات والسادة ، لا اخفى عليكم انه قد مر وقت كانت فرنسا مترددة فى اعتقادها باخلاص الشعب الروسى ... وقد انزاح هذا الكابوس ... واليوم نرى هنا اننا كنا على خطأ ، واى خطأ . ان الشعب الروسى معنا من جديد ... والجيش يعترف باخطائه ... والعملاق الروسى مستعد من جديد الى تعريض صدره لرصاص عدونا المشترك ... وانا سعيد فى ثقتى الجديدة ...

وعندما هذا التصفيق نهض بيكولومينى واهتزت كتافيتاه الكثيفتان . ولكن لما كان جميع الحاضرين لا يعرفون الايطالية ، فقد صدق الجميع بأنه معنا ، وتقدم التاجر بريكين من شخصه الاسمر الصغير وقبله . ثم القى ممثلو راس المال خطبهم . وتكلم التجار بشكل غامض منمق ، مشيرين على الاكثر الى سيبيريا ، من حيث يجب ان يأتى الخلاص ... واخيرا طُلب من الاتمان دوتوف ان يقول كلمة صغيرة . فاعترض قائلا : «لا ، انا عسكرى ، ولا اعرف كيف اتكلم ...»

ومع ذلك فقد نهض ثقيلا فى الصمت الذى خيم فى الحال ، وتنهد :

— يا سادة ! اذا ساعدنا الحلفاء فخير على خير ، واذا لم

يساعدوا فاننا سندبر امرنا مع البلاشفة بقوانا فى حال من الاحوال ... فقط ان تكون هناك فلوس ... وانتم ، يا سادة ، قدموا لنا العون المادى ...

وجار بريكين بحماس غامر :

– خذنا ، يا اتمان ، خذنا باحشائنا ، نحن لا نبخل بشيء .

ونجحت المادبة . وبعد الجزء الرسمى قدمت القهوة السوداء مع الكونياك الاجنبى والليكيور . وكانت الساعة متاخرة . وخرج دميترى ستيبانوفيتش على الطريقة الانجليزية ، اى دون ان يستاذن .

عندما وصل دميترى ستيبانوفيتش الى بيته فى سيارة فتح الباب الخارجى ، فتقدم منه ضابط بسرعة :

– اعذرنى ، هل انت الدكتور بولافين ؟

القى دميترى ستيبانوفيتش نظرة على الغريب . كان الشارع مظلما ، فلم يتبين غير كتافيتى المقدم . حرك الدكتور شفتيه واجاب :

– نعم ... انا بولافين .

– جئت اليك فى امر مهم جدا جدا ... انا افهم ان هذه الساعة ليست للزيارة . ولكننى جئت ودققت الجرس ثلاث مرات .

– غدا فى الوزارة من الساعة الحادية عشرة .

– ارجوك ، اليوم . ساغادر فى باخرة ليلية .

صمت دميترى ستيبانوفيتش مرة اخرى . كان فى الغريب شيء ملحاح مقلق الى اقصى حد . هز الدكتور كتفيه :

– احذرك اذا كان الأمر يتعلق بمعونة ، فان ذلك ليس من نطاق شؤونى .

– لا ، لا ، لا حاجة بى الى معونة .

– اذن ... ادخل .

اتجه دميترى ستيبانوفيتش من الباب الداخلى الى المكتب اولا ، وفى الحال اغلق الباب المؤدى الى الغرف الداخلية . فقد كان الضوء فيها ، والظاهر ان احدا من اهل البيت لم ينم بعد . ثم جلس الدكتور الى المكتب ، واشار على الزائر بالجلوس على كرسى

قبالته ، ونظر بجهامة الى اضمامة من الاوراق للتوقيع ، وشبك اصابعه .

– اية خدمة استطيع ان اؤديها ؟

ضم الضابط قبعته على صدره ، وقال برقة موجعة :

– اين داشا ؟

القى الدكتور راسه الى الوراء فاصطدم قفاه بظهر الكرسى . الآن فقط تفحص وجه الزائر . قبل عامين كانت داشا قد ارسلت اليه صورة فوتوغرافية لها ولزوجها . اذن ، فقد كان هو . شحب الدكتور فجاة ، وارتعش الانتفاخان تحت عينيه ، فاعاد السؤال بصوت مبحوح :

– داشا ؟

– نعم ، انا تليغين .

وشحب هو الآخر وهو ينظر فى عينى الدكتور . تمالك دميترى ستيبانوفيتش نفسه ، وبدلا من ان يحتفى احتفاء طبيعيا بصهره الذى كان يراه لاول مرة فى حياته ، رمى ذراعيه بحركة مسرحية ، واصدر صوتا غامضا ، وكانه مشروع ضحكة :

– اذن ... انت تليغين ... كيف انت ؟

ولا بد ان المفاجاة جعلته لا يقدم يده لايفان ايليتش . وضع نظارته الانفية على انفه (لم تكن نظارته السابقة المصدوعة ذات الاطار النيكلى ، بل نظارة معتبرة ذهبية) واسرع ، لسبب ما ، يفتح جرارات مكتبه الممتلئة بالاوراق .

تابع تليغين حركته مندهشا غير فاهم شيئا . وقبل دقيقة كان مستعدا لأن يقص عليه كل شيء عن نفسه باعتباره قريبا ، ابا ... وفكر الآن : «الشيطان يعلم ، ربما اكتشفنى ... وربما اضعه فى موضع حرج . فهو وزير ، على كل حال ...» انزل راسه ، وقال بصوت خافت تماما :

– دميترى ستيبانوفيتش ، انا لم أر داشا منذ اكثر من نصف عام ، ولا تصل رسائل ... لا اعلم ماذا جرى لها .

– تعيش ، تعيش ، وبخير !

قال الدكتور ، وهو ينحنى الى الارض حتى الجرارات السفلى من مكتبه .

– انا فى جيش المتطوعين ... احارب البلاشفة منذ شهر آذار ... والآن اوفدتنى القيادة الى الشمال فى مهمة سرية .

استمع دميترى ستيبانوفيتش وعلى وجهه تعبير وحشى للغاية ، ولكن ابتسامة ساخرة سرت فى شاربيه فجاة حين سمع «مهمة سرية» :

– اذن فى اى فوج تخدم ؟

– فى فوج سولداتسكى .

واحس تليغين بان الدم يتدفق فى وجهه .

– اها ... اذن ، يوجد مثل هذا الفوج فى جيش المتطوعين .. هل ستمكث عندنا كثيرا ؟

– ساغادر الليلة .

– رائع . والى اين بالذات ؟ اعذرنى ، هذا سر عسكرى ، فلا اصر ... بعبارة اخرى فى شؤون استخبارات ؟

ورن صوت دميترى ستيبانوفيتش رنينا غريبا حتى ان تليغين جفل وتحفز ، رغم قلقه الشديد . الا ان الدكتور وجد فى تلك اللحظة ما كان يبحث عنه .

– زوجتك فى صحة جيدة ... خذ ، اقرأ ما تسلمته منها فى الاسبوع الماضى ... وفيه ما يخصك ايضا (القى الدكتور امام تليغين بعض الاوراق المكتوبة بخط داشا الكبير . وطافت امام عينى تليغين هذه الكلمات الثمينة غير المتقنة شكلا) اعذرنى ، ساتركك لدقيقة . ولكن خذ راحتك .

خرج الدكتور مسرعا واغلق الباب وراءه . وكان آخر ما سمعه ايفان ايليتش كلماته التى رد بها على احد من اهل البيت .

– ... لا شىء ، زائر ...

سار الدكتور من غرفة الطعام الى دهليز صغير معتم ، حيث كان يوجد تلفون من طراز قديم . ووقف ووجهه الى الحائط وادار قبضة التلفون ، وطلب بصوت خافض رقم الاستخبارات ، ودعا الى التلفون سيميون سيميونوفيتش غفيادين شخصيا .

كانت رسالة داشا مكتوبة بقلم نسخ ، والحروف تتضخم بحجمها اكثر فاكثر كلما مضت فى الكتابة ، وسطورها تميل الى الاسفل :

«بابا ، لا اعرف ماذا سيحصل لى ... كل شىء مشوش ... وانت الشخص الوحيد الذى استطيع الكتابة اليه ... انا فى قازان ... يبدو اننى ساتمكن من الرحيل بعد غد ، ولكن هل ساصل اليك ؟ اريد ان اراك . ستفهم كل شىء . وسافعل ما تنصحنى به ... لقد بقيت حية بمعجزة ... لا ادرى ربما كان من الخير الا اعيش بعد الذى حصل ... كل ما قالوه لى ، وأوحوا به الىّ كذب ، وحقارة عارية نتنة ... وحتى نيكانور يوريفيتش كوليتشيك ... قد وثقت به وجئت الى موسكو بتحريض منه . (سارو ى عند لقائنا بالتفصيل .) حتى كوليتشيك اعلن لى يوم امس بالحرف الواحد : «الناس يرمون بالرصاص ، ويدفنون فى الارض اكواما ، وقيمة الانسان رصاصة من بندقية ، والعالم غارق بالدم . بينما يجب ان اجاملك . ان آخرين لا يقولون حتى ذلك ، بل ياخذون المرأة للفراش رأسا» . وقد قاومت ، يا ابى ، ثق بى ... لن استطيع ان اكون مجرد طُعْم بعد قدح من الخمرة . فلو اعطى هذا الذى هو آخر ما تبقى لدىّ فان النور سينطفىء فى عينى ، وساعلق نفسى فى حبل . حاولت ان اكون نافعة . فى ياروسلافل عملت ثلاثة ايام تحت النيران كممرضة اسعاف ... وفى الليل سقطت على الفراش ويدى وثيابى ملطخة بالدم ... واذا باحدهم يوقظنى . ويحاول ان يرفع تنورتى . فاقفز ، واصرخ . انه صبى ، ضابط ، لن انسى وجهه ابدا ! ويشتد جنونه ، ويسقط علىّ ، ويلوى يدىّ صامتا ... الخسيس ! يا ابى ، وارميه بطلقة من مسدسه . لا اعرف كيف حصل هذا ... يبدو لى انه سقط ، لم اره ، لا اتذكر ... واخرج راكضة الى الشارع . حريق . المدينة كلها تحترق ، القذائف تتفجر ... كيف لم اصب بالجنون فى تلك الليلة ! عندئذ عزمت على الهروب ، الهروب ... اريد ان تفهمنى ، تساعدنى ... اريد ان اهرب من روسيا . وعندى امكانية ... ولكن ساعدنى على الانفصال عن كوليتشيك . انه

يلاحقنى فى كل مكان ، اى يجرنى خلفه فى كل مكان ، وفى كل ليلة يحدثنى نفس الحديث . ولكن ، لن اريد ذلك ولو يقتلنى . . .»

وتوقف ايفان ايليتش عن القراءة ، وتنفس ، وقلب الصفحة ببطء :

«بالمصادفة وقعت فى يدى مجوهرات كبيرة . . . لقد رأيت بأم عينى شخصا يسحقه الترام عند بوابة نيكيتسكيه . مات بسببى ، وانا اعرف ذلك . . . وعندما افقت من الاغماءة رأيت فى يدى حقيبة من جلد التمساح : لعل احدهم دسها فى يدى حين انهضونى . . . وفى اليوم التالى فقط تملكنى الفضول ، وفتحت الحقيبة ووجدت فيها حلى من الالماس واللؤلؤ . وهذه الاشياء قد سرقها ذلك الشخص من مكان ما . . . وكان ذاهبا للقاء معى . . . افهمت ؟ سرقها من اجلى . . . بابا ، انا لا احاول ان ادخل فى تفسيرات قانونية . . . لقد ابقيت هذه الاشياء عندى . . . وفيها الآن خلاصى الوحيد . . . ولكن اذا ثبت لى اننى لصة ، فاننى سأبقيها معى على اية حال . . . تتملكنى الرغبة فى الحياة بعد ان رأيت الموت بهذه الكثرة . . . لم اعد اؤمن بصورة الانسان . . . ان اولئك الرجال الطيبين ذوى الكلمات الرنانة الرائعة عن انقاذ الوطن ، ما هم الا اوغاد ، وحوش . . . آه ، ما اكثر ما شاهدت ! عليهم اللعنة ! واقول ان ما حصل كالآتى : زارنى نيكانور يوريفيتش زيارة مفاجئة فى ساعة متأخرة من الليل ، يبدو انه جاء من بتروغراد مباشرة . . . وطلب ان اغادر موسكو معه . وتبين ان منظمتهم «اتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» قد كشفت من قبل اللجنة الاستثنائية ، واعتقل كثير من اعضائها فى موسكو . وهرب سافينكوف وجميع اركانه الى الفولغا . وكان عليهم ان يقوموا بانتفاضة هناك فى ريبينسك وياروسلافل وموروم . وكانوا على عجالة شديدة فى ذلك . فان السفير الفرنسى لم يعد يعطيهم اية نقود ، وطالب بان يثبتوا قوة منظمتهم بالفعل . وكانوا يأملون بأن جميع الفلاحين سينحازون الى جانبهم . وقد اكد نيكانور يوريفيتش ان ايام البلاشفة معدودة ، وكان يجب على الانتفاضة ان تشمل الشمال كله ، وشمال الفولغا كلها ، وتتحد مع

التشيكوسلوفاكيين . واكد كوليتشيك ان اسمى وجد فى قوائم المنظمة ، وان البقاء فى موسكو خطر ، فرحلت معه الى ياروسلافل .

وكان كل شىء معدا هناك : كان جميع الرؤساء فى القوات ، فى الميليشيا ، فى الترسانة من رجال منظمتهم . . . ووصلنا فى المساء ، وفى الفجر استيقظت على اصوات طلقات . . . فهرعت الى النافذة . . . وهى تطل على الفناء ، ومقابلها جدار آجرى لكراج ، وكومة قاذورات ، وبعض الكلاب تنبح فى البوابة . . . ولم تتكرر الطلقات ، وهدأ كل شىء . . . الا فى البعيد ، فقد ترامى صفير موتوسيكلات وهدير محركاتها . . . ثم بدأ قرع الاجراس فى المدينة ، فى كل الكنائس . . . وفتحت البوابة فى فناء بيتنا ، ودخلت جماعة من الضباط ، يضعون الكتافيات . والاضطراب مرتسم على وجوههم كلها ، وهم يلوحون بالاسلحة . وكانوا يسوقون شخصا بدينا حليقا فى سترة رمادية ، بلا قبعة ولا ياقة ، وصداره غير مزرر . وكان وجهه أحمر حانق . ضربوه على ظهره ، فاهتز رأسه من جانب الى آخر ، وبدا عليه الغضب الشديد . بقى اثنان يمسكانه عند الكراج ، وابتعد الآخرون ، وتشاوروا . وفى تلك اللحظة خرج من المدخل الخلفى لبيتنا العقيد برخوروف رئيس جميع قوات الانتفاضة المسلحة . . . وكنت اراه لاول مرة . ادى الجميع التحية العسكرية له . انه رجل ذو ارادة جبارة – عينان سوداوان غائرتان ، ووجه نحيل ، وقامة منتصبة ، ويداه مقفزتان ، وفى احداهما عصا . وادركت فى الحال : انه الموت لصاحب السترة الرمادية . اخذ برخوروف ينظر اليه من تحت حاجبيه ، ورأيت اسنانه تتكشف فى غل . اما الرجل فظل يشتم ويهدد ويطالب . عندئذ هز برخوروف رأسه ، واصدر أمره ، وانصرف فى الحال . قفز الاثنان اللذان كانا يمسكان بالرجل البدين . . . فخلع الرجل سترته عنه ، ولفها ، والقاها على الضباط الواقفين امامه فوقعت فى وجه واحد منهم تماما – وظل يحمر وهو يلعنهم . وهز قبضتيه ، ووقف فى صداره المحلول ضخما هائجا . عند ذاك اطلقوا الرصاص عليه . اهتز بكل جسمه مادا يديه الى الامام ، وخطا ، ووقع . وظلوا يطلقون الرصاص عليه بعض الوقت ، وهو مطروح . لقد كان ذلك المفوض البلشفى ناخيمسون . . . لقد رأيت اعداما ، يا ابى ! والآن لن انسى مدى

الحياة كيف تشبث فى الهواء . . . واكد لى نيكانور يوريفيتش ان ذلك شيء جيد ، فان لم يقتلوه لقتلهم هو . . .

وما حصل فيما بعد لا اتذكره بشكل جيد : ان كل ما حصل كان استمرارا لهذا الاعدام ، كل شيء كان مشبعا بارتعاشات جسد انسان ضخم لم يرد الموت . . . طلبوا منى ان اذهب الى بناية صفراء طويلة ذات اعمدة ، وفيها صرت اطبع على الآلة الكاتبة الاوامر والنداءات . وانطلقت الموتوسيكلات ، وثار الغبار . . . ودخل اناس مستثارون ، وغضبوا ، وامروا . وكانوا يتصايحون على كل شيء ، ويمسكون رؤوسهم . ما بين فزع وآمال مبالغ بها . ولكن حين كان برخوروف يحضر بعينيه القاسيتين ، ويلقى كلمات قصيرة يهدأ كل اللغط . وفى اليوم التالى سمعت طلقات مدفعية وراء المدينة . كان البلاشفة قادمين . كان اهل المدينة يتجمهرون فى دائرتنا من الصباح حتى الليل ، فاذا بها تفرغ فجأة . وبدت المدينة كالميتة . الا سيارة برخوروف تهدر وهى منطلقة بـه ، والفصائل المسلحة تمر . . . كانـــوا ينتظرون طائرات فيهـا فرنسيون ، وقوات من الشمال ، وبواخر محملة بالقذائف من ريبينسك . . . ولم تتحقق الآمال . واحاط بالمدينة طوق معركة . وانفجرت القذائف فى الشـوارع . . . وسقطت ابراج الاجراس القديمـــة ، وتهدمت البيوت ، وشبت الحرائق فى كل مكان ، ولم يكن احد ليطفئها ، وغطى الدخان وجه الشمس . وحتى جثث القتلى بقيت فى الشوارع . واتضح ان سافينكوف اقام مثل هذه الانتفاضة فى ريبينسك ، حيث كانت مخازن المدفعية . الا ان الجنود قمعوا الانتفاضة ، وكما ان القرى المحيطة بياروسلافل لم تبد اى استعداد للمساعدة ، وان عمال ياروسلافل لم يريدوا الجلوس فى الخنادق ، ومحاربـــة البلاشفة . . . وكان افظع الاشياء وجه برخوروف – كنت التقى به فى كل مكان فى هذه الايـــام . – انه الموت يتجول فى سيارة بين خرائب المدينة . وكل ما حصل كان يبدو تجسيما لارادته . ابقانى كوليتشيك عدة ايام فى سرداب . ولكننى اشعر بذنبى ايضـا فى كل شيء ، يا ابى . لو بقيت فى السرداب لجننت . ارتديت منديلا عليه علامة الصليب ، وعملت حتى الليلة التى حاولوا فيها اغتصابى . . . وقبل سقوط ياروسلافـــل بيوم واحد هربنـــا ، نيكانور

يوريفيتش وانا ، فى قارب الى ما وراء الفولغا . . . وسرنا اسبوعا كاملا متخفين عن الناس . وكنا نقضى الليل تحت اكوام الدريس ، ومن حسن الحظ ان الليالى كانت دافئة . وقد تهرأ حذائى ، ودميت قدماى . وقد حصل نيكانور يوريفيتش على حذاء لبادى لى من مكان ما ، ربما سرقـه من على سياج . ولا اتذكر فى اى يوم رأينا فى غابـة بتولا رجلا يرتدى معطفا ممزقا ، ونعلين من الليف ، وقبعة مهلهلة . كان يسير جهما سريعا وباستقامة ، كالمعتوه ، معتمدا على عصا . لقد كان ذلك برخوروف ، وقد هرب هو ايضا من ياروسلافل . فزعت منـــه حتى اننى انبطحت فى العشب . . . ثم وصلنـــا الى كوستروما ، ونزلنا فى بيت عند موظف يعرفه كوليتشيك ، وعشنا هناك حتى استـــولى التشيكيون على قازان . . . وكان نيكانـــور يوريفيتش يعتنى بى دائما كمـــا يعتنى بطفل . وانا اشكره على ذلك . . . ولكن الذى حدث انـــه رأى المجوهـــرات ، ونحن فى كوستروما – كانت ملفوفـــة فى منديل جيب فى محفظتى التى كانت يحملها فى جيب سترتـــه طوال الطريق . ولم اتذكرهـــا الا فى كوستروما . واضطررت ان اروى له الحكاية كلها ، وقلت اننى اعتبر نفسى مجرمة بضميرى . فطلع بهذا الخصوص بنظرية فلسفية كاملة ، منتهيـــا الى اننى لست مجرمة بل رابحة بطاقة نصيب للحياة . ومنذ ذلك الحين تغير سلوكه نحوى ، وصار معقدا جدا . كما اثر ايضا اننا كنا نعيش فى بيت ريفى حياة نقية هادئـــة ، ونشرب الحليب ، ونأكل عنب الثعلب وتوت العليق . وقد زاد وزنى . وذات مرة بعد الغروب ، وكنا فى الحديقة ، اخذ يتحدث عن الحب بشكل عـــام ، واننى قد خلقت للحب ، واخذ يقبل يدى . وشعرت بانه لا يشك فى اننى سأستسلـم له بعد لحظـة على تلك المسطبة تحت الاقاسيـــا . . . وهذا بعد كل ما حصل ، أتفهم ، يا بابا ؟ لكى لا اشرح له كل شيء قلت له شيئا واحدا : «لن يحصل بيننا شيء ، فانـــا احب ايفان ايليتش» . ولـــم اكن كاذبـــة ، يا بابا . . .»

اخرج ايفان ايليتش المنديل ، ومسح وجهه ، ثم عينيه ، وتابع القراءة :

«انا لم اكذب . . . انا لم انس ايفان ايليتش . فلـم ينته

كل شيء لى معه بعد . . . انت تعرف اننا افترقنا فى آذار . غادر الى القفقاس للالتحاق بالجيش الاحمر . . . انه آمر قدير ، بلشفى حقيقى ، رغم انه ليس حزبيا . . . وقد انقطعت علاقتنا ، الا ان الماضى يربطنا ربطا قويا . . . ولم اقطع الماضى . . . اما كوليتشيك فقد عالج الأمر ببساطة كبيرة : استلقى لننام سوية . . . آه ، يا بابا ، ان ما كنا نسميه حبا فى وقت من اوقات ليس الا حماية للنفس . . . اننا نخشى النسيان والتحطيم . . . وهذا السبب فى ان النظر الى عينى مومس فى الليل شيء مرعب . . . انها ليست الا ظل امرأة . ولكن انا ، انا حية ، واريد ان أحب ، وان أذكر ، اريد ان ارى نفسى فى عينى المحب . واحب الحياة . . . ولو تملكتنى رغبة للحظة فى الاستسلام ، لوقعت فى اسر تلك اللحظة . . . ولكننى الآن لا اشعر بغير الغيظ والنفور والرعب . . . فى الفترة الاخيرة حصل شيء فى وجهى ، فى قوامى ، ازددت جمالا . . . وانا الآن كالعارية ، وفى كل مكان عيون جائعة . . . اللعنة على الجمال ! . . ابى ، ارسل لك هذه الرسالة لكيلا يقال شيء ، حين نلتقى . . . لم اتحطم بعد ، فافهمنى . . .»

رفع ايفان ايليتش رأسه . سمع وقع خطوات حذرة وهمسا لعدة اشخاص وراء الباب المؤدى الى الرواق . وادير مقبض الباب . قفز سريعا ، ونظر الى النوافذ . . .

كانت نوافذ شقة الدكتور غير عالية عن الارض ، على طريقة مدن الاقاليم . وكانت النافذة الوسطى مفتوحة . وثب تليغين اليها . كان ظل انسان يستلقى طويلا كالفرجار ، وظل آخر اطول خارج منه هو ظل بندقية .

كل ذلك حدث فى جزء من الثانية . ادير مقبض الباب الداخلى ، ودخل الى غرفة المكتب دفعة واحدة رجلان فى هيئة اعتيادية متلاصقين كتفا بكتف ، يرتديان قبعتين لهما حافتان ناتئتان ، وقميصين مطرزين . والى الخلف منهما لاح وجه غفيادين الاصهب اللحية الشاحب . وكان اول ما رأى تليغين حين اندفعوا الى الحجرة ، ثلاث فوهات لثلاثة مسدسات مصوبة نحوه .

وقد حدث ذلك فى الجزء التالى من الثانية . وادرك وهو العسكرى الخبير ان التراجع امام خصم قوى سليم تصرف غير

حكيم . نقل مسدسه «البراونينغ» الى اليد اليسرى ، وانتزع من حزامه تحت السترة قنبلة يدوية صغيرة لفت عليها رسالة غيمزا ، وتدفق الدم الى وجهه ، وهتف بصوت حاد متوتر :

– القوا السلاح !

وكان هذا الهتاف مفهوما للغاية ، كما ان هيئة ايفان ايليتش كلها كانت مهيبة جدا حتى ان الرجلين ارتبكا ، وتراجعا قليلا الى الوراء . وتنحى ذو الوجه الشاحب جانبا . ان ثانية اخرى قد كسبت . . . رفع تليغين القنبلة اليدوية فوقهم :

– القوا . . .

وهنا حصل ما لم يتوقعه احد من الحاضرين ولا سيما تليغين . . . بعد صيحته الثانية مباشرة ارتفعت صرخة سقيمة ، صوت نسائى فى ذعر بالغ صادر من وراء الباب من خشب الجوز الواصل بين غرفة المكتب والغرف الداخلية . . . وانفتح الباب ، ورأى تليغين عينى داشا المتسعتين واصابعها الرقيقة متشبثة بعضادة الباب ، ووجهها النحيل المرتعش كله انفعالا :

– ايفان ! . .

وظهر الدكتور بالقرب منها ، وامسكها من جنبيها ، وجرها ، وصفق الباب . . . وكل ذلك بدل خطفا خطط تليغين الهجومية الدفاعية . . . اندفع نحو الباب من خشب الجوز ، ودفعه بكتفه بكل قوته ، وفرقع الباب ، وهرع الى غرفة الطعام . . . كان ما يزال يمسك فى يده سلاح القتل . . . كانت داشا واقفة عند المائدة ممسكة عند الرقبة بطيتى روبها المخطط ، وحنجرتها متحركة ، وكأنها تبتلع شيئا (وقد لاحظ ذلك باشفاق شديد .) تراجع الدكتور ، وكان مذعور المظهر اشعث الشعر .

– النجدة ! غفيادين !

فح بصوت مدحور . ركضت داشا هارعة الى الباب من خشب الجوز ، وادارت المفتاح فيه :

– يا آلهى ، ما افظع ذلك !

الا ان ايفان ايليتش فهم كلماتها بشكل آخر : فظيع حقا ان يهرع الى داشا ومعه هذه الاشياء . اسرع فى وضع المسدس والقنبلة اليدوية فى جيبه . عندئذ امسكت داشا يده قائلا «لنذهب» . وجذبته

الى الدهليز الصغير المظلم ، ومنـه الى غرفة ضيقـة ، حيث كانت تشتعل شمعة على مقعد . كانت الغرفة عارية ، ليس فيها غير تنورة داشا معلقة من مسمار ، وسرير حديدى عند الجدار عليه مفارش مجعدة .

همس تليغين :

– انت هنا وحدك ؟ قرأت رسالتك .

وتلفت ، وارتجفت شفتاه المنفرجتان عن ابتسامة . لم تجب داشا ، وجذبته نحو نافذة مفتوحة .

– اهرب ، اهرب حالا . فقدت صوابك ! . .

كان الفناء ُيرى من النافذة فى غير وضوح ، وظلال وسطوح المبانى النازلة الى النهر ، والى الاسفل انوار الرصيف النهرى . وكانت نسمة رطبة تهب من ناحية الفولغا وفيها رائحة مطر حادة . . . وقفت داشا ملامسة ايفان ايليتش بجسمها كله ، ورفعت وجهها المذعور ، وفتحت فمها قليلا . . . وتمتمت محدقة فى عينيه :

– اعذرنى ، اعذرنى . اهرب دون ابطاء ، يا ايفان .

وكيف ينتزع نفسه منها ؟ انغلقت دائرة الفراق الواسعـة . تخلص من الف موت ، وها هو ينظر فى الوجه الوحيد . انحنى وقبلها .

ولم تستجب له شفتاها الباردتان ، بل ارتعشتا فقط .

– لم اخنك . . . كلمة شرف . . . سنلتقى ، حين تتحسن الحال . . . ولكن اجر ، اجر . اتوسل اليك . . .

لم يحبها بهذه القوة ، حتى فى الايام الهانئـة فى القرم . امسك دموعه ، وهو يحدق فى وجهها :

– داشـا ، تعـالى معى . . . انت تفهمين . سأنتظرك وراء النهر . غدا فى الليل . . .

هزت راسها ، وتأوهت بيأس :

– لا ، لا اريد .

– لا تريدين ؟

– لا استطيع .

قال :

– حسنا ، فى هذا الحال سأبقى .

وتراجع الى الحائط . . . تأففت داشا ، ونشجت . . . وفجأة

اندفعت نحوه بحدة ، وامسكت يديه ، وعادت تدفعه نحو النافذة . فى الخارج صرف باب الفناء وهسهس رمل تحت اقدام حذرة . ضغطت داشا رأسها الدافىء بقوة على يدى ايفان ايليتش . . .

وقال لها ثانية :

– قرأت رسالتك ، فهمت كل شىء .

عندئذ كفت للحظـة عن جذبـه ، وطوقت عنقـه ، والصقت وجهها كله فى وجهه :

– انهم الآن فى الفناء . . . سيقتلونك ، سيقتلونك . . .

كان شعرهـا المتناثر يبدو اشقر فى ضوء الشمعـة . فبدت لعينى ايفان ايليتش فتاة صغيرة ، طفلة ، تماما كما تخيلها فى تلك الليلة ، حين كان مستلقيا فى حقل القمح جريحا قابضا على كومة من التراب فى قبضته ، مفكرا بقلبها الابى القلق الهش .

– لماذا لا تريدين ان تذهبى معى ، يا داشـا ؟ سيعذبونك هنا . فانت ترين اى اناس هؤلاء . . . مهما تكن المصائب سيكون من الافضل ان اكون معك . . . يا طفلتى . . . انت ، على اى حال ، معى فى الحياة والموت ، انت مثل قلبى الذى فى صدرى .

قال ذلك بخفوت وسرعـة من زاويته المعتمـة . القت داشا راسها الى الوراء ، ولم تترك يديه . وطفرت الدموع من عينيها .

– سأكون وفية لك حتى الموت . . . اخرج . . . افهمنى . انا لست التى تحبها . . . ولكن سأكونها .

ولم يعد يسمع شيئا آخر ، فقد اسكره فرح جنونى بدموعها ، بكلماتها ، بصوتها النابع من القلب . فضمهـا ضمـة قوية جعلت عظامها تفرقع . وهمس :

– حسنا ، فهمت كل شىء . وداعا .

ودفع بصدره الى افريز النافذة ، وبعد ثانية انسل من النافذة كالظل ، ولم يسمـع غير وقع اقدامـه الخفيف على سطـح الزريبـة الخشبى .

اخرجت داشا راسهـا من النافذة ، ولكن لا شىء كان يرى : ظلام ، وانوار صفراء صغيرة فى البعيد . وضغطت بكلتا يديها على موضع القلب من صدرها . . . لا صوت فى الفناء . . . ولكن ها هما شخصان يخرجان من الظل . وانحنيا ، وعبرا الفناء فى خط منحرف .

وصرخت داشا بصوت حاد رهيب جعل الشخصين يدوران فى عدوهما ويتوقفان . انهما على ما يبدو التفتا نحو نافذتها . وفى تلك اللحظة رات تليغين يتسلق حافة السطح الخشبى فى نهاية الفناء .

انطرحت داشا على وجهها على السرير . وبقيت بلا حراك . ثم نهضت بحركة مندفعة اخرى ، وتلمست نعلها الذى وقع من قدمها ، وركضت الى غرفة الطعام .

رأت فيها الدكتور وغفيادين واقفين على استعداد للقتال . الطبيب ممسك بمسدس صغير نيكلى ، وغفيادين بمسدس «ناغان» . اسرع الاثنان يسألان داشا دفعة واحدة : «كيف ؟ . .» ضمت قبضتها ، ونظرت نظرة مجنونة فى عينى غفيادين الصهباوين . وقالت هازة قبضتها امام انفه الشاحب :

– وغد ! سيرمونك فى الرصاص فى يوم ما . وغد !

ارتعش وجهه الطويل ، وازداد شحوبا ، وتدلت لحيته ميتة . ابدى الدكتور له اشارة ، الا ان غفيادين كان يرتعش بكل كيانه حنقا .

– لا تهزى قبضتك علىّ ، يا داريا دميترييفنا . . . انا لم انس بعد كيف تطاولت علىّ وضربتنى بنعلك على ما اذكر . . . اخفى قبضتك . . . وعلى العموم انصحك بان لا تزدرى بى .

قاطعه الدكتور مستمرا فى الوقت ذاته بالتأشير له ولكن بحيث لا تراه داشا :

– انت تضيع الوقت ، يا سيميون سيميونوفيتش .

– لا تقلق ، يا دميترى ستيبانوفيتش . لن يفلت تليغين منا . . .

صرخت داشا مندفعة نحوه :

– لن تجرأ ! (فاحتمى غفيادين بكرسى حالا .)

– سنرى : نجرأ ام لا . . . احذرك ، يا داريا دميترييفنا بان «شعبة الامن» مهتمة جدا بك شخصيا . . . وبعد حادث اليوم لن اتكفل بشىء . من الممكن ان يعترضك ازعاج .

قال الدكتور غاضبا :

– يبدو انك اخذت تلقى الكلام جزافا . هذا شىء زائد عن الحد . . .

– كل شىء يتوقف على العلاقات الشخصية ، يا دميترى ستيبانوفيتش . . . انت تعرف مراعاتى لك ، وميلى القديم نحو داريا دميترييفنا . . .

شحبت داشا فجأة . وتشوه وجه غفيادين كله من التكشيرة التى ظهرت عليه ، وكأنه انعكس فى مرآة مشوهة . تناول قبعته ، وخرج مصلبا علباءه لكيلا يبدو مضحكا من الخلف . قال الدكتور ، وهو يجلس الى المائدة :

– غفيادين هذا رجل مخيف .

سارت داشا فى الحجرة مطقطقة باصابعها . وتوقفت امام ابيها :

– اين رسالتى ؟

كان الدكتور يحاول ان يفتح علبة سكائره الفضية ، فأرسل نشيشا من خلال اسنانه ، وتناول سيكارة اخيرا ، ودعكها بين اصابعه السميكة التى ما زالت ترتجف .

– هناك . . . الشيطان يعرف . . . فى غرفة المكتب ، على البساط .

خرجت داشا ، وعادت فى الحال تحمل الرسالة ، وتوقفت امام دميترى ستيبانوفيتش ثانية . كان يحاول ان يشعل سيكارة ، الا ان اللهب كان يتراقص قرب نهاية السيكارة .

قال والقى عود الثقاب على الارض :

– لقد قمت بواجبى . (صمتت داشا .) يا عزيزتى ، انه بلشفى وفضلا عن ذلك فهو يتجسس . . . والحرب الاهلية ، كما تعلمين ، ليست قضية بسيطة ، وقد تقتضى التضحية بكل شىء . . . ولهذا اعطينا السلطة . والشعب لن يغفر الضعف . (اخذت داشا تمزق الرسالة الى مزق صغيرة فى غير عجالة ، وكأنها غارقة فى افكارها .) انه يأتى – وذلك واضح وضوح النهار – لكى يستقى منى ما يريد ، واذا سنحت الفرصة يقتلنى . . . هل رأيت كيف كان مسلحا ؟ بقنبلة . فى عام ١٩٠٦ رأيت بأم عينى كيف قتل حاكم المحافظة بلوك بقنبلة فى منعطف شارع موسكاتيلنايا . . . ليتك شاهدت ماذا تبقى منه – جثة بلا رأس وقطعة من لحية . – وارتعشت يدا الدكتور من جديد ، فالقى السيكارة التى لم تشتعل

وتناول اخرى ، وتابع قولـه : – منذ البدايـة لم احب صاحبك تليغين . لطيف انك قطعت علاقتك به . . . (وصمتت داشا على هذا الكلام ايضا .) بدأ بحيلة بدائية جدا . سأل اين انت . . .

– ان امسكه غفيادين . . .

– ليس من شك فى ذلك ، فان لغفيادين استخبارات ممتازة . . . لقد عاملت غفيادين معاملـة سيئة . . . انـه رجل كبير . . . والتشيكيون يقدرونه جيدا ، وفى القيادة ايضا . . . والفترة تقتضينا ان نضحى بالشخصى . . . لخير البلاد . تذكرين الامثلـة الكلاسيكية . . . وانت ابنتى ، اذا كان راسك محشوا بالخيالات – ضحك وسعل – فانه ليس راسا بليدا . . .

قالت داشا بصوت مبحوح :

– ان امسك غفيادين ايفان ايليتش ، فستفعل كل شىء لانقاذه .

القى الدكتور نظرة سريعة على ابنته ، ونخر من انفه . دعكت داشا مزق الرسالة بقبضتها .

– ستفعل ذلك ، يا ابى !

– لا – صاح الدكتور ضاربا المائدة بكفه – لا ! حماقة ! اتصرف لمصلحتك . . . لا !

– سيصعب عليك ذلك ، ولكن ستفعله ، يا بابا .

صرخ الدكتور :

– انت طفلة ، انت حمقاء ! تليغين وغد ومجرم ، ستحكم عليه المحكمة العسكرية بالرمى .

رفعت داشا راسهـا ، وتوهجت عيناها الرماديتان بشكل لا يطاق حتى ان الدكتور عقد حاجبيه ناخرا . رفعت قبضتها والاوراق المدعوكة فيها ، وكانها تهدد . وقالت :

– لو كان جميع البلاشفة مثل تليغين فانهم على حق .

– حمقاء ! . . حمقاء ! . . – ووثب الدكتور على قدميه محمرا مرتجفا ضاربا الارض – يجب ان يشنق البلاشفـة مـع صاحبك تليغين ! على جميع اعمدة التلغراف . . . ان تسلخ جلودهم وهم احياء !

الا ان طبع داشا كان ، على ما يبدو ، احدّ من طبع دميترى

ستيبانوفيتش . ولكنها امتقعت فقط ، وتقدمت منه تماما مثبتة فيه عينيها غير المحتملتين ، وقالت :

– وضيع ، ما هذه العربدة ؟ انت لست ابى ، بل شخصا مجنونا فاسدا !

والقت فى وجهه مزق الرسالة . . .

فى تلك الليلة استدعى الدكتـور الى التلفون فجرا ، ومن السماعة صدر صوت هادئ خشن بعض الشىء :

– احيطكم علما بأن جثتى غفيادين نائب رئيس الاستخبارات واحد مخبريه قد اكتشفتا توا قرب رصيف ساموليتسكايا ، وراء مخزن الطحين . . .

وعلقت السماعـة . فتح دميترى ستيبانوفيتش فمـه مبتلعـا الهواء ، وانهار قرب التلفون فى نوبة قلبية عنيفة .

١١

بعـد ان حطـم جيش سوروكين قوات دروزدوفسـكى وكازانوفيتش احسن قوات جيش المتطوعين ، غير الخطة الاولية فى الخروج الى ما وراء كوبان . وبدلا من ذلك تحول شمالا قرب قرية كورينيفسكايا ، وبدأ بالهجوم على محطة تيخوريتسكايا ، حيث يوجد مقر قيادة دنيكين .

ظلت المعركة الضارية محتدمة عشرة ايام . وقد اكتسح رجال سوروكين ، وقد حفزتهم النجاحات الاولى ، جميع العقبات امام محطة تيخوريتسكايا . ولاح الآن وكأن ما من شىء يستطيع ايقاف الزحف السريع . اسرع دنيكين بتجميع القوات المبعثرة فى كوبان . وكانت الضراوة من الشدة بحيث ان كل اشتباك كان ينتهى بقتال بالحراب .

الا ان تحللا قد اصاب جيش سوروكين بنفس هذا الاندفاع . واشتـد الخصام بين الافواج الكوبانية والافواج الاوكرانيـة . كان الاوكرانيون وجنود الجبهة القدامى يدمرون القرى الكوبانية الواقعة فى طريق الهجوم دون ان يفرقوا بين القرى المؤدية للبيض والقرى المؤدية للحمر .

وسادت البلبلة . كان اهالى القرى ينظرون بذعر الى الجحفل الزاحف من وراء نهاية السهب فى سحب من الغبار . كان دنيكين ، على

اقل تقدير ، يدفع ثمنا للعلف ، اما رجال سوروكين هؤلاء فلا يعرفون الا شيئا واحدا : ان يكتسحوا كل شيء . فكان الشبان يمتطون خيولهم وينضمون الى دنيكين ، والشيوخ مع النسوة والاطفال والماشية ينزلون الى الوهاد المنخفضة .

وهبت قرى كاملة ضد جيش سوروكين . وكانت الافواج الكوبانية تصيح : «انهم يرسلوننا للقتل ، والاغراب ينهبون اراضينا !» وكان بيلياكوف رئيس اركان الجيش يدور بشدة فى دوامة الاحداث ، متلمسا رأسه ليتأكد من انه ما يزال بين كتفيه . ولا عجب ! فان الاستراتيجية قد ذهبت مع الريح . وكان كل التكتيك فى الحراب الحادة والضراوة الثورية . وحلت محل الضبط حركة عاصفة لا تكبح لمجموع القوات . وكان من الفظاعة النظر الى القائد العام الاعلى سوروكين ، فقد كان يتغذى على الكحول والكوكائين فى تلك الايام ، فكانت عيناه محتقنتين ، ووجهه مسودا ، وصوته مبحوحا ، يندفع كالممسوس فى المقدمة على اكتاف الجيش .

وحدث ما لا بد منه . فان جيش المتطوعين الذى مُرسه ضبط حديدى ، ويخضع ، كالآلة ، لارادة قيادة واحدة ، رغم اندحاره وتراجعه اخذ يتحول الى الهجوم المضاد مرة بعد اخرى متشبثا بكل قطعة ملائمة من الارض متخيرا الاماكن الضعيفة لدى الخصم ببرود واقتدار . وفى يوم ٢٥ تموز ، تفجر اليوم العاشر الاخير من المعركة بالقرب من فيسيلكى ، على بعد خمسين فرسخا من محطة تيخوريتسكايا .

كانت مواقع قوات دروزدوفسكى وكازانوفيتش اسوأ حتى من الايام السابقة . فقد استطاع الحمر هنا ان ينفذوا الى المؤخرة ،ووقع المتطوعون فى نفس الكيس الذى وقع فيه البلاشفة قرب بيلايا غلينا . ولكن جيش سوروكين لم يكن كما كان منذ تسعة ايام . فقد فترت الهمم ، وبثت صلابة العدو عدم الثقة والتشكك واليأس : فمتى يأتى النصر والراحة ؟

بعد الساعة الثالثة بعد الظهر انطلق جيش سوروكين بهجوم على طول الجبهة . وكانت الضربة قوية . وكانت المدافع تقصف فى كل مكان على طول الافق . وسارت الصفوف الكثيفة بقاماتها ، ولم تستلق . وبلغ التوتر ونفاد الصبر والضراوة ذروتها . . .

وبهذا الشكل بدأ هلاك جيش سوروكين . ابيدت الموجة الاولى من المهاجمين بالنار والحراب . واختلطت الموجات التالية تحت النار بين الجثث والجرحى والساقطين . وحين وقع ما كان من غير الممكن حسبانه ولا ادراكه ولا ايقافه : فجأة ارتخى التوتر . ولم يعد هناك ما يكفى من القوة والحماس .

واستمرت عزيمة العدو الباردة تنزل الضربات المحسوبة مضاعفة الارتباك . . . واخترق الافواج المرتبكة رجال ماركوف وفوج الخيالة من الشمال ، وخيالة ارديلى من الجنوب . وزحفت المدرعات النافثة للنار ، وتحركت قطارات البيض المصفحة . وعندئذ بدأ التراجع والهروب والذبح . وفى نحو الساعة الرابعة تغطى السهب كله بجيش سوروكين المتراجع جنوبا وغربا ، والمقضى عليه كقوة موحدة .

القى بيلياكوف رئيس الاركان قائد الجيش العام فى السيارة بالقوة . كانت عينا سوروكين المحمرتان جاحظتين ، وفمه مزبدا ، وكان ما يزال ممسكا بيده السوداء مسدسه الذى نفد رصاصه . انطلقت السيارة المثقبة بالرصاص المسحوقة بسرعة جنونية بين الجثث ، واختفت وراء التلال .

وتراجع الجزء الرئيسى من جيش سوروكين المهزوم الى يكاترينودار . والى هناك ايضا اخذ جيش تامان (المجموعة الغربية من القوات الحمراء) بقيادة كوجوخ يتراجع من شبه جزيرة تامان . وكانت جميع القرى فى طريق تقهقره تهب منتفضة ، وآلاف الاغراب يهربون – مع متاعهم وماشيتهم – تحت حماية جيش تامان خوفا من انتقام القوزاق . وقطعت خيالة الجنرال بوكروفسكى البيضاء طريق التراجع . وبفورة الحماس استطاع جيش تامان ان يحطمها ، ويبعثرها ، الا ان تراجعه نحو يكاترينودار لم يعد ممكنا على اية حال ، فاستدار كوجوخ بجيشه ومع قوافل اللاجئين بحدة نحو الجنوب ، الى الجبال المقفرة الوعرة آملا ان يشق طريقه الى نوفوروسييسك ، حيث كان اسطول البحر الاسود العائد للحمر .

الآن لم يعد شيء يوقف دنيكين . فبعد ان طهر الطريق بسهولة تقدم بكل قواته الى يكاترينودار التى كانت تحتلها فلول جيش شمال القفقاس الذى لم يعد له وجود ، واحتل المدينة بهجوم شديد خاطف .

وهكذا انتهت «الحملة الجليدية» التى بداها كورنيلوف قبل ستة اشهر بحفنة من الضباط .

واضحت يكاترينودار عاصمة البيض . وطهرت مناطق البحر الاسود الغنية بسرعة من كل عناصر الهياج والعصيان . واعاد الجنرالات الذين كانوا ، الى حين قريب ، 'يفلّسُون القمل من قمصانهم ، تقاليد الدولة العظيمة بنطاقها الامبراطورى القديم .

ان الطريقة العتيقة السالفة فى خوض الحرب عن طريق الحصول على السلاح والعتاد فى معركة او فى غارة على البلاشفة لم تعد ، بالطبع ، ملائمة للخطط الموسعة الجديدة . كانت هناك الحاجة الى المال ، والى سيل واسع من الاسلحة والذخيرة ، والى تهيئة التموين العسكرى لحرب كبيرة ، قواعد جبارة للهجوم على قلب روسيا .

فقد انتهى عهد الصراع المحلى الاهلى ، ودخلت الى اللعبة قوات خارجية جبارة .

وظهر امام القيادة العليا الالمانية خطر مفاجىء خاص عقب انتصارات دنيكين الاولى فى حزيران . كان البلاشفة اعداء مربوطى الايدى والاقدام باتفاقية برست ـ ليتوفسك . وظهر دنيكين كعدو لم يعرف بعد ولم يدرس . وبعد اندحار جيش سوروكين خرج دنيكين الى بحر آزوف ونوفوروسييسك ، حيث كان يوجد الاسطول الحربى الروسى كله منذ اوائل ايار .

ولم يكن الالمان محميين من ناحية البحر الاسود . وكانوا مطمئنين ما دام الاسطول فى ايدى البلاشفة ، فقد كانوا يردون على كل عمل عدائى من جانبه بعبور الحدود الاوكرانية . الا ان وقوع خمس عشرة مدمرة ومدرعتين فى يدى دنيكين كان يعنى خطرا جديا فى تحويل البحر الاسود الى جبهة للحرب العالمية .

فى العاشر من حزيران قدمت المانيا للحكومة السوفييتية انذارا نهائيا يقضى بان ينقل اسطول البحر الاسود كله خلال تسعة ايام من نوفوروسييسك الى سيباستوبول ، حيث كانت ترابط حامية المانية قوية . وهددت المانيا ، فى حالة الرفض ، بالهجوم على موسكو .

فى ذلك الحين كتب رئيس اركان القوات النمساوية المحتلة رسالة من اوديسا الى وزير الخارجية فى فينا :

«ان المانيا ترمى فى اوكرانيا الى هدف اقتصادى سياسى محدد . انها تبتغى ان تضمن لنفسها والى الابد طريقا آمنا الى ما بين النهرين والجزيرة العربية عن طريق باكو وفارس .

والطريق الى الشرق يمر فى كييف ويكاترينوسلاف وسيباستوبول ، ومنها يبدأ الاتصال البحرى بباطومى وترابيزوند .

ولهذا الهدف تنوى المانيا الابقاء على القرم لها كمستعمرة او باى شكل آخر . انهم لن يضيعوا من ايديهم ثانية شبه جزيرة القرم الثمينة . وفضلا عن ذلك ، ومن اجل الاستفادة الكلية من هذا الطريق يجب ان يكون لديهم خط حديدى رئيسى ، ولما كان تزويد هذا الخط والبحر الاسود بالفحم من المانيا غير ممكن ، فان من الضرورى لالمانيا ان تستولى على اهم مناجم الدونباس . وكل ذلك ستضمنه المانيا لنفسها بطريقة او بأخرى . . .»

حين سلم الانذار النهائى فى موسكو فى العاشر من حزيران حل لينين – دون تردد كما هو دائما – هذه المسالة الصعبة «غير القابلة للحل» بالنسبة للكثيرين . وكان الحل كالآتى : محاربة الالمان فى الوقت الحاضر ما تزال غير ممكنة ، ولكن تسليم الاسطول اليهم غير ممكن ايضا .

وغادر موسكو الى نوفوروسييسك ممثل الحكومة السوفييتية الرفيق فاخراميف . وفى حضور موفدين من اسطول البحر الاسود وجميع امراء السفن عرض الرد البلشفى الوحيد على الانذار النهائى : ان يرسل مجلس مفوضى الشعب برقية مفتوحة الى اسطول البحر الاسود يامره بالتوجه الى سيباستوبول ، والاستسلام الى الالمان ، ولكن اسطول البحر الاسود لا ينفذ هذا الامر ، ويغرق سفنه فى مرفأ نوفوروسييسك .

وكان الاسطول السوفييتى – المؤلف من مدرعتين وخمس عشرة مدمرة ،وغواصات وسفن مساعدة ، والمشلول بموجب معاهدة بريست ـ ليتوفسك – يرسو فى مرفأ نوفوروسييسك .

نزل موفدو الاسطول الى الساحل ، واستمعوا الى فاخراميف بوجوم ، فقد كان يعرض الانتحار . ولكن لا بد مما ليس منه بد . والطريق مسدود . فلم يكن لدى الاسطول فحم ولا نفط . كان الالمان يحجبون موسكو ، ودنيكين يقترب من الشرق ، وفى الطرقات

المائية تلوح منظارات الغواصات الالمانية فى اشرطة من الزبد ، وفى الازرقاق السماوى تلمع القاصفات الالمانية . وتناقش الموفدون طويلا وبحرارة . . . ولكن لم يكن ثمة غير مخرج واحد ، هو اغراق السفن . . . ومع ذلك فقد قرر الموفدون ، وهم امام هذا العمل الرهيب ، ان يطرحوا مصير الاسطول على تصويت جميع افراده .

وبدات فى مرفأ نوفوروسييسك اجتماعات عامة حضرها آلاف الناس . وصعب على البحارة ان يفهموا ، وهم ينظرون الى المدرعتين العملاقتين الفولاذيتين الرماديتين : «فوليا» و«سفوبودنايا روسيا» الراسيتين ، والى المدمرات السريعـــــــة الحركة المؤثلـــــــة بالمجد الحربى ، والى الابراج والصوارى المعقدة التشابك ، الشامخة فوق المرفأ ، فوق جماهير الناس – صعب عليهم ان يتصوروا ان ملك الثورة الرهيب هذا ، وطن البحارة العائم سيغطس الى قاع البحر دون ان يطلق رصاصة واحدة ، ودون ان يقاوم .

لـم يكن بحارة البحر الاسود رجـالا يمكن ان يقرروا تدمير انفسهم بهدوء بال . صرخ الكثيرون منهم بكلمات جنونية ، ودقوا الصدور ، وشقوا قمصانهم البحرية عن صدور موشمة ، ووطأوا باقدامهم قبعاتهم ذات الاشرطة . . .

وعلى طول السـاحـل ماجت جماهير غفيرة من البحـارة والجنود واهل الساحل الآخرين من الفجر حتى المساء ، حين ضرّج الغروب المياه الليلقية الكئيبة التى لم تعد لهم الآن ، مياه البحر اللعين .

وكان قادة السفن والضباط ينظرون الى الامر نظرة مغايرة : فان الجزء الكبير منهم كان يميل سرا الى الذهاب الى سيباستوبول ، والاستسلام للالمان ، واما الجزء الصغير برئاســــة قائـد المدمرة «كيرتش» الملازم الاول كوكيل فقد ادرك حتمية الهلاك ، واهميتها الهائلة برمتها بالنسبة للمستقبل . فكان يقول :

«يجب الانتحـار ، واغلاق سِفْر تاريـخ اسطول البحر الاسود لبعض الوقت دون تلويثه . . .»

وفى تلك الاجتماعات الهائلة الهائجة كالزوبعة كان يتخذ قرار فى الصباح وآخر فى المساء . وكان اكثر النجاح من نصيب الذين كانوا يلقون قبعاتهم على الارض ويصرخون :

«ايها الرفاق ، ليذهب الروس الى الجحيـــم ليغرقوا هـــم

انفسهم . اما نحن فلن نتخلى عن اسطولنا . سنحارب الالمان لآخر قذيفة . . .»

ويرتفع الهدير فى المرفأ : هورا !

وبدات بلبلة قوية بشكل خاص حين قدم من يكاترينودار قبل اربعـة ايام من انتهاء الانذار رئيس اللجنـة التنفيذيـة المركزيـة لجمهوريـة البحر الاسود روبين وممثـل الجيش بيربينوس ، وهو شخص عملاق ذو هيئة رهيبة يحمل فى حزامه اربعة مسدسات . وكانا يثبتان كلاهمـا – روبين بخطبـة مستفيضـة ، وبيربينوس بصوتـه الهادر وتلويحه بالسلاح – بانه لا تسليم الاسطول ولا اغراقه ممكن ، وان الذين فى موسكو لا يفهمون ماذا يقولون ، وان جمهورية البحر الاسود ستقدم للاسطول كل ما هو بحاجـة اليـه من نفط وقذائف ومواد غذائية كثيرة . وصرخ بيربينوس :

– ان امورنا فى الجبهة ماشية (واتبع ذلك ببعض اللعنات) وفى الاسبوع القادم سنغرق ابن الكلبـة دنيكين ورجالـه فى نهـر كوبان . . . فلا تغرقوا السفن ، يا اخوان . فنحن نحتاج فى الجبهة الى ان نشعر بان فى مؤخرتنا اسطولا جبارا . اما اذا اغرقتموها ، فانا اعلن باسم الجيش الثورى لكوبان والبحر الاسود كله اعلانا قاطعا باننا لن نطيق هذه الخيانة ، واننا من الياس سنوجـه اربعين الف حربة ضدكم ، وسنطعنكم بالحراب لآخر رجل ، يا اخوان . . .

وبعد هذا الاجتماع تخلخل كل شيء ، ودارت الرؤوس . واخذ البحارة يغادرون السفن على غير هدى . وتكاثرت فى الجمع عنـاصر مريبة كانت فى النهار تصرخ باعلى الاصوات : «لنحارب الالمان حتى آخر قذيفة» وفى الليل يقتربون جماعات من السفن نصف المهجورة مستعدين الى الاقتحام ورمى البحارة فى الماء ولينهبوا .

فى تلك الايـام عاد سيميون كراسيلنيكـوف الى المدمـرة «كيرتش» .

كان سيميون ينظف راس البوصلة النحاسى . كان البحارة جميعا يعملـون منذ الصبـاح كاشطين وغاسلين ومنظفين المدمرة الراسيـة على مقربـة من احد الحواجز . كانت الشمس الحارة تطلع فوق التلال الساحلية المسفوعة . . . وكانت الاعلام مرتخية فى الحر الساكن . كان سيميون يفرك القطعـة النحاسية بحماس محاولا الا

ينظر باتجاه المرفأ . كان البحارة ينظفون المدمرة قبيل هلاكها .

في المرفأ كانت المدرعة «فوليا» ترسل الدخان من مداخنها الهائلة . وكانت المدافع المكشوفة الاغطية تلمع في الشمس . وكان الدخان الاسود يتصاعد نحو السماء . وكان الخليج الصقيل يعكس في مياهه السفينة والدخان والتلال البنية مع مصانع الاسمنت عند سفوحها .

قرفص سيميون على عقبيه العاريتين ، وراح يفرك القطعة النحاسية . وكان في الحراسة في تلك الليلة ، وكان يشعر بالمرارة لدى التفكير في عبث مجيئه الى هنا ، وعدم الاستماع الى اخيه وماتريونا . . . سيضحكون منه الآن : «آه انك احسنت في محاربة الالمان . . . ختنم الاسطول ، يا اخوان . . .» فماذا يرد على ذلك ؟ يقول : نظفت «كيرتش» بيدي وصقلتها واغرقتها .

خرج من «فوليا» قارب بخاري ، واتجه نحو السفن ملوحا بالاعلام . رفعت المدمرة «ديرزكي» مرساتها ، وسحبت «بيسبوكويني» وجرتها ببطء الى المجرى الخارجي . تحركت وراءها المدمرات «بوسبشني» و «جيفوي» و «جاركي» و «غرومكي» سائرة على الماء الصقيل ببطء اشد وكانها مريضات .

ثم حدث توقف في الحركة . بقيت في المرفأ ثماني مدمرات . ولم تُلحظ فيها اية حركة . كانت كل الانظار الآن متجهة نحو جسم «فوليا» الفولاذي الضخم الرمادي الفاتح ذي الخطوط الصدئة على السطح . حدق البحارة فيها بعد ان القوا من ايديهم ممسحاتهم وخرقهم وخراطيم المياه . كان علم قائد الاسطول عميد البحرية تيخمينيف يرفرف بكسل على المدمرة «فوليا» .

كان البحارة على ظهر المدمرة «كيرتش» يتحدثون باصوات خفيضة وبقلق :

انظروا . . . «فوليا» ذاهبة الى سيباستوبول . . .

– يا اخوان ، أمعقول انهم اوغاد الى هذا الحد ! . . أمعقول انهم بلا ضمير ثوري ! . .

– لو تذهب «فوليا» فبمن يؤمن الانسان بعد هذا ، يا اخوان ؟ . .

– الا تعرف تيخمينيف ؟ عدو لدود . ثعلب ماكر !

– ذاهبة ! آه ، الخونة ! . .

وراء «فوليا» كانت ترسو المدرعة «سفوبودنايا روسيا» شقيقتها . الا انها كانت تبدو ناعسة هادئة ، وقد تغطت كلها بالاغلفة ، وما من شخص يُرى على ظهرها . اتجهت اليها من الساحل زوارق فيها اناس يجذفون بسرعة جنونية . وفي المرفأ الساكن الريح انطلقت صفارات عرفاء الملاحين وقرقعت الونشات على «فوليا» ، وصعدت الى فوق السلاسل المبللة ، والمراسي المغرينة . واخذ انف السفينة يستدير ، وتحركت الصواري المتشابكة والمداخن والابراج على خلفية سطوح المدينة المبيضة .

– ذهبوا . . الى الالمان . . . آه ، يا اخوان . . . تستسلمون للأسر ! . . اي شيء فعلتم ؟ . . .

خرج الى برج القيادة في المدمرة «كيرتش» قائدها ذو الانف الكبير المسلوخ في وجه سودته الشمس . وتابعت عيناه الغائرتان حركات «فوليا» . وانحنى من على برج القيادة . وأمر :

– ارفعوا اعلام الاشارة . . .

هتف البحارة بحيوية في الحال :

– سمعا ، اعلام الاشارة ترفع !

وانطلقوا الى الصندوق الذي فيه اعلام الاشارة . وارتفعت على صارية «كيرتش» اعلاما زاهية الالوان ، ورفرفت في السماء اللازوردية . وكانت تشكيلتها تعني :

«الى السفن المتجهة الى سيباستوبول . العار لخونة روسيا ! . .»

لم ترد «فوليا» عن الاشارة بالاشارة ، وكانها لم تلحظ شيئا . . . سارت «فوليا» بلا رجال مجللة بالعار منزلقة بين السفن الحربية التي بقيت محافظة على كرامتها . . . وفجأة صاح البحارة : «لاحظت الاشارة !» . ارتفع مدفعان ضخمان على برج المؤخرة ، واستدار البرج نحو المدمرة . . . امسك قائد «كيرتش» الدرابزين وهو على برج القيادة ، واتجه بانفه الكبير المقشر للقاء الموت . الا ان المدفعين تحركا ، وهدآ .

التفت «فوليا» حول حائل الامواج مزيدة سرعتها ، وسرعان ما اختفى جانبها الانوف وراء الافق لتظهر بعد سنوات عديدة في

بنزرت البعيدة مجردة من السلاح صدئة ملطخة بالخزى الى الابد .

اصر تيخمينيف قائد الاسطول على رأيه ، ونفذ الأمر الشكلى لمجلس مفوضى الشعب . استسلمت المدرعة «فوليا» وست مدمرات الى الذل فى سيباستوبول . وسرح بحارتها وضباطها .

وتفرق البحارة كل الى طيته ، الى بيوتهم ومواطنهم وقالوا ، بالطبع ، ان ايديهم لم تطاوعهم لاغراق السفن ، والاكثر من ذلك انهم ارتعبوا من الاربعين الف من جنود البحر الاسود الحمر الذين هددوا بطعن كل نوفوروسييسك بالحراب .

وبقيت المدرعة «سفوبودنايا روسيا» وثمانى مدمرات فى ميناء نوفوروسييسك . وفى اليوم التالى انتهى اجل الانذار النهائى . وحلقت الطائرات الالمانية عاليا فوق المدينة . وفى المجارى الخارجية ظهرت منظارات الغواصات الالمانية بين الدلفين القافز . وتردد ان الالمان اقاموا انزالا فى تيمريوك ، على مسافة غير بعيدة . اما فى ساحل نوفوروسييسك فظلت الاجتماعات العامة الصاخبة منعقدة ليل نهار ، وراح اشخاص مدنيون يصيحون بالحاح متزايد :

– يا اخوان ، لا تهلكوا انفسكم ، لا تغرقوا الاسطول . . .

– الضباط وحدهم يريدون اغراق الاسطول ، وجميعهم باعوا انفسهم لدول الوفاق . . .

– فى سيباستوبول القيتم الضباط فى الماء فى شهر كانون الاول ، فماذا تخافون الآن ؟ نظموا مذبحة ! . .

وكان احد الدعاة يتبع هؤلاء الصائحين مباشرة ، ويشق قميصه من صدره :

– يا رفاق ، لا تصغوا الى الاستفزازيين . لو سقتم الاسطول الى الالمان فانهم سيطلقون النار عليكم من هذه المدافع . . . لا تقدموا السلاح للامبرياليين . انقذوا الثورة العالمية ! . .

وعليك ان تشغل ذهنك لتعرف الى من تصغى ؟ ويحل محل الداعى جندى من يكاترينودار مدجج بالسلاح ، ويهدد ايضا بالاربعين الف حربة . . . وفى ليلة الثامن عشر من حزيران لم يعد الكثيرون من البحارة الى سفنهم : اختفوا ، وتفرقوا ، ولاذوا فى الجبال . . .

وطوال الليل ظلت المدمرة «كيرتش» تتكلم بالاشارات الضوئية . فردت «سفوبودنايا روسيا» بأنها من حيث المبدأ مستعدة

لاغراق نفسها ، الا انه لم يبق من بحارتها الالفين غير اقل من مائة ، ومن الصعب تشغيل البخار ، والابتعاد عن المرفأ .

واعلنت المدمرة «حاجى – بيه» ان اجتماعا صاخبا ما يزال جاريا عليها ، وجاءت فتيات من المدينة ومعهن كحول ، والظاهر انهن مدسوسات ، ومن الممكن ان تنهب السفينة . وفى المدمرة «كالياكيريا» لم يبق الا القائد وتكنيكى السفينة ، وفى «فيدونيسى» لم يبق غير ستة اشخاص . ووردت اشارات مماثلة من المدمرات «كابتن بارانوف» و«سميتليفى» و«ستريميتيلنى» و«برونزيتيلنى» . وبحارة «كيرتش» و«الليتنانت شيستاكوف» وحدهم هم الذين بقوا فى كامل طاقمهم .

وفى منتصف الليل تقدم زورق من «كيرتش» ، ونادى صوت جسور منه :

– ايها الرفاق البحارة . . . يتحدث اليكم مراسل جريدة «اخبار اللجنة التنفيذية المركزية» . . . وصلت برقية لتوها من موسكو من الادميرال سابلين تقول : لن يغرق الاسطول فى اى حال من الاحوال ، ولن يذهب الى سيباستوبول . انتظروا التعليمات التالية . . .

انحنى البحارة على الحاجز ، وحدقوا صامتين فى الظلام حيث كان الزورق يتأرجح . وظل الصوت يبرهن ويقنع . . . خرج الملازم الاول كوكيل الى برج القيادة ، وقاطعه :

– اطلعنى على برقية الادميرال سابلين .

– مع الاسف ، بقيت فى البيت ، يا رفيق . الآن استطيع ان اجلبها . . .

عندئذ قال كوكيل بصوت عال ممددا الكلمات لتكون مسموعة :

– ليبتعد الزورق مائة متر عن ميمنة السفينة . لا تقترب اكثر . . .

صاح الصوت من الزورق بلهجة وقحة :

– المعذرة ، يا رفيق . اذا انت لا تريد ان تسمع أمر المركز ، سابرق بذلك .

– فى حالة الامتناع ساغرق الزورق . ساصعدك الى السفينة . ولن اكون مسؤولا عن تصرف البحارة .

لم يرد من الزورق على ذلك . ثم جذفت المجاذيف بحذر . وغابت معالم الزورق فى الظلام . وضحك البحارة . وضع القائد يديه وراء ظهره ، وراح يذرع برج القيادة محدودبا نحيلا ، حائما كأنه فى قفص .

فى تلك الليلة لم ينم الا القليلون . استلقوا على ظهر السفينة مبللة بالندى ، وبين الحين والآخر كان راس يرتفع ويتفوه بكلمة ، وطار النوم من العيون ، وجرى الحديث باصوات خافتة . وشحبت النجوم ، وارتفع الفجر من وراء التلال . وجاء من الساحل ضابط الصف البحرى انينسكى قائد «الليتنانت شيستاكوف» واعلن ان البحارة يغادرون لا المدمرات وبواخر الجر والقوارب البخارية ، بل والسفن التجارية ولم يبق اى بحار ، وغير معروف كيف تسحب السفن الى المجارى الخارجية .

قال قائد «كيرتش» :

– يا ضابط الصف البحرى انينسكى . ان المسؤولية تقع على عاتقنا . سنغرق السفن مهما كلف الأمر .

هز ضابط الصف البحرى انينسكى رأسه . وران صمت . ثم انصرف . وعندما انتشر الشروق فوق الخليج ، ابتعدت «الليتنانت شيستاكوف» ببطء عن المرسى ساحبة وراءها «كابتن بارانوف» ، واخذت تجرها الى المجرى الخارجى ، الى مكان الاغراق . ورفعت المدمرات اعلام الاشارة على الصوارى :

«اهلك ولكن لا اسلم» .

وسرعان ما اختفت وراء الضباب الصباحى . وبدت السفن كلها الآن خاوية . وكانت طيور النورس تطير فوق العملاقة «سفوبودنايا روسيا» الفولاذية . وارسلت «كيرتش» دخانها . ورغم الساعة المبكرة من الصباح هرع الناس الى الساحل ، وماج حائل الامواج بنقاط سود كالذباب . وبدأ تزاحم بالقرب من السفن ، وصعد واحد فوق كتف الآخر ، وسقطوا فى الماء .

وكان سيميون كراسيلنيكوف واقفا فى الحراسة على معبر السفينة . وبعد الساعة الخامسة خرج من الجمع رجل قصير القامة محمر من الانفعال فى سترة سوداء بحرية بلا كتافيات وضرب سلم السفينة الاعلى بكعبيه . وكان وجهه المحمر عرقا بفمه الصغير الملتوى .

نادى على سيميون مبحلقا عينيه الزرقاوين المرحتين المدورتين فى البحار الذى سد عليه الطريق بحربة :

– هل الملازم الاول كوكيل موجود ؟

وتلمس جنبيه وصدره ، واخرج وقدم تفويضا يحمل اسم ممثل السلطة السوفييتية المركزية الرفيق شاخوف . انزل البحار الحربة مدلهم السحنة :

– تفضل ، يا رفيق شاخوف .

خف كوكيل للقائه ، واخذ يحدثه عن الوضع الميئوس تقريبا . وقد تكلم بالتفصيل وعلى مهل . وكان شاخوف يقلب عينيه بنفاد صبر :

– بسيطة . وقعنا فى اصعب من ذلك . . . لقد تحدثت الى البحارة . ان معنويتهم عالية . . . سأحصل لكم على باخرة الجر ، وكل ما هو ضرورى . . . وننظم اجتماعا . . . ، وندبر الامر كأحسن ما يمكن . . .

وطلب قاربا بخاريا ، وذهب به الى «سفوبودنايا روسيا» . ومن هناك اخذ يتنقل به من سفينة الى اخرى . وقد رأى سيميون جسمه القصير يتدلى من سلالم البواخر التجارية ، ثم رآه ينزل الى البر ، ويغيب فى الزحام ، حيث ارتفعت صيحات ، وارتفعت ايد . وفى احد الاماكن ارتفعت آلاف الحناجر بـ «هورا» .

غادرت الرصيف بضعة قوارب محملة بالبحارة ، وتوغلت فى المرفأ الى باخرة صغيرة صدئة ، وسرعان ما خرج من مدخنتها دخان كثيف ، ورفعت مرساتها ، واتجهت نحو «سفوبودنايا روسيا» . ولمع شراع فى قارب . استدارت «الليتنانت شيستاكوف» وسحبت المدمرة الثانية .

فى نحو الساعة العاشرة ازدحم الجمهور عند معبر «كيرتش» . وبدا المزاج ينقلب الى اسوأ . شق بعض الاشخاص المهلهلى الثياب طريقهم الى حاجز المدمرة ، وكان لدى كل واحد سجق وخبز وشحم خنزير . كشروا عن اسنانهم ، وغمزوا للبحارة مظهرين زجاجات من الكحول . عند ذاك امر كوكيل برفع المعبر ، والاقلاع . ابتعدت «كيرتش» عن تلك المغريات اللعينة الى وسط المرفأ ، ومن هناك راقبت سحب المدمرات .

واخيرا استطاعت الباخرة الصدئة التى بدت كالقشرة الفارغة
ان تسحب «سفوبودنايا روسيا» لاهثة نافثة الدخان ، فمرت بعظمة
بآلاف المشاهدين . وخلع الكثيرون اغطية رؤوسهم ، وكانهم
يشيعون جنازة . ومرت «سفوبودنايا روسيا» بالطوافات والبوابة
والمرفأ ، وتوغلت فى اعماق المجرى الخارجى . وكان الناس يتوقعون
الطائرات الالمانية مرة اخرى الا ان السماء والبحر كانا هادئين . ولم
تبق فى المرفأ الا المدمرة «فيدونيسى» .

وبدأ الاضطراب فى الحشد من جديد ، وتجمعت نقاط الرؤوس
السوداء على الرصيف الذى ترسو فيه «فيدونيسى» . تقدم منها
قارب بمحرك وشراع ليسحبها . قذف الجمهور القارب بالحجارة ،
وانطلقت عدة طلقات من مسدس . صاح رجل اشيب الرأس بعد ان
صعد على عمود كهربائى :

— يا قاتلى اخوتكم ، خنتم روسيا . . . خنتم الجيش . . . يا
اخوان ! . . ماذا تنتظرون ؟ . . يبيعون آخر اسطول . . .

وهاج الحشد قالعين الحجارة . قفز بعض الاشخاص من فوق
حاجز «فيدونيسى» . عندئذ تقدمت «كيرتش» من الساحل مسرعة ،
ودق جرسها دقة التهيؤ للقتال ، واستدارت المدافع نحو الجمهور ،
وصاح قائدها فى المكرفون :

—الى الوراء ! ساطلق النار !

تراجع الجمهور ناكصا باعقابه ، وتصايح الذين ديسوا . وتعالى
غبار ، واقفر الساحل ، اسرع القارب الى الرصيف ، وسحب
«فيدونيسى» .

تبعتها «كيرتش» ببطء الى حيث كانت جميع السفن تتراجع على
المجرى الخارجى تارجحا خفيفا . نظر سيميون الى طيور النورس
المحلقة عاليا فوق الجزء الخلفى من السفينة ، ثم اخذ ينظر الى قائد
السفينة الذى كان يمسك درابزين برج القيادة بكلتا يديه .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر . دارت «كيرتش»
حول الجانب الايمن من «فيدونيسى» ونطق القبطان بكلمة واحدة
فقط . فانطلق طوربيد من جهاز الاطلاق كظل اسود ، وانشق خط
مزبد على سطح الماء المموج قليلا واصاب جسم «فيدونيسى» من
الوسط تماما ، فارتفع ، وتحطم الى نصفين . وتطاير جبل اشعث

من الماء والزبد من اعماق البحر ، وسرت فرقعة بعيدا فى البحر .
وحين سقط جبل الماء لم تعد «فيدونيسى» على سطح الماء . لا شىء
غير الزبد . وهكذا بدأ الاغراق .

فتحت فرق النسف صمامات كينجستون والمنزلقات فى
المدمرات ، وخلعوا كل كوى الاضاءة فى الطبقة السفلى ، وقبل ان
يغادروا السفينة الغارقة الى القارب احرقوا فتيل المفرقعة لينسفوا
بعبوة من عشرة ارطال الطوربينات والسلندرات . اختفت المدمرات
سريعا تحت الماء العميق . وبعد خمس وعشرين دقيقة كان المجرى
الخارجى خاليا .

تقدمت «كيرتش» باقصى سرعتها نحو «سفوبودنايا روسيا»
واطلقت الطوربيدات . رفع البحارة قبعاتهم ببطء . اصاب الطوربيد
الاول مؤخرة السفينة . وترنحت المدرعة مغمورة بسيول الماء .
وسقط الثانى على الجانب ، فى الوسط . ومن خلال سحابة الزبد
والدخان كان الصارى يُرى متارجحا . كافحت المدرعة ، كالكائن
الحى ، اكثر عظمة وسط البحر الثائر والانفجارات الهادرة . ونزلت
الدموع من عيون البحارة . وغطى سيميون وجهه بكفيه . . .

وجف جسم القائد كوكيل كله فى تلك اللحظات ، ولم يبق منه
غير انفه الكبير ، متجها نحو السفينة الهالكة . وانفجر الطوربيد
الأخير ، وانقلبت «سفوبودنايا روسيا» على الكيل . . . وقامت بجهد
آخر ، وكأنها ترتفع عن الماء ، وغاصت سريعا الى القاع فى دوامة
من الزبد . . .

غادرت «كيرتش» مكان الهلاك الى توابسيه باقصى سرعتها .
وعند الصباح انزل بحارتها الى زوارق . وبعد ذلك ارسلت «كيرتش»
هذه البرقية :

«الى الجميع . . . انا هالكة بعد ان اغرقت جزءا من سفن
اسطول البحر الاسود التى اعتبرت هلاكها اشهى من عار الاستسلام
الى المانيا . المدمرة «كيرتش» .

فتحت المدمرة صمامات كينجستون ، ودمرت المحركات ،
وغرقت على عمق خمس عشرة قامة .

تشاور سيميون كراسيلنيكوف مع رفاقه على الساحل : الى
اين التوجه الآن ؟ وعرضت اقتراحات ، واتفقوا على الذهاب الى

استراخان ، الى الفولغا ، حيث قيل ان شاخوف يشكل اسطولا نهريا حربيا لمحاربة البيض .

كان جيش تامان تحت قيادة كوجوخ يحاول شق طريقه الملتوى الى اعلى كوبان سالكا الدروب الجبلية او بلا درب ملاحقا من قبل العدو ، محاطا بالقرى القوزاقية المنتفضة .

كان الطريق يمتد عبر نوفوروسييسك التى احتلها الالمان بعد اغراق الاسطول . وصلت طوابير تامان بصورة مفاجئة ، ومرت القوات خلال المدينة منشدة الاناشيد . ولم يفهم الالمان نيتها ، فانطلقوا الى السفن ، واطلقوا القذائف من المدافع البحرية على الطابور الاخير ، وعلى القوزاق السكارى المحتدين الذين كانوا فى اعقابه .

وللحيطة انسحب الالمان من المدينة ، وبعد ان شق كوجوخ طريقه محاربا وغادرها ، احتلها القوزاق ومن بعدهم قوات البيض النظامية . وتعرضت المدينة للنهب الشامل .

وشُنِق البحارة والجنود الحمر ، واهل المدينة المعدمون على اعمدة التلغراف دون محاكمة . وحمل الحوذية ثلاثة آلاف جثة فى تلك الايام الى البحر . واضحت نوفوروسييسك ميناء للبيض .

بلغ جيش تامان توابسيه سالكا الساحل الذى تفشت فيه المجاعة ساحبا وراءه قوافل خمسة عشر الف من اللاجئين . ومن تلك المدينة اتجه صوب الشرق . وتعقبه رجال دنيكين ، وكانت جميع الممرات الجبلية والمرتفعات الى الامام يحتلها المنتفضون . وكانت فى كل يوم معركة ضارية . ولكن الجيش سار مريقا دماءه متناقصا بالمناوشات والموت جوعا ، نازلا الى الوهاد ، صاعدا الممرات الجبلية والتلال الشديدة الانحدار ، متضائلا ، شاقا طريقه .

وذات يوم جلبوا الى كوجوخ جنديا احمر اسيرا اطلق سراحه الجنرال بوكروفسكى ومعه رسالة كتبت بصراحة عسكرية :

«انت ، ايها الوضيع ، دنست جميع ضباط الجيش والاسطول الروسى لأنك قررت الانضمام الى صفوف البلاشفة واللصوص والصعاليك . كن على علم بأن النهاية آتية لك ولجميع صعاليكك . امسكناك ، ايها الوضيع بأيد قوية ، ولن نتركك مهما كان . فاذا اردت الرافة ، اى ان ينتهى الامر بارسالك الى سرايا المحكومين ،

فانا آمرك بتنفيذ امرى التالى : الق جميع سلاحك اليوم ، وسر بالعصابة المنزوعة السلاح الى مسافة اربعة او خمسة فراسخ غرب محطة بيلوريتشينسكايا . وحين ينفذ ذلك ابلغنى فورا فى كشك السكة الحديدية الرابع . . .»

كان كوجوخ ، وهو يقرأ الرسالة ، يشرب الشاى من علبة صفيح من المعلبات . ونظر الى الجندى الاحمر الحافى ذى القميص غير المحزم ، الواقف امامه واجما . وقال له :

«قذر انت ، يا اخ . كيف تسلم لى مثل هذه الرسائل ؟ اذهب الى وحدتك . . .»

فى تلك الليلة وجه كوجوخ للجنرال بوكروفسكى ضربة شديدة . اكتسحه وطارده بالخيالة . واقتحم بيلوريتشينسكايا وخرج من الحصار . وفى نهاية ايلول وصل جيش تامان بالقرب من ارمافير التى كان يحتلها الدنيكيون ، واستولى عليها بهجوم عاصف ، والتقى بفلول جيش سوروكين فى قرية نيفينوميسكايا .

كان سوروكين ، بعد ان فقد تأثيره فى الجيش بعد اندحاره عند فيسيلكى ويكاترينودار ، وصحا من سكرة المجد العسكرى ، واحنقته الاخفاقات ، يتراجع اكثر فاكثر نحو الشرق ، دائرا كقشة فى دوامة ما كان يسمى قبل حين فرقا والوية وافواجا . والآن اضحت هذه جماعات تهرب عند الطلقات الاولى من العدو . وكان الجنود يدمرون كل شىء فى طريق تراجعهم . وكانت تشغلهم فكرة واحدة ، هى ان يتخلصوا من الموت المسلط فوق رؤوسهم ، والهروب الى اى مكان . وكانت اعداد هائلة من الجنود الفارين يجوبون سهوب تيريك ، على الطريق القديم للشعوب الذى تعالت فيه الروابى المغطية بالافسنتين .

خرج بعد معركة يكاترينودار زهاء مائتى الف من القوات واللاجئين . والذين بقوا قتلوا وشنقوا وعذبوا من قبل القوزاق . وفى كل قرية قوزاقية كانت الجثث تتدلى من اشجار الحور الهرمية . وصاروا ينتقمون من الحمر الآن بلا رافة ، غير خائفين من عودتهم . وفى انحاء الاقليم كله كانوا يَسِمون بالنار مجرد اسم البلاشفة .

كان سوروكين وليد الثورة . وكان يفهم بغريزة الحيوان ارتفاعاتها وهبوطاتها . ولم يوجه التراجع ، فقد كان ذلك عبثا .

فان العفوية نفسها كانت تسعى نحو الشرق ، وتتوقف حين يضعف اصرار البيض على المطاردة .

ولم يبق له الا ان ينظر بوحشة فى نافذة عربة القطار الزاحفة فى السهوب اللافحة ، خلال روابى لشعوب البلازغيين والسيلت والتوتونيين والسلاف والخزر القدامى . . . وكان حرس خاص يحرس قطاره لأن الذين كانوا يمرون به كانوا يهتفون :

– يا اخوان ، الامراء خانونا ، وباعونا ليشربوا بثمننا . اقتلوا امراء وحداتكم ، مثلما قتلنا امراء وحداتنا .

وكان رئيس الاركان بيلياكوف ياتى الى المقصورة ويتحسر ، ويبدأ يقول بحذر كلمات غامضة عن استحالة الاستمرار فى القتال . «للثورة مراحلها – كان يكرر ذلك باستمرار ، ممررا كفه على جبينه العريض – انقضى النهوض الثورى ، والآن تقف ضدنا القوى العفوية . نحن لا نقاتل الضباط فقط ، بل الشعب كله . يجب انقاذ مكاسب الثورة فى الوقت المناسب . . . على الاقل بسلام مهادن . . .» وكان يستشهد بامثلة مقنعة من التاريخ .

فكان سوروكين يكتفى بالرد على ذلك : «بكم تريد ان تشترينى ، يا وغد ؟» لو وقع دنيكين الآن فى يده لأكله حيا . ولكن الغيظ اكثر ما يحتدم فى قلبه على رفاقه اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية للبحر الاسود الذين هربوا من يكاترينودار الى بياتيغورسك . كانوا لا يعرفون سوى ان «يبحثوا عن اجراءات تكبح نزعات سوروكين الدكتاتورية . . .» لم ينفذوا الاوامر الملحة ، وتدخلوا فى كل شيء ، وانسلوا بصاحبهم ماركس الى قلب القائد العام .

وظهرت زينكا الشقراء مرة اخرى فى عربة صالون سوروكين . وذلك باهتمام من بيلياكوف . وكانت زينكا ، كما كانت ، وردية مغرية ، سوى ان صوتها قد جَش بعض الشيء ، وقد سرقت بلوزاتها الحريرية وقيثارتها فى طابور العربات . وصار سلوكها مع القائد العام اكثر استقلالية من ذى قبل .

وفى الليل ، حين كانت تسدل الستائر فى الصالون ، وتستولى على سوروكين نشوة السكر السوداوية ، كانت زينكا تعزف على البلالايكا قليلا ثم كانت تتفوه بنفس الهراء الذى يتفوه به

بيلياكوف : عن نهاية الثورة الوشيكة ، وعن سيرة نابليون اللامعة ، الذى استطاع ان يقيم جسرا من الارهاب اليعقوبى الى الامبراطورية . وكانت عينا سوروكين تاخذان باللمعان ، ويخفق قلبه دافعا الدم الحار الى دماغه ممزوجا الى النصف بالكحول . . . وكان يزيح الستارة ، وينظر فى النافذة ، فى ظلام الليل ، حيث كانت تتراءى له التماعات خياله المحموم .

وضعف ضغط البيض . وتشبث الجيش الاحمر اخيرا بالضفة اليسرى لكوبان الاعلى ، وتخندق هناك . وفى تلك الاثناء عاد دميترى شيليست قائد الفرقة الحديدية مع سيارات لورى من تسارتسين عبر سهوب قيرغيز . وقد جلب معه مائتى الف خرطوش وأمر القوات القفقاسية بالتحرك نحو الشمال لمساعدة تسارتسين التى يحاصرها الجيش الابيض للاتمان كراسنوف .

رفض سوروكين تنفيذ الأمر رفضا قاطعا . وثارت الافواج الاوكرانية التى ضجرت من القتال فى ارض الاغراب ، وانسحبت من الجبهة ، غير مكترثة باستمالات وتهديدات سوروكين . وشيليست وحده ، من مواليد بولتافا ، استطاع ان يوقف جزءا من القوات . وقد تحدث اليهم بتعقل وعلى مهل ، كفلاح لفلاحين ، وامتدحهم وامتدح نفسه . ورأى الاوكرانيون انه ليس شخصا اعتياديا ، بل احد كبارهم ، واطاعوه . وقادهم دميترى شيليست الى المعركة ، فحطموا طابورا قويا من الضباط قرب نيفينوميسكايا . وقد كرهه سوروكين كرها شديدا من جراء ذلك .

هنأه بالنصر ، وعينه قائدا لجزء من الجبهة ، وفى نفس اليوم اصدر امرا سريا بتجريد وحداته من السلاح ، ورمى شيليست وجميع امراء وحداته بالرصاص . عرف شيليست بهذا الأمر السرى فترك الجبهة مع فرقته الحديدية التى اكملها بالاوكرانيين ، وسار عبر السهوب الملحية والرمال الوعثاء الى تسارتسين منفذا أمر المجلس العسكرى الثورى للجيش العاشر . عندئذ اعتبره سوروكين خارجا على القانون ، والزم كل جندى احمر باطلاق الرصاص عليه ، وحظر على كل شخص ، مهما كان ، ان يجهز الفرقة الحديدية بالعلف . الا ان شيليست خرج ، ولم ترتفع يد واحدة لاطلاق الرصاص عليه . وحين كان يعوزه العلف فى الطريق كان يدخل القرية ، ويخلع قبعته ،

ويطلب ، والدموع في عينيه ، من لجنة القرية التنفيذية التبن والشوفان والخبز ، ويشرح بأنه ليس خائنا ، بل الخائن قاطع طريق الابيض ، هو القائد العام سوروكين .

وسرعان ما وقعت ضربة اخرى على غرور سوروكين : فقد طلع كوجوخ من وراء الجبال ، بعد ان اعتبر هالكا ، واحتل ارمافير على الماشي ، بعد ان القى البيض وراء كوبان . وكان التامانيون ينفذون اوامر سوروكين على مضض ، او يهملونها تماما . وصار جيش تامان الذى تمرس في اصعب مسيرة العمود الفقرى في جيش سوروكين المهلهل واتخذ مواقع قوية في خط ارمافير – نيفينوميسكايا – ستافروبول .

كان الفصل خريفا ، وجرت معارك ضارية دامية في سبيل الاستيلاء على مدينة ستافروبول الغنية . وكان جيش تامان يقاتل في المقدمة في كل مكان .

كما ظهرت للدنيكيين قوة جديدة – النصير الابيض شكورو السفاح النذل الذى شكل عصابة من الاوباش .

نقل سوروكين مقر قيادته الى بياتيغورسك . ولم يعد يظهر في الجبهة ، وحلت انظمة جديدة ، ونفذت سلطة موسكو الى القفقاس ، وقويت على مر الايام . وبدأ ذلك حين قررت لجنة الاقليم الحزبية تشكيل المجلس العسكرى الثورى . ولم يعارض سوروكين موسكو ، واضطر الى الخضوع . وتالف المجلس العسكرى الثورى من عناصر جديدة . وانتقلت سلطة القائد العام الى الهيئة العسكرية العليا . وادرك سوروكين ان حياته تحت الخطر ، فاخذ يكافح بجنون .

كان في اجتماعات المجلس العسكرى الثورى يجلس كئيبا صموتا ؛ وحين يتكلم كان يصر على كل كلمة . وكان يفلح في الحصول على ما يريد ، لأن الوحدات المخلصة له كانت متركزة في بياتيغورسك . وكانوا يخافونه ، وليس بدون سبب . وكان يبحث عن فرصة لاظهار سلطته ، ويجدها . اعلن مارتينوف قائد الطابور الثانى في جيش تامان في مؤتمر القوات في ارمافير انه يرفض تنفيذ الاوامر العسكرية للقائد العام . عند ذاك طلب من المجلس العسكرى الثورى ان يرمى مارتينوف . وانذر بشيوع الفوضى التامة في الجيش .

وكان من المستحيل انقاذ مارتينوف . فاستدعى الى بياتيغورسك ، واعتقل ، ورمى بالرصاص في الساحة امام الملأ . وهبت العاصفة في افواج تامان ، واقسموا على الثار له .

شكلت هيئة اركان جديدة للقائد العام ، وابعد بيلياكوف كليا ، ولم يدافع سوروكين عنه . سلم رئيس الاركان الامور والاموال وذهب الى شقة صديقه السابق للاستيضاح . كان سوروكين يذرع الحجرة واضعا يديه وراء ظهره . كان مصباح نفطى يشتعل على المنضدة ، حيث كان يوجد طعام لم يُمس ، وزجاجة فودكا قد شرب منها قليلا . وكان جبل ماشوك الكثيف الاشجار يبدو وراء النافذة قاتما في الشفق الجاف . . .

رمق سوروكين الداخل بنظرة سريعة ، وتابع سيره . جلس بيلياكوف الى المائدة ، ونكس راسه . توقف سوروكين امامه ، وهز كتفه .

– هل تريد فودكا ؟ آخر قدح – وقهقه ببحة ، وصب قدحين بسرعة ، ولكنه لم يشرب ، وعاد يذرع الحجرة . – انتهت حياتك ، يا اخ . . . ونصيحتى ان ترحل من هنا . . . لن ادافع عنك . . . غدا ساعين لجنة للتدقيق في شؤونك . فهمت ؟ وبكل احتمال سنرميك . . .

رفع بيلياكوف وجهه اليه رماديا مهزولا ، ومرر كفه على جبينه ، وسقطت يده . وقال :

– انت تافه . . . انسان زهيد . من العبث اننى فتحت لك كل قلبى . انت وغد . . . بينما اعتبرتك نابليون . . . قملة ! . .

تناول سوروكين قدحه ، واصطكت اسنانه على زجاجة ، وشرب . وتمشى واضعا يديه في جيبى سترته الجركسية . ثم توقف بحدة :

– لن يكون هناك تدقيق . فارحل الى الشيطان . واذا كنت لم اطلق الرصاص عليك الآن ، فاعلم ان ذلك من اجل خدماتك . . . وقدر ذلك . فهمت ؟

انفتح منخراه لاستيعاب الهواء ، وازرقت شفتاه ، وارتجف كيانه كله كابحا غيظه .

كان بيلياكوف يعرف سوروكين حق المعرفة . اخذ يتراجع نحو الباب غير صارف بصره عنه ، وصفق الباب وراءه بسرعة . .

وخرج من الباب الخلفى عبر الفنـاء ، واختفى من بياتيغورسك فى نفس الليلة .

ظل سوروكين يشرب الكاس تلو الأخرى ساعة بعد ساعة ، وفكر الليل بطوله . ان صديقه السابق سممه بقطرة من الازدراء ، الا ان السم كان فظيعا ، والعذابات لا تطاق . . .

غطى وجهه بيديه . ان بيلياكوف على حق ، على حق . . . كان فى حزيران نابليونى الطراز واذا بـه يؤول الى اجتماعات فى الهيئـة العسكرية العليا ، والتطلع الدائم الى الحزبيين فى موسكو . . . لم يقل بيليـاكوف كلمات من عنده . . . فذلك ما يقولـه النـاس فى الجيش ، فى الحزب . ودنيكين ، آوه ، دنيكين ! وتذكر مقالة صغيرة فى جريدة للبيض فى يكاترينودار ، مقابلة صحفية مع دنيكين ، ونفذت الذكرى الى اعماق نفسه بسمها : «ظننت ان امامى اسدا ، ولكن تبين من الاسد كلب جبان ، يلبس فروة أسد . . . وهذا ، على اية حال ، لا يدهشنى . فان سوروكين كان وما يزال ضابطا قوزاقيا جاهلا برتبة صغيرة» . آوه ، دنيكين ! انتظر . . . وسيأتى وقت . . . تندم فيه .

وعصر سوروكين يديه ، وصرف باسنانه . لو يندفـــع الى الجبهة ، ويسوق الجيش كله ، ويقتحم ، ويطارد ، ويسحق الضباط بسنـابك الخيول ، ويحرق القرى من الجهـات الاربع ، ويندفع الى يكاترينودار . . . ويأمر بان يمثل دنيكين امامه : ان يؤخذ من سريره بملابسه الداخلية . . . «الست انت ، يا انتون ايفانوفيتش تدربت على الكتابة فى الجريدة حول الضابط القوزاقى ذى الرتبة الصغيرة ؟ انه امامك ، صاحب المهابة . . . الآن هل نقطع من ظهرك سيورا ، ام نجلدك الف وخمسمائة جلدة ؟»

وأنّ سوروكين نافضا عنـه هذيان الحلـم الثقيل . . . كان الواقع مظلما ، مبهما ، منذرا مهينا . . . وكان يجب البت فى الامر . ان رئيس الاركان وصديقه القديم قدم له اليوم آخر خدمة . . . تقدم سوروكين من النافذة ، حيث كانت نسمة خفيفة تحمل الهفيف الجاف للسهوب المغطاة بالافسنتين . ولاح فى السماء الكئيبة شريط قرمزى قاتم لفجر الصباح الذى لم يسطع بعد . ومرة أخرى ظهر جبل ماشوك الضخم الليلقى . . . وتبسم سوروكين بسمـة هازئة . شكرا ، يا بيلياكوف ، على اية حال . . . لا بأس . ليذهب التردد والتخلخل الى

الشيطـان . . . وفى تلك الليلـة قرر سوروكين ان «يقـامر بآخر رصيد» .

بعد ايام قليلة ، وترددات طويلة صوت الملجس العسكرى الثورى لجيش القفقاس اخيرا الى جانب القيام بهجوم . نقلت قواعد المؤخرة الى سفياتوى كريست ، وتمركز الجيش فى نيفينوميسكايا ، ومنها كان عليـه ان يتحرك نحو ستافروبول واستراخـان ليتصل بالجيش العاشر الذى كان يحـارب بالقرب من تسارتسين . وكانت هذه هى نفس الخطة التى حملها دميترى شيليست من تسارتسين .

وعهد الى جيش تامان باحتلال ستافروبول . وتحرك كل شىء : قواعد المؤخرة تحركت الى الشمال الشرقى ، والوحدات الاساسية نحو الشمال الغربى . وشد المرشدون السياسيون والدعاة اوتار اصواتهم وهم يرفعون معنوية الوحدات ، طارحين الشعارات المثيرة . وخرج رؤساء الطوابير الى الجبهة . وخلت بياتيغورسك ، ولم يبق فيهـا غير الحكومة – اللجنـة التنفيذيـة المركزية لجمهورية البحر الاسود وسوروكين باركانه وحرسه . وفى معمعان الحركة لم يلحظ احد ان الحكومة قد تركت لحسن نية القائد العام .

وفى المساء ، اثناء عودة سوروكين الى داره بصحبة مرافقـه اطلق العنان لحصانه ، وانعطف من منتزه المدينة نحو الجبل ، وصدم بحصانه رجلا مكور الكتفين عريض المنكبين فى سترة جلدية . ترنح الرجل ، وامسك بوركه حيث كان يتدلى مسدس . غضن سوروكين حاجبيه بحنق ، وعرف انه غيمزا . وكان يجب ان يكون فى الجبهة . . . انزل غيمزا يده عن غلاف مسدسه . وبدت غريبة نظرة عينيه نصف المختفيتين تحت الحـاجبين . . . مثـل نظـرة بيليـاكوف فى آخـر حديث . . . وفجأة لاح صف اسنـان ابيض ضيق على وجـه غيمزا الحليـق المسـود مثل اعلى الحذاء . وجب قلب سوروكين : وهذا ايضا يضحك ! . .

لكز سوروكين حصانه بساقيه بقوة حتى انطلق الحصان ناخرا واندفع به على الحجارة المرنة الى الاعلى وسط قطيع من الاغنام عائد من المرعى ثاغيا مؤرجح الألية ناشرا رائحته فى الجو . كان ذلك فى ليلـة الثـالث عشر من تشرين الاول . استدعى سـوروكين رئيس حرسـه ، فهمس هذا ، وهو ينظر فى النافذة ، ان غيمزا بالفعل قد

وصل اليوم الى بياتيغورسك ، وطلب من اللجنة التنفيذية المركزية استدعاء سريتين من الجبهة للحراسة . . . «حتى الاحمق يفهم ، ايها الرفيق سوروكين ، ضد مَنْ تتخذ هذه الاجراءات . . .»

وبينما كانت نجوم الخريف تتالق بكل بهائها فوق بياتيغورسك الهاجعة القاتمة ، وفوق جبل ماشوك دخل حرس سوروكين بهدوء وبلا جلبة الى شقة روبين رئيس اللجنة التنفيذية المركزية وشقتى فلاسوف ودونايفسكى العضوين فيها ، والى شقة كراينى عضو المجلس العسكرى الثورى ، وشقة روجانسكى رئيس اللجنة الاستثنائية ، واخرجوهم من اسرتهم ، وطلعوا بهم من المدينة والحراب مصوبة الى ظهورهم ، الى ما وراء سدة السكة الحديدية ، وهناك رموهم بالرصاص دون ان يقدموا لهم اية حجج .

وكان سوروكين فى تلك الاثناء واقفا على منبسط عربته فى محطة ليرمنتوفو . وقد سمع الطلقات – خمس ضربات فى سكون الليل . ثم سمع انفاسا ثقيلة ، واقبل رئيس الحرس لاعقا شفتيه . فساله سوروكين «اذن ؟» فرد رئيس الحرس «قضى عليهم» وعدد اسماء المقتولين .

تحرك القطار . الآن كان القائد العام يخف الى الجبهة على جناحين . ولكن نبأ الجريمة الشنعاء طار اسرع منه . فان بعض الشيوعيين من اللجنة الاقليمية الذين حذرهم غيمزا فى الامس خرجوا فى سيارة من بياتيغورسك قبل سوروكين وفى الثالث عشر من الشهر دعوا الى انعقاد مؤتمر جبهوى فى نيفينوميسكايا . وبينما كان سوروكين يظهر امام وحدات جيشه مهيبا مثل عاهل شرقى محاطا بمئة من الحرس والنافخين بالابواق يعلنون قدومه ، وحامل راية القائد العام يعدو فى المقدمة ، اعلن المؤتمر الجبهوى فى نيفينوميسكايا بالاجماع ان سوروكين خارج على القانون ، وقرر اعتقاله فورا ، وجلبه الى قرية نيفينوميسكايا ، وتقديمه للمحاكمة .

اعلن رجال جيش تامان ذلك للقائد العام وقد فتحوا ابواب عرباتهم المدفئة . عاد سوروكين الى المحطة ، وطلب استدعاء قادة الطوابير . ولم يات احد . ومكث فى المحطة حتى هبوط الظلام . ثم امر بأن يقدم الحصان له ، وعدا مع رئيس الحرس فى السهب .

شاع اضطراب كبير فى المجلس العسكرى الثورى ، حيث لم يبق منه غير ثلاثة اعضاء . فان القائد العام قد اختفى فى السهوب ، والجيش بدلا من ان يهاجم طالب بمحاكمته واعدامه . . . الا ان الآلة المؤلفة من مائة وخمسين الف رجل ظلت تدور ، وكان من المستحيل ايقافها . . . وفى الثالث والعشرين من تشرين الاول بدأ هجوم جيش تامان على ستافروبول صاحبه هجوم مضاد قام به البيض . وفى الثامن والعشرين اعلن جميع قادة الطوابير ان هناك نقصا فى القذائف والعتاد ، واذا لم تجلب لهم فى الغد فان النصر غير مضمون . اجاب المجلس العسكرى الثورى بان لا توجد قذائف ولا عتاد . ف«احتلوا ستافروبول بالسلاح الابيض . . .» . وفى ليلة التاسع والعشرين عين طابوران صاعقان زحفا على قرية تاتارسكايا تحت حماية المدفعية التى كانت تقصف بالقذائف الاخيرة ، وكانت هذه القرية تبعد خمسة عشر فرسخا عن ستافروبول ، حيث كانت تمتد جبهة البيض . اطل على السهب قمر نحاسى كبير بمثابة اشارة لأن الصواريخ لم تكن موجودة . . . وصمتت المدافع . . . سارت صفوف التامانيين نحو خنادق العدو الامامية دون ان تطلق طلقة ، واندفعت فيها . وفى الحال ارتفعت ابواق الفرق الموسيقية ودقت الطبول . وسقطت موجات كثيفة من كلا الطابورين المهاجمين على خط الاستحكام الرئيسى على انغام الموسيقى بدلا من الرصاص والقنابل اليدوية ، سابقة للموسيقيين ، متساقطة بالمئات تحت نيران الرشاشات . تراجع البيض الى التلال ، ولكن حتى هذه التلال احتلت بمد لا يكبح . هرع العدو الى المدينة . ولاحقته وحدات القوزاق الحمراء . وفى صبيحة الثلاثين من تشرين الاول دخل جيش تامان الى ستافروبول .

وفى اليوم التالى شوهد القائد العام سوروكين فى الشارع الرئيسى بصحبة رئيس الحرس ، كان يسير على جواده بهدوء ، الا انه كان شاحب الوجه مطرق العينين . وحين رآه الجنود الحمر فغروا افواههم ، وتراجعوا عنه قائلين : «من هذا الابليس من العالم الآخر ؟ . .»

ترجل سوروكين من فرسه عند مبنى السوفييت ، حيث علقت على الباب لافتة نصف مخلوعة كتب عليها : «مقر اركان الجنرال

شكورو» ، وكان يجتمع فى المبنى النواب واعضاء اللجنة التنفيذية الذين بقوا احياء . وصعد السلم بجسارة ، وسأل الجندى الذى جفل منه : «اين ينعقد الاجتماع ؟» وظهر فى القاعة عند طاولة الرئاسة ، ورفع راسه بشمم ، وخاطب المجتمعين المندهشين الباهتين :

«انا القائد العام ، وقواتى حطمت عصابات دنيكين ، واقامت السلطة السوفييتية فى المدينة وفى المنطقة ، ان مؤتمرا عسكريا اعتباطيا فى نيفينوميسكايا قد اعلنني بوقاحة خارجا على القانون . فمن اعطاه الحق فى ذلك ؟ انا اطالب بتعيين لجنة للتحقيق فى جرائمى المزعومة . ولن اتخلى عن سلطة القائد العام قبل انتهاء اللجنة من التحقيق . . .»

ثم خرج ليمتطى جواده . الا ان ستة من جنود الفوج الثالث من جيش تامان هجموا عليه فجأة عند السلم ، ولووا ذراعيه ، ووضعوهما وراء ظهره .

كافح سوروكين بضراوة وصمت . ضربه آمر الفوج فيسلينكو بقبضة سوطه على راسه صارخا : «هذا جزاء قتلك مارتينوف ، ايها السافل . . .»

واقتيد سوروكين الى السجن . وقلق رجال تامان خوفا من ان يهرب من السجن ، وان يتملص من المحاكمة بطريقة ما . وفى اليوم التالى ، حين جلب سوروكين للاستجواب راى غيمزا قاعدا الى طاولة كرئيس ، فادرك انه الموت . عند ذاك تفجر فى نفسه مرة اخرى الظمأ الى الحياة ، فضرب على الطاولة ، متفوها بفاحش السباب :

– انا يجب ان احاكمكم ، يا قطاع الطرق ! خرق الانضباط ، الفوضى ، ثورة معادية مخفية . . . سأنكل بكم ، كما نكلت بمارتينوف الوغد .

كان فيسلينكو عضو المحكمة جالسا الى جانب غيمزا مبيضا كالورقة ، وقد وضع يده وراء ظهره ، واخرج مسدسا اوتوماتيكيا كبيرا ، وسدده نحو سوروكين مفرغا كل مشطه فيه .

لم يتحقق التقدم اللاحق من ستافروبول الى الفولغا . فان خيالة شكورو الذئبوية قد نفذت الى المؤخرة ، وقطعت جيش تامان عن القاعدة ، عن قرية نيفينوميسكايا . وركز دنيكين كل قواته

محاصرا ستافروبول . وجلبت من كوبان طوابير كازانوفيتش ودروزدوفسكى وبوكروفسكى ، وخيالة اولاغاى ، وفرقة كوبان الجديدة للخيالة التى كان يقودها مهندس التعدين السابق الذى بدأ الخدمة برتبة ضابط صغير فى الحرب العالمية ، وهو الآن الجنرال فرانغل .

وحارب جيش تامان ثمانية وعشرين يوما . وهلكت الافواج تلو الافواج فى الطوق الحديدى للعدو الغنى بالسلاح . وبدأت الامطار ، ولم تكن ثمة معاطف ولا احذية طويلة ولا عتاد . ولا مكان يتوقع ان تأتى المساعدة منه . فان الجزء الباقى من جيش القفقاس ، المقطوع عن ستافروبول قد تراجع الى الشرق .

وترامى التامانيون من جهة الى اخرى فى الطوق . وكانت ضرباتهم رهيبة مريقة للدماء . وسقط القائد كوجوخ صريع الحمى التيفوئيدية . وقتل وجرح احسن امراء وحداته ، عن بكرة ابيهم تقريبا . وفى اواسط تشرين الثانى استطاع التامانيون اخيرا خرق الجبهة . ولم يبق من جيش تامان البطولى غير فلول هزيلة حافية عارية . غادرت ستافروبول وانسحبت باتجاه الشمال الشرقى ، الى بلاغوداتنويه . ولم تلاحق . فقد بدأت الامطار واوقف طقس الخريف السيء هجوم البيض اللاحق .

١٢

قبل عام ، فى تشرين الاول طالبت الشعوب الساكنة فى روسيا بانهاء الحرب . وارتفعت ملايين التوجعات والصرخات بسقوط الحرب ، وبسقوط البرجوازية التى تطيل للحرب ، وبسقوط الفئة العسكرية التى تخوض الحرب ، وبسقوط اصحاب الاطيان الذين يغذون الحرب – واندمجت هذه التوجعات والصرخات فى طلقة مؤثرة قصيرة وجهها الطراد «افرورا» على القصر الشتوى .

من كان يقدر ان يتنبأ بان هذه الطلقة التى خرقت السقف المزين بالتماثيل الرصاصية والمزهريات السوداء لذلك البيت الكريه ، نفذت الى المخدع القيصرى الفارغ بسريره الذى لم يبرد بعد ، الذى كان كيرينسكى يتقلب عليه مصارعا الارق الهستيرى ، من كان يقدر ان يتنبأ ان هذه الضربة التى بدت ختامية ، صوت

الثورة الذى يعلن الحرب على القصور ، والسلام للاكواخ ، ستجوب البلاد الشاسعة كلها من طرف الى آخر منداحة كالصدى ، مشتدة ، متعاظمة ، متنامية ، وتتفجر كالصاعقة .

من كان يتوقع ان البلاد التى القت السلاح من توها ، ستعود فترفعه من جديد ، وترتفع طبقة على طبقة : الفقير على الغنى . . . من كان يتوقـــع ان ينبثق من حفنـــة ضباط كورنيلوف جيش دنيكين الهـائل ، وان تمرد قطـارات التشيكوسلوفاكيين سيشمل بالحرب الف فرسخ فى حوض الفولغا ، وينتقل الى سيبيريا ، ويتنامى الى ملكية كولتشاك ، وان حصارا سيطبق على البلاد السوفييتية بطوق خانق ، وان سدس العالم على الخرائط الجغرافية المطبوعة من جديد ، على الكرات الارضية فى كل بلدان العالم سيرسم كمكان فارغ – غير ملون – بلا اسم ومعلم بخط اسود عريض ؟ . .

من كان يتوقع ان روسيا العظيمة المقطوعة عن البحار ، وعن محافظات الحبوب ، وعن الفحم والنفط ، روسيا الجائعة البائسة التى اجتاحتها حمى التيفوئيد لا تغلب ، ستصك على اسنانها ، وترسل ابناءها مرة بعد اخرى الى المعارك الرهيبة . . . قبل عام كان الناس يهربون من الجبهة ، وبدت البلاد وكأنها تتحول الى مستنقع فوضوى لا شكل له ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا . فقد ظهرت فى البلاد قوى التماسك الجبارة ، وطلع فوق صغائر الحياة حلم العدالة . وظهر اناس خارقون لم يكن لهم مثيل من قبل ، وجرى الحديث فى كل مكان عن افعالهم بدهشة وفزع .

وهزت الفتن البلاد السوفييتية من الداخل . فى وقت واحد مع الانتفاضـة فى ياروسـلافل (التى انتشرت الى مـوروم وارزامـاس وروستـوف فيليكى وريبنسك) تمـرد فى موسكو «الاشتراكيون-الثوريون اليساريون» . وفى السادس من تموز ذهب اثنان منهم الى السفير الالمانى الكونت ميرباخ ومعهـم هويـة عليهـا توقيع مزور لدزرجينسكى ، واثناء الحديث اطلقا الرصاص على السفير ، وقذفا قنبلة . وقد قتلت السفير الرصاصة الاخيرة التى اصابت علباءه حين هرب من الحجرة . وفى مسـاء ذلك اليوم ظهـر بحـارة وجنود حمر مسلحون فى منطقة تشيستيه برودى وبولفار ياوزه . وراحوا يوقفون السيارات والسابلـة ، ويفتشونهـم ، ويأخذون السلاح والنقود ،

ويسوقونهم الى دار موروزوف فى شارع جانبى تريوخسفياتيتلسكى حيث يوجد مقر قائد قوات الانتفاضة . وفى تلك الدار وقع فيليكس دزرجينسكى نفسه رهن الاعتقال ، وكان قد جاء اليها بحثا عن قاتل ميرباخ . وظلت الاعتقالات تجرى المساء كلـه وجزءا من الليـل . واحتلت دائرة التلغراف ، الا انه لم يكن يجراون على القيام باعمال حاسمة ضد الكريملين . وكان المنتفضون حوالى الفين ، وقد اقاموا جبهة من نهر ياوزه الى تشيستيه برودى .

وحمت الكريملين فى تلك الليلة التلفونات والاسوار القديمة . وكانت القوات مرابطة فى معسكرات فى حقل خادينسكويـه ، وكان جزءا منها فى اجازة بمناسبـة عيد ايفان كوبالا . وصار الجو داخل الكريملين عصبيا . وقبيل الصباح امكن جمع زهاء ثمانمائـة من المقاتلين ، وثلاث بطاريات ومدرعات ، وفى الساعة السابعة صباحا قـامت القوات بهـجوم ، ودمرت بالمدافـع دار موروزوف ، مقر الانتفاضة . وحصل الكثير من الضجيج ، والقليل من الضحايا ، فقد هرب «جيش» الاشتراكيين-الثوريين اليساريين عن طريق الشوارع الفرعية والافنية الخلفيـة باتجاه غير معروف . واختفى من موسكو قائده بوبوف ، الشاب ذو الشفتين الغليظتين والعينين المخبولتين . وبعد عام ظهر عند ماخنو كرئيس للاستخبارات ، واشتهر بالقسوة المرهفة .

وقضى على العصيان فى موسكو وعلى الفولغا . الا ان العصيان كان يبزغ فى كل مكان : تمرد ضد البلاشفة ، وضد الالمان ، وضد البيض . غارت القرى على المدن ونهبتها . وطوحت المدن بالسلطة السوفييتيـة . وبدا عهد الجمهوريـات المستقلـة ، وكانت تنهض وتنفجر مثل الفطر ، وكان بعضها صغيرا يمكن ان تقطعه على فرس ما بين فجر وفجر .

وبذلت السلطة السوفييتية قصارى جهودها لتكبح الفوضوية . وفى تلك الآونة وجهت اليها ضربة فظيعة : ففى الثلاثين من آب ، وبعد اجتماع عقد فى مصنع ميخلسون اطلقت الاشتراكية-الثورية اليمينية كابلان النار على لينين ، وجرحته جرحا بليغا . (وكانت من منظمة الرجل ذى الدبوس – الجمجمة) .

وفى الحادى والثلاثين ظهرت فى شوارع موسكو فصيلة من الذين يرتدون الجلد الأسود من رأسهم حتى القدم ، وسارت فى طابور وسط الشارع حاملة معها راية على عودين كتب عليها كلمة واحدة : «الارهاب» . . . وظلت الاجتماعات العامة منعقدة فى مصانع موسكو وبتروغراد ليلا ونهارا . وطالب العمال بأكثر الاجراءات حزما .

وفى الخامس من ايلول ظهرت صحف موسكو وبتروغراد بعنوان مشؤوم :

الارهاب الأحمر

«. . . يطلب من جميع السوفييتات على الفور اعتقال الاشتراكيين-الثوريين اليمينيين ، وممثلى البرجوازية الكبيرة والضباط ، واعتبارهم رهائن . . . وعند محاولة الهرب او القيام بانتفاضة اللجوء فورا الى اعدامهم الجماعى بدون قيد او شرط . . . فان حاجتنا تدعو الى تامين مؤخرتنا فورا والى الأبد من الاوغاد البيض . . . لا يجوز اى تاخير فى القيام بالارهاب على نطاق جماعى . .»

فى تلك الايام كان يجرى تقتير فى الكهرباء فى المدن ، وكانت احياء كاملة بلا نور . وكان سكان الشقق الموسرة ينظرون بفزع الى الشعرات الضاربة الى الحمرة الآخذة بالتوهج فى مصابيحهم الكهربائية . . . وكانت فصائل العمال المسلحة تدخل الى هذه البيوت المضاءة اضاءة احتضار . . .

وانقضى عام ١٩١٨ مندفعا كالزوبعة الوحشية فوق روسيا . وكان الماء داكنا فى سحب الخريف الجهمة . وكانت الجبهة فى كل مكان ؛ فى الشمال الاقصى ، وفى الفولغا قرب قازان وفى حوض الفولغا الاسفل قرب تسارتسين ، وفى شمال القفقاس ، وعلى حدود المناطق المحتلة من قبل المانيا . ولآلاف الفراسخ كانت الخنادق تمتد وتمتد . ولم يدخل الخريف الزاحف الفرحة على قلوب المقاتلين ، وكثيرون فكروا ، وهم ينظرون الى السحب الآتية من الشمال ، بقراهم ،حيث كانت الريح تقلع القش من السطوح ، والقراص ينمو فى الافنية ، وتتعفن البطاطس فى حدائق الخضروات . وما من نهاية ترى للحرب .

والمستقبل حافل بالليالى الدامسة وعود الاضاءة القديم يضىء البيوت التى ينتظر اهلها عودة الآباء والابناء وما من عودة ، ويسمعون روايات عن امور رهيبة تجعل الاطفال يبكون وهم على الرفوف فوق المواقد .

بعد القضاء على التمردات ، وكرد على الوهن الخريفى جندت اللجنة المركزية اصلب الشيوعيين فى موسكو وبتروغراد وايفانوفو-فوزنسينسك ، وارسلتهم الى الجيش . واتجهت قطارات الشيوعيين الى الجبهات محطمة فى طريقها تخريبات الطرق الحديدية المتعمدة وغير المتعمدة . ونفذ الارهاب الصارم الى الجيش . وتكونت من الفصائل الممزقة افواج تخضع لارادة واحدة هى ارادة المجلس العسكرى الثورى . وصارت الشجاعة والبسالة الزاما لكل واحد . واعتبر الجبن صنو الخيانة . وتحولت الجبهة الحمراء الى الهجوم . واستولى بضربة قصيرة على قازان ، ومن بعدها سامارا . وهربت فصائل البيض مذعورة امام الارهاب الاحمر . وبالقرب من تسارتسين ، حيث كان ستالين عضو اللجنة العسكرية الثورية للجيش العاشر حدثت معركة هائلة دامية ضد جيش القوزاق البيض للاتمان كراسنوف الذى كانت القيادة العامة الالمانية تموله وتحرضه . . .

ولكن كل ذلك لم يكن الا بداية لكفاح عظيم واستعراضا للقوى قبيل الاحداث الرئيسية لعام ١٩١٩ .

ادى ايفان ايليتش تليغين المهمة التى اوكلها له غيمزا . وعين اثناء المعارك قرب قازان آمرا لفوج ، وكان من اوائل الذين شقوا طريقهم الى سامارا . وفى يوم خريفى حار سار على حصان هزيل اشعث على رأس فوجه فى شارع دفوريانسكايا . ومر بالساحة التى فيها نصب الكسندر الثانى الذى كانوا يخفونه على عجل مرة اخرى بالالواح الخشبية . . . وهذا هو البيت الثانى بعد المنعطف . . . وخفض ايفان ايليتش رأسه ، فقد كان يعرف ماذا سيرى . ومع ذلك فقد عصرت الوحشة قلبه . كان زجاج نوافذ شقة الدكتور بولافين فى الطابق الثانى محطما كله . وكان يرى جيدا من على صهوة حصانه الباب من خشب الجوز ، الذى ظهرت منه داشا حينذاك ، وكان ذلك فى حلم ، وغرفة المكتب ، ودولاب الكتب المقلوب ، وصورة منديلييف المعلقة على الجدار بانحراف وقد تهشم زجاجها . . . اين داشا ؟ ماذا حصل لها ؟ لا احد ، بالطبع ، كان يستطيع ان يجيب عن ذلك .